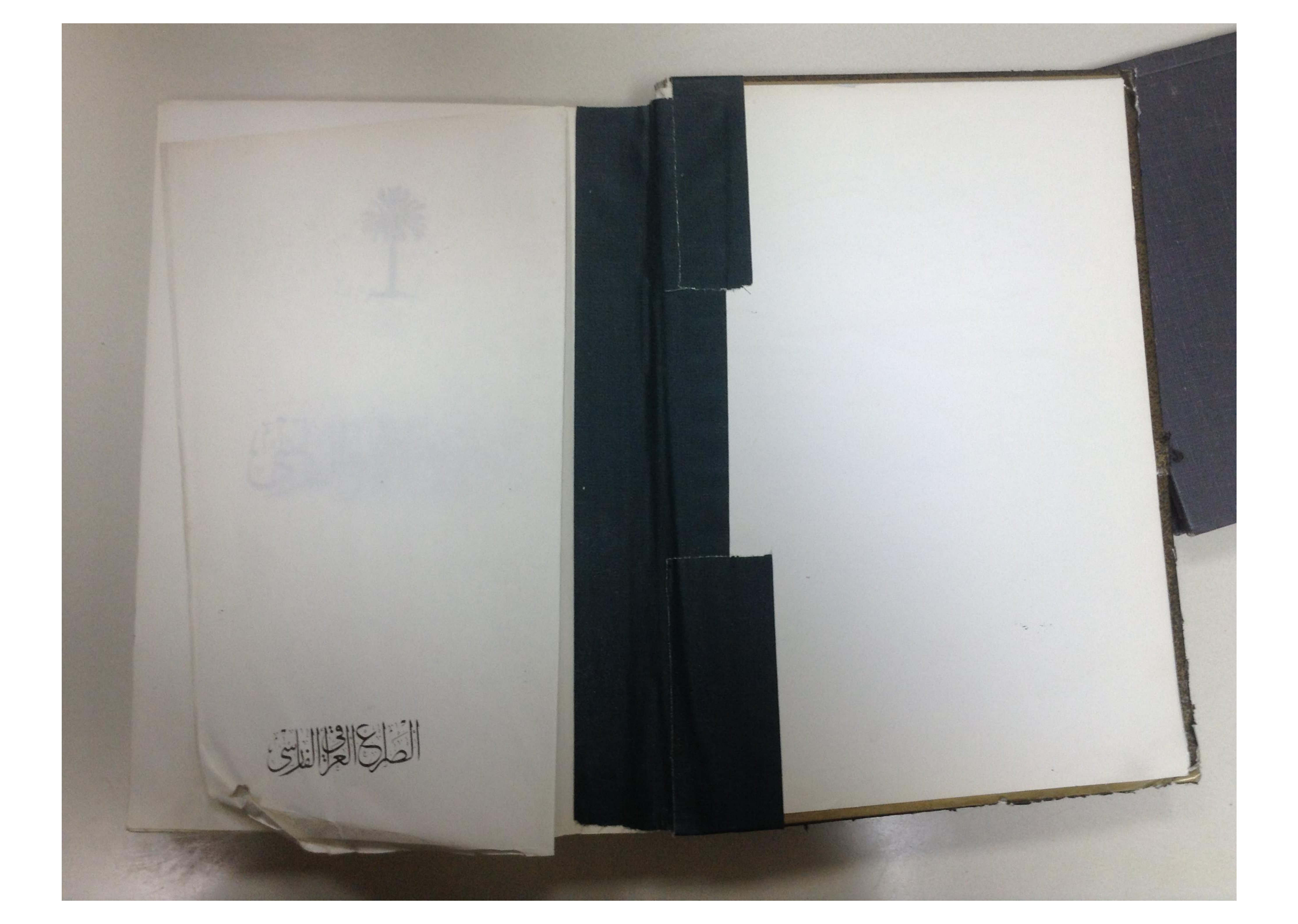
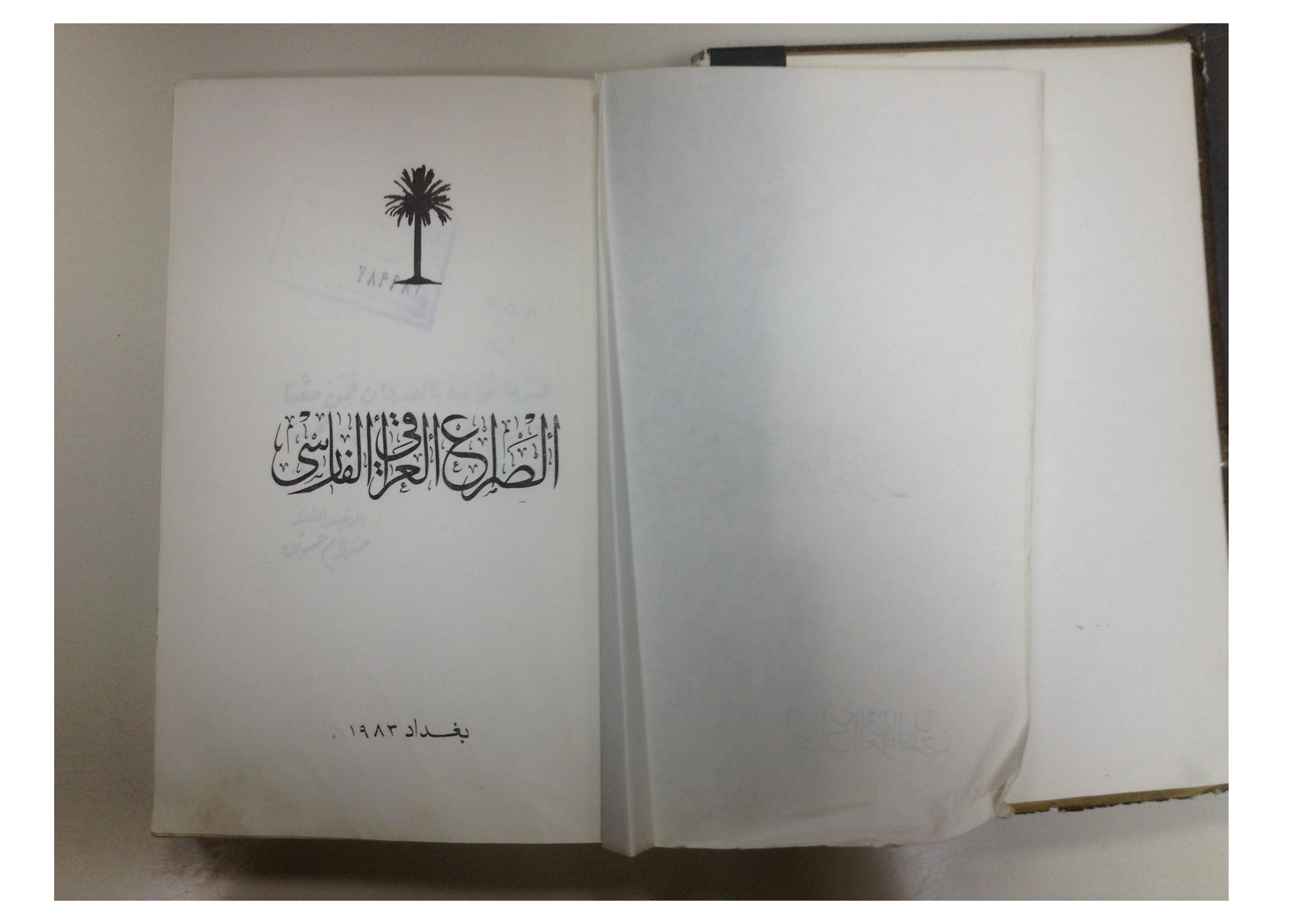
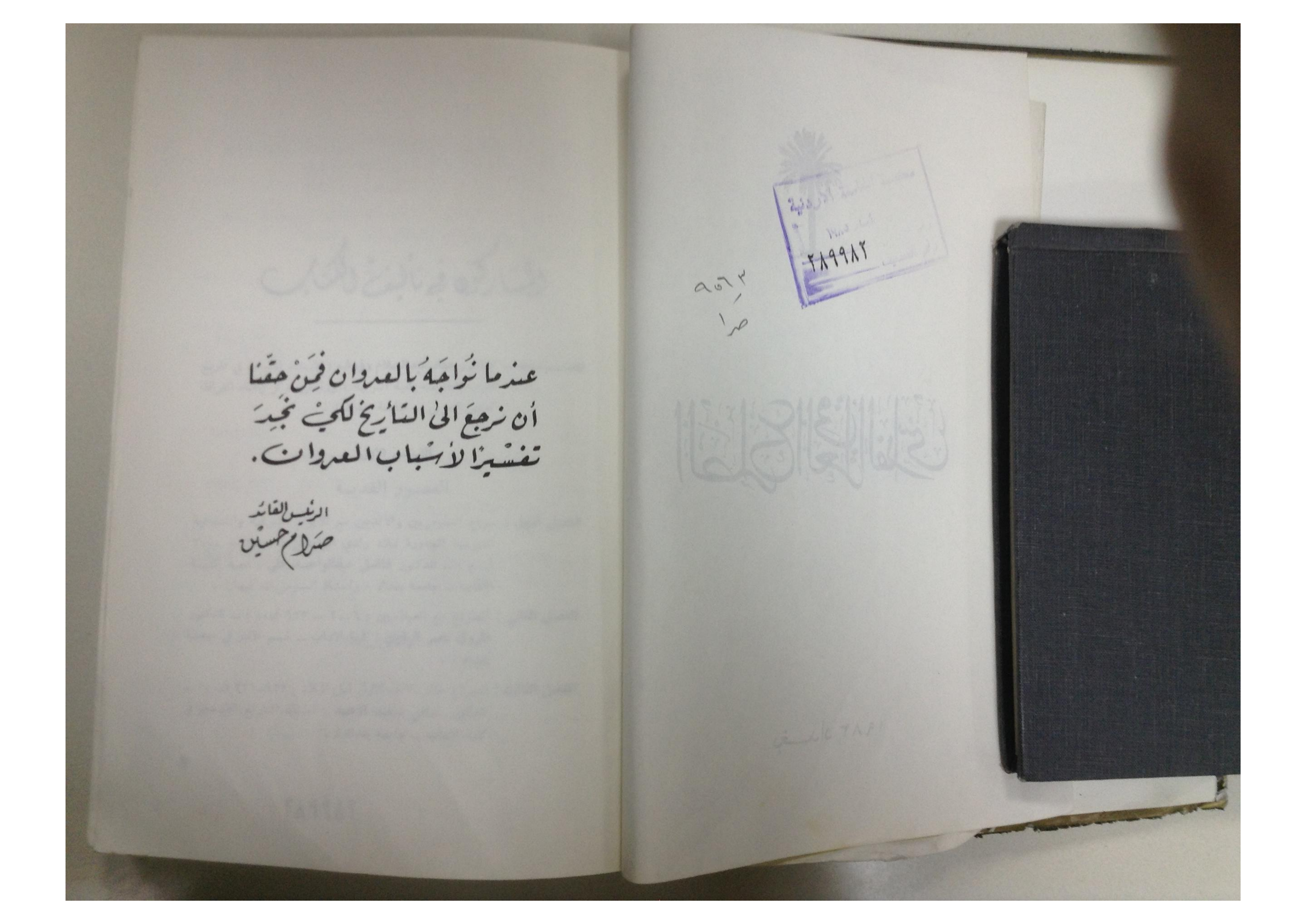

الصراع العراقي الفارسي


الصراع العراقي الفارسي



الصراع العراقي الفارسي

بغداد ١٩٨٣



عندما نُواجه بالعدوان فمن حقنا
أن نرجع الى التأريخ لكي نجد
تفسيراً لأسباب العدوان.

الرئيس القائد
صدام حسين

المشاركون في تأليف الكتاب

المقـــدمة ـ للدكتور **عماد عبدالسلام رؤوف** (الاستاذ المساعد في تاريخ العرب الحديث بكلية التربية ، ورئيس مركز إحياء التراث العلمي العربي ـ جامعة بغداد) .

القسم الأول

العصور القديمة

الفصل الأول : صراع السومريين والأكديين مع الأقوام الشرقية والشمالية الشرقية المجاورة لبلاد وادي الرافدين (٢٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ ق.م) ـ للدكتور **فاضل عبدالواحد علي** (عميد كلية الآداب ـ جامعة بغداد ، واستاذ السومريات فيها) .

الفصل الثاني : الصراع مع العيلاميين (٢٠٠٦ ـ ٩٣٣ ق.م) ـ للدكتور **فاروق ناصر الراوي** (كلية الآداب ـ قسم الآثار في جامعة بغداد) .

الفصل الثالث : الصراع خلال الالف الأول قبل الميلاد (٩٣٣–٣٣١ ق.م) ـ للدكتور **سامي سعيد الأحمد** (استاذ التاريخ القديم في كلية الآداب ـ جامعة بغداد) .

الفصل الرابع : الصراع في زمن حكم الفرثيين والساسانيين – للاستاذ **رضا جواد الهاشمي** (استاذ مساعد في قسم الآثار – كلية الآداب في جامعة بغداد) .

الفصل الخامس : خلاصة عن الصراع العراقي – الفارسي في العصور القديمة – **للدكتور فاضل عبدالواحد علي** .

القسم الثاني

عصر الاسلام والخلافة العربية

الفصل الأول : العداء الفارسي في عصر الرسالة الاسلامية والخلفاء الراشدين – للدكتور **عبدالرحمن العاني** (عميد كلية التربية في جامعة بغداد) والدكتور **حسن فاضل زعين** (رئيس قسم التاريخ في كلية التربية – جامعة بغداد) .

الفصل الثاني : أبعاد الصراع العراقي – الفارسي في عصر الامويين (للدكتور **عبدالرحمن العاني** ، والدكتور **حسن فاضل زعين**) .

الفصل الثالث : الابعاد السياسية للصراع العراقي – الفارسي في العصر العباسي – للدكتور **عبدالمنعم رشاد محمد** (كلية الآداب في جامعة الموصل) .

الفصل الرابع : الابعاد الثقافية والاقتصادية للصراع العراقي الفارسي في العصر العباسي – للدكتور **خضر جاسم الدوري** (عميد كلية التربية في جامعة الموصل) .

القسم الثالث

عصر الغزاة

الفصل الأول : الصراع العراقي – الفارسي منذ سقوط بغداد حتى القرن التاسع الهجري / القرن الخامس عشر الميلادي – للدكتور

نوري عبدالحميد خليل (مدرس التاريخ الحديث في كلية التربية – جامعة بغداد) .

الفصل الثاني : السياسة السوقية الايرانية تجاه العراق في العصر الحديث – للدكتور **علاء موسى كاظم نورس** الاستاذ المساعد في تاريخ العرب الحديث في كلية الآداب – جامعة بغداد ، ورئيس قسم التاريخ) .

الفصل الثالث : تطور مشاكل الحدود – للدكتور **عماد عبدالسلام رؤوف** .

الفصل الرابع : معاهدة ارضروم الثانية وتسويات ما قبل الحرب العالمية الاولى (١٨٤٧ – ١٩١٤) – للدكتور **مصطفى عبدالقادر النجار** (رئيس مركز دراسات الخليج العربي واستاذ تاريخ الخليج العربي المعاصر في جامعة البصرة) .

القسم الرابع

الواقع المعاصر

الفصل الأول : تصاعد مشاكل الحدود العراقية–الإيرانية (١٩١٤–١٩٣٤) – للدكتور **مصطفى عبدالقادر النجار** .

الفصل الثاني : العلاقات العراقية – الايرانية (١٩٣٤ – ١٩٥٨) – للدكتور **مظفر عبدالله أمين** (استاذ مساعد في تاريخ العراق المعاصر بمعهد الدراسات القومية والاشتراكية في الجامعة المستنصرية) .

الفصل الثالث : العراق والاوضاع الجديدة في ايران – للاستاذ **عبدالجبار محسن** (وكيل وزارة الثقافة والاعلام) .

الفصل الرابع : العلاقات الدبلوماسية بين العراق وايران (للدكتور **محمود علي الداود** (استاذ التاريخ الحديث في جامعة بغداد سابقا) .

الفصل الخامس : التجاوزات الايرانية على العراق (١٩٥٨ ـ ١٩٨٠) ـ للدكتور **ابراهيم خليل احمد** (استاذ مساعد ، ورئيس قسم التاريخ في كلية التربية ـ جامعة الموصل) .

فصول الكتاب : صححها ، ونسقها فنيا ، وفهرسها ، واشرف على طبعها الاستاذ**عبدالحميد العلوچي** (رئيس تحرير مجلة المورد ،والمديرالعام لدائرة المكتبة الوطنية وكالة) .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أصبح في عداد الحقائق المؤكدة ، بعد عدة سنوات من اصرار الحكومة الايرانية على مواصلة عدوانها المسلح على العراق ، ان موقفاً معانداً كهذا لم يكن ناتجاً عن اسباب آنية قوامها ما يحدث بين الدول المتجاورة من خلافات ويحل بالوسائل السياسية عادة ، والا فان العراق لم يأل جهدا ، منذ الايام الاولى لاندلاع الحرب ، في عرض مبادراته العديدة للجنوح الى تلك الوسائل ، وانما هو امتداد لموقف فارسي راسخ ، معاد للعراق والامة العربية، اتخذ فيه في كل مرحلة سماته المنسجمة مع طبيعتها ، فمنذ العصور القديمة وحتى ما قبل ظهور الاسلام ، اتخذ العداء الفارسي شكل الغزو العسكري السافر ، فحارب الفرس الاخمينيون والفرثيون والساسانيون الدولة والشعب في العراق ، وتحالفوا مع اليهود الذين كان الملك العراقي العربي نبوخذنصر قد اقتادهم أسرى حرب الى العراق بعد ان حرر فلسطين من سيطرتهم ، ومهدوا لهم سبل العودة الى ممارسة دورهم التخريبي في فلسطين ، كما تحالفوا معهم في اليمن عند احتلالهم لها . وتجلى عداؤهم ايضا في الاستغلال الاقتصادي لأرض العراق والمناطق العربية الاخرى ، والتنكيل باهلها ، والتهجير القسري لعرب الضفة الشرقية من الخليج العربي من مواطنهم الاصلية. واتخذ في العصور الاسلامية شكلا مستترا، لكنه أكثر خبثاً وخطورة،

تمثل بالحركات الشعوبية ، العلنية منها والباطنية ، الناهضة لقيم الاسلام والثقافة والقيم العربية ، وكان لهم الدور البارز في تفريق كلمة العرب ، واثارة النزاع بين ابنائهم ، وتأليب الشعوب عليهم ، وبث البدع والآراء الغريبة في الدين ، محاولة منهم لتشويهه وافقاده روحه الثورية النقية .

اما في العصر الحديث ، فقد استهدف حسر الوجود العربي عن مناطق مهمة من الارض العربية ، والطمس التدريجي للهوية القومية للشعب العربي سواء أكان ذلك على ساحل الخليج العربي أم في الاحواز أم في المناطق الشرقية من أرض القطر العراقي بوابة الوطن العربي الشرقية وهي جوانب مما عرف بسياسة « التفريس » التي مارستها الانظمة الفارسية المتعاقبة في ايران طيلة القـرون الاخيـرة .

فما هي اذن الاسباب الثابتة لهـذا الصـراع الطويـل عبر المراحـل التاريخيـة المتعاقبـة ؟

ان الاجابة على هذا السؤال تكمن في وضع ايران الجغرافي ـ السياسي نفسه ، فالخارطة القومية لايران توضح ـ بجلاء ـ انها كيان لا قومـي ، بمعنى أنها لم تقم تحقيقا للروح القومية الجمعية ، فايران كيان سياسي تتعدد فيه القوميات وتتباين حتى تصل الى نـحو خمس او ست قوميات رئيسة ، ومن المهم ان نلاحظ ان احجام هذه القوميات متقاربة على نحو لايجعل منها « اكثرية » ويجعل القوميات الاخرى « أقلية » ، بل ليس من الممكن اطـلاق لفظة « أقلية » على احداها الا اذا اعتبرنا سائر القوميات الاخرى كلاً واحداً ، ولا مبرر علمي لهذه المقولة ، لان من الثابت تاريخيا ان ايران كانت ، قبـل تكونها ، عدداً من الدول والامارات المستقلة .

يحق لنا ان نتساءل : اذا كان كيان ايران لا قوميا ، فلماذا هو كيـان

اصلاً ، ولم اتخذت حدودها شكلها المعروف الآن ؟ وبعبارة اخـرى : اذا كان هدف القومية هو تحقيق ارادتها المستقلة المتمثلة بشكل دولة ، ولم تكن في ايران قومية رئيسة ، فما هو مبرر وجود « دولة ايران » ؟ عن اي هـدف قومي تعبر ؟ ، وأيـة ارادة تمثل ؟

فللاجابة على هذا كله ، علينا ان نعيد النظر في الخارطة القومية لايران ، ولسوف نجد ، عند دراسة المساحات الجغرافية التي توجد فيها كل قومية من القوميات المكونة لـ « الدولة » ، ان لهذه القوميات جميعا ، باستثناء الفرس ، امتدادات واسعة خارج حدود ايران نفسها ، فالعرب هم جزء من امتهـم العربية ، والاكراد يتوزعون على منطقة ليس في ايران منها الا جزء فحسب ، وللاذربيجانيين امتداد كبير يشـمل مساحات واسـعة من تركيـا والاتحاد السوفيتي ، اما البلوج فهم جزء من شعب يقيم نصفه الآخـر في باكسـتان وافغانستان . وهكذا فان جميع هذه القوميات لها امتداداتها خارج الرقعة السياسية لايران ، فوجوهها ـ من ثم ـ الى خارج ايران لا الى داخلهـا ، فهي لاتمثل الارادة المكونة للدولة المركزية الايرانية ، ومن المؤكد ان هـذه « الدولة » ليست هدفا لاي منها ، اذ لا مصلحة لهم فيها بأية حال .

الفرس هم الوحيدون الذين ليست لهم امتدادات قومية خارج ايران ، فهم اذن عامل « الشد » الوحيد الذي يشد هذه القوميات المتباينة في نطاق دولة واحدة ، ولكنهم من جهة اخرى ، كانوا اقل عددا ، وأدنى حضارة ، من ان يستطيعوا ممارسة دورهم في شد هذه القوميات وتجميعها تحت سيطرتهم ، لذا فقد كان الفعل السياسي والعسكري الفارسي على الدوام أكبر من حجمهم الحقيقي ، لقد كانوا فعليا مجرد قومية وسط قوميات متعددة ، لكل منهـا تراثها وحضارتها ووطنها ، ولكن الفرس مارسوا دورهم بصفتهم القوميـة

المركزية الوحيدة ، أو القومية العليا ، في جميع « أوطان » تلك القوميات ، اضافة الى وطنهم نفسه ، واتسم توسعهم على حساب قوميات الهضبة الايرانية الاخرى بالسمة العسكرية البحتة ، لذا فقد جاءت ثماره على شكل احتلال فعلي وليس نتيجة لمد حضاري فارسي مثلاً ، او حركة مركزية تستقطب تلك الشعوب نحو ثقافة واحدة •

ان استمرار سياسة شد القوميات في دولة واحدة ، كان يعني استمرارا لسيطرة الفرس على هذه القوميات • بمعنى ان عودة القوميات الى ممارسة مصائرها المستقلة كان يساوي تفكك السيطرة الفارسية وانهيارها ، وهو أمر وقف الحكام الفرس ضده على الدوام •

لقد ادرك الفرس ان تحقيق سيطرتهم على عدد كبير من القوميات يفوقهم بعضها عددا وحضارة ، لايكون الا باخضاعها الى ضغط تحدٍ خارجي، واثارة شعور التوجس لديها من خطر ما يأتي من الخارج ، وعليه فقد وظف الفرس التحديات المختلفة في المنطقة لصالح تأكيد هيمنتهم على قوميات ما عرف بايران • وكان التحدي الحقيقي امام الفرس هو ذلك التحدي القادم من غرب ايران ، أي من الوطن العربي ، بيد انه ــ على قوته ــ لم يكن عسكريا بقدر ما كان حضاريا • ولم يكن الفرس على مستوى حضاري مكافىء للحضارات المتقدمة الموجودة الى الغرب منهم ، لذا فقد اخذوا موقعهم كـ « متلقٍ » للحضارة ، لا صانع لها ، فالديانة الزرادشتية ورموزها لم تكن فارسية ، وانما ميدية ، وما داخل هذه الديانة من تغيرات كان مصدره ثقافة البحر المتوسط ، بل ان الفارسية لم تكتب قط بأحرف فارسية ، وانما بالمسمارية العراقية ، فالآرامية والعربية ، وامتد تأثير الحضارات العربية ، منذ قبل الاسلام وبعده ، الى

معظم مناحي الحياة الاجتماعية الفارسية ، وتركت آثارها واضحة في مجالات الفنون والعمارة فضلا عن الادارة والقوانين ، حتى عد الباحثون ، ومنهم اكثرهم تعصبا للفرس ، دولهم القديمة بانها مجرد استمرار للدول الرافدينية •
وكان احساس الفرس بتخلفهم تجاه الفعل الحضاري الآتي من الغرب (أي الوطن العربي) يتخذ وضعا حادا ، انعكس على شكل رد فعل غير حضاري نحوه ، استهدف تدمير الحضارة فيه ، او مكافأة تأثيره على الاقل ، ولكن بالفعل العسكري وحده ، وبذا فقد اصبح التوسع الى الخارج ، وبخاصة باتجاه الوطن العربي ، الوجه الآخر لسياسة فرض الهيمنة السياسية والعسكرية على شعوب الهضبة الايرانية في الداخل ، محاولين اقناع تلك الشعوب بان أي توقف عن الطرد ، اي الاندفاع الى الخارج ، يعني ــ بالضرورة ــ توقع انجذاب شعب جديد الى الداخل • وبما ان البلاد لم تكن تملك مركز استقطاب وصهر قومي ــ كما المعنا ــ فقد كان انجذاب اقوام كهذه الى الداخل ، يعنى تجزؤ الهضبة سياسيا بين تلك الاقوام وفقدانها ــ من ثم ــ وحدتها السياسية المفروضة • وكان التوسع الخارجي بحد ذاته يقدم مبرراً قوياً لسياسة التوسع الداخلي بضم القوميات غير الفارسية في ايران تحت قبضة حكومة مركزية قوية • وهكذا تحولت « الفارسية » من كونها احدى قوميات « ايران » الى عقيدة توسعية ، تعبر عن جيوبولتيكية لاتحقق اغراضها الا بالتوسع المستمر ، اكثر من تعبيرها عن ارادة امة او قومية بذاتها ، وهذا مايفسر ظهور سلالات حاكمة في ايران من غير الفرس ، التزمت بسياسة الفرس نفسها •

لقد تحول مركب النقص الحضاري هذا على مر العصور الى عقيدة راسخة معادية لكل الحضارات العربية او التي وجدت في الارض العربية ،

بل انه تحول في اللا وعي الفارسي ، الى نزعة عدوانية مدمرة لكل فكـرة ، او قيمة ، تأتي من هذا الاتجاه • ووظف الحكام الفرس هذه العقدة النفسية في صالح هيمنتهم على القوميات المحيطة بهم ، بأن اشعروها ــ على الدوام ــ بأن تصديهم لهذه المؤثرات رهين باستمرار الهيمنة المركزية الفارسية عليها •

ان خارطة ايران السياسية تمثل بوضوح قوسا ضاغطا باتجاه الغرب ، يتولى الفرس فيه موقع الشد المركزي ، ويمتد هذا القوس من بحيرة اورمية شمالا حتى بلوجستان على البحر العربي جنوبا ، وليس هو الا المظهر الاخير من عملية دائبة مقصودة استهدفت اقتطاع أجزاء من ارض الامة العربية ، وضمها الى مقاطعاتها الغربية ، تعبيرا عن استمرار الحكام الفرس في توظيف عدائهم للامة العربية لصالح ابقاء تسلطهم على القوميات الاخرى •

ولما لم يكن هذا الغرب (الوطن العربي) يمثل الا مصدر اشعاع للحضارة ، لا خطرا ماديا حقيقيا ، فان العقلية الفارسية تعودت ان تنظر الى هذه الحضارة بعين واحدة ، انها تتأثر بها لانها مضطرة الى ذلك لنقص في مستواها الحضاري ، وتعاديها في الوقت نفسه لانها تمثل خطرا يهدد سيطرتها على القوميات العديدة التي تحيط بها ، فلقد اعتنق الفرس الاسلام كسائر شعوب المشرق ، لكنهم حاربوه من داخله ، وتعلموا الآداب العربية ، لكنهم حاربوها بما تعلموه منها ، وكتبوا بالحروف العربية ، لكنهم شنوا حربا على اللغة العربية نفسها •

ومع ان العرب لم يكونوا قط عدوانيين تجاه الفرس أو غيرهم ، وانما هداة ، ورسل دين مساواة جديد ، فان هذه الحقيقة لم تكن تنفذ الى اللا وعي الفارسي حيث تكمن عقدة الخوف والكره من كل ما هو عربي • فمن

الثابت تاريخيا ان دهاقنة الفرس تملقوا العرب ، بعد زوال سلطانهم السياسي ، توسلاً الى الابقاء على مركزهم الاجتماعي والاقتصادي بين الشعوب غير الفارسية ، حتى اذا ما ضعف كيان العرب السياسي ــ وكان للفرس نصيبهم البارز في هذا الضعف ــ عادوا الى ممارسة دورهم السابق في احياء التقاليد السياسية القديمة بانشاء الدولة التي توظف فيها عقدة الكره والخوف لصالح هيمنة الفرس عليها •

ان التاريخ لم يسجل أية أعمال عدائية قام بها العرب ضد ايران ، بل العكس دائما ، وعلى الرغم من ذلك فان الفرس كانوا يصورون أي عدوان يقومون هم به على الامة العربية ، بانه « دفاع عن النفس » حتى أصبح هذا قانونا ثابتا في السياسة الخارجية الفارسية في مختلف مراحل التاريخ ، ومعنى هذا انهم ، ان لم يجدوا خطرا حقيقيا يهدد بلادهم من الغرب ، فان عليهم ان يوحوا الى شعوبهم بمثل هذا الخطر ، وهو ما يفسر ــ بوضوح ــ لم كانت ايران أكثر أطماعا بجيرانها الغربيين كلما تعرضت وحدتها السياسية الى خطر التجزئة في الداخل ، وطالبت شعوبها بحقوقها القومية التي بخسها الفرس عبر التاريخ • وهكذا ، فان احياء مظاهر ومفاهيم متخلفة ، واسقاطها على الحاضر ، وخلق جو من اللا عقلانية ، وتأجيج النعرات البدائية ، والعصبيات القائمة على أسس بالية لا ظل لها في الواقع ، كان قد أصبح احدى الوسائل الثابتة في لم شعث قوميات عديدة ، لكل منها ثقافتها وتراثها المستقل • ولما لم يكن كالنزعات العدائية اكثر بدائية وتخلفا ، فقد اضحت اثارة هذه النزعات ، واقناعها بين حين وآخر ، بمزيد من الاعمال العدوانية التوسعية يمثل علاجا مناسبا لاية حالة تفكك تتعرض لها « الوحدة الداخلية » ، كما انه يعد مبررا معقولا للاحتفاظ بجيوش ضخمة ، تزيد على حاجة البلاد نفسها ،

فبقدر ما كان وجود جيوش كهذه يعد « اداة » للتوسع خارج البلاد ، فـان وجود مثل هذه الجيوش كان « هدفاً » بحـد ذاته ، اذ ليس كالجيش اداة لدمج الامم المختلفة العروق والثقافات • ومن المهم القول بان دمج القوميات على هذا النحو ، لم يكن يعني — بالضرورة — تفريسها اللغـوي المباشر ، وانما اقناعها بالولاء للمؤسسات المركزية للدولة ، تلك المؤسسات التي كانت تعمل وفق المفاهيم الجيوبولتيكية التي اوجدها الفرس انفسهم ، وهو مايفسر بوضوح سبب احتفاظ الدولة المركزية بجيوش ضخمة تضم عناصر عديدة في مراحل تاريخية مختلفة • ومع ان سلالات غير فارسية حكمت ايران في بعض العهود ، الا ان سياستها لم تكن لتختلف عن السياسة الفارسية التقليديـة التي ذكرنا ، فالأفشاريون والزنديون والقاجاريون مثلا ، وهم ليسوا فرسا ، لم يكونوا ليصبحوا « شاهات » لايران لو لم يلتزموا « بالعقدة الفارسية » فيحذون حذو أسلافهم في معاداة الامة العربية وسلب اراضيها ومياهها ، سواء اكان ذلك في العراق ، ام في الاحواز ، وسواحل الخليج العربي •

وكما كان موقف حكام ايران من العراق يتسم بالعداء المستمر عبـر الاحقاب والعصور ، فان العراق لم يدخل في تاريخه في أي نزاع مـع ايران الا عندما تتعرض ارضه ومياهه الى الخطر ، وهو بذلك كان سلميا في جميع مواقفه ، داعيا الى نبذ النزعات العسكرية ، ومؤمنا بضرورة حل الخلافـات بالاحتكام الى العقل والحكمة ، لا باستخدام القوة السافرة والعدوان • وهو عندما يبذل السعي ، لايقاف هذا العدوان المستمر عند حدوده ، المستـهدف أمنه وحرماته ووجوده ، فانـه لاينطلق من موقف آني محدد ، وانما هـو يعبر في ذلك عن فهمه الواسع والعميق للقيـم الحضارية الاساسية ، التـي ساهم هو في ارسائها عبر تعاقب العصور •

ان اطالة الجانب الايراني المتعمدة لأمد الحـرب ، وتوسيعه نطاقهـا ، وزجه بعشرات الآلاف من ابنائه في اتونها ، واصراره على خرق حدود العراق، وتدمير مدنه وقراه ، واعلان رموز نظامه عن نواياهم في احتلال ارضه ومياهه، والقضـاء على وحدتـه واستقلاله ، للشـروع — بعد ذلك — بتصدير عدوانهم الى اقطار العروبة الاخرى ، مع تكرر محاولات العراق ومساعيه في المحافل الاسلامية والدولية لانهاء حالة الحرب بالركون الى الوسائل السلمية ، واعتماد مبدأ المفاوضات في حل المشاكل والخلافات ، قد ولد لدى الـرأي العام ، في العراق والوطن العربي والعالم ، رغبة في تفهم دوافع هذا الاصرار الغريب على العدوان ، وتتبع جذوره الضاربة في اعماق التاريخ ، واستيضاح مراحله وحقبه ، وتحديد نطاقه ، فكان ان تداعت نخبة من المؤرخين العراقيين الى وضع كتاب شامل يوثق الصراع العراقي الفارسي عبر العصور ، ويلتزم بالاحاطة بظروفه ومراحله وآثاره من ناحية ، وبالايجاز والدقـة في ايـراد الحقائق والبينات من ناحية اخرى ، وبعد ان كتب كل واحد منهم ما يدخل في نطاق اختصاصه وتتبعه ، وفق خطة مدروسة اتفق عليها ، جمعت الفصول المكتوبة وطبعت طبعة تجريبية تم توزيعها على عدد آخر من المؤرخين والمهتمين بالدراسات التاريخية ليبدوا فيها من ملاحظاتهم ما من شأنه اغناء الكتـاب واصلاحه ، فكانت ثمرة ذلك كله ندوة علمية مفتوحة ، اذاعهـا التلفزيون، نوقشت فيها فصول الكتاب كلها ، وابديت فيها من الآراء والمقترحات ما اغنى لجنة التأليف وافادها ، وجرى تعاون مثمر لاخراج الكتاب على النحو الذي يجده القارىء الكريم بين يديـه •

ومن المؤكد ان حجم الكتاب المحدد ، حال دون ايراد كثير من التفاصيل

التاريخية فيه ، الا اننا نرجو ان يكون قد وفق في تقديم صورة عامة ، واضحة ، عن طبيعة هذا العدوان ومراحله ، آملين ان تمارس الشعوب الايرانية ، والقوى الخيرة والمحبة للسلام في العالم ، دورها المطلوب في الضغط على نظام طهران لتحقيق السلم والكف عن العدوان الذي اثبت العراق عدم جدواه في النيل من سيادته ووحدته ، والاحتكام الى صوت العقل ، والله تعالى الموفق الى سواء السبيل .

القسم الأول

العصور القديمة

الفصل الأول

صراع السومريين والاكديين مع الاقوام الشرقية والشمالية الشرقية المجاورة لبلاد وادي الرافدين

(٢٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ ق.م)

١ ـ مدخل الى الموضوع

يمكن القول بصورة عامة في ضوء الوقائع التاريخية ان المناطق المجاورة لبلاد وادي الرافدين من الجهتين الشرقية والغربية كانت لها اهمية خاصة في نظر سكان العراق القديم لاسباب عسكرية واقتصادية . فجهة الغرب (سماها البابليون « أمورو » ومنها اشتقت كلمة الاموريين بمعنى « القبائل الغربية ») ، تتكون من اراض منبسطة ، تتخللها بعض الوديان ، وخالية من الموانع الطبيعية . لذلك كانت ، وماتزال حتى الوقت الحاضر ، مجالا واسعا ومفتوحا لتنقل القبائل بين بلاد وادي الرافدين والبلدان المجاورة . لقد شهد التاريخ القديم ، وفي عصور مختلفة ، تدفق هجرات عديدة من جهة الغرب هذه الى بلاد بابل اثرت وبشكل واضح على تاريخ البلاد سياسا وحضاريا .

تشير اسماء ملوك سلالة كيش الاولى (في حدود ٢٧٥٠ ق . م) البالغ عددهم ثلاثة وعشرين ملكا الى ان نصفهم تقريبا كانوا يحملون اسماء جزرية (سامية) اما البقية فهم يحملون اسماء سومرية او اسماء غير معروفة

الاشتقاق مما يدل بصورة عامة الى اختلاط اقوام عديدة في بلاد وادي الرافدين من جهة والى وجود قبائل الجزيرة في بلاد بابل في عصر مبكر الى جانب السومريين • اما قيام السلالة الاكدية على يد مؤسسها سرجون فهو خير شاهد بطبيعة الحال على قوة ونفوذ القبائل الجزرية في القطر التي تمكنت من تأسيس واحدة من اقدم الامبراطوريات في التاريخ القديم (٢٣٧١–٢٢٣٠ ق • م) • بعد ذلك توالت هجرات قبائل الجزيرة الى العراق واستمرت خلال مراحل زمنية منذ نهاية الالف الثالث الى المنتصف الاول من الالف الثاني قبل الميلاد • وتشير النصوص المسمارية الى ان قبائل الاموريين كانت ، منذ العصر الاكدي ، تستوطن في المرتفعات بين تدمر ودير الزور والتي تسميها جبار بسري او بشري • ومعلوم ان مدينة ماري (تل الحريري) في اواسط الفرات كانت من اهم مراكز القبائل الامورية التي اندفعت الى وادي الرافدين في نهاية الالف الثالث قبل الميلاد • وسنرى في موضع لاحق من هذا الفصل كيف ان قبائل الاموريين قد اربكت الاوضاع السياسية والاقتصادية للبلاد بهجماتها المتكررة على المدن السومرية ايام حكم الملك ابي – سين (٢٠٢٩–٢٠٠٦ ق • م) وكانت من الاسباب التي عملت على اضعاف سلالة اور الثالثة واسقاطها •

وبالمثل فقد حرص ملوك العراق القديم في كل الحقبات التاريخية على ضمان انفتاح الطرق التجارية امامهم مع الاقاليم الغربية والشمالية الغربية وصولا الى الاراضي السورية والبحر المتوسط من جهة والى غابات الارز (جبال امانوس) وجبال الفضة (طوروس) من جهة اخرى • كما انهم أقاموا، وفي عصر مبكر (في حدود ١٩٠٠ ق • م) ، واحدا من اهم المراكز التجارية في مدينة كول تبة في آسيا الصغرى • ومن جهة اخرى فان انقطاع الطرق التجارية مع الاقاليم الغربية والشمالية الغربية كان يشكل خطرا كبيرا على بلاد وادي الرافدين في العصور القديمة • وقد حصل ذلك بالفعل ، فنذكر

على سبيل المثال ان الاراميين ضيقوا الخناق على الاشوريين لمدة قرنين من الزمن (القرن الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد) عندما استوطن فرع منهم مناطق الفرات الاوسط والمراعي في شمال وادي الرافدين •

اما الجهة الشرقية وامتدادا باتجاه الشمال الشرقي ايضا فكانت هي الاخرى على قدر كبير من الاهمية في تاريخ وادي الرافدين والشرق الادنى القديم • فهي على النقيض من الجهة الغربية تتميز بتنوع في التكوين والمظاهر الطبيعية • اذ تكثر فيها المياه وروافد الانهار وترتفع فيها الجبال الشاهقة والهضاب التي تتخللها السهول الزراعية ، كما تشتهر بغنى وتنوع مواردها الزراعية وثرواتها المعدنية • ومعروف ان المنطقة الشمالية والشمالية الشرقية من بلاد وادي الرافدين تتخللها روافد عديدة لنهر دجلة وهي الزاب الاعلى الذي يصب في دجلة على مقربة من العاصمة الاشورية كالح (نمرود) ثم الزاب الاسفل الذي يلتقي بدجلة الى الجنوب من مدينة آشور القديمة • وهناك رافدان آخران هما نهر العظيم ونهر ديالى •

ان الاراضي التي تقطعها هذه الروافد والتي تمتد الى الشرق من نهر دجلة وصولا الى المناطق الجبلية الممتدة في شمال وشمال شرقي القطر تعتبر ذات اهمية كبيرة من الناحية التاريخية لاسباب عديدة نوجزها بالنقاط التالية :

١ – في هذه المنطقة سكن اقدم انسان عاش في وادي الرافدين حيث يعود تاريخ وجوده فيها الى العصر الحجري القديم (٦٠–٤٠ الف سنة قبل الآن) • فقد كشفت التنقيبات في كهف شانيدر في جبال برادوست عن هياكل عظمية بشرية احدها لطفل يقدر عمره بستة اشهر ، ووجدت آثار هذا العصر ايضا في كهوف اخرى مثل كهف زرزي على الزاب الاسفل •

٢ ـ شهدت هذه المنطقة ظهور اولى المستوطنات الزراعية عندما بدأ الانسان يترك الكهوف تدريجيا ويستوطن السهول في اول محاولة لممارسة الزراعة وتدجين الحيوانات . ويعتبر موقع زاوي جمي على بعد أربعة كيلو مترات الى الغرب من كهف شانيدر مثالا لاولى هذه المستوطنات الزراعية التي يعود تاريخها الى حدود الالف التاسع ق . م . وفي هذه المنطقة بالذات ايضا حدثت النقلة الاخيرة التي ادت الى ظهور القرية الزراعية بالمعنى المتعارف عليه متمثلة بموقع جرمو الذي يعتبر اقدم القرى الفلاحية في القطر حيث مارس سكانها زراعة الحبوب وتدجين الحيوانات وبنوا بيوتهم بالطين على اسس من الحجارة .

٣ ـ وعلى العكس من المنطقة الغربية فان المنطقة الشرقية تكتنفها مواقع او عوارض طبيعية تتمثل في المرتفعات والسلاسل الجبلية التي ادت الى صعوبة المواصلات فيها . فجبال زاكروس بامتداداتها من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي تشكل حاجزا منيعا بين العراق وايران حيث يبلغ طولها نحو ٦٣٠ ميلا وترتفع قممها لتصل الى ارتفاع يتراوح بين ٢٠٠٠ـ٣٠٠٠ م فوق سطح البحر . ولذلك فلم يكن بامكان القوافل التجارية او الحملات العسكرية اجتياز هذا الحاجز الطبيعي الا من ممرات او طرق محدودة بقيت خطوط اتصالات رئيسية الى الوقت الحاضر بسبب طبيعة المنطقة . ويقع اول تلك الممرات في رايات قرب راوندوز و الثاني في حلبجة الى الجنوب الشرقي من السليمانية والثالث في خانقين . ويؤدي ممر رايات وحلبجة الى سواحل بحيرة اورمية واذربيجان. اما طريق خانقين فانه يبدأ من جنوب وادي الرافدين فيمر بمدن عديدة مثل كيش واكد وبابل والمدائن ثم يستمر شرقا باتجاه كرمنشاه وهمدان وصولاً الى الهضبة الايرانية . وهناك طريق رابع الى الجنوب من ذلك وهو الذي يسير بمحاذاة جبال

زاكروس ابتداء من مدينة الدير (تلول العقر قرب بدرة) ليصل الى مدينة شوش (سوسة) عاصمة بلاد عيلام . ويتميز هذا الطريق بسهولته نسبيا ولكونه يمر في اراض هي في الواقع امتداد للسهل الرسوبي من بلاد وادي الرافدين . وفي هذه المنطقة من بلاد عيلام يجري نهرا الكرخة والكارون . وكان العيلاميون يسلكون هذا الطريق عند شن حملاتهم العسكرية على بلاد بابل وكذلك فعل العراقيون القدماء في هجماتهم المعاكسة ضد عيلام .

٤ ـ عرفت منطقة المرتفعات والجبال الشرقية المحاذية لبلاد وادي الرافدين بانها كانت في العصور التاريخية القديمة موطنا لاقوام عديدة معادية ومتخلفة حضاريا . وقد قامت تلك الاقوام وفي حقبات زمنية مختلفة بالهجوم على المدن في المناطق السهلية من البلاد ونجحوا احيانا في فرض سيطرتهم بشكل او بآخر وفي اقامة سلالات حاكمة . ولذلك لم يدخر ملوك العراق القديم جهدا لكبح جماح هذه القبائل المعادية لمنعها من تحقيق اهدافها ، فكانوا يشنون عليها الحملات العسكرية كلما دعت الحاجة الى ذلك . ومن تلك الاقوام الجبلية التي وردت اخبارها في الكتابات المسمارية قبائل لولوبو التي كانت تسكن مناطق شهرزور الى الجنوب الشرقي من السليمانية ، وكانو يتوغلون في هذه المنطقة الى الشرق ليصلوا الى منطقة زهاب قرب سربيول حيث وجدت هناك منحوتة جبلية عليها صور ملك لولوبو المسمى انوبانيني (Annubanini) وكتابة باللغة الاكدية والخط المسماري . وكان يجاورهم الى الشمال قليلا قبائل گوتي (الگوتيون (Gutians)) الذين كانوا يستوطنون المناطق الجبلية التي تحادد عيلام من الشمال والواقعة بين همدان وبحيرة اورمية . وكان الكشيون من بين تلك الاقوام الجبلية ايضا وقد اقاموا في ايران منذ ازمان بعيدة في الاقسام

الوسطى من جبال زاكروس (اقليم لورستان) ، الى الجنوب من همدان مباشرة • والى الجنوب الغربي من منطقة سكنى الكشيين استوطن العيلاميون في الأراضي الجنوبية الغربية من ايران اي الى الشرق من بلاد وادي الرافدين واتخذوا من مدينة شوش (سوسه) عاصمة لهم • وبالاضافة الى ذلك فهناك الميديون في اقليم همدان والفرس الاخمينيون في الجزء الجنوبي من ايران وهما اشهر القبائل التي استوطنت ايران في الالف الاول قبل الميلاد •

٢ ـ بلاد عيلام

ان الحديث عن الصراع العراقي الفارسي خلال العصور الحديثة والعربية الاسلامية يقودنا بالضرورة الى تتبع جذوره القديمة في الماضي البعيد • فنحن مضطرون اذاً الى الرجوع حقبة زمنية طويلة تزيد على الف وسبعمائة وخمسين عاما سبقت ظهور الفرس الاخمينيين على المسرح السياسي في ايران • وبتعبير آخر فان الموضوع يتطلب تناول علاقات العراق القديم مع الاقوام والقبائل التي استوطنت الاقاليم المحاددة من الشرق لنتعرف من خلال ذلك على طبيعة تلك العلاقات وعلى الدوافع والمصالح التي كانت تحكمها وعلى الرواسب التي افرزتها خلال تلك الحقبة الزمنية الطويلة ، خاصة وان الفرس الاخمينيين ورثوا ، اضافة الى الارض ، ثقافة وفنون الاقوام الذين سبقوهم في استيطان البلاد •

يقودنا الحديث اولا ، بحكم توفر الاشارات التاريخية وتسلسلها الزمني ، الى علاقات السومريين والاكديين مع ايران خلال حكم العيلاميين فيها • فقد اطلق السومريون على الجزء الجنوبي الغربي من بلاد ايران المحادد لبلاد سومر اسم (عيلام) وسماها البابليون بنفس التسمية ايضا • اما العيلاميون انفسهم فقد كتبوا اسم بلادهم بالعلامات المسمارية بشكل hal - ta - am - ti . وتتكون بلاد عيلام

من قسمين رئيسيين : الاول السهل الرسوبي ويشمل القسم الجنوبي الغربي من ايران المجاور للعراق والذي هو امتداد طبيعي للاراضي الرسوبية للقسم الجنوبي من بلاد وادي الرافدين • كما يشمل ايضا المرتفعات الجبلية الواقعة الى الشمال والشمال الشرقي من هذا السهل الرسوبي • وقد اطلق العيلاميون لفظ Shushum (شوش) على المنطقة السهلية من بلادهم كما سموا عاصمتهم بنفس التسمية ايضا • وتبلغ مساحة السهل العيلامي حوالي ٢٤ الف كيلو متر وتخترقه من الشمال الى الجنوب وبصورة متوازية تقريبا ثلاثة انهار هي الكرخة الذي سماه الاشوريون uqnu (اللازورد) والذي اشتهر قديما بنقاوة مياهه وعذوبتها ، ثم نهر دز (Diz) ونهر الكارون • وتقع العاصمة العيلامية سوسه على احد فروع الكرخة الذي سماه العيلاميون والبابليون نهر Ulai (ويعرف الآن نهر Sha'ur) • وقد شهدت ضفاف نهر Ulai معارك طاحنة وخاصة تلك التي شنها البابليون على العاصمة العيلامية للثأر من هجماتهم على بلاد بابل • وكانت العاصمة العيلامية ملتقى طرق تجارية مهمة وهي قريبة من بلاد سومر اذ لا تبعد عنها اكثر من ١٠٠ ميل من الممكن ان تقطعها القافلة خلال مسيرة ثلاثة ايام بعد ان تعبر نهر الكرخة باتجاه الغرب وصولا الى الاراضي السومرية على نهر دجلة •

اما القسم الثاني من بلاد عيلام فيشمل المناطق الجبلية التي تتاخم السهول في الشمال والشرق وهي جبال لورستان وبختياري • وقد سمى العيلاميون هذه المناطق الجبلية ازان (Anzan) او انشان (Anshan) ، كما ورد ذكرها في النصوص المسمارية بنفس التسمية ايضا • وجدير بالملاحظة ان السومريين كتبوا الاسم (عيلام) بعلامة مسمارية من معانيها الاساسية في السومرية «مرتفع ، عال» وهذا ربما يستنتج منه انهم اعتبروا انعيلام الحقيقية

تقع في هذه المرتفعات الجبلية • ومما يؤيد هذه الفرضية ان ايناتم امير سلالة لكش الاولى (في حدود ٢٥٠٠ ق • م) ذكر بانه «قهر بلاد عيلام» التي وصفها بكونها « الجبال الشاهقة » (في السومرية hursag - ù - ga) •
ان غنى المنطقة الجبلية في بلاد عيلام بالمواد الاولية جعل منها مصدرا رئيسيا لسكان وادي الرافدين للحصول على الاخشاب وعلى انواع من المعادن (النحاس ، الرصاص ، الفضة) والحجر (البازلت ، المرمر ، الديورايت) واصناف من الاحجار الثمينة (العقيق ، حجر الدم ، اللازورد) •

يقابل ذلك ان بلاد سومر كانت موطنا حضاريا عريقا ومزدهرا اخذ منه العيلاميون كثيرا من المفاهيم والمظاهر الثقافية • لقد كان تأثر العيلاميين بافكار ومعتقدات السومريين كبيرا الى حد ان اصبحت الثقافة العيلامية في مجملها ، وحتى في كثير من تفاصيلها الدقيقة احيانا ، تمثل في نظر الباحثين استعارة بشكل او بآخر من الاصول السومرية • فنذكر على سبيل المثال لا الحصر ان العيلاميين اخذوا الخط المسماري الذي استنبطه السومريون واستعملوه في كتابة لغتهم العيلامية • كما انهم استعملوا اللغة الاكدية بصورة واسعة وخاصة في عهد الامبراطورية الاكدية • واخذوا كثيرا من المعتقدات والصفات الخاصة بالآلهة السومرية حتى انهم اطلقوا نفس الاسماء السومرية على بعض آلهتهم مثل "Sin" اله القمر ، كما ان احد كبار آلهتهم وهو Inshushinak والذي دخل في تركيب اسماء كثير من ملوكهم هو عبارة عن صيغة سومرية اصلها (N) in - shushin - ak بمعنى « سيد مدينة شوش (سوسه) » • وتأثر العيلاميون بالاساليب الفنية لبلاد وادي الرافدين وبالعمارة الدينية المتمثلة بالمعبد وبرجه (الزقورة) واقتبسوا من السومريين فكرة الجنينة او الحديقة المقدسة التي كانت تحيط اشجارها

بأبنية المعبد • هذا الى غير ذلك من الامور الخاصة بالطقوس والكهنة والقانون والقضاء مما لايتسع المجال لذكره في الوقت الحاضر •

لايعرف على وجه التأكيد اصل العيلاميين ولعلهم كانوا اول الامر يستوطنون المناطق الجبلية المتاخمة للسهول في الشمال والشرق من عيلام ، وربما كانت لهم علاقة بالاقوام الجبلية الاخرى القريبة في زاكروس مثل قبائل لولوبو والگوتيين والكشيين الذين يرجع الباحثون اصلهم الى اقليم بحر قزوين • كما لايعرف اصل (عائلة) اللغة العيلامية التي دونوها بالخط المسماري • وان ماوصلنا من النصوص المدونة بها يكاد يكون قليلا نسبيا بالاضافة الى الصعوبات التي ما زالت تواجه العلماء المختصين في دراسة اللغة العيلامية وترجمة نصوصها •

لذلك فان الباحث في استقصائه تاريخ العيلاميين وعلاقاتهم بوادي الرافدين انما يعتمد اساسا على المراجع السومرية والاكدية والبابلية والاشورية التي سجلت تفاصيل على قدر كبير من الاهمية حول الموضوع ومن حقبات زمنية مختلفة ابتداء من حدود ٢٧٠٠ ق•م وحتى آخر الادوار الحضارية لوادي الرافدين • والمراجع المسمارية التي نحن بصددها الآن متنوعة فهي تشمل كتابات الملوك بما في ذلك السجلات التأريخية واخبار الحملات العسكرية والمراسلات الرسمية والوثائق الاقتصادية • يضاف الى ذلك عدد من التآليف الادبية وبعض الشروح والتعليقات على احداث معينة ورد ذكرها في نصوص الفأل البابلية والتي كان لها علاقة بطريقة او باخرى ببلاد عيلام • كما ان هناك عددا من المشاهد على المسلات الحجرية والمنحوتات الجدارية التي تمثل انتصارات ملوك وادي الرافدين على القبائل الجبلية في المنطقة الشرقية وعلى العيلاميين انفسهم وبعضها يتضمن كتابات بالخط المسماري توضح ما تمثله تلك المشاهد •

٣ ـ العلاقات مع عيلام

ان اقدم اشارة الى بلاد عيلام في النصوص المسمارية وردت في قائمة الملوك السومرية وتتضمن ان ملك كيش انميراجيسي (في حدود ٢٧٠٠ ق٠م) « غنم اسلحة بلاد عيلام » ٠ ولكن بعد ما يقرب من مائة وخمسين سنة من تاريخ هذا الحدث اي في حدود ٢٥٥٠ ق ٠ م نقرأ في القائمة نفسها ان « مدينة اور قهرت بالسلاح وان ملوكيتها نقلت الى اوان » (من المحتمل ان تكون ضواحي ديزفول الحالية) مما يدل على قيام مملكة قوية في عيلام كانت مناوئة للسومريين في وادي الرافدين ٠

وتبدأ معلوماتنا عن العلاقات مع عيلام والاقوام الجبلية المحاددة في الشمال الشرقي بالازدياد والوضوح بقيام الامبراطورية الاكدية على يد سرجون (٢٣٧١ـ٢٣١٦ ق ٠ م) ٠ ومعروف ان سرجون الاكدي وخلفاءه اهتموا كثيرا بتطوير الجيش ٠ والراجح ان سرجون كان اول من اوجد نظام الجيش الدائم في البلاد ، كما شهد العصر الاكدي تغييرا في نوع السلاح ٠ فقد جرى استخدام اسلحة القذف الخفيفة (مثل القوس والسهم والرمح بشكل أوسع من ذي قبل) وربما ابطلت طريقة القتال بموجب نظام الصف وهو الاسلوب الذي كان شائعا في السابق لانه لايساعد على سرعة الحركة والمناورة ٠

لقد استطاع سرجون خلال المراحل الاولى من حكمه ان يقضي على كافة دويلات المدن في الداخل وان يحقق وحدة البلاد السياسية بصورة كاملة٠ بعد ذلك اتخذت فتوحاته العسكرية اتجاهات متعددة ٠ ففي الجهة الغربية امتد نفوذه ليشمل مناطق الفرات ابتداء من هيت وشمال سوريا وصولا الى غابات الارز (جبال امانوس) وجبال الفضة (طوروس) ٠ اما في الجنوب فيذكر احد النصوص المسمارية العبارة المأثورة « ان سرجون غسل سلاحه في مياه البحر السفلي » أي مياه الخليج العربي ٠ ويذكر نص آخر عن

اعمال سرجون العسكرية وانتصاراته انه خاض ثلاثا واربعين معركة وانه نتيجة لذلك كانت السفن من بلاد ملوخا (حوض نهر السند) وبلاد دلمون (البحرين) تأتي محملة بالغنائم لترسو في مرفأ العاصمة اكد ٠ وبتعبير آخر فان سرجون استطاع احكام سيطرته على الخليج العربي وعلى الطرق التجارية البحرية في المنطقة ٠

واستطاع سرجون على الجبهة الشرقية للامبراطورية ان يهيمن على القبائل المناوئة في جبال زاكروس ويفرض سيطرته على العيلاميين لمدة طويلة من الزمن نسبيا ٠ ولذلك فقد كان جديرا بان يلقب نفسه ، ضمن اشياء اخرى ، « ملك كيش ، قاهر عيلام ، ومرخشي » ٠ ومن المعروف ان عددا من ملوك وادي الرافدين الاقوياء تلقبوا بلقب ملك كيش (تل الاحيمر حاليا) افتخارا بمجد هذه المدينة السومرية العريقة واعتزازا بمنجزات ملوكها٠ اما « مرخشي » فهي تدل في الغالب على منطقة جبال بوشته ـ كوه والاراضي الواقعة في اعالي نهر الكرخة الى الشمال الغربي من بلاد عيلام ٠ ويعدد سرجون في احدى كتاباته قائمة باسماء المدن والمقاطعات التي شملتها فتوحاته في الجهة الشرقية من الامبراطورية واهمها عيلام ، ومرخشي ، اوان ٠٠٠ والمهم في ذلك من الوجهة التأريخية ايضا انه ذكر اسم سنام ـ سيموت (Sanam - Simut) حاكم عيلام و لوخ ـ اشان (Lukh - Ishshan) ملك اوان ٠ ان هذه اول مرة تتلاقى فيها الكتابات التاريخية من وادي الرافدين مع المصادر العيلامية ذلك لان الملك الاخير تذكره المصادر العيلامية ايضا باعتباره الملك الثامن في سلالة اوان ٠

والراجح ان سرجون شن حملته العسكرية على عيلام في السنوات الاخيرة من حكمه (ربما في حدود ٢٣٢٥ ق ٠ م) بعد ان تم له توطيد نفوذه في الجهات الاخرى من الامبراطورية ٠ ويستشف الباحث من

التفاصيل التي توردها ثلاثة نصوص فأل بابلية ان الجيش الأكـدي بقيادة سرجون واجه المخاطر والصعاب اثناء عملياتـه العسكرية في بـلاد عيـلام ومرخشي • ولا يستبعد ان يكون الاكديون قد تعرضوا الى عاصفة هوجاء اثناء ذلك او ربما واجهوا مخاطـر كبيرة عند اجتياز الغابات الكثيفة في جبال لورستان • فأحد هذه النصوص يذكر على سبيل المثال ان الالهة عشـتار اخرجت سرجون بسلام من ظلمة حالكة وهو في بلاد مرخشي •

وعندما توفي سرجون الاكـدي خلفه ابنـه ريموش (٢٣١٥–٢٣٠٧ ق • م) الذي واجه ثورة عامة في عدد من المدن السومرية استغرق القضـاء عليها السنوات الاربع الاولى من حكمه • وانتهزت بلاد عيلام وعدد مـن المقاطعات الشرقية وفاة سرجون والاوضاع السياسية الداخليـة فاعلنـت العصيان • وتتحدث النصوص المسمارية مـن زمن الملك ريموش عن قيام حلف يتكون من عيلام ومرخشي ومقاطعة اخرى تسمى زخارا •

وفي حدود ٢٣١٢ ق • م سار الملك الاكدي ريموش باتجاه الشـرق سالكا نفس الممرات الجبلية الصعبة التي سلكها ابوه سرجون من قبل عند هجومه على منطقة مرخشي مرورا بجبال بوشته – كوه وحتى وادي نهـر الكرخة في بلاد عيلام حيث واجه قوات اعدائه ، فجرت معركة انتصـر فيها الملك الاكدي ولاحق فلولهم المهزومة في سهل (شوش) • وقد جرت هناك معركة ثانية في المنطقة الواقعة بين اوان (قرب ديزفول) والعاصمة سوسه كان النصر فيها حاسما للملك الاكدي الذي يخبرنا في احدى كتاباته عن هـذه المعركة فيقول بانه احصى « اكثر من ١٧٠٠٠ قتيل واكثر من ٤٠٠٠ اسير » وانه غنم كميات كبيرة من الذهب والنحاس اهدى منها مازنتـه ٣٠ رطـلا (الرطل = حوالـي نصـف كغـم) من الذهب و ٣٦٠٠ رطـل مـن النحاس الى الاله انليل في مدينة نفر مع ستة عبيد ذكورا واناثا • وكان اعتزاز ريموش كبيرا بانتصاره على عيلام ومرخشي فخلـد ذلك كتابة على اجـزاء

عديدة من الاواني الرخامية التي غنمها من عيلام والتي وزعها علـى المـدن في انحـاء مختلفـة من الامبراطوريـة •

وبقيت عيلام تابعة للامبراطورية الاكدية حتى السنوات الاولى مـن حكم الملك مانشتوسو (٢٣٠٦–٢٢٩٢ ق • م) خليفة ريموش • وكدليـل على هذه التبعية قام حاكم مدينة سوسه المسمى اشبم (Eshpum) بصنع تمثال من الحجر للملك الاكدي وكرسه الى الهة النصر ناروتته (Narunte) مـن اجل سيده مانشتوسو • ولكن لم تلبث حركات العصيان والتمرد ان انتشرت في انحاء مختلفة من الامبراطورية ومنها انشان التـي قلنا عنها انها تشـمل المناطق الجبلية الى الشمال والشرق من شوش (سوسه) • وتذكر الكتابات المسمارية ان الملك الاكدي هاجم انشان وجاء بملكها اسيرا الى معبد الـه الشمس في مدينة سبار ومعه كثير من الهدايا الى هذا الاله •

وقدر للامبراطورية الاكدية ان تصل مرة ثانية الى الذروة في قدراتها وفتوحاتها العسكرية ايام حكم الملك نرام – سين (٢٢٩١–٢٢٢٥ ق • م) الذي يعتبر بحق من اعظم الملوك الذين خلفوا جده سرجون • وكدليل على قوة الامبراطورية في عصره فانه تلقب بلقبين جديدين في كتاباته التاريخيـة اولهما « ملك الجهات الاربع » وثانيهما « ملك العالم » • وخاضت جيوش الاكديين في زمانه معارك ضارية في سبيل اخماد الفتن والاضطرابات التـي حدثت قبيل توليه مسؤولية الحكم • فعلى الجبهة الغربية اعاد فرض السيطرة الاكدية على ماري في منطقة الفرات الاوسط وعلى المدن والاراضي الواقعة على الخابور وصولا الى جنوب شرق آسيا الصغرى • وفي الجنوب استولى على مكان (عمان) واسر حاكمها المسمى مندنو (Mandannu) .

خاض نرام – سين اعنف معاركه في المناطق الجبلية المحاددة للعـراق من الجهة الشمالية الشرقية حيث تستوطن قبائل لولوبو والگوتيين • وقد خلـد انتصاره على قبائل لولوبو في منحوتة على السفح المنحدر لممر دربندي

كاور في جبل قرهداغ الى الجنوب من السليمانية • ويتكرر موضوع هذه المنحوتة الجبلية على المسلة الحجرية التي عثر عليها في العاصمة العيلامية والتي تعرف بين الآثاريين بمسلة النصر • وهي تصور الملك نرام ـ سين حاملا القوس والرمح وعلى رأسه خوذة مقرنة وهو يصعد جبلا شاهقا وقد تساقط العديد من الاعداء قتلى تحت قدميه • وتذكر الكتابة المسمارية المنقوشة على المسلة انها تخلد انتصار الملك الاكدي نرام ـ سين على ساموتي (Samuti) ملك لولوبو • وجدير بالذكر ان العيلاميين كانوا قد اخذوا هذه المسلة مع غنائم اخرى عند غزوهم بلاد بابل في عصر لاحق •

وتميزت العلاقات مع عيلام خلال حكم الملك نرام ـ سين بكونها سلمية ، اذ ليس هناك في كتابات الملك التاريخية مايشير الى قيامه بأي نشاط عسكري ضد عيلام علما بان تبعيتها وخضوعها للنفوذ الاكدي كانت واضحة في عصره اكثر من اي وقت آخر • وكانت السلطة السياسية في عيلام عندئذ بيد سلالة تحكم في مدينة اوان • والراجح ان الملك الحادي عشر في هذه السلالة (اسمه خته Khita) كان يعاصر الملك نرام ـ سين ، والراجح ايضا انه هو الذي وقع عن الجانب العيلامي على معاهدة او اتفاقية مع نظيره الملك الاكدي والتي عثر عليها مدونة على رقيم من الطين في سوسه •

ومما تجدر ملاحظته بشأن هذه المعاهدة انها دونت باللغة العيلامية في حين ان كل النصوص المكتشفة في عيلام من هذا العصر مدونة باللغة الاكدية• ولكن مايؤسف له ان الرقيم الذي كتبت عليه الوثيقة مخروم في مواضع عديدة مما تسبب في ضياع اجزاء كبيرة من النص وفي صعوبة قراءة ماتبقى منه يضاف الى ذلك ان معرفتنا مازالت محدودة في حقل مفردات اللغة العيلامية • وعلى اية حال فان المعاهدة كانت قد اودعت في معبد الاله إنشوشنك في العاصمة العيلامية وتم العثور عليها اثناء التنقيبات هناك وهي

محفوظة في متحف اللوفر بباريس • ويظهر ان المعاهدة كانت على قدر كبير من الاهمية بالنسبة للبلدين بحيث ان الملك نرام ـ سين حضر شخصيا الى العاصمة العيلامية بالمناسبة ومعه بعض رجال بلاطه وانه جرى تكريس تمثال للاله من اجل حياة الملك الضيف •

ويستشف من بعض اجزاء النص التي أمكن قراءتها ان هذه المعاهدة تبدأ بذكر اسماء عدد كبير من الآلهة من اجل ان تبارك المعاهدة وتضمن تنفيذ محتواها ويأتي في مقدمتهم الالهة العيلامية پنيكير (Pinikir الام العظيمة للالهة) • ونقرأ في موضع آخر وعلى لسان الملك العيلامي قوله : «ان عدو نرام ـ سين عدو لي ايضا وان صديق نرام ـ سين صديق لي ايضا» • ثم يأتي وفي سياق غامض ، ذكر ارسال رهائن عيلاميين الى اكد والتزام رعايا الملك العيلامي بالدفاع عن حلفاء نرام ـ سين •••

ويتضمن قفا الرقيم بين اشياء اخرى الدعاء لان « يصان السلام ، ويزول الخلاف ويتحطم اعداء ـ كلا الحليفين ـ والا يظهر الشر بعد الآن •••» ونقرأ عن الملك العيلامي قوله : « وبصفتي عونا لنرام ـ سين فقد قدمت الاضاحي للاله انشوشنك » ومن ثم يستنزل لعنات الآلهة على كل من يحاول سرقة المعاهدة من المعبد • ان الظروف والدوافع لعقد هذه المعاهدة غير واضحة خاصة وان الامبراطورية الاكدية كانت في اوج عظمتها العسكرية ايام الملك نرام ـ سين • ويرى بعض الباحثين ان الملك الاكدي ربما اراد ضمان موقف عيلامي من قبائل الكوتيين الجبلية التي تحادد عيلام من الشمال بين همدان وبحيرة ارميا • وعلى اية حال فان النفوذ الاكدي في بلاد عيلام كان واضحا كما قلنا في زمن الملك نرام ـ سين ففي مدينة سوسه شيدت المباني بآجر مختوم باسم الملك الاكدي واقيمت له عدة تماثيل كما نصب الملك الاكدي حاكما تابعا على العاصمة (اسمه Epir - mupi) • وبلغ تأثر العيلاميين بالثقافة الاكدية حدا بحيث

ان الوثائق القانونية والادارية في هـذا العصر كتبت باللغة الاكدية وليس بالعيلامية بالاضافة الى وجود عقـود ومراسلات مدونة بالاكدية ايضا .

غير ان النفوذ الاكدي في عيلام سرعان ما تعرض الى هـزة قوية وجاء الـى نهايته في زمـن شاركليشاري (٢٢٥٤ـ٢٢٣٠ ق ٠ م) الذي خلـف اباه نرام ـ سين في الحكـم . فقد اعلـن حاكم بـلاد عيـلام كوتك ـ انشوشنك (Kutik - Inshushinak) استقلالـه عن اكد واكثـر من ذلـك فانه قاد حملات عسكرية داخل الاراضي الاكدية الواقعة في اعالـي منطقة ديالـى . وفي عـام ٢٢٤٠ ق ٠ م توج هـذا الحاكم ملكـا علـى بلاد عيلام . وبذلك اصبح الملك الثاني عشر في التسلسل في سـلالة اوان وخليفة الملك (خته) الـذي عقد المعاهدة مع نرام ـ سين . وقـد بلغ هذا الملك العيلامي من النفوذ والجرأة بحيث اطلق علـى نفسـه القابـا فضفاضة مثل «ملك اوان العظيم» «ملك البلاد» وأدعى ، بان الاله انشوشنك اعطاه ملوكية « الجهات الاربـع » .

غير ان اشد الاخطار التي واجهتها الامبراطورية في زمن شاركليشاري جاءت من منطقة جبال زاكروس المحاددة لوادي الرافدين من جهة الشـرق حيث تستوطن قبائل لولوبو والگوتيين . وقـد قلنـا في موضع سابق ان هـذه القبائل كانت متخلفة حضاريا وكانت تتحين الفرص للهجوم على البلاد طمعا في خيراتها . ولذلك فقـد استنزف الملوك الاكديون قوى كبيرة لكبح جماحها ولو الى حين من الزمن . وقد انتهز الگوتيون ارتباك الاوضـاع السياسية في البلاد اثر مقتل الملك الاكدي في قصره في حدود (٢٢٣٠ ق٠م) فقاموا بهجوم عنيف علـى المدن الاكديـة فاكتسحوها وكانت العاصمة اكد من ضمنها .

كانت الصدمـة التـي نتجت عـن الغـزو الگوتي عنيفـة جـدا وخاصة في مراحلها الاولى حيث دمـرت العاصمة اكد تدميرا كاملا واحتلت بقية المدن الرئيسة . وكانت السنوات الثلاث الاولى من الاحتلال الگوتـي (في حـدود ٢٢٥٩ـ٢٢٢٧ ق ٠ م) تمثل فوضـى سياسـية بكـل ما في هـذه الكلمة من معنى . ويمكن القول في ضوء الادلة التأريخية ان الگوتيين لـم يستطيعوا بصورة عامة وعلى الرغم من انتصارهم العسكري ترسيخ نفوذهم والهيمنة على البـلاد ويظهـر ان حكمهم كان متركزا في مدن اكد وشمالها اكثر مما هو في المدن السومرية الى الجنوب .

ان هذه الحقائق هي التي تفسر ظهور عدد من الملوك الاكديـين فـي الميدان السياسي مجددا . ولاشك في ان هؤلاء كانوا تحت وصاية الحكم الگوتي ، غـير انه مما يلفت النظر حقا ان بعضا من هؤلاء الملوك مثـل شدورل استطاع ان يحكم مدة ليست قصيرة نسبيا (٢٢٠٥ـ٢١٩١ ق ٠ م) وانه تمكـن من ان يمـد نفوذه الى منطقة اشنونا فـي ديالى .

امـا في الجنوب من وادي الرافدين فيظهـر ان وطأة الحكـم الگوتي كانت اخف كثيرا مما سمح بدوره لظهور سلالات محلية سومرية مثل السلالة الرابعة في مدينة الوركاء والسلالة الثانية في مدينـة لكش . ويتضح مـن الوثائق السومرية التي يعود زمنها الى عصر سلالة لكش الثانية ، وخاصـة تلك التـي ترجع الى كوديا (في حدود ٢١٢٥ ق ٠ م) ان بعضا من الحكام السومريين استطاعوا ، علـى الرغم من الوجود الگوتي ، ان ينجـزوا مشاريع عمرانية ويقيموا صلات تجارية خارج القطـر .

وبعد صمت استغرق قرنا من الزمـن خـلال حكم الگوتيين تـرد الاشارة مجددا الى بلاد عيلام في النصوص المسارية من زمن كوديا امير

سلالة لكش الثانية ، اذ يذكر في كتابة على احد تماثيله انه قهر بالسلاح مدينة انشان في عيلام ويذكر في مكان آخر عن « مجيء العيلاميين من عيلام والسوسيين من سوسه » من اجل مساعدته في بناء معبد الاله ننكرسو في مدينة لكش ٠ ويبدو من هاتين الاشارتين ان عيلام كانت تحت نفوذ السومريين في حين كان نفوذ المحتلين الگوتيين محصورا في المدن الواقعة الى الشمال من سومر ٠

بقي الگوتيون في الحكم في بلاد وادي الرافدين مدة تزيد على قرن من الزمن (٢٢٣٠–٢١٢٠ ق ٠ م) تعاقب خلالها واحد وعشرون ملكا لانعرف عن معظمهم سوى الاسماء ٠ ومن المعروف عن الگوتيين انهم كانوا من الوجهة الحضارية اوطأ بكثير من البلاد التي احتلوها ولذلك وقعوا تحت تأثير مقوماتها ومظاهرها الحضارية ٠ حتى اننا نجد ان بعض ملوكهم المتأخرين تسموا باسماء جزرية (سامية) كما انهم تأثروا بالمعتقدات الدينية التي كانت سائدة بين السومريين والبابليين ٠ وتعتبر فترة حكم الگوتيين من الوجهة التاريخية من اول الفترات المظلمة في تاريخ وادي الرافدين ٠ فهي فترة تتصف بندرة واضحة في الكتابات التاريخية وبغموض يكتنف الاوضاع السياسية ، واهم من ذلك كله توقف عجلة التقدم الحضاري مدة قرن من الزمن في مجالات الفكر والفنون والبناء ٠ ومما تجدر ملاحظته ايضا انه لم يصلنا من الملوك الگوتيين انفسهم شيء يستحق الذكر كما ان المصادر المسمارية المتوفرة تغفل ذكرهم بشكل واضح مما يدل على كراهية سكان البلاد لهم ٠

ثم جاءت نهاية الحكم الگوتي واخراجهم من بلاد وادي الرافدين على يد زعيم سومري قوي من مدينة الوركاء اسمه اوتوحيكال ٠ اذ استطاع هذا

الزعيم ان يجمع حوله المقاتلين من المدن السومرية وان يقودهم في حرب فاصلة مع الگوتيين تعتبر اقدم حرب للتحرير عرفها التاريخ ٠ وقد ترك لنا اتوحيكال تفاصيل حربه مع الگوتيين وانتصاره على ملكهم تريكان مدونة على وثيقة سومرية يصف فيها همجية المحتلين وتعسفهم في البلاد وكيف انه انبرى لملاقاتهم بأمر من الآلهة وعلى رأسهم الالهة انانا (عشتار) « لبوة الحرب التي تهاجم كل البلدان الاجنبية » لاسترجاع الملوكية الى بلاد سومر من ايدي الگوتيين ٠ ويصف اوتوحيكال هؤلاء الگوتيين فيقول : « فوّض الاله أنليل ملك البلدان ، الرجل العظيم اوتوحيكال ملك الوركاء ، ملك جهات (العالم الاربع) الملك الذي لا يستطيع احد مخالفة امره ، ان يحطم اسم «الگوتي» افعى وعقرب الجبال الذي رفع يده ضد الالهة ، الذي نقل ملوكية سومر الى بلاد اجنبية ، وملأ بلاد سومر بالعداوة ، الذي ابعد الزوجة عمن كانت له زوجة ، وابعد الطفل عمن كان له طفل واقام العداوة والعصيان في البلاد٠٠» ويستدل من النص موضوع البحث ، ونصوص مسمارية اخرى معاصرة ، الى تعسف الگوتيين في حكم البلاد ونهبهم خيراته والى فقدان الامن وانتشار السراق وقطاع الطرق ٠ بعد ذلك تتحدث وثيقة التحرير للملك اوتوحيكال عن تحركات الجيش السومري والمدن التي توقف فيها وهو في طريقه لملاقاة الگوتيين ٠ ثم تذكر في النهاية ان الملك الگوتي تريكان فر من ارض المعركة والتجأ هو واهله الى احدى المدن ٠ فالقى سكانها القبض عليه وسلموه الى اوتوحيكال ٠

لقد انتهى حكم الملك اوتوحيكال بقيام سلالة جديدة في مدينة اور (٢١١٣–٢٠٠٦ ق٠م) قدر لها ان تكون اعظم وآخر سلالة سومرية عرفها التاريخ ٠ وقد تميز عصر مؤسسها اورنمو (٢١١٣–٢٠٩٦ ق ٠ م) بعلاقات

سلمية مع عيلام • اما خليفته الملك شولكي فقد شن حملات عسكرية ضد
انشان واستطاع الاستيلاء على العاصمة سوسه (عام ٢٠٧٨ ق٠ م) التي
بقيت تدار من قبل حكام تابعين له لسنوات عديدة تمكن خلالها ان يوطد
علاقاته مع رجال الدين العيلاميين بوجه خاص حتى انه امر ببناء معبد للاله
العيلامي شوشنك في العاصمة سوسه • وظلت العاصمة العيلامية تابعة لنفوذ
سلالة اور الثالثة خلال حكم امار – سين و شو – سين اللذين خلفا الملك
شولكي بالتعاقب • وعلى الرغم من تفوق ملوك سلالة اور على عيلام فانهم
من جهة اخرى حاولوا اقامة علاقات سلمية مع ملوكها عن طريق تزويج
بعض الاميرات السومريات الى الملوك العيلاميين • فيذكر احد النصوص
السومرية ان الملك شو – سين زوج ابنته الى ملك انشان (المنطقة الجبلية
الى الشمال والشرق من عيلام) • وجدير بالذكر ان جده شولكي فعل ذلك
من قبل عندما زوج احدى بناته الى حاكم مرخشي والاخرى الى حاكم انشان •

جاء بعد شو – سين الى الحكم في اور ابنه ابي – سين (٢٠٢٩–
٢٠٠٦ ق ٠ م) الذي حفل حكمه باحداث جسيمة كما سنرى ذلك بعد قليل •
ويظهر من الاحداث ان الامور كانت تسير على ما يرام في المرحلة الاولى من
بداية حكمه بدليل استمرار تدفق الضرائب الى العاصمة اور واستمرار كبار
المسؤولين في الدولة في مناصبهم التي كانوا يشغلونها في عهد ابيه • ولكن
سرعان ماتفجر الوضع في عيلام ضد النفوذ السومري واخذت بوادر الانشقاق
تظهر في الداخل بدليل ان بعض المدن الكبرى مثل اشنونا واوما ونفر لم
تعد تلتزم بالتقويم المركزي للعاصمة اور في تاريخ الوثائق الادارية والاقتصادية •
ومن المؤشرات الى ضعف السلطة المركزية ان بعض امراء المدن توقفوا اعتبارا
من السنة السادسة لحكم الملك ابي – سين عن ارسال النذور المعتادة الى
معبد اله القمر في العاصمة •

واصبحت الاوضاع على الحدود الغربية من البلاد تنذر بالخطر نتيجة
لهجمات قبائل الاموريين الذين اخذوا يهددون امن المدن السومرية نتيجة
لتغلغلهم في البلاد • واضافة الى ذلك فقد ساءت الاوضاع الاقتصادية اكثر
من اي وقت مضى بسبب نقص المواد الغذائية • وتوضح الرسائل التي
تبادلها الملك ابي – سين مع مبعوثه اشبي – ايرا ان الحاجة كانت شديدة
الى الحنطة وان الملك السومري كان على استعداد لدفع سعر مضاعف للحصول
عليها • ويظهر من هذه الرسائل ان المبعوث لم يستطع ايصال الحنطة الى
العاصمة بسبب هجوم الاموريين ، ولذلك فانه طلب من الملك ان يخوله مهمة
الدفاع عن مدينتي ايسن ونفر ضد المهاجمين الاموريين • ولم يكن بمقدور
الملك الا الموافقة على الطلب • وعلى الرغم من ان ابي – سين استطاع دحر
الامورريين فيما بعد الا ان الاوضاع الاقتصادية والسياسية كانت من العوامل
المهمة في اضعاف حكمه • فقد كثر المنشقون من حكام المدن السومرية
واستغل اشبي – ايرا ارتباك الاوضاع فاعلن استقلاله في مدينة ايسن
في السنة الحادية عشرة من حكم الملك ابي – سين (في حدود ٢٠١٧ ق م) •
وجدير بالذكر ان احد شيوخ الاموريين واسمه نبلانم سبق له وان استقل
قبل هذا التأريخ بسنوات قلائل (٢٢٢٥ ق٠م) في مدينة لارسة التي لا تبعد
اكثر من ٢٥ميلا عن العاصمة اور •

ان تدهور الحياة الاقتصادية وارتباك الاوضاع السياسية وضعف
سلطة الملك ابي – سين التي اصبحت في السنوات الاخيرة من حكمه مقتصرة
على العاصمة اور كان فرصة ثمينة للعيلاميين الذين كانوا يراقبون سير الاحداث
في سومر عن كثب ، وفي عام ٢٠٠٦ قام العيلاميون بالهجوم على سومر فاحتلوا
العاصمة اور ودمروها واحرقوها واخذوا الملك ابي – سين اسيرا الى عيلام •

ان الكارثة التي حلت بالعاصمة السومرية على يد العيلاميين بقيت مصدر حزن والم في نفوس سكان بلاد وادي الرافدين ولأزمان طويلة لاحقة وقد سجل السومريون انفسهم هذه الحادثة للتأريخ في اكثر من مكان على رقم الطين ، ونظم فيها شعراؤهم قصائد رثاء حفظت ضمن اشياء كثيرة وحشية العيلاميين الذين قتلوا السكان رجالا ونساء واطفالا حتى طفت جثثهم كالاسماك في مياه النهر ، على حد تعبير النص السومري • ولم تسلم من معاولهم المعابد والابنية المقدسة وفي مقدمتها المعبد الرئيسي في المدينة الخاص باله القمر سين •

★ ★ ★

الفصل الثاني

الصراع مع العيلاميين

٢٠٠٦ - ٩٣٣ ق.م

برهنت نتائج التنقيبات والأبحاث الاثرية بصورة لاتقبل الشك على ان بلاد ايران (وخاصة عيلام) قد تأثرت بحضارة وادي الرافدين تأثرا مباشرا واقتبست الكثير من مقوماتها •• ولا عجب من ذلك لان عيلام كانت على صلة وثيقة بمراكزنا الحضارية نتيجة لكونها جزءا متمما لاراضي السهل الرسوبي •

لقد عدت التوراة العيلاميين أحد الاقوام « السامية » وهذا ما ورد في سفر التكوين الاصحاح العاشر (الفقرة ٢١ وما يتبع) : « وسام أبو كل بني عابر اخو يافث الكبير ، وولد له بنون ، بنو سام عيلام وآشور وارفكشاد ولود وآرام •• » الا ان الكثير من المعنين بالدراسات اللغوية والتوراتية اعتبروا معلومات هذه الفقرة لا تتطابق مع البيانات الاثرية المتوفرة عن العيلاميين • وهم يهدفون من وراء ذلك الى طمس حقيقة تواجد « الساميين » في هذه المنطقة (عيلام) • ان الحقيقة تغاير مثل هذا الادعاء فهناك دلائل اثرية تثبت تواجد أقوام الجزيرة العربية (الساميين) منذ اقدم العصور في المنطقة المعنية وخاصة الجزء الجنوبي من بلاد عيلام والتي تشل المنطقة المعروفة باقليم عربستان •• ويؤكد لنا ذلك البروفسور ساكز بقوله

في المنطقة قبل القرن السابع ق.م « اما الفرس الغزاة فلم يكن لهم اي تواجد في المنطقة قبل القرن السابع ق.م وبالتحديد في العصر الاخميني حيث استطاع احد ملوكها تسمية نفسه بملك انشان Anshan والتي لا تمثل سوى جزء من مملكة عيلام • ويعزز هذا الرأي قول الاستاذ ستولبر « بان شوشة اضيفت مؤخرا الى عيلام وان المملكة العيلامية تكونت في مكان آخر الى الشمال والشمال الشرقي من عيلام » • وهذا يؤكد ماذهب اليه ايضا الاستاذ الالماني هنز بقوله « ان سكان عيلام يتكونون من عدة أجناس كالفرس والعيلاميين والساميين لا بل ويذهب الى ابعد من ذلك من خلال توزيعه هذه المجاميع السكانية على المناطق الجغرافية حيث يضع الفرس عند ولاية سيماشكي وبالتحديد شمال شرقها وشمال انشان واما العيلاميون فيحدد وجودهم بجنوب سيماشكي وآوان واما الساميون فيرى بانهم سكنة منطقة شوشن وما يجاورها •

كتب السومريون اسم بلاد عيلام بالعلامة الرمزية **NIM** والتي من معانيها « الهضبة » او « النجد » ويمكن ان نستدل من خلال ذلك ان سكنة بلاد وادي الرافدين اعتبروا ان عيلام تقع عند الجبال وليس في السهل المحيط بشوشة • اما العيلاميون انفسهم فكتبوا اسم بلادهم بالعلامات المسمارية **ḫal-ta-am-ti** والتي يمكن ان تمثل الكلمات العيلامية **Ḫal-tampt** وأن **Ḫal** تعني « بلاد » و **tampt** « سيد » أي ان العيلاميين رأوا في بلادهم انها تمثل « بلاد السيد » او بمعنى مجازي « بلاد الرب » ولكن ذلك غير مؤكد •

ان العيلاميين والقبائل الجبلية التي كانت تتاخم حدودنا الشرقية والشمالية الشرقية ما انفكت من استغلال الاوضاع والظروف السياسية الداخلية لفترات معينة عبر تاريخ بلاد وادي الرافدين لتوجيه هجمات وغزوات نحو

المراكز الحضارية وكان سبب كل ذلك ليس ، كما يزعم البعض من الباحثين ، لتأمين الطرق التجارية فحسب بل كان صراعا حضاريا كما يجمع على ذلك معظم الباحثين • أي ان الصراع المستديم بين شعب بلاد وادي الرافدين وشعوب الهضبة الايرانية لم يكن للاختلافات الجغرافية او الطوبغرافية وانما كان صراعا حضاريا • ويذكرنا الاستاذ بوتز ايضا بان دلمون (البحرين) ومكان (عمان) وغيرهما من المراكز الحضارية في الخليج العربي كانت تزود بلاد وادي الرافدين بالبضائع المستوردة اكثر مما تزودها بلاد عيلام ويرجع سبب ذلك الى استمرار الحرب بين الهضبة الايرانية ومراكز الحضارة في بلاد وادي الرافدين • هذا فضلا عن الحاجة الملحة لشعوب بلاد فارس الى الحبوب والتمور والملابس التي كانت تتزود بها من بلاد وادي الرافدين •

ولعل خير شاهد على حقد سكنة بلاد فارس على وادي الرافدين تدميرهم للمدن الحدودية ومن ثم توجههم الى المراكز الحضارية لازالتها من الوجود ونهبهم لرموز المدن كتماثيل الآلهة الرئيسية للمدينة المدمرة او النصب التي تخلد أعمال الخالدين من ابطال بلاد وادي الرافدين كمسلة النصر لسرجون ومسلة النصر لنرام – سين ومسلة مانشتوسو ومسلة حمورابي ومحاولتهم ازالة اجزاء من القوانين المدونة عليها •• وابرز الامثلة كلها يبقى بطبيعة الحال نهبهم لتماثيل الالهة ننا وكبير آلهة البابليين مردوخ•• ويرى بعض الباحثين بان ما اصاب التمثال النحاسي الجميل لسرجون الاكدي من تخريب في العينين وجدع الاذنين ، كان من عمل احد الملوك الفرس الذي ترك التمثال المسلوب عند اندحاره في احدى المعارك امام الجيش الآشوري قبيل سقوط نينوى •

ومن المؤكد ان مثل هذا الثقل الحضاري المتميز لبلاد وادي الرافدين ما كان ليتحقق لولا القدرات الكامنة على الاستمرار في عملية البناء والتطوير وامتلاك القدرة الذاتية للنهوض بعد كل كبوة لمواصلة المسيرة من جديد •

لما تكالبت الاطماع على هذه الارض المعطاء من بلدان دانية وقاصية من الشرق القديم .. واسهمت بلاد فارس في تأجيج هذه الاطماع بالرغم من كونها قد تأثرت بالحضارة العراقية وانتهلت العديد من مقوماتها .. فحدا كل ذلك بأجدادنا القدماء ومنذ عصور مبكرة جدا للاهتمام ببناء جيش قوي يدرأ عن البلاد اطماع القوى الخارجية ويحفظ لها في الوقت نفسه ما حققته من منجزات حضارية .. وبالرغم من الفترات العصيبة التي مرت ببلاد وادي الرافدين غير ان مثل هذه الفترات كانت دائما تنجلي عن فجر جديد وعهد مشرق ينهض فيه اهل البلاد لمواصلة الكفاح وطرد الاجنبي المغتصب والعمل مجددا على ان تأخذ بلاد وادي الرافدين مركزها المرموق المتقدم بين بلدان العالم .

ولم يكن الحقد وحده هو الحافز على التجاوز والاعتداء بل مرض العقل والنفس وقد اشار الى ذلك احد الاساتذة البريطانيين المرموقين عالميا وهو الاستاذ ساكز الذي قال « الظاهر ان السلالات الملكية الحاكمة في بلاد عيلام كانت مبتلية بمرض تخلف عقلي وراثي فهناك العديد من النصوص الكتابية لملوك عيلام ومن مختلف العصور التأريخية يشيرون فيها الى ان (عقولهم قد تبدلت) وهذه الحقيقة لا تعني ان الملك العيلامي قد بدل سياسته وانما تعني انه قد اصبح مخبولا ومصابا بضرب من الجنون والهوس » .

والسبب الآخر الذي دفع هؤلاء الفرس للعدوان ربما يكمن في طبيعة نظام حكمهم وادارته . فالمقومات الاساسية لهذا النظام ليست الازدواجية فحسب بل تعدد اطراف الحكم او رؤوسه الى ثلاثة في احسن الظروف وربما اكثر من ذلك.. مما جعل مسألة الحرب والعدوان مسألة تنفيس عن الاوضاع المضطربة .. وهذه الحالة كانت شائعة في حكم كل الولايات العيلامية وبخاصة آوان وانشان ومرخشي وسيماشكي واحيانا شوشة والى أواخر حكم العيلاميين الذي دام حتى بعيد سنة ٦٤٠ ق.م .

وباختصار يمكن استعراض طبيعة هذا النظام منذ بدء حكمهم حيث نرى بان نظام الحكم في عيلام عبارة عن اتحاد امارات بادارة احد الامراء المعين من قبل السومريين أو الاكديين والى بداية عهد ملوك سلالتي ايبس ولارسا (او بتعبير أدق العهد البابلي الاقدم ٢٠٠٦ـ١٨٠٠ق.م) وربما امتد ذلك حتى عهد حمورابي من سلالة بابل الاولى .. اما في فترات استقلال عيلام السياسي لبعض الوقت فان الحاكم لقب نفسه بـ « الملك » او « ملك انشان وشوش » احيانا ..

وفي مطلع العهد البابلي القديم (في حدود ١٨٠٠ ق.م) كان يطلق على الحكام العيلاميين اللقب السومري **sukkal-mah** « الوالي الاعظم » والى جانبه كان يحكم امير او امراء .. وبالاستناد الى قانونهم ذي الطبيعة الفدرالية فان الامير وولي العهد الذي يكون اخا الملك الاصغر منه سنا ... ولهذا فان وراثة العرش كانت للاخوة وليست للابناء ، ومن جملة القاب هؤلاء « حكام عيلام وسيماشكي » وكان « الوالي الاعظم » يقيم في انشان او آوان او سيماشكي . اما المنصب الرئيسي الثالث لحكومة بلاد عيلام فهو امارة شوش وقد لقب بعض اولئك الحكام أنفسهم بلقب « ملك » .

واستنادا الى دستورهم فان الابن البكر للملك هو الذي يعين اميرا لشوشة . وباختصار فان الحكم يرتكز على الاب واخيه وابنه البكر .. وهكذا كان الصراع محتدما من اجل وراثة العرش .. فالاب والابن كانا يقيمان في شوشة اما اخو الملك فكان يقيم اما في آوان او انشان او سيماشكي .. وكثيرا ما اخبرتنا النصوص المسمارية بان ملوكا عيلاميين قد دبحوا ابناءهم او اخوة لهم ..

ومما زاد في هذا التعقيد الاداري زواج الملوك او الحكام العيلاميين باخواتهم .. وهذا يعني بطبيعة الحال العلاقة الضيقة فيما بين اعضاء الاسر الحاكمة .. فالحاكم الجديد يريد تنصيب ابنه بدلا من ابن اخيه والابن

البكر يريد وراثة العرش بدلا من عمه والام (الملكة) ربما تقف وراء ولدها او تنحاز الى حماها الذي ربما يتزوجها بعد أخيه •• وكل ذلك يصب في تعقيد الخلافات •• وبالاضافة الى ذلك كله فالحاكم قد لا يملك ابنا فيجبر على تعيين ابن اخيه •• لذا فكثيرا ما اخبرتنا النصوص المسمارية عن هروب ابناء او اخوة الملوك العيلاميين الذين تغتصب عروشهم الى بلاد وادي الرافدين يطلبون العون لاستعادتها وخير الامثلة على ذلك ما ورد في كتابات الملك الاشوري آشور بانيبال حول تاماريتو وغيره من افراد العائلة المالكة العيلامية •

ان الوثائق المسمارية تحفظ لنا تفاصيل كثيرة عن اوجه الخلاف والصراع المستديم الذي كان مستعرا بين القائمين على حكم بلاد عيلام والقبائل المتاخمة لحدودنا الشرقية من جهة وبين بلاد وادي الرافدين من جهة اخرى •• ولا مجال للخوض في تفاصيل تلك الاحداث ولكن يمكن ان نستنتج من خلالها انه كلما توفرت قيادة مخلصة واصيلة لبلاد وادي الرافدين وتعاظم شأن البلاد الاقتصادي والاجتماعي ، كلما زاد حقد الفرس وعملوا على الحد من التقدم الحضاري المتصاعد لهذه البلاد وبشتى الطرق المتيسرة لهم•• ولعل خير ما كانوا يستغلونه هو التنافس والتناحر والخلافات الجانبية التي كانت تطرأ على مسيرة الاحداث التأريخية لبلاد وادي الرافدين كما كانوا يعملون ايضا على مساعدة الغزاة الاجانب وذلك بفسح الطريق امامهم وبأمدادهم بالمرتزقة من الجنود كما حدث عندما غزا الگوتيون البلاد واقوام السو والحثيون والكاشيون والخوريون وغيرهم من الذين نجحوا لبعض الوقت في فرض هيمنتهم السياسية على بلاد وادي الرافدين ، ولكنهم (اي الغزاة) سرعان ما التفتوا الى بلاد فارس ودمروها • وتشير المخلفات الكتابية والفنية الى قدرة بلاد وادي الرافدين وتصديها وصمودها للتحديات وكبحها لجموح الاقوام المعتدية وضربها بكل قوة وعنف ، والنهوض

ثانية لمواكبة المسيرة •• وكانت الوحدة الحضارية لبلاد وادي الرافدين — بالرغم من التباين العرقي والفكري لسكنة هذه البلاد — هي الصخرة التي تمزقت عليها جباه ووجوه الغزاة وبخاصة الفرس المعتدين •

واذا ما حاولنا استعراض اوجه الصراع والحياة السياسية لبلاد وادي الرافدين وبلاد فارس خلال الفترة المحصورة بين ٢٠٠٦—٩٣٣ ق•م نرى ان بلاد وادي الرافدين عاشت عصرها الذهبي الثالث خلال هذه الحقبة الزمنية بالرغم من الانتكاسات والكبوات التي لحقت بها • فمن المعروف ان العصر الذهبي الثاني لبلاد وادي الرافدين الذي يتمثل بعصر سلالة اور الثالثة (٢١١٣—٢٠٠٦ ق•م •) جاء الى نهايته عندما هجم العيلاميون على بلاد وادي الرافدين وذلك في حدود ٢٠٠٦ ق•م واخذوا الملك السومري ابي — سين اسيرا حيث ابعد الى المناطق القاصية في ايران وتوفي في المنفى وتخبرنا المناحة السومرية بان ابي — سين صار « كالطير الذي هجر عشه ، وكالغريب [الذي لا عودة له] الى اهله » •• وبألتاكيد فان ما اصاب البلاد من خراب على يد العيلاميين جاء نتيجة للمؤامرات والدسائس التي حيكت في قصر هذا الملك السومري •• وتعاظم هجوم القبائل الامورية بالاضافة الى ما اصاب حليفه اشبي — ايرا في منطقة الفرات الاوسط من ويلات •• ان كل هذه الامور المؤسفة ادت الى التفرقة والمشاحنات والحروب الجانبية وبالتالي هيأت الفرصة للعيلاميين للهجوم على البلاد وتخريبها •• وبخاصة مدينة اور التي اصبحت ابنيتها تلالا من الانقاض ولم تعد صالحة للسكن •• وعمد العيلاميون كعادتهم الى نهب دورها وقصورها ومعابدها ومن بين ما نهبوه ، رمز عزة اهلها تمثال الالهة نانا **Nanna** وبقيت ذكرى هذا الدمار في قصص الملاحم والمناحات لاجيال عديدة •

اما في بلاد عيلام (بلاد فارس بشكل عام) فشهدت الفترة سقوط مملكة آوان (بالقرب من ديزفول) وبزوغ فجر امراء سيماشكي (منطقة

جبال بختياري وجبال لورستان) وبخاصة الامير خوتران ـ تمپت Hutran-tempt الذي قام بهجومه الغادر السالف الذكر على بلاد وادي الرافدين •• ولكن لم يذعن سكنة بلاد وادي الرافدين ولم ينسوا ما فعل العيلاميون بهم وصادف ان اعتلى العرش اشبي ـ ايرا في ايسن ونبلانم (في حدود بداية الالف الثاني ق•م) في لارسا •• ومنذ اعتلائهما للعرش حاولا اعادة الاراضي المسلوبة والثأر لما اصاب ابناء بلدهم جراء العدوان العيلامي •• ولم تمر اكثر من ثلاث عشرة سنة حتى تمكن العاهل الاموري اشبي ـ ايرا « من دحر عيلام بسلاحه » •• ومن الجدير بالذكر ان هذا العاهل قد سار على نهج الملك السومري شولگي (٢٠٩٥ ـ ٢٠٤٨ ق•م) ومن خلفه من حكام سلالة اور الثالثة لادارة بلاد عيلام حيث عمد الى تزويج ابنته من حاكم الشوش • اي ان العاهل الاموري قد استخدم سياسة « الشدة واللين » ونشر الحاميات العسكرية لتأمين البلاد من شر الغزاة وبنفس الوقت استخدم الطرق الدبلوماسية للحد من الاعتداءات العيلامية • على ان اشبي ـ ايرا لم يستطع بالفعل طرد العيلاميين من اور حتى سنة ١٩٨٥ ق•م اي بعد احدى وعشرين سنة من تأريخ تدميرها من قبل خوتران ـ تمپت ولم يُعَدْ تمثال اله المدينة الذي كان قد نهبه العيلاميون الا في زمن ابنه شو ـ ايلوشو (١٩٨٤ـ١٩٧٥ ق • م) •

كما تم في هذه الفترة زواج مي ـ كوبي ابنة الملك الاموري بيلالاما ملك مملكة اشنونا (منطقة ديالى) من تان ـ روخراتور Tan-Ruhratur حاكم شوشة وذلك في حدود عام ١٩٧٠ ق•م وحكم أحد الملوك العيلاميين المدعو انداتو ـ انشوشينك Indattu-Inshushinak الذي لقب نفسه « بملك سيماشكي وعيلام » • وهذا يعني ان عيلام في العهود السابقة لا تمثل سوى شوش وما يحيط بها والجبال الشرقية من انشان اما بخصوص

العرش الشمالي اي سيماشكي فلم يضم الى عيلام الا خلال حكم السيماشكيين •

وفي حدود ١٩٣٠ـ١٩٢٨ ق•م سجل الملك الاموري گونگونم (١٩٣٢ ـ ١٩٠٦ ق•م •) ملك لارسا انتصاره على ولايتي انشان وآوان وبعد ذلك وبالتحديد ١٩٢٥ ق•م اعتلى عرش عيلام الملك انداتو Indattu الثاني ابن الاميرة البابلية مي ـ كوبي ووصف نفسه بحاكم او أمير شوشة • ومن الملاحظ بعد ذلك غفوة عيلام وسباتها لفترة من الزمن امتدت الى حكم الملك حمورابي الذي بذل جهده ومنذ ايام حكمه الاولى لتوحيد بلاد وادي الرافدين •• اما بالنسبة لعيلام فالظاهر انها حكمت من قبل سلالة جديدة تعرف بالايپارتية Eparti نسبة الى مؤسسها ايپارت Epart الذي اغتصب العرش ولقب نفسه « بملك انشان وشوش » اي عيلام بكاملها جغرافيا اما اداريا فيمكن ان يقال بان عيلام قد توحدت وتمتعت بالاستقلال السياسي عن بلاد وادي الرافدين •• ومما تجدر الاشارة اليه انه لم يصلنا من هذه الفترة وحتى عام ١٥٠٠ ق•م سوى نص واحد باللغة العيلامية وان كل النصوص التي جاءتنا كتبت باللغة الاكدية •• على ان معظم الباحثين يعتبرون المؤسس الحقيقي لهذه السلالة الحاكمة العيلامية (الايپارتية) سيلخاخا Silhaha (١٨٣٠ـ١٨٠٠ ق•م) ابن ايپارت وعرفت اخته وزوجته (الملكة) بنفس الوقت بانها ام هذه السلالة ولم يصبح وريث العرش شرعيا ما لم يكن من نسل هذه الامرأة التي لقبت « بالام العظيمة » اما سيلخاخا فلقب نفسه « بالوالي الاعظم » و « أبو ملك انشان وشوش » وكان معاصرا تقريبا لحكم الملك البابلي آپل ـ سين (١٨٣٠ـ١٨١٢ ق•م) وعين سيلخاخا ابن اخته

حاكما على شوشة وذلك ربما لعدم وجود ابن لـه او لكونـه ابن « الام العظيمـة » .

ومن هذه الفترة امدتنا نصوص مملكة ماري (ومركزها تل الحريري في سوريا) بمعلومات عـن احـد ملوك عيلام المدعـو سير كتوخ Sirktuḫ الذي عقد حلفا مع اشنونا ضد حمورابي مستغلا الخلافات بـين الزعماء الوطنيين ، ولكن حمورابي الحق هزيمة كبرى بجيش العيلاميين تمخضت عن مقتل حاكم مدينة الشوش في المعركة .

وكرر العيلاميون محاولتهم التدخل في شؤون بلا وادي الرافدين ثانية. وعمدوا الى أيجاد تحالف عسكري مع أعداء حمورابي وبخاصة مع ملكة توار (في كردستان أيران) وملك مالگيوم (عند التقاء ديالى بنهر دجلة) وملـك السوباريـين (منطقة أشور وشـمالي سوريا) ولكـن حمورابي نجح في أكتساح هذا الحلف حوالي سنة ١٧٧٤ ق٠م ووجه ضربة قويـة الى عيلام ومحاولاتها لاستغلال الاوضاع الاستثنائية التي كانت تمر بهـا بلاد وادي الرافدين . فأضطر العيلاميون للانسحاب صوب الاراضي المرتفعة داخل ايران ، ولقب الحكام العيلاميون انفسهم في هذه الفترة بحاكم عيلام دون أي لقب ملكي (والذي لم يستخدم الا بعيد القرن الثالث عشر ق٠م) .

وفي زمن حكم الملك البابلي سمسو ـ ايلونا ابن الملك العظيم حمورابي (١٧٥٠ ـ ١٧١٢ ق ٠ م) قـام كوتـر ـ ناخونتـي Kuter-Naḫḫunte (١٧٣٠ـ١٧٠٠ق٠م) بالهجوم على بلاد وادي الرافدين لكنه صد بكـل حزم وقوة .. وعاود هجومه الغادر عند اعتلاء ابي ـ ايشوخ (١٧١١ـ ١٦٨٤ ق٠م) الحكم.. وبقيهذا الهجوم الحاقد الذي خربت من جرائه المدن ونهبت وسلبت وهتكت الاعراض يستذكر بعد أكثر من الف عام فيخبرنا مثلا الملك الاشوري المنتصر آشور ـ بانيبال (٦٦٨ـ٦٢٦ ق٠م) « ان كوتر ـ

ناخونتي العيلامي الذي لا يأبه بالحنث بقسمه امام الآلهة ، والذي لا يعرف الثقة بنفسه ، نهب مقدسات اكد ودرس معالمها الى الارض » وان « الالهة نانا التي كانت غاضبة لمدة ١٦٣٥ سنة (والاصح ١٠٧٠ سنة) والتي اجبرت للاقامة في عيلام ، البلاد التي لاتستحق ان يقام فيهـا ، وضعت الثقـة بـي فاعدتها الى بيتها » .

بينما نال كوتر ـ ناخونتي المعتدي تعظيم الملوك العيلاميين اللاحقين ومنهم شيلخاك ـ انشوشيناك Shiḫak-Inshushinak (١١٥٠ـ١١٢٠ ق٠م) الذي قال بان جده قد اخذ اكد « كمالك وسيد » وكذلك الملـك العيلامي شوترك ـ ناخونتي وغيره من الملوك ..

ولعل الغزوات المتكررة للحثيين والكشيين والخوريين (في حدود ١٦٠٠ ق٠م) قد اضعفت بلاد وادي الرافدين ، فاستغلت عيلام ذلك فسـمحت للكشيين بعبور اراضيها للهجوم على المدن العراقية ولكن سرعان ما اصابها (اي بلاد فارس) الويل كما اصاب بلاد وادي الرافدين بحـدود ١٥٠٠ ق٠م كما تنقل ذلك مصادرنا عن هذه الفترة ولكن انتصار كوريكالزو الثاني (١٣٤٥ ـ ١٣٢٤ ق٠م) على عيلام والذي بموجبه انهى سلالة ايپارتي .. أضعف عيلام كثيرا ولم تقم لعيلام اية قائمة حتى حدود ١٣٣٠ ق٠م حيث نسـمع مـن كتـب الاخبـار البابليـة Babylonian Chronicles بـان أحـد ملـوك عيـلام قـام بانتفاضـة ضـد ملـك بابـل الكشي ولكنه (اي كوريكالزو الثاني) اخضعه ودمره في حملته الصاعقة التـي اجتاح بها عيلام حيث قال بانه « كوريكالزو ملك الشعوب محطم شوشة وعيـلام وممزق مرخشـي » . وفي حدود ١٢٧٥ ق ٠ م جاء الـى الحكم في عيلام اونتاش ـ نابيريشا Untash-napirisha الـذي كان يعاصر الملك الاشوري شلمنصر الاول (١٢٧٤ ـ ١٢٤٥ ق ٠ م) وعرف عصر هذا الملك

العيلامي « بالعصر الذهبي » وكان يترقب الاوضاع السياسية في بابل حيث اخذ البابليون يعملون من اجل اسقاط نظام حكم الغزاة من الكشيين .. وعلى اية حال امدتنا النصوص المسمارية بمعلومات هامة عن هجومه الغادر على بلاد وادي الرافدين وعرفنا ذلك ايضا من خلال ما نقش على تمثال اله الجو اميريا **Immeriya** الذي عثر عليه في مدينة شوشة .. وجاء بحملته الغادرة هذه عبر مدينة الدير (بالقرب من بدرة) ومن ثم اجتاح اشنونا ونهب قصورها ومعابدها ومن ابرز ما نهب تمثال الاله اميريا السالف الذكر .. ومع ذلك كله نرى بان هذا الملك العيلامي شأنه شأن غيره من حكام عيلام كان متأثرا وبشكل مباشر بالحضارة العريقة لبلاد وادي الرافدين حيث شيد الزقورات ونحت التماثيل وبنى القنوات على غرار ما كان موجودا آنذاك في بلاد وادي الرافدين بالاضافة الى عبادة آلهة البلاد والاكثر من ذلك كله استخدامه للغة الاكدية حتى في كتاباته الملكية .

وجاء بعد ذلك الى الحكم في عيلام الملك المسمى كيتن – خوتران **Kiten-hutran** (١٢٣٥ – ١٢١٠ ق.م) الذي عاصر حكم الملك الآشوري العظيم توكلتي – ننورتا الاول (١٢٤٤–١٢٠٨ ق.م) الذي حارب ملوك عيلام المعتدين على بابل والتقى في أحدى المعارك بملكهم كيتن – خوتران بالقرب من بدرة ومندلي .. فهزم الملك العيلامي .. الا ان احداث الشغب والفتن في بابل وموت الملك الكشي كان فرصة مؤاتية للعيلاميين فهجموا على نفر **Nippur** وقتلوا كل رجالها .. ومن ثم توجهوا الى مدينة الدير وهتكوا الاعراض فيها واخذوا النساء والشيوخ كأسرى ونهبوا وحطموا دورها وقصورها ومعابدها .. وهزم الملك الكشي .. الا ان الملك الاشوري العظيم توكلتي – ننورتا الاول (في حدود ١٢٢٦ ق.م) استطاع ان يهدىء الامور بتنصيب بعض الحكام الجدد من المخلصين لبابل

ومن ثم التصدي لاعتداءات العيلاميين . فتوجه بعد ذلك بحملة نحو سواحل الخليج العربي واحتل في طريقه الشوش وغيرها من المدن ولم نسمع شيئا بعد ذلك عن الملك العيلامي كيتن – خوتران حيث اختفى من المسرح السياسي كليا وباختفائه اختفت معه هذه السلالة العيلامية الحاكمة .

حكمت في بلاد عيلام بعد ذلك سلالة جديدة أقامها خالـونوش انشوشينك ، وأخذ حكام هذه السلالة يسعون كسابقيهم من العيلاميين للانقضاض على مدن ومراكز وادي الرافدين . وتهيأ لها ذلك في زمن حكم الملك العيلامي شوترك ناخونتي (١١٨٥–١١٥٥ ق.م) الذي عاصر الملك الآشوري أشوردان الاول (١١٧٩ – ١١٣٤ ق.م) فقام بهجوم غادر على العراق عبر سلسلة جبال حمرين بالقرب من خانقين بحدود ١١٦٠ ق.م . وكرر هجومه في نفس السنة ومعه أبنه كوترناخوتني (١١٥٥–١١٥٠ ق.م) .

وتوجه من شوشة حيث عبر فرع نهر الكرخة (**Ulai**) وتوجه الى مدينة الدير فكشفت هذه الغزوة الغادرة عما تضمره تلك الاقوام العيلامية الحاقدة حيث بقيت الاجيال اللاحقة تردد قصص الويلات التي اصابت البلاد واخبرتنا النصوص المسمارية بانهم « قدموا من الجبال بخيولهم وعرباتهم .. وهزم امير بابل .. ونهب العيلاميون كل معابد بابل واخذوها الى عيلام .. وتوجهوا الى اكد حيث قاموا بدرس معالمها الى الارض ونهبوا كل كنوزها ومن جملة ما نهبوا تمثال الملك الاكدي مانشتوسو .. ثم ذهبوا الى سپار (ابو حبة في منطقة اليوسفية) واخذوا مسلة الملك الاكدي نرام – سين .. وفرضوا الضرائب الباهضة على كاهل اهل البلاد واخذوا ما يقارب ٣٦٠٠ كيلو غرام من الذهب وحوالي ١٤٫٤٠٠ كيلو غرام من الفضة من مدن دور – كوريكالزو (عكركوف) ودور – شروكين (في منطقة ديالى) وسپار(*) .

(*) وكان اهم ما نهبه العيلاميون في غزوهم هذا مسلة حمورابي الشهيرة .

وفي خضم هذه الاحداث انبرى نبوخذ نصر الاول الذي أخبرنا بان شوترك ـ ناخونتي سلم الحكم الى ولده كوتر ـ ناخونتي الذي « فاقت جرائمه جرائم آبائه المعتدين » •• « والذي عمل الشر ببلاد اكد والذي نصب احد الولاة على بلاد بابل وهو المدعو انليل ـ نادن ـ آخي » ظنا منه بانه سيكون صنيعة لهم ولكن سرعان ما ثار عليهم (اي على العيلاميين) • ويستطرد هذا الملك المنتصر قائلا : « بان العرش الآلهي لكبير آلهة البابليين ، مردوخ قد اهتز من هول ما اصاب سكنة بلاد وادي الرافدين على يد شوترك ـ ناخونتي الذي سلب تمثال مردوخ •• فلم يغمض جفن للبابليين على هذه الفعلة الشنيعة » ••

وقبل الاسترسال في اعمال هذا الملك البابلي المنتصر لابد من الاشارة الى ان سلالة بابل الرابعة او ايسن الثانية التي ينتسب اليها هذا القائد قد تأسست حوالي ١١٥٦ ق • م وتعاقب على الحكم فيها احد عشر ملكا • ويعد نبوخذ نصر الاول رابع هؤلاء الملوك وحكم زهاء احدى وعشرين سنة (١١٢٤ـ١١٠٣ ق • م) اما عيلام فكانت في هذه الفترة تحت حكم الملك شيلخاك ـ انشوشيناك Shilhak-Inshushinak (١١٥٠ـ١١٢٠ ق•م) الذي هاجم هو الآخر بلاد وادي الرافدين عند منطقة الدير متوجها الى حلوان اي باتجاه الشمال والى المنطقة المعروفة « ببوابة آسيا » بالقرب من ديالى ومن ثم اجتاح منطقة الفرات الاوسط ثم توجه الى منطقة حمرين فأرابخة (قرب كركوك) وصولا الى التون كوبري •

وبقي الوضع السياسي مجمدا لحين أعتلاء نبوخذ نصر الاول عرش بابل ، وصادف ذلك حكم الملك العيلامي خوتيليوتوش ـ انشوشيناك (١١٢٠ـ١١١٠ ق•م) الذي نسب نفسه الى جده شوترك ناخونتي ذلك المعتدي الحاقد على بلاد وادي الرافدين • وأستبدل الالقاب الملكية التقليدية

السابقة مبتدعا القابا جديدة منها « موسع المملكة » و « طاغية عيلام وشوشة » •

وعلى اية حال ففي حدود ١١١٥ ق•م قام الملك العظيم نبوخذ نصر الاول بهجوم على عيلام للحد من طغيانها ووصل بهذا الهجوم الى احد فروع نهر الكرخا المسمى اوقنو Uqnû ولكن المرض الم بجنوده وشعر بعدم جدوى المعركة او المخاطرة بها فرجع •• الا ان الملك العيلامي ظن انه (اي نبوخذ نصر) انهزم خوفا فلاحقه •• ولكن شعب بلاد وادي الرافدين هب للنجدة فجاء المدد من كل حدب وصوب وحتى من المضطهدين من العيلاميين كسدنة معبد الاله ريا Ria وبخصوص ذلك يخبرنا الاستاذ كنك King من خلال رقيم حجري بان شموا وشمعا اولاد نور ـ ليشر وسدنة معبد الاله ريا في مدينة دن ـ شاري العيلامية قد فرا من جحيم حكم الملك العيلامي الى بلاط الملك البابلي نبوخذ نصر الاول فاحسن الاخير مثوى الاخوين وعمل على منحهما الامتيازات ومن ثم جلب تمثال الاله ريا من عيلام واعاد اسكانهم ومن معهم في احدى المدن الحدودية ومن ابرز من تطوعوا للالتحاق بجيش نبوخذ نصر الاول ، أمير قبيلة بيت ـ كارزيابكو القاطنة عند الحدود الشرقية المحاذية لمنطقة الدير • وبذلك تعززت قوة الملك نبوخذنصر الاول ، والذي زاد في تعزيزها هو توليته لامير بيت كارزيابكو حليفه ضد العيلاميين ، أمرة العربات الحربية •

وفي حدود عام ١١١٠ ق•م • استكمل نبوخذ نصر الاول كافة الاستعدادات العسكرية وشن هجومه الجديد مستخدما في هذه المرة عنصر المباغتة اذ انه شن حملته في شهر تموز الذي يعتبر اشد اشهر السنة حرارة وجفافا اي في الوقت الذي لم يكن فيه العيلاميون يتوقعون قيام البابليين بمثل هذا العمل العسكري فيخبرنا الملك المنتصر نبوخذ نصر الاول

انه قد أرسل من قبل الاله مردوخ ملك كل الالهة من أجل الثأر لاكد . ومن مدينة الدير وفي شهر تموز توجه بحملة نحو عيلام .. حيث الاحجار الملتهبة في الطريق ، ونفاد الماء ، وموت الخيول من شدة التعب ، وتداعي ارجل اشجع الفرسان ، ولكن الملك العظيم تقدم ولم يخف حتى من الاراضي التي لم يصلها احد (قبله) .. وصاح بالفرسان ان يتقدموا وعلى رأسهم لاكتي شيخو امير بيت ـ كارزيابكو قائد العربات الحربية .. الى ان وصل الى ضفاف نهر اوليا Ulai (فرع الكرخة) .. وفي اوار المعركة تصاعد وحجب تراب المعركة ضوء الشمس ودارت المعركة كالعاصفة الهوجاء ففر الملك العيلامي الى الجبال مختبئا وربما مات في هذه الاثناء فدحر الملك نبوخذ نصر الاول العيلاميين واسترد ما سلبوه من كنوز » وبقيت ذكرى هذه المعركة في قصص الناس وحكاياتهم لاجيال عديدة واستخدمها العراقة بالشكل الذي يبين عظمتها فقالوا « بان ذروة الماضي ، هو تدمير نبوخذ نصر لعيلام » .

ولم تقم للعيلاميين بعد هذه المعركة اية قائمة لما يقرب من اربعة قرون وهكذا انتهت هذه السلالة الشتروكية الحاقدة والمعتدية وصمتت عيلام الى ان تعاظم شأن الامبراطورية الاشورية الحديثة فاستجمع الفرس قواهم وجددوا عدوانهم ..... وبذلك حقت فيهم اقوال سكنة بلاد وادي الرافدين من سومريين واكديين وبابليين وآشوريين وغيرهم وقول الجغرافيين العرب والباحثين الغربيين من ان العيلاميين « مخربون ، ضعيفوا الشخصية ومجانين واشرار وغادرون .. الى آخر ذلك من الصفات الذميمة بحقهم .

الفصل الثالث

الصراع خلال الألف الأول قبل الميلاد

(٩٣٣-٣٣١ ق ٠ م)

الآشوريون

امتازت بعض فترات هذا العصر بزيادة محاولات العيلاميين للتدخل في شؤون العراق وفشلهم في الحصول على موضع قدم فيه . وهي احداث تذكرنا مع نتائجها بصحة المشاعر التي عبرّ عنها شاعر بابلي من نهاية العصر الكشي لم يصلنا اسمه تجاه جارتهم الشرقية ، من خلال جور الحاكم العيلامي كوتر ناخونتي خلال فترة احتلال العيلاميين القصيرة لبلاد بابل وسوء معاملتهم لاهلها . فهو يقول :

عندما قررت الالهة اثناء تشاورهم مصير كوتر ناخونتي ملك عيلام
وصار كل شيء مفرحا لديهم
لقد حكم في بابل مدينة الاله مردوخ ملك الآلهة
ترى هل يمكن للحمل والذئب المفترس ان يتفقا ؟
وهل يمكن للغراب والحية ان يتفقا ؟
مَنْ من ملوك عيلام اكثر العطاء لمعبد ايساگيلا
أو اهتم بأهل بابل ؟ أو ذوي أعمال حميدة ؟
ولكن هيهات لاي عيلامي أن يحكم أرض بابل .

هكذا اعتبر الشاعر ماحدث لبابل تقديرا من الآلهة ثم تساءل عمن من ملوك عيلام قدم العطايا الى معبد ايساكيلا الخاص بالاله مردوخ في بابل والذي قد يدل على تملق الملوك العيلاميين بحبهم للالهة البابلية وتظاهرهم بالتدين والتقوى • ثم عمن قد أحب البابليين من هؤلاء الملوك او اهتم بهم او حتى من كان طيبا في اعماله منهم وختم قصيدته بقول هو عين الحقيقة ولابد ان استقاه من تجارب الشعب البابلي آنذاك ومعرفته بتتابع الاحداث وهو (هيهات لاي عيلامي ان يحكم ارض بابل) حيث ان الملوك العيلاميين رغم كل محاولاتهم للتدخل في شؤون العراق واحتلاله فشلوا في الحصول على موضع قدم •

لقد ذكر الايرانيون لاول مرة حسب معرفتنا الحالية بالنصوص الاشورية في زمن الملك شلمنصر الثالث (٨٥٩ــ٨٢٤ ق • م) الذي واجه الفرس (سكان پارسوا) اثناء حركات جيشه في منطقة جبال زاگروس سنة ٨٤٤ ق•م• ثم الميديين بعد ثمانية سنوات من ذلك التاريخ• ففي هذا الوقت كان الفرس حسب ما يظهر يسكنون الى الغرب والجنوب الغربي من بحيرة اورمية في وقت كان به الميديون يقطنون مرابعهم التقليدية الى الجنوب الشرقي من الاولين اي حوالي همدان الحالية • واخبرنا الملك شمشي أدد الخامس (٨٢٤ــ٨١١ ق•م) عن دحره لزعيم ايراني في منطقة تقع الى الشمال من بحيرة اورمية مع ١٢٠٠ من قراه المحصنة • واخبرنا عن مروره بفارس وتسلمه خيولا منها ومن خوبوشيكا زعيم المانيين (شعب آخر من شعوب ايران القديمة قطن الشمال الغربي من ايران) • واستمر شمشي ادد في تقدمه فدخل منطقة الميديين الذين هربوا خوفا منه واعتصموا بجبل في منطقتهم اسماه في نصوصه الجبل الابيض ودخل مدينتهم الرئيسية ساگبيتا •

اما الملكة الآشورية سامورامات (المعروف باسمها الكلاسيكي سميراميس) زوجة الملك شمشي أداد الخامس خلال فترة وصايتها (٨١١ــ٨٠٨ ق • م)

على ولدها القاصر أدد نراري الثالث فقد دحرت جيوش الميديين مما يدل على انتهازهم فرصة تربع صبي على عرش آشور و وصايه امرأة عليه فاخترقوا الحدود الاشورية ولكنهم ردوا على اعقابهم • وفي سنة وصايتها الاخيرة غزت الجيوش الاشورية بلاد المانيين ردا على تحرشاتهم واثارتهم القبائل في الاجزاء المتاخمة لهم من العراق وضد الاشوريين • وغزا أدد نراري الثالث بلاد المانيين مرات عديدة خلال السنوات ٨٠١ ، ٧٩٥ ، ٧٩٠ ، ٧٨٧ ق • م دون جدوى • وفي فترة الصراع بين مملكة ارارات (ارمينية) والدولة الاشورية زمن شلمنصر الرابع (٧٨٣ــ٧٧٣ ق • م) كان اسم (فارس) بين المناطق التي ذكرت في حملاته لان ملوك ارارات كانوا قد اجتذبوا الزعماء الايرانيين اليهم في صراعهم مع الاشوريين •

ذكرت حوليات الملك تجلاتبليزر الثالث (٧٤٥ – ٧٢٤ ق • م) اسماء بعض الامراء الايرانيين الذين اصطدم بهم وتعرض الى الغنائم الكثيرة التي حملها منهم بحيث استحصل من مدينة واحدة فقط عشرة اطنان من الحجر الكريم الذي قد يكون اللازورد • واصطدم بالميديين الذين كانت منطقة تحركاتهم تصل الى شهرزور • ان وصولهم الى هذه المنطقة معناه انهم ساروا على طول الضفة الغربية لنهر ديالى واستمروا على موازاة نهر سروان •

تغلغل تجلاتبليزر بعيدا في عمق ايران حتى وصل جبل بيكني (دمافند قرب طهران) وحدود صحراء الملح الكبرى وذكر عددا من المدن والقلاع التي وقعت في قبضته كانت منها شيلكا التي قد تكون موقع سيالك الحالية قرب طهران • كما ذكرت حولياته بلاد النيشاى (منطقة گيلان الحالية) والمعروفة بالسهول النيسية الى الجنوب من طريق

همذان • وعمل تجلاتبليزر على تعمير المناطق التي دمرتها المعارك ونظمها في وحدات ادارية وفعلا اظهرت الحفريات في قمة موقع گيان بقايا قصر آشوري محصن • واخبرنا بانه قد جلب من حملته هذه ٦٥ الف اسير ميدي اسكنهم قرب نهر ديالى على طول الحدود الآشورية وأسكن بدلهم في ميديا ارامبين•ونعرف بانروسا الاولملك اراراث (ارمينية)قد حصلعلىعون رؤساء القبائل على طوال حدوده بشمال ايران الغربي وحالف زعيما اسماه داياكو لابد وان يكون هو نفسه ديوكيس الذي يجعله هيردوتس مؤسسا للدولة الميدية • واذا عرفنا المنافسة بين اراراث والاشوريين ادركنا بان هذا الحلف كان موجها ضد الاخيرين •

ان اعلان تجلاتبليزر الثالث نفسه ملكا على بلاد بابل واتحاد بلاد بابل وآشور في شخصه جعل العلاقات العراقية العيلامية تأخذ تحولا جديدا وخطيرا • فقد ادركت عيلام ان ليس من مصلحتها ان ترى العراق موحدا تحت تاج واحد حيث ان سياسة الاشوريين ابتداءا من زمن تجلاتبليزر هذا قد اتجهت (رغم اختلاف وسيلة كل ملك) الى توحيد العراق تحت حكمهم • فقد ادركوا ان وحدة الشمال والجنوب الجغرافية واللغوية (حيث يتكلم الآشوريون والبابليون اللغة الاكدية باختلاف بسيط جدا باللهجة) والدينية (رغم ان بعض الآلهة في كل منهما قد اكد عليها اكثر من الثانية) تستلزم توحيده تحت تاج واحد • لذا عملت عيلام بكل ما تستطيع من الوسائل والسبل لمنع هذا الاتحاد الذي سيجعل من العراق قوة ضاربة واخذوا يعملون على تفريق الصفوف وصاروا يحرضون أهل بلاد بابل على الانفصال ويساعدون زعماء الحركات الانفصالية بينهم و يمدونهم بالمال والسلاح وحتى بالرجال ويفتحون بلادهم على مصاريعها الى اللاجئين منهم • ان حملة تجلاتبليزر ضد القبائل الارامية القاطنة في الفرات الاسفل اوصلت حدود الاشوريين الى حدود عيلام •

ظلت ميديا مسرحا لعمليات سرجون الثاني الآشوري (٧٢٢–٧٠٥ ق • م) الحربية • كما اخمد سرجون ثورة قام بها المانيون ضده تحت قيادة زعيم ايراني بتحريض الملك روسا ملك اراراث • كما هاجم سرجون منطقة فارس واجبر رؤساء الميديين على الاعتراف بسيطرته • وما ان سمع سرجون بتحالف داياكو الميدي مع ملك اراراث وارساله ولده الى بلاط الأخير كرهينة حتىهاجم دياكو وأخذه اسيراً ورحّله الىحما فيسورية، ويظهر ان قوة سرجون الآشوري كانتتفزع اراراث فدفعتها الىخلق دولة حاجزة من عناصر ايرانية لتكون فاصلا بينها وبين الدولة الاشورية • وزحف سرجون ثانية على بلاد الميديين سنة ٧١٤ ق • م و سنة ٧١٣ ق • م حيث اخضع ٤٢ زعيما ميديا كان بعضهم يقطن منطقة همدان • ويظهر ان الجهود التي وجهها سرجون ضد ميديا اعقبتها فترة انشغل بها الملك اللاحق سنحاريب (٧٠٥–٦٨١ ق • م) بن سرجون في جهات اخرى ، الامر الذي مكّن الزعيم الميدي اللاحق خشاثريتا (الذي يسميه هيرودوتس فروارتيس) من انجاز الوحدة الميدية التي ضمت الى جانب الميديين المانيين والسيمريين •

لقد برزت زمن سرجون الآشوري زعامة مردوخ بلادان رأس قبيلة بيت ياكين الكلدية الذي سبق ان قدم هدايا الى تجلاتبليزر كرمز لخضوعه اليه • وقد ازداد نفوذه وتوسعت منطقة سيطرته زمن شلمنصر الخامس • ولا نعرف بالضبط متى بدأ ارتباط مردوخ بلادان مع عيلام التي صارت تعلق الآمال عليه كزعيم للحركة الانفصالية البابلية عن الاشوريين وامدته بالسلاح والمال والرجال • ونسمع عنه زمن سرجون الآشوري كحليف لعيلام • وقد اصطدم بجيوش الاشوريين لاول مرة زمن سرجون الاشوري بمساعدات حصل عليها من ملك عيلام • ولم يكن نجاح سرجون على الثائر وحليفته عيلام حاسما

في المعركة التي دارت رحاها قرب دير سنة ٧٢٠ ق ٠ م فلم يحصل الاشوريون على أي نصر فيها رغم استمرارهم بالسيطرة على المنطقة بعاصمتها الادارية دير (تل العقر قرب بدرة) وظل مردوخ بلادان يحكم بلاد بابل اثنتي عشرة سنة ٠

كان اول عمل حربي لسنحاريب بعد صعوده العرش هو التقدم لضرب مردوخ بلادان في بلاد بابل واخبرنا سنحاريب كيف ان الملك العيلامي شوترك ناخونتي قدم لمردوخ بلادان مساعدات حربية وكان خلفه في حركاته ٠ فقد ارسل له قوة حربية ضخمة حسب ما يظهر يقودها قائد حرسه الملكي الخاص ونائب الميسرة لقائد القوات المسلحة العيلامية وعشرة قواد آخرين ٠ ويظهر ان القوة التي قادها هؤلاء كانت ضخمة حيث يذكر النص (وكانت معهم جموع لاتعد) ٠ واصطدم سنحاريب بهم وبقوات الثائر مردوخ بلادان في موقعتي كيش (قرب بابل) وكوثا (تل ابراهيم قرب مشروع ري المسيب) وكسرهم شر كسرة ٠ وذكر سنحاريب قتله للكثير من العيلاميين ٠ وبعد انتصار سنحاريب على مردوخ بلادان وحليفته عيلام نصب لحكم بابل شخصا كلدياً اسمه بيل ابني الذي سرعان ما انتهز فرصة انشغال سنحاريب في الغرب فانضم الى حركة مردوخ بلادان ٠ فعاد سنحاريب الى بلاد بابل ودحر معارضيه ونحى بيل ابني ووضع بدله ولده الاكبر اشورنادين شوم كملك على بلاد بابل٠ وهنا قرر سنحاريب وضع حد نهائي لحركات العصيان البابلية ضد الاشوريين بضرب العقل المدبر لها والقوة التي تدعمها عيلام في عقر دارها٠ فشيد له في نينوى عمال فينيقيون سفنا كبيرة سيرها له بحارة من صور وصيدا وحتى يونانيون من سكنة آسيا الصغرى ٠ وارسلت السفن بعد اكمالها الى أوپيس (ربما عند التقاء نهر ديالى بدجلة) ثم نقلت الى فرع الاراختو (شط الحلة) من الفرات حتى قصبة باب ساليميتي على ساحل الخليج العربي حيث

كان بانتظار السفن قوات برية اشورية كبيرة ٠ وابحرت السفن بقواتها في الخليج العربي (تشرين الاول سنة ٦٩٤ ق ٠ م) ودخلت نهر اولاي (فرع من نهر كرخة) وفزعت عيلام من الحملة وقرر الملك العيلامي ، مدركا عدم قدرته على صد الاشوريين ، الانسحاب من امامهم والهجوم على العراق ٠ وفعلا دخل العيلاميون العراق عن طريق دير وانقضوا على مدينة سپار (قرب اليوسفية الحالية) وذبحوا أهلها وقبضوا على ابن سنحاريب الملك البابلي وأبعدوه ليلقى مصيره ٠ وأمدوا الانفصاليين بالعون فسقطت بابل بيد عميلهم نرگال اوشيزيب كما تحشدت جيوش عيلامية شمال بلاد بابل للهجوم على بلاد اشور في وقت كانوا خلاله يساعدون نرگال او شيزيب على احتلال نفر بالجنوب واستسلمت لهم مدينة اوروك (الوركاء قرب خضر الدراجي) ٠

ويظهر ان الاشوريين قد شعروا باحتمال هجوم العيلاميين على العراق حيث نعرف عن نقلهم المسبق لتمثال الاله نابو من مدينة دير لحفظه في بلاد اشور ٠ وأخبرنا سنحاريب عن اصطدامه بقوة عيلامية كبيرة كانت بانتظار هجومه على طول نهر الكارون وذكر بانه اوقع بها خسائر كبيرة وخرب الكثير من مدن عيلام ثم انسحب ٠ وتحركت القوات الآشورية واسترجعت من المتمردين الانفصاليين مدينة نفر وقبضت على ابن ملك عيلام الذي كان يرافق القوات العيلامية التي دخلت العراق ثم ذبحته ٠ كما تم القاء القبض على الزعيم الانفصالي البابلي نرگال اوشيزيب ربما بحيلة وحمله الاشوريون الى بلادهم حيث قتلوه وعرضوا جثته للناس عند بوابة نينوى الرئيسية ٠

لقد شهدت عيلام انقلابا حيث ثار كوتر ناخونتي الثاني (٦٩٣–٦٩٢ ق ٠ م) على قريبه الملك الشرعي وقتله واعتلى العرش العيلامي مكانه ٠ ولما انتصر سنحاريب على الملك العيلامي الجديد انتهز أخوه خوبان أمينا

(٦٩٢ــ٦٨٨ ق • م) الفرصة وانتزع منه العرش العيلامي • وانتهز سنحاريب هذا التغيير فهجم على عيلام في سنة ٦٩٢ ق • م عن طريق دير ودخل الكثير من مدنهم وترك الملك العيلامي على اثرها عاصمته الثانية ماداكتو والتجأ في الجبال • ولم يستمر سنحاريب في تقدمه ربما بسبب المناخ القارس والسيول العنيفة فانسحب الى نينوى • ولم يقطع الملك العيلامي الجديد مساعدته عن الانفصاليين البابليين بل ارسل القوات لمساعدتهم وقد اصطدمت قوات الانفصاليين التي تدعمها القوات العيلامية بالاشورية في معركة عنيفة ادعى كلٌ من الجانبين النصر • ويظهر ان القوات الآشورية تمكنت من انتزاع نصر كلفها غاليا • وكانت القوات الاشورية بقيادة سنحاريب نفسه الذي اخبرنا عن سير المعركة وقبضه على القائد العيلامي وقتله لكثير من الجنود العيلاميين • واستمرت المعركة الى ساعة متأخرة من الليل حيث رأف الملك الاشوري اخيرا بالمعتدين وأمر بايقاف ذبحهم • وقد ذكر الملك سنحاريب ان ملك عيلام الذي قاد جيوشه المعتدية بنفسه كان اثناء هربه يتعثر بجثث قتلاه التي ملأت ساحة المعركة •

يظهر ان الدرس الذي لقنه سنحاريب للعيلاميين في هذه المعركة كان قاسيا بحيث لم نسمع عن تحرك لهم خلال الثماني سنوات الاخيرة من حكمه • واصيب الملك العيلامي خومبان أمينا خلال هذه الفترة بالشلل ولم يعد قادرا على الكلام • وحل محله في مارس ٦٨٨ ق • م الملك خومبان خالتاش الاول • لقد قتل سنحاريب سنة ٦٨١ ق • م واعقبه ابنه الاصغر أسرحدون الذي واجه في بدء عهده ثورة حاكمه على القطر البحري (يشمل جزءاً من جنوب العراق وأجزاء من منطقة الخليج العربي) الذي اعلن عصيانه وحاصر مدينة اور • وان هربه الى عيلام بعد فشل حركته يدل على تحريض العيلاميين له • ولسوء حظ هذا الثائر ان حل محل الملك العيلامي الذي حرضه على الثورة ملك جديد هو خومبان

خالتاش الثاني الذي كان يرغب في اتباع سياسة تعايش وسلم مع الاشوريين ولاظهار حسن نواياه لاسرحدون فقد قتل حاكمه على القطر البحري ولم يكن اتجاه هذا الملك العيلامي الجديد اصيلا اذ ما ان فشل اسرحدون في حملته الاولى على مصر حتى انتهز الفرصة فهجم على العراق عن طريق دير واقتحمت قواته على مدينة سبار وقتلت الكثير من أهلها • وحدث ان كان الناس في سبار متهيئين للخروج باستعراض ديني للاله شمش فتوقف الحفل • وفي ذات الوقت توفي الملك العيلامي خومبان خالتاش بسكتة قلبية وحل محله اخوه اورتاكو المعروف برغبته في السلام مع الاشوريين • ولم يعد أسرحدون يصدق ان هناك ملكا عيلاميا يرغب بالسلام حقا ويترك التدخل في شؤون الاشوريين•واسرع الملك الاشوري باستخارة الاله شمش فيما اذا كان اورتاكو يمكن الثقة به وكونه مخلصا حقا في رغبته بالسلام • ورغم انتصارات الآشوريين فان اسرحدون كان قلقا من نتائج مؤامرات اعدائه على الحدود الشرقية •

عقد اسرحدون معاهدة مع راماتايا الميدي سنة ٦٧٢ ق • م فرضها بالقوة على تسعة امراء تابعين له على الحدود الشرقية للعراق وهي بالواقع اكثر من معاهدة فهي ضمان العرش الاشوري لاولاد اسرحدون بعد وفاته • ان عقد مثل هذه المعاهدة وربط هؤلاء الامراء كان نتيجة خبرة ادارية طويلة عن هذه المناطق حصل عليها اسرحدون • والمعاهدة كما نقرأ في بداية العمود الاول قد عقدت بين اسرحدون وراماتايا واولاده واحفاده حول ممارسة اولاد اسرحدون الزعامة والملكية • ثم تلت ذلك اسماء الالهة الاشورية التي اجبر الملك الميدي على القسم بها • وعقدت المعاهدة امام الالهة وفرض اسرحدون على تابعه حماية اشور بانيبال ولي عهده سواء في القرية او المدينة وألزمه ان يموت في سبيله وان يتكلم الحق من قبله ويعطيه

النصيحة النصوح (ويجعل الطريق سهلا ممهدا تحت قدميه) • ومن بنود المعاهدة :

٥٥ ـ ان لاتكون عدوا (لاشوربانيبال) ولا تجلس احدا من غير اخوته صغيرا أو كبيرا على عرش اشور •

٦٨ ـ (تقسم) ان لا تثور (عليه) ولا تعمل اي شيء ضده غير ما هو طيب وملائم •

٧٣ ـ تقسم ان لاتصغي الى او تخفي أي امر غير ملائم او غير صحيح أو كلمات غير لائقة حول ممارسة الملكية والتي هي غير لائقة وشريرة ضد اشور بانيبال حتى من فم اعمامه واخوته واولاد عمه واخواله •

٩٦ ـ ان تتعامل مع اشور بانيبال بكل صدق وتكون صادقاً معه •

١٣٠ ـ اذا سمعت عن ثورة أو عصيان أو قتل (ضد اشوربانيبال) فامسك بمدبري العصيان لتسلمهم اليه •

١٤٧ ـ (اقسم) ان لاتتفق مع متآمرين سواء قليلين او كثيرين ولا تصغي لاي نوع من الكلام جيد او رديء (منهم) بل اخبر به اشوربانيبال •

٢٥٧ ـ اذا قتل اشوربانيبال فانتقم لدمه •

٢٥٩-٢٦٤ ـ ان لاتعطي اشوربانيبال سما او تدهنه بنبات سام او تعمل سحرا ضده •

٢٦٨ ـ ان لا تتكلم وتتجرأ على اخوة اشوربانيبال و اولاد امه امامه •

٣٨٧ ـ ان تتحمل مسؤولية اولادك عن (اتباع) المعاهدة •

فالمعاهدة بالواقع خاصة بضمان حصول اشوربانيبال على العرش الاشوري وضمان عدم ثورة الميدين عليه وترينا ان اسرحدون قد لاقى

الامرين من هؤلاء وان كل أمر سطره اسرحدون بالمعاهدة واستحلف الملوك الميديين على ضرورة اتباعه او تجنبه هو بالواقع من الاجراءات التي يلجأ اليها الميديون مثل التآمر والشغب والنفاق وزرع الفتنة حتى بين ابناء البيت المالك انفسهم والغدر والكراهية ودس السم وارسال نباتات سامة للتدهين وعمل السحر • وسطر اسرحدون في المعاهدة اللعنات الكثيرة • ان القائمة الطويلة بأنواع العقوبات التي تمنى اسرحدون ان يراها تحل بالحاكم الميدي ان هو خالف بنود الاتفاق تشير الى نفس الاتجاه وهو عدم ثقة اسرحدون بالزعماء الميديين وما قاساه منهم من تجاوزات وتعديات وما يتصفون به من الصفات التي سطرتها البنود ومنها :

٤١٨ ـ ان لاتشفع لك الالهة ننليل •

٤١٩ ـ يبتليك الاله سين بالجذام ويحرمك من دخول معابد الالهة ويقول لك (حل بالصحراء مثل حمار الوحش والغزال) •

٤٢٢ ـ يجعلك الاله شمش تمشي في ظلام •

٥٣٠ ـ ان لاينزل على حقولك المطر والندى •

٥٥٣ ـ ان تخرج احشاء اولادك وبناتك عند قدميك

٥٥٨ ـ ان لاتدخل انت ونساؤك في غرفة واحدة دون ان يقتل احدكم الآخر •

٤٨٤ ـ ان لاتتسلم الارض جثتكم عند الدفن وتصبح طعاما في طرق كلب او خنزير •

واخذ اسرحدون يعدد اسماء الالهة واحدا واحدا وما يريد ان ينزله كل اله من عقوبة ان هم خالفوا المعاهدة •

٥٢٥ ـ ان تحرق الالهة كيرا نسلك ونسل نسلك •

٥٤٥ ـ ان يقطع شمش بمحراثه الحديدي مدنك ومقاطعاتك •

وتم التأكيد في هذه المعاهدة على اليمين الذي اداه الملك الميدي بصفته تابعا للملك الاشوري حيث بدأت كل مادة بالكلمة اقسم . والمهم في هذه الاتفاقية هو ان الملك الاشوري قد فرض على تابعه الميدي الهه الخاص اشور (يجب ان تعبد الاله اشور كأنه الهك الخاص) .

وما ان تربع اشوربانيبال (٦٦٩-٦٣٠ ق . م) على العرش حتى كثرت رسل سكان مدينة دير الحدودية من تعديات أهالي مدينة كيربيت الايرانية عليهم والتي ربما كانت تقع على نهر گاوى شرق دير . ثم وصلت الاخبار بان قوة من المدينة قد هاجمت الاراضي البابلية الواقعة الى الشرق من دجلة . فارسل اشوربانيبال قائده الذي خرب كيربيت وقبض على رئيسها وارسله الى نينوى .

بينما كانت الجيوش الاشورية منشغلة سنة ٦٦٤ ق . م في مصر هجم اورتاكو ملك عيلام على بلاد بابل . ويظهر ان هناك مؤامرة ضد الحكم الاشوري قام بها الملك العيلامي مع بعض المتمردين البابليين الذين اغراهم دون شك بالمال امثال حاكم نفر وشيخ احدى القبائل الارامية . ولكن ما ان سمع الملك العيلامي بالتقدم الاشوري ضده بقيادة نابوشاراوصور حتى انسحب ولكن الاشوريين تعقبوه ودحروه في صيف سنة ٦٦٣ ق . م وخلال هذه الاحداث توفى الملك العيلامي اورتاكو وحل محله تيومان (٦٦٤-٦٥٣ ق . م) . ونظرا للشقاق في البيت المالك العيلامي وعداء الملك الجديد لابناء الملك السابق فقد لجأ اولاد الاخير الى البلاط الاشوري مع رماة سهامهم ومرافقيهم . ومنحهم الملك الاشوري حق اللجوء ورفض كل طلبات الملك العيلامي بتسليمهم اليه . وفي نهاية سنة ٦٦٠ ق . م ارسلت الجيوش الاشورية ضد ملك المانيين في ايران . فلقد تقدم الاخير على الحدود الاشورية في الشمال الشرقي مخربا وناهبا ولكنه هرب بتقدم الجيش الاشوري وترك عاصمته . واخبرنا

اشوربانيبال بان شعب المانای قد ثار ضد مليكهم وقتلوه ورموا بجثته الى الشارع واسرع ابنه بالاستسلام الى الاشوريين مرسلا ولده لتقديم الطاعة وقدم احدى بناته زوجة الى اشوربانيبال .

حدث في آب سنة ٦٥٣ ق . م ان هاجم تيومان ملك عيلام بلاد بابل بجيش كبير الامر الذي افزع آشور بانيبال فهرع الى استخارة الالهة عشتار حيث طمأنه الكهنة (على لسان الالهة) بالنصر المؤزر وأوصته ان لا يقود الجيش الاشوري الذي سيصد المعتدين بنفسه وان يبقى بنينوى . فتقدم الجيش الاشوري الى دير . وما ان سمع الملك العيلامي المهاجم بخبر تقدم الجيش الاشوري ضده حتى تراجع الى شوش . وهنا خشى الملك العيلامي انتقاما اشوريا فقطع ماء نهر كارون ولكن الجيش الاشوري أوقع بالقوات العيلامية هزيمة منكرة عند موقع تل توبه وقبضوا على الملك العيلامي وقطعوا رأسه وارسلوه الى اشوربانيبال في نينوى . ويظهر ان فرح اشوربانيبال بهذا النصر وتسلم رأس عدوه الذي هدده وهاجمه كان لايدانى بحيث خلده في الكتابات والمنحوتات . وفعلا وصلتنا منحوتة تصور اشوربانيبال وزوجته يحتسيان ربما الخمر تحت عريشة كرم على نخب النصر ورأس تيومان ملك عيلام معلق على الشجرة . وبعد مصرع تيومان نصب اشوربانيبال على حكم عيلام اولاد الملك السابق اورتاكو الذين كانوا لاجئين في بلاطه في وقت حكم في شوشه الملك أددا خاميتي انشوشيناك الذي لم يعترف به الآشوريون .

كانت مساعدة عيلام للملك شمش شموكين في بابل اثناء ثورته ضد أخيه اشوربانيبال كبيرة . فقد اعلن شمش شموكين ثورته في بابل سنة ٦٥٢ ق.م. واستقبل الملك العيلامي خوبان نوگاش مبعوثا من شمش شموكين وكان فرحه بثورته كبيرا وقدم له الجيوش . وكان الجيش العيلامي المتقدم لمساعدة شمش شموكين في بابل بقيادة ابن تيومان مع قواد

بارزين • وكان هذا اول عمل عدائي من خوبان نوگاش ملك عيلام ضد اشوربانيبال كرد على احسان الاخير له بتنصيبه على عرش عيلام • وفي سنة ٦٥١ ق • م حدثت في عيلام ثورة نحي على اثرها خوبان نوگاش من العرش وحل محله تماريتو الذي استمر في ارسال العون الى ملك بابل الثائر على اشور • وهناك مايدل على ان عيلام بنفس الوقت كانت تقوم بسلسلة من المؤامرات لخلع حاكم القطر البحري الذي كان يدير المنطقة بحزم لصالح الاشوريين • فقد وصلتنا رسالة تعود الى الفترة التي تلت ثورة شمش شموكين مباشرة تشير الى رسل عيلاميين ارسلوا الى سكان القطر البحري لحثهم على شق عصا الطاعة على حاكمهم • وأحاط بعض سكان القطر البحري الملك الاشوري علما بالموضوع وأخبروه بانهم قد رفضوا الطلب العيلامي وانذروا العيلاميين بانهم اذا رأوا نابو اوشاليم الذي تريد عيلام تنصيبه عليهم في منطقتهم فسيلقون القبض عليه ويرسلونه الى بلاد اشور • واخبروا اشوربانيبال بنفس الرسالة بأن العيلاميين قد هددوهم بارسال قوات عيلامية تهدم بيوتهم اذا لم يوافق كبارهم على تنصيب عيلهم • وحدث بعد فترة قصيرة ان توفى نائيد مردوخ حاكم القطر البحرى وعين اشوربانيبال بدله نابو بيل شوماته • ولكن عيلام حسب مايظهر قد أغرت حاكم القطر البحرى الجديد هذا فهرب اليهم في نهاية سنة ٦٥١ ق • م مصطحبا معه عددا من الاشوريين الذين كانوا ضمن افراد الحامية الاشورية عنده وبعض الشخصيات المعروفة المعارضة له • وفي سنة ٦٤٩ ق • م شهدت عيلام ثورة اخرى حيث اعلن ايندابيكاش ثورته ضد تماريتو في ماداكتو عاصمة عيلام الثانية وهرب الملك السابق ليقع اسيرا بيد حاكم القطر البحري الجديد الذي عينه اشوربانيبال خلفا لنابو بيل شوماته الذي هرب الى عيلام • واسرع اشوربانيبال بتهنئة الملك العيلامي الجديد وخاطبه يا أخ في الرسالة • وظهر تماريتو كصديق

لبلاد آشور لفترة قصيرة من الزمن ولكنه سرعان ما بدأ بتقديم العون الى شمش شموكين وتشجيع حاكم القطر البحري السابق اللاجيء في عيلام على شن هجمات على الحاميات الاشورية • ولكن هذا الملك لم يتمتع طويلا بالعرش حيث ثار عليه في نفس السنة خوبان خالتاش ونحاه وسار الاخير على نفس السياسة المعادية لبلاد اشور • وأكثر الملك الجديد من مساعداته الى نابو بيل شوماته في هجماته على المناطق البابلية بدليل طلب حكام مدن العراق الجنوبية المساعدة من الملك الاشوري لحماية مدنهم وخاصة نفر واوروك • كما استقبل الملك العيلامي هذا مبعوثا من شمش شموكين لزيادة تقديم العون له في ثورته ضد اشور بانيبال • لقد برهن بيل ابني حاكم القطر البحري الجديد على انه مخلص لسيده اشور بانيبال • ففي رسالة اخبر آشور بانيبال بانه قد القى القبض على ابن اخ الملك العيلامي المنحى والسجين في نينوى وانه سوف يبعثه الى العاصمة الاشورية حالما يشفى من مرض ألم به • وأخبر الملك الاشوري ايضا بتحركات قبيلة اپوقودو التي كانت تسكن الاهوار واتفاقها مع نابو بيل شوماته • وهنا أنذر اشوربانيبال شيخ قبيلة اپوقودو واخبره بما نصه (اذا أرسلت أي شيء الى عيلام لقاء ثمن واذا عبر خروف واحد الحدود الى مراعي عيلام فاني سوف لا ابقيك حيا)• وفي خريف سنة ٦٤٩ ق • م بدأ حاكم القطر البحري الموالي للاشوريين يتقدم على رأس قوة مسلحة من منطقة دير باتجاه المدن العيلامية ، التي ظهر انها كانت مهيأة للهجوم على المدن البابلية ، فأوقع فيها الخراب • وقتل منهم أعدادا كبيرة وسبي وغنم اموالا ارسل بعضها الى نينوى • ونجح بيل ابني حاكم القطر البحرى على اثر انتصاراته هذه من التوغل في بلاد عيلام ، واصبح على مسافة مسيرة اربع ساعات من شوشه العاصمة • وعندما شعر الملك العيلامي بحراجة موقفه وقوة اندفاع البابليين وافق على شروط بيل ابني بتسليم المتمردين البابليين

اللاجئين في البلاط العيلامي ومعهم حاكم القطر البحرى السابق الذي خان بلاده وسيده ولجأ الى العيلاميين • ونتيجة لذلك ، ولعجز عيلام من مساعدة المتمردين البابليين سقطت بابل سنة ٦٤٨ ق • م وانتهى امر التمرد البابلي الذي قاده شمش اوكين •

ولكن تعدد الزعامات في عيلام جعل أمر الاتفاق معهم هشا وقابلا للنقض ، فبينما وافق احدهم على شروط الاشوريين ، خالف زعيم آخر ، وبدأ يحرض ضد الاشوريين ، ويضيق الخناق على الملك المتفق مع الاشوريين • وأمام هذه الاوضاع المضطربة التي كانت تترك أثرها على الدولة الاشورية قرر اشور بانيبال الزحف على عيلام لوضع حد نهائي لاعتداءاتها • فأرسل امرا الى بيل ابني بالتحرك على عيلام وفعلا زحف الاخير بقواته صوب الاراضي العيلامية • وهرب الملك العيلامي خوبان خالتاش من ماداكتو وتحرك الجيش على طول وادي نهر كرخة متجها نحو شوش وأخبر بيل ابني سيده الملك الاشوري بان الملك العيلامي يحتفظ بنابوبيل شومانه كورقة رابحة كيما يحصل بدلها على عفو من اشوربانيبال• وفي بداية سنة ٦٤٦ ق • م هدمت الجيوش الآشورية شوش ومعبدها الخاص بالهها الرئيسي انشوشيناك وارسلوا تمثال هذا الاله والالهة الاخرى معه الى بلاد آشور ، وخربت بلاد عيلام ونبشت قبور ملوكها الاسبقين وارسلت عائلة الملك العيلامي مع الكثير من الغنائم الى نينوى • وان التحريات الاثرية التي اجريت في موقع شوشه ثم في جوخه زنبيل (دور اونتاشي القديمة) قدمت الدليل على التخريب الشامل الذي قامت به الجيوش الاشورية ودلت على ان ادعاءات الملك آشور بانيبال في حولياته حول تخريبه عيلام كانت صحيحة • وبذلك حل اشور بانيبال المشكلة التي طال امدها مع عيلام ولكن ليس بطريق السلم الذي كان يفضله ويتحمس اليه ، ودفعت عيلام ثمنا باهضا لعنادها واصرارها على التعدي • وبعث الملك العيلامي من مادكتو

المخربة برسالة الى بيل ابني يعرض فيها استعداده لتسليم نابو بيل شومانه وما ان سمع نابوبيل شومانه بالخبر حتى أمر حامي درعه بذبحه وفعلا تم له ما اراده وقام الملك العيلامي برش الملح على جثة نابوبيل شومانه خوف تعفنها وبعث بها الى نينوى سنة ٦٤٦ ق • م ويظهر من رسالة لبيل ابني الى اشور بانيبال ان الاخير قد عين مردوخ شاراوصور حاكما على عيلام وحمل تمثال الالهة نانا (عشتار) الذي سرقه العيلاميون منذ اكثر من خمسمائة سنة قبل ذلك الوقت من مدينة الوركاء واحتفظوا به في بلادهم • وأمر اشور بانيبال ان يكون يوم عودتها الى الوركاء يوم حزن وان يحزن النبلاء بعد شهر من وصولها كل ذلك لاشعار الالهة بحزن بلدتها على فراقها ولكن بوصولها يتحول الحزن الى فرح شامل •

احتفل اشور بانيبال حوالي سنة ٦٤٥ ق • م بانتصاراته التي منها انتصاره على عيلام • وكجزء من الاحتفال ربط اشور بانيبال ثلاثة من الامراء العيلاميين بعربته الملكية التي صارت تجول بهم في شوارع اربيل وربما نينوى•

بعد تخريب شوشه وانتحار نابوبيل شومانه ارسل كورش الاول ملك برسوماش (فارس) وفدا الى بلاد آشور ربما وصل نينوى حوالي شهر كانون الثاني سنة ٦٤٥ ق • م يخطب ود وصداقة الاشوريين الذين اعترف بكونهم القوة التي لا ينافسها أحد •

العصر البابلي الحديث (السلالة الكلدية)

نسمع لاول مرة ـ كما نعرف الآن ـ عن اشتراك الميديين في القتال ضد الاشوريين خلال صيف سنة ٦١٤ ق • م حيث تقدموا عن طريق ارابخه (بالشمال الغربي من قلعة كركوك الحالية) الى نينوى وكالح (نمرود) وربما كانت المعلومات التي استحصلها الميديون عن تحصينات هاتين المدينتين جعلتهم يتحولون الى تربيصو (شريف خان الحالية) ثم تحولوا باتجاه الجنوب

متبعين نهر دجلة وحاصروا مدينة اشور (قلعة شرقاط الحالية) . ويظهر ان خطة الميديين كانت في تحويل جهود الاشوريين الدفاعية صوب نينوى وكالح كيما يتم لهم الاستحواذ على مدينة اشور بسهولة . وفعلا تم لهم ما ارادوا فقد تمكنوا من اختراق اسوار مدينة اشور ودخولها ونهبها وقتل الكثيرين من اهلها . وعندما وصل الملك نبوبولاصر مؤسس السلالة الكلدية (٦٢٦-٦٠٤) ق . م وجد ان مدينة اشور قد سقطت بايدي الميديين . وعند اطلال مدينة اشور التقى الملكان البابلي والميدي كي اخسار لاول مرة وعقدا كما تنص وثيقة الاخبار البابلية اتفاق سلام وصداقة .

التقى نبوبولاصر سنة ٦١٣ ق . م ثانية مع نظيره الملك الميدي (الذي تسميه وثيقة الاخبار البابلية بملك اومان ماندا) وتمكنا من عبور نهر دجلة الى ضفته اليسرى وهو أمر ليس باليسير ويصور ضعف الآشوريين حيث كان بامكانهم عرقلة هذا العبور وانزال الخسائر بالمهاجمين . وتذكر وثيقة الاخبار البابلية مرابطة الجيش البابلي والميدي امام نينوى لمدة تقرب من شهرين (حزيران وتموز) ولم تتمكن القوات المهاجمة من دخول المدينة نتيجة للهجمات الثلاث التي شنتها عليها ولكنها نجحت خلال الهجوم الرابع من اختراق تحصينات المدينة ودخولها ونهبها وتخريبها .

يخبرنا بارحوشا (المؤرخ الذي هاجر الى بابل من آسيا الصغرى في بداية الفترة الهلنستية بأن نبوبولاصر اخذ ابنه استياگيش واسمها أميتان (أريتان وسميت في مصادر كلاسيكية اخرى اموهين) كزوجة لولده نبوخذ نصر . ولكن الوثائق البابلية المعاصرة لاتذكر زواج نبوخذ نصر من اميرة ميدية . وفي تقسيم الممتلكات الاشورية حصل الميديون على القسم الشمالي الغربي من العراق .

نقرأ في وثيقة الاخبار البابلية عن تحرك عيلامي ضد بلاد بابل زمن

نبوخذ نصر لانعرف الغاية منه جعلت نبوخذ نصر يسرع في الخروج على راس جيش لمواجهته وصار على مسافة مسيرة يوم واحد منه الأمر الذي اثار مخاوف العيلاميين فانسحبوا .

تقدم الملك الاخير للسلالة نبونائيد (٥٥٥-٥٣٩ ق . م) بجيش الى حران المدينة العراقية الهامة في شمال غربي العراق والتي ظلت بايدي المحتلين الميديين منذ سقوط الدولة الاشورية سنة ٦١٠ ق . م وقد اهمل « معبد السعادة » الخاص بالاله سين فيها خلال فترة الاحتلال الميدي .

وانتهز نبونائيد فرصة انشغال الميديين بثورة كورش الكبير فهاجم حران . وحرر نبونائيد المدينة دونما مقاومة تذكر من الجانب الميدي لانها سقطت بسرعة في يده . وكان عنصر المباغتة وتأييد السكان والحماس الكبير دون شك عوامل هامة في احراز النصر . وصارت قوة كورش الفارسي هذا تتعاظم خلال فترة حكم نبونائيد .

يظهر ان المد الفارسي الذي تزعمه كورش لم يؤثر التأثير اللازم على نبونائيد حيث لانقرأ عن اي تحسب للاخطار من جانبه ولا عن اخذه لاية احتياطات احترازية . ولانعرف مدى الثقة التي يمكن ان نضعها باقتناع البعض عن تحالف كروسوس ملك ليديا مع نبونائيد وحتى مع أماسيس فرعون مصر للوقوف بوجه كورش . ونعرف عن تجمع للجيوش البابلية بأمر بيلشازار بن نبونائيد سنة ٥٤٧ ق . م . قرب مدينة كوراشو (قرب اليوسفية الحالية) ربما تحسبا من تطور الاحداث او وصول اخبار بتحشدات جيوش كورش حيث نعرف بان الاخير قد خرج بجيش في نفس الشهر من السنة هذه وعبر به دجلة ربما عند نقطة قرب مخمور الحالية في طريقه الى آسيا الصغرى . ونقرأ في وثيقة الاخبار الخاصة بنبونائيد ان في حزيران سنة ٥٤٦ ق.م دخل احد قواد كورش الى بلاد اكد وصار حاكما فيالوركاء .

ولا نعرف معنى هذه الحقيقة بالضبط . فهل ان هذا القائد قد ترك ملكه ولجأ عند الملك البابلي ولكن لايسكن لنبونائيد ان يعينه حاكما على اية مدينة ، او ان قوة فارسية انتهزت فرصة غياب نبونائيد في تيماء فاخترقت الحدود واستولت لفترة من الزمن على اوروك ؟

هجم كورش الفارسي على العراق معتديا في تشرين الاول سنة ٥٣٩ ق . م . حيث اصطدم بالجيش البابلي الذي تقدم لصده عند مدينة اوبيس (قرب المدائن الحالية) وكان النصر فيها لكورش . ولم يكن ليعوز الجندي البابلي المعنوية العالية ولا القيادة الرصينة فنبونائيد قائد كفوء شجاع ولكن فساد الادارة واعتزاله في تيماء (بالمملكة العربية السعودية حاليا) لسنوات ادت الى اهمال البلد وربما حتى الجيش . ثم حنق الكهنة نتيجة تفضيل نبونائيد للاله القمر على مردوخ وعدم حضوره احتفالات عيد رأس السنة الديني الى جانب عدم تحسبه خطر كورش من بدايته . وتذكر وثيقة الاخبار البابلية كيف ان كورش قد احرق اهل اكد بالنار مما يدل على استعماله القسوة البالغة مع العراقيين وألحاقه الاضرار البليغة بالبلد . ولا تذكر الوثيقة من كان يقود الجيش البابلي ولكن الجيش الفارسي كان بقيادة كورش ومعه غوبارو الحاكم البابلي لمنطقة گوتي في الشمال الشرقي من العراق والذي يظهر انه خان سيده نبونائيد وانضم الى كورش . وقد استفاد كورش كثيرا من انضمام غوبارو اليه بحيث عهد اليه بقيادة الجيش الذي تقدم لاحتلال بابل . وتقدم الجيش الفارسي ودخل سپار في اليوم الرابع عشر من تشرين الاول وتذكر الوثيقة ان المدينة اخذت دون قتال . فربما فكر نبونائيد بالانسحاب والتحصن في بابل عندما رأى عدم قدرته على مقاومة العدو في سپار . وسقوط سپار كان مهما لما لها من أهمية وكونها خط دفاع بابل نفسها . وتقدمت الجيوش المعادية صوب بابل واحتلتها في اليوم السادس عشر من تشرين الاول اي بعد يومين

من احتلال سپار وبدون قتال . والمسافة بين سپار وبابل حوالي تسعين كيلو مترا ، وقطع هذه المسافة في تلك العصور يتطلب اكثر من يومين ، فكيف يكون الفرق بين احتلال سپار واحتلال بابل يومان فقط ؟ فمن المعقول الافتراض بان الجيش المعادي المتقدم لابد وان حصل على معونة ودعم من عناصر محلية ومنهم يهود الأسر البابلي . فمساعدة كورش لليهود بعد سقوط بابل بيده واعتبار اليهود له المخلص لهم وسماحه لهم بالعودة الى فلسطين وبناء المعبد في القدس واعادته لهم ماحمله نبوخذنصر من معبدهم ومساعداته السخية لهم وتوصياته برسلهم (رغم اقتصار ذكرها على المصادر اليهودية وصمت النصوص الفارسية) كلها مؤشرات الى انهم لابد ان ساعدوا جيوش كورش لدى احتلالها بابل . فمدينة بابل حصينة جدا وليس من السهل على أي عدو دخولها . ويخبرنا هيرودوتس ان كورش قد حول مياه نهر الفرات الى الحد الذي صار فيه المجرى يمكن خوضه بسهولة فدخلته الجيوش الفارسية في وقت كان الناس يحتفلون باحد اعيادهم . واذا افترضنا ان انسحاب نبونائيد من سپار كان متزامنا مع دخول الفرس اليها وارسال الاخيرين قوات اسرعت الى بابل ووصلتها قبل ان يصلها نبونائيد وجيوشه للدفاع عنها فان بابل كانت آنذاك خالية من القوة الكافية التي تدافع عنها والتي كانت بصحبة الملك الذي وصل متأخرا والقي القبض عليه وهذا يتفق مع اشارة وثيقة الاخبار البابلية الصريحة التي تقول بأن نبونائيد قد رجع الى بابل عندما اخذها الاعداء فاخذ هو اسيرا . وينفرد بارحوشا بالقول ان نبو نائيد قد نفي الى كرمان بايران . ويظهر ان غوبارو هو الذي احتل بابل بجيوشه ثم سلم البلاد لكورش وأمر الناس بالخروج لاستقباله والترحيب به عند قدومه لها في الثالث من تشرين الثاني (أي بعد سبعة عشر يوما من سقوطها بيد غوبارو) . او ان يفسر النص بان جيوشا محلية مع جيوش

فارسية يقودها كلها غوبارو هي التي دخلت بابل وربما اسرع الجند المحليون الى حراسة الاماكن المقدسة في بابل خوفا من تدنيس الجنود الفرس لها .

وهذا الافتراض يفسر معرفة غوبارو ومن معه باحسن خطة لاحتلال بابل ولهذا سقطت بسرعة في ايديهم بأن حولوا مياه نهر الفرات فانخفض مستوى الماء بالنهر انخفاضا كبيرا بانت نتيجته كل القنوات والجداول التي تدخل المدينة فسلك وجيوشه واحدا أو أكثر منها واحتلوا المدينة . وذبح المحتلون ابن الملك بيلشازار وبقتله انتهى حكم سلالة محلية ، وظلت البلاد يتناوب عليها المحتلون حتى التحرير العربي .

فترة الاحتلال الاخميني

رغم ادعاء كورش في كتاباته بانه قد عامل سكان العراق بالحسنى وخلع عنهم طوق الذل فلدينا ادلة توضح مضايقات حكومته الفارسية للمواطنين العراقيين بغية ابتزاز الاموال . فوثيقة تذكر وجود ايتي مردوخ بلاطو (معنى اسمه مع مردوخ الحياة) صاحب دار الصيرفة البابلي المعروف ببيت اگيبي والذي يذكر بعض الباحثين الغربيين خطأ كونه يهوديا ولكن اسمه واسماء افراد آخرين من اسرته والتي تدخل في تركيبها المعبودات البابلية تثبت بدون شك كونهم بابليين) تذكر وجوده واصدقاءه بالعاصمة الفارسية همدان اما بحسب طلب الملك أو لكي يقدموا التماسا للبلاط . ولانعرف سر ذهابهم في بدء احتلال كورش للعراق الى هناك الى جانب حقيقة كونهم قد صرفوا كل ما أخذوه معهم من اموال دون شك على الرشاوى والهدايا لموظفي البلاط الفارسي الى الحد الذي احتاجوا معه قرضا للوصول الى بلدهم . وتوضح تحقيقات السلطة الفارسية المحتلة في سرقات من معبد عشتار الوركاء وملاحقاتها تتبع الادارة الجديدة لسجلات واردات المعابد البابلية حتى للعصور السالفة تمشيا مع سياستها الجديدة بوضع اموال

المعابد البابلية في ايدي السلطة الفارسية . ونقرأ عن السخرة خاصة لتنظيف القنوات وأتتنا اسماء كثيرين ممن ماتوا في الاعمال الاجبارية أو هربوا منها مما تدل على شدتها وتهرب المواطنين منها وزادت الضرائب المفروضة على السكان بحيث وصلت نسبتها الى حوالي ٣٠٪ الى جانب ما يدفع الى مفتش الري وجابي الضريبة مع الرسوم التي يدفعها الملاكون الى الدولة بالفضة مباشرة وصار الناس يدفعون الضرائب حتى عن التنقل بالانهار ودخول بوابات المدن .

عين كورش بعد احتلاله بابل ولده قمبيز نائبا له فيها . واتتنا وثيقة بابلية تدل على ان قمبيز قد مارس ايام والده في بابل الربا على رهن تسلمه بواسطة وكيل له . وهناك وثيقة بابلية تنص على اقتراض شخص بابلي كمية من الشعير من بيت ابن الملك (قمبيز) ونقرأ في نص عن وضع ايتي مردوخ بلاطو من بيت ايگيبي لعبد له لمدة اربع سنوات عند قاطع صخر هو نفسه عبد عند قمبيز لكي يعلمه هذه الحرفة . فالوثائق الثلاث تدل على ممارسة قمبيز العمل والربا عن طريق وكلائه وعبيده لجمع المال والاثراء .

بعد وفاة كورش خلفه ولده قمبيز الذي لم يبق أي موظف من موظفي العصر البابلي الجديد السابق في الادارة حال تسلمه العرش وغزا مصر ثم انتهت حياته سنة ٥٢٢ ق . م في ظروف لاتزال غامضة . فيذكر ان أخا له قد ثار عليه وفي طريقه لاخماد ثورته توفي (وقيل انتحر) .

اغتصب العرش سنة ٥٢٢ ق . م داريوس (دارا) وأعلن أهل بابل بنفس الوقت الثورة وأنضموا تحت لواء زعيم لهم باسم ندينتي بيل والذي اعلن ملكيته على بلاد بابل وأطلق على نفسه أسم نبوخذ نصر (الثالث) وربما يمت بصلة نسب الى نبونائيد ويظهر ان خبر هذه الثورة قد أفزع داريوس فقاد الجيوش التي سارت لاخمادها بنفسه . ويظهر ان الزعيم العراقي الثائر قد استحوذ على معابر نهر دجلة وشكل قوة نهرية

لهذا الغرض وهي خطة محكمة تمكن بها من منع الجيوش الفارسية من التقدم ضده في وقت ركز بها جيوشه عند الضفة اليمنى لمنع أية قوة فارسية قد تتمكن من عبور النهر • ورغم هذه الاستعدادات نجح داريوس في عبور النهر واصطدم مع الثائر ودحره وسار باتجاه بابل • ولكن ما ان وصل الجيش الفارسي الى زازانا (قرية صغيرة على الفرات) حتى وجد نفسه وجها لوجه مع جيش نبوخذ نصر (الثالث) الذي اندحر ثانية امام داريوس وانسحب الى بابل وتحصن داخل اسوارها • ولم تكن امكانيات بابل الدفاعية آنذاك قوية حيث انها لم تصلح منذ مايزيد على عشرات السنين بحيث توقف الزحف الفارسي • ويذكر هيرودوتس استعدادات البابليين لمواجهة الفرس فقد خزنوا من الطعام ما يكفي الجند المدافعين عنها مدة طويلة من الزمن • وربما لجأ الفرس ايضا الى الخداع لاحتلال بابل حيث يخبرنا هيرودوتس بأن داريوس قطع أنف وأذني زوبيروس احد قواده وضربه ضربا مبرحا وارسله الى أهل بابل ليوهم الاخيرين بهربه من سيده الفارسي غضبا ولجوئه اليهم • ويزيد هيرودوتس بان البابليين قد مرت عليهم الخديعة فسلموا زوبيروس فرقة من جيشهم ففتح هو ابواب المدينة لداريوس • ويضيف هيرودوتس لما فعله داريوس باهل بابل مثل تخريبه اسوار المدينة وبواباتها وشنقه لثلاثة آلاف شاب • وبعد فترة وجيزة خلال حكم داريوس ثارت بابل ثانية بقيادة زعيم اسمه اراكوس (ارقا) يطلق عليه داريوس الارمني الذي ادعى هو الآخر بانه من نسل نبونائيد واطلق على نفسه اسم نبوخذ نصر (الرابع) واتخذ لقب ملك بابل • وبدأت ثورته فيمدينة دوبالا جنوب بابل ولم يفزع داريوس لهذه الحركة الجديدة في بابل وارسل جيشا تمكن من اخمادها والقبض على الثائر وقتله •

ما ان اخمد داريوس الثورات التي قامت ضده حتى سن قانونه الجديد الذي نقرأ عنه في الوثائق البابلية في بداية سنة ٥١٩ ق • م • والتي اسمته

قانون الملك ، وبمقارنة مواد قانون داريوس هذا من حيث التنظيم والعقوبات بقانون حمورابي يظهر تأثره الكبير به حيث نجد تشابها حتى في التعابير والكلمات المستعملة • فمستشارو داريوس القانونيون لابد ان استعملوا نسخة من شريعة حمورابي الموجودة في شوشه والتي حملها من العراق الملك العيلامي شوتروك ناخونتي حوالي سنة ١١٧٧ ق • م عند هجومه عليه •

أرسل داريوس في نيسان سنة ٥٢٠ ق • م الى فلسطين جماعة من يهود الأسر القاطنين في العراق برئاسة زيروبابل (معنى اسمه باللغة الاكدية بذرة بابل) حفيد ياهوياكين آخر حكام يهوذا للاشراف على بناء المعبد الذي يذكر العهد القديم وعد داريوس باعادة بنائه •

يذكر هيردوتس بان الملك الفارسي قد فرض على بلاد بابل تسليم الخزانة الفارسية سنويا ألف طالين(*) من الذهب وخمسمائة شاب للخدمة في البلاط كطواشية وتحمل مصاريف الجيش والبلاط لثلث السنة وتقديم ثمانمائة حصان و ١٦٠٠ فرس • وتعرضت بلاد بابل في زمن داريوس الى موجة استيطانية ايرانية مكثفة • فنتيجة لقرارات داريوس المالية والادارية بعد سنة ٥١٨ ق • م اخذت اراضي من الملاكين العراقيين وقسمت الى مقاطعات اعطيت الى فرس يتوارثونها • فقد حصل على مثل هذه الاراضي افراد من العائلة المالكة يظهر انها اسماء فارسية •

وفي بداية سنة ٥٠٥ ق • م كان هناك ايرانيون ضمن قضاة بابل • وكونت الارستقراطية الفارسية الطبقة العليا من المجتمع البابلي • وصار الفرس يشتغلون في البيع والشراء في بلاد بابل يقرضون ويقترضون • وهناك وثيقة من عهد قمبيز تذكر فارسيا كرأس للتجار • ويظهر ان التهيؤ للحرب اليونانية اضطرت داريوس ان يفرض ضرائب جديدة • واخذت ضريبة فرضت على الشعير والحنطة والخردل سنة ٤٨٦ ق • م •

(*) الطالين يساوي ٣٠ كيلو و ٥٠٥ غم •

جاء بعد داريوس ولده احشويرش الاول (٤٨٦–٤٦٥ ق • م) الــذي كان نائبا عن والده لمدة طويلة في بابل • ونقرأ عن زيارته لبابل حال صعوده العرش ودخوله معبد مردوخ • وهناك مايدل على اتباعه سياسة جديدة جعل بها بلاد بابل خاضعة الى فارس وميديا • وفي سنة ٤٨٢ ق • م ثارت بــلاد بابل وقتل الثوار المرزبان الفارسي زوبيروس وقــاد الثورة بابلــي اسـمه بعل شيماني الذي اتخذ القاب ملك بابل وملك البقاع ووصلتنا وثائق مؤرخة باسمه من دلبات (ربما قرب قصبة الكفل الحالية) وبورسيبا (برس نمرود قرب الحلة) • ويظهر ان صراعا حدث بين بعل شيماني وثائر آخــر اسـمه شمش ايريبا حل في نفس السنة في بورسيبا • ثم استتب الامر الى شمش ابريبا دون معرفة بظروف البلد آنذاك ولكن انقسام الثوار العراقيين علــى انفسهم ادى الى ضعفهم امام عدوهم الفارسي • وقد ارسل الملك الفارسي زوج اخته لقمــع الثورة فتمكن مــن اخمادهــا ودخــل بابــل • وكانــت النتيجــة ان خربت اسوار بابل تماما وهدم معبد مردوخ مع زقورته ومعابد المدينــة الاخرى • ونسمع عن حمله لتمثال الاله مردوخ الذي تذكر الاخبار ان طوله كان ١٨ قدماً ، وهو من الذهب واخذه الى عيلام حيث تمت اذابته • وباختفاء تمثال مردوخ توقفت جميع الاحتفالات بعيد الاكيتو الهام • ثم صودرت املاك الملاكين والتجار العراقيين واعطيت الى الفرس • ويظهر ان خراب بابــل صار مؤلما الى درجة لم تصل الينا من بقية حكم هذا الملك الا حوالي ست معاملات • ويخبرنا هيرودوتس بان مرزبان بابل الفارسي كان يأخذ كومة من الفضة كــل يوم وأعفى اربع قرى كبيرة من الضرائب لاجل اطعام كلابه الهندية • وعندما يذكر هيردوتس عادة اهل بابل في عرض بناتهم اللواتي في سن الزواج بالمزاد العلني ويعطى مايقدم لاجملهن من المال كصداق لاقبحهن يقول انما عملوا ذلك لمنــع بناتهم من مقاساة العنف والاضطهاد والجر الى المدن الاجنبية • حيث اذا ما اراد الفرس اخذ بناتهم فيجدونهن متزوجات او لايزلن صغيرات فــي

السن وبذلك يسلمن من التعرض لهذا الاذلال والاهانة • فالعوائل البابليــة قد أسيئت معاملتها منذ الغزو الفارسي وحطمت الكثير من العوائل العراقية • وترينا الوثائق التي وصلتنا من بابل انخفاضا كبيرا في التعامل بالمعادن الثمينة مما يدل على عدم الامان وكنز الناس لها وخوفهم من اخراجها علنا •

صرنا منذ زمن ارتحششتا الاول نسمع لاول مرة عن اراضي واسعة جدا في أيدي ايرانيين واننا نقرأ بين آونة واخرى عن حصة لاتزال ممتلكة مــن قبل مالكيها الاسبقين • ومن المحتمل ان اصبح الملك الفارسي الآن هو الملك الاعلى الاسمى للاراضي • واعتقد البعض ان الفرس بعد احتلالهم بلاد بابل اعادوا تقسيم الاراضي بحيث صارت اكثر اراضيها تابعة للتاج • فالاراضي الممتازة قد اخذت من الشعب البابلي وقسمت الى اقطاعيات كبيرة اعطيــت بالوراثة الى العائلة المالكة الفارسية والمقربين وأقارب الملك والموظفين الكبار وضباط الجيش الذيــن قدمــوا خدمــات للامبراطورية • والمصادر التــي بين ايدينا من بابل تحوي ادلة كثيرة عن اقطاعيات واسعة للنبلاء الفرس يعمل عليها العبيد في الغالب وتعطى باللزمة • فالاراضي حوالي مدينة نفر (قــرب عفــك) وزعت على النبلاء الفرس • وحصل نساء القصر على اراضي واسعة • ووصلت الحالة الى الحــد الــذي صــارت بعض المقاطعات البابلية لها اسماء فارسية مثل فارس والفارسية الخ •

ويؤكد هيردوتس امتلاك الحاكم الفارسي والموظفين الكبار للقصــور والحدائق والبساتين والمقاطعات الزراعية الواسعة • وحتى ان حاكم مصــر ارشام الفارسي كانت له اراضي في اربيل وقطعان ماشية وماعز في منطقة نفر • وكان الفرس في العراق خلال هذه الفترة من اصحاب العبيد الكبار وامتلكوا بيوتا وخانات والكثير من الاملاك الاخرى • ونقرأ في وثيقة من بابل سنة ٤٨٥ ق•م عن فارسي اجر مخازن بواسطة وكيله البابلي • ويظهر ان الفرس قد شعروا بالامان في بلاد بابل بحيث ان فارسيا اسمه باكاميرى أجر الى بيت موراشــو

التجاري (وهم بابليون اعتقد بعض الغربيين دون سند رصين انهم من يهود الأسر) ارضا زراعية وحقلا بسوجب عقد لمدة ٦٠ سنة • وامتلك الامراء والملكات واولياء العهد الفرس الاراضي الواسعة في بلاد بابل التي كان لها موظفوها وحراسها وحتى قضاتها ومديروها ، وكان بيت موراشو الصيارفة والممولون المعروفون من هذه الفترة يؤجرون الحقول ويدفعون بدلها نقدا ويحفرون القنوات ويبيعون الماء الى الفلاحين • كما احتكر الفرس مصائد الاسماك ومصانع الجعة • وتدل الوثائق من نفر عن علاقات تجارية بين الامراء الفرس والملكات وبيت موراشو الذي تعاون مع المحتلين الفرس فغالبا ما استأجروا من الاخيرين بيوتا ومزارع •

كانت أراضي النبلاء الفرس (كما يمكن استنتاجه من الوثائق) معفاة من الضرائب • واتانا من فترة الاحتلال الأخميني نظام اعطاء الملك لاراضي زراعية الى محاربيه من الفرس شريطة الخدمة في الجيش واستلم المحاربون الفرس الاراضي بصورة اجماعية • كما قدمت الاراضي الى جميع موظفي الدولة الفرس وعليهم دفع الضرائب • وان اعادة تقسيم الاراضي في بلاد بابل والتي نتجت عن الغزو الفارسي اسفر عنها نوع جديد من الاراضي المتلكة يظهر من اسمائها انها معطاة الى أصناف من الجيش مثل الرماة والخيالة وسواق العربات الخ • فهذه الاراضي قد اعطيت الى المستوطنين العسكريين الذين يتمكنون من الخدمة كرماة وخيالة وفي سلاح العربات وعليهم ان يدفعوا الضرائب الى الدولة نقدا او عينا • وزادت الآن الاراضي التابعة للملك كثيرا وصارت تدر عليه الموارد الضخمة الى الحد الذي صرنا نقرأ في بعض العقود عبارة كون الملك المباع ليس من اراضي الملك دلالة على كثرة الاراضي والمقاطعات التابعة له • ونصت وثيقة اخرى على ربع المحصول يقدمه الملاك عينا كضريبة ارواء • ولدينا أمر بتعيين شخص لرعاية طيور الملك من دجاج وبط وأوز الخ •

لقد ثقلت الضرائب المفروضة على الناس واضطر الكثيرون لرهن اراضيهم مقابل الضرائب المترتبة عليها للملك • وفي الكثير من الاحيان لم يستطيعوا فك الرهان عن اراضيهم فباعوها واصبحوا بلا ارض ولا عمل وحتى اضطروا الى بيع اولادهم كعبيد • وظهرت في الاسواق العراقية أزمة الفضة حيث قلت بالاسواق مما جعل الكثيرين يلجأون الى المقايضة • كل هذه ادت الى ارتفاع اسعار الحاجيات الاستهلاكية بنسبة ٥٠٪ عن العصر السابق • وقد كان الملوك العراقيون القدامى يدفعون الضرائب الى المعابد ولكن الملوك الفرس لم يمتنعوا عن دفع اية ضرائب للمعابد العراقية فحسب بل انهم فرضوا على ممتلكاتها التي كانت معفاة من الضرائب سابقا ضرائب فادحة سواء عن الاراضي او الماشية وان يسلموا العلف الى القطعان الملكية والمؤونة لموظفي الدولة والعمال للمقاطعات الملكية • وصارت المعابد العراقية تقدم المئات من الاطنان من مختلف المحاصيل ومئات الرؤوس من البقر والماشية الى المائدة الملكية • وعليهم ان يرسلوا ايضا جماعات من ٥٠٠ عبد واكثر للعمل في اراضي الملك • الى جانب تعيين الملك لموظفين للاشراف على املاك المعابد • وكان المرابون يقرضون المال للافراد المحتاجين الذين زاد عددهم كثيرا لدفع ما عليهم من الضرائب بسعر ٤٠٪ ونقرأ في هيردوتس مدى تألمه لاضمحلال حضارة وادي الرافدين تحت وطأة الضرائب الثقيلة التي يدفعها الشعب العراقي للدولة الحاكمة •

وعن تعاون الفرس مع يهود الأسر نقرأ في العهد القديم كيف ان شخصا من يهود الأسر اسمه عزره مثل امام الملك ارتحشتا الاول (٤٦٤–٤٢٤ ق•م) سنة ٤٥٨ ق•م وقدم له مشروعه الجديد الخاص بالتنظيم الديني بالنسبة للجالية اليهودية في فلسطين الذي تبناه الملك الفارسي وشجع عزره للمضي قدما في تطبيقه وساعدة على السفر الى فلسطين • ويرجع نجاح عزره دون شك في مهمته الى

مساعدة الملك الفارسي له • وكان عزرة هذا كاهنا وزعيما دينيا لجماعة يهود الأسر في بابـل •

لقد انتهى الاحتلال الاخميني بدخول الاسكندر المقدوني العراق سنة ٣٣١ ق•م ويظهر من جنسيات الجنود الذين دفع بهم آخر الملوك الاخمينيين داريوس الثالث لحرب الاسكندر الذي هاجم العراق من الشمال الغربي ودحر الفرس في موقعة گوگا ميلا (تل كوميل الواقع على بعد ٣٥كم شمال شرق الموصل) ان هناك الكثيرين من بابل وقبائل من منطقـة الخليج العربـي لابـد وان اخذوا بقوة السلاح والعنف الى القتال • وبعد اندحار الجيوش الفارسـية في گوگا ميلا خلا الجو للاسكندر الذي دخل بابل •

* * *

الفصل الرابع

الصراع في زمن حكم الفرثيين والساسانيين

ابتداءاً ، علينا ان نؤشر حقيقة في تاريخ العراق القديم لاتزال معالمها واضحة حتى الوقت الحاضر ، تتمثل في الارتباط المصيري والمشترك بين العراق وبين بلاد العـرب الواسعة • فقـد كان العراق منـذ فجـر تاريخه موطنا رئيسا لاستقرار القبائل العربية القديمة التي هاجرت اليه من مناطق جزيرة العرب ، ووجدت في سهوله الغنية وشطآن نهريه المعطائين كل مستلزمات الاستقرار والبناء الحضاري والابداع • ولم تنقطع صلة العراقيين بمناطق بلاد العرب الواسعة ، فهم يشتركون جميعا في أسس لغاتهم وكثير من عاداتهم وتقاليدهم ، وجانب ليس باليسير من معتقداتهم وطقوسهم الدينية • والـذي يتابع فصول الاحداث التاريخية في العراق القديم ، ابتداءً من عصر فجر السلالات في مطلع الالف الثالث ق • م • وانتهاء بالعهد العربي الاسلامي ، يواجه هـذه الحقيقة ماثلة في كل صفحة من صفحات الماضي العريق لتاريخ وحضـارة وادي الرافديـن •

ومنذ فترات قديمة ايضا ، شملت النشاطات العراقية الحضارية عامة ، والاقتصادية منها خاصة ، مناطق البوادي الشمالية لجزيرة العرب ، كبادية

السماوة والشام ، ومدن شمالي سوريا وسوريا الساحلية ، كما توغلت هذه النشاطات الى مديات جنوبية بعيدة في الخليج العربي • فمنذ فترات حضارتي حلف والعبيد (الالف الخامس والرابع ق • م) ودلائل الاتصال الحضاري بين العراق وبين مناطق في سوريا من جانب ، وفي الخليج العربي من جانب آخر ، مؤكدة ومثبتة بالأدلّة الاثرية •

وحتى لو افترضنا قيام حدود فاصلة بين مراكز الحكم في العراق وسوريا والخليج العربي لبعض الاوقات ، فأن الوحدة الحضارية لهذه المناطق كانت أقوى في مسبباتها ونتائجها •

وعليه ، فأننا عندما نتحدث عن الصراع العراقي الفارسي ، لانضعه في أطار الحدود السياسية للدولة العراقية قديما او حديثا ، وأنما في اطاره الحضاري ، حيث تتوضح عند هذا الاطار الرؤية الصحيحة لكثير من أسباب الصراع ونتائجه عبر المراحل التاريخية المختلفة •

اوضاع العراق العامة قبل مجيء الفرثيين

سبق وان عرضت فصول من الصراع بين العراق وفارس منذ فترات تاريخية مبكرة ، ولكن العراق نجح على الدوام في الحفاظ على استقلاله وأمنه من مطامع الفرس وغزواتهم المتكررة •

ولكن النكبة العظيمة التي حلت بالعراق في عام ٥٣٩ ق • م متمثلة بالغزو الاخميني الفارسي ، مثلت صورة الاستعمار الاستيطاني الذي عمد الى ضم العراق الى ولايات الدولة الفارسية • ولم يكتف الفرس الاخمينيون بغزو العراق واجهاض حركته الحضارية وانما تهيأ لهم بسبب ذلك ، ولأن العراق يشل مفتاح البيت الكبير (بلاد العرب) ، فرصة التجاوز على بقية اقسام بلاد العرب • فقد واصل الفرس غزوهم لاقسام من سوريا ، وبلغوا في زمن

حكم قمبيز الى مصر ، كما توجه داريوس في بعض خططه لاحتواء منطقة الخليج العربي والسيطرة على طرق التجارة ومنافذها فيه •

ودارت الدوائر بالفرس الاخمينيين ، ولعب العراقيون والسوريون والمصريون ، كل من جانبه ، دورا مهما في اضعاف البناء السياسي والعسكري لدولة كورش وداريوس الاول • فتكررت الثورات في مصر وبابل ، وبقي هذان المركزان يقضّان مضاجع الحكام الفرس الاخمينيين •

وعندما آل أمر العراق الى الحكام المقدونيين بزعامة الاسكندر في عام ٣٣١ ق • م ، وأعقبه السلوقيون ، أضطر هؤلاء لاتباع سياسة مغايرة في حكم هذه المراكز ، قصدوا من ورائها احتواء الشعوب التي خضعت لحكمهم • فتعاملوا مع سكانها وافكارها وحضارتها تعاملا أيجابيا بلغ حد أشتراك الاسكندر بنفسه في الاحتفالات الدينية الوطنية في كل من مصر وبابل ، هذا اضافة الى اجراءات عديدة اخرى اتخذها الاسكندر وخلفاؤه في الاقاليم الشرقية هيأت فرص التحرك الحضاري ثانية في منطقة الشرق الادنى القديم •

وعلى الرغم من أن المدونات التاريخية المعاصرة للاحداث لم تكن تولي امر الناس وحياتهم وشؤونهم أهمية تذكر ، بل تركز أهتمامها بأعمال القادة والملوك ، ولكن بعض النشاطات المبرزة للعرب والعراقيين فرضت نفسها على بعض التسجيلات التاريخية • فينشط العرب والعراقيون ثانية في الاعمال التجارية ، ويبدأ نفوذهم بالوضوح والازدياد في المحطات الرئيسية على أمتداد الطرق التجارية •

ويبدأ الحديث ثانية في القرن الثالث ق • م عن الكلدين(*) وانهم

(*) الكلديون من القبائل العربية القديمة (السامية) التي نزحت الى العراق ←

يسكنون الاطراف الشمالية لسواحل الخليج العربي الغربية ، كما تبرز أيضا مدينة عربية اسمها الجرهاء Gerrha ، أشتهرت بتجارتها مع سلوقية عاصمة السلوقيين في العراق(**) ومع بابل ، وكانوا ينقلون تجارتهم الى المدن العراقية بوسائط نقل مائية وعن طريق القوافل البرية • كما كانت هذه المدينة على صلة وثيقة بالسبأيين •

ويذكر لنا الكتّاب الكلاسيكيون من يونان ورومان كيف دفعت شهرة الجرهاء وثراؤها الملك السلوقي انطيوخس الثالث (٢٠٥ ق • م) لمهاجمتها ولكن أهلها فاوضوه على دفع هدايا مغرية من الفضة والذهب مقابل حريتهم • وهكذا حافظ العرب والعراقيون من خلال الجرهاء على استقلالهم الذاتي بعيدا عن الحكم المباشر للسلوقيين الذي كان مطبقا على وسط العراق •

والراجح بين الآثاريين اليوم ، ان البقايا الأثرية لمدينة ذات سور حجري عريض ، تعرف أطلالها بالثاج ، وتقع بمسافة ١٥٠ كم شمال غرب الظهران ، تمثل بقايا مدينة الجرهاء العربية القديمة ، بخاصة وأن الآثار القليلة المجمعة من سطح الموقع ومن بعض الحفر الاختبارية تؤيد نسبة المدينة الى القرنين الثالث والثاني ق • م ، وبذلك تتوافق مع روايات الكتاب الكلاسيكيين •

ومن بين المكتشفات الهامة في الثاج ، مسكوكات عربية ، بعضها يحمل اسم الملك أبي ياتع ملك هجر (بحدود ٢٢٠ ق • م)• واخرى باسم أبي أيل ملك هجر (بحدود ١٤٠ ق • م) حيث تكشف لنا هذه المسكوكات

في حدود مطلع الالف الاول ق . م وكانوا وراء تاسيس سلالة بابل الحديثة (٦٢٦ – ٥٣٩ ق.م) ومن ملوكهم المشهورين نبوخذ نصر . وهم يمثلون آخر السلالات الوطنية التي حكمت في تاريخ العراق القديم .

(**) وتعرف اطلالها اليوم بتل عمر ، ويقع على نهر دجلة في وسط العراق مقابل طيسفون (المدائن) .

عن مملكة عربية قوية في هذه الاثناء هي مملكة هجر التي تذكرنا بهجر البحرين •

وهكذا بقيت النشاطات التجارية في جنوبي العراق والخليج العربي بأيدي العرب من عراقيين وخليجيين خلال العهد السلوقي وأستمرت كذلك خلال حكم الفرثيين •

الفرثيون

وهم من القبائل الآرية التي نزحت الى شرقي ايران بحدود منتصف الألف الاول ق • م ، ونجحت في التمركز في أقليم خراسان بادىء الامر • وعندما بدأ الضعف والاضمحلال يسريان في جسد الدولة السلوقية ، بخاصة بعد انشغالها بالحروب الطاحنة مع البطالمة حكام مصر ، نجحت بعض الاقاليم النائية في الانسلاخ من حكم الدولة المركزية ، وكان ذلك مشجعا لتحرك الفرثيين السياسي الذين برزوا الى سطح الاحداث في ايران كدولة مستقلة بحدود عام ٢٥٠ ق • م • بقيادة ارشاق الذي تنسب اليه الدولة أحيانا فتدعى بالدولة الارشاقية •

والفرثيون أقوام بدوية أميل الى الحكم اللا مركزي ، الذي يربط نفسه ببقية المقاطعات عن طريق التحالفات أحيانا ، لذلك لقي تحركهم السياسي صدى في نفوس الزعامات المحلية التي كانت تتوق للانعتاق من نير الحكم السلوقي •

نجح الفرثيون خلال قرن واحد من أزاحة السلوقيين عن حكم ايران ونافسوهم في السيطرة على العراق ، وتحققت لهم السيطرة على العاصمة سلوقية في العراق بحدود عام ١٣٩ ق • م ، فأنتقل الحكم بذلك من أيدي السلوقيين الى أيدي الفرثيين •

كان للزعماء المحليين ، وبخاصة رؤساء المناطق والاقاليم دور بارز في كيان الدولة الجديدة ، وبقيت للبيوتات الرئيسية وزعمائها المكانة العالية في العهد الجديد • وتمتعت هذه الزعامات بسلطات متوارثة تقليديا ، وغدت الملكية وراثية أيضا كما كانت دائما في الشرق القديم ، ولكنها لم تبق محصورة في أسرة واحدة ويمكن أنتقالها من بيت لآخر •

لذلك كانت وطأة السيطرة الفرثية على الاقاليم التي اخضعوها لحكمهم، وبخاصة العراق الذي كان من اهم الاقاليم ، اخف كثيرا من هيمنة الحكومات المركزية السابقة • فأخذ العرب يستجمعون قواهم ، وظهرت لهم مراكز حكم قوية في جنوبي وشمالي العراق ، كذلك واصلت بعض المراكز الخليجية أزدهارها التجاري والحضاري • وغدت مملكة ميسان او كرخ ميسان واحدة من المراكز التجارية الهامة في جنوبي العراق ، ويخبرنا بليني أن احد ملوكها تلقب بملك العرب ، وكان مستقلا في حكم عرب العراق الجنوبيين بعيدا عن هيمنة السلوقيين والفرثيين •

وشهدت منطقة الجزيرة بين دجلة والفرات تجمعا كبيرا لقبائل عربية تمركزت بحدود القرن الاول ق • م • حول مدينة الحضر ، التي تحولت بمرور الوقت الى دولة معظمة صمدت بوجه الجيوش الرومانية مرارا ، ونشطت على طرق التجارة البرية الواسعة التي كانت تربط العراق بمناطق الشام وسواحل البحر المتوسط وشمالي الجزيرة العربية •

وخلال حكم الفرثيين أيضا كانت بدايات الهجرة العربية الكبيرة لقبائل تنوخ التي استقرت بادىء الامر في البحرين ، ولما تكاثرت القبائل في البحرين تحالفوا على التنوخ وهو المقام ، وتعاقدوا على التناصر والتساعد ، فصاروا

يداً واحدة وضمهم اسم تنوخ ، وتنخ عليهم بعدئذ بطون من قبائل عديدة • وكان أجتماعهم أيام ملوك الطوائف (الفرثيون)(*) ، ثم تطلعت أنفس من كان بالبحرين الى ريف العراق وكان فيه الارمانيون ، وهم نبط السواد من بقايا إرم ، يقاتلون الاردوانيين (نسبة الى أردوان أو أرطبان من اسماء ملوك الفرثيين) • وعادة المؤرخين العرب اطلاق تسمية الاراميين على كل العرب الذين دونوا بالخط الارامي ، وقيل مثل ذلك بالنسبة الى الحضر ، ولكن الدراسات التفصيلية لمدونات الحضر كشفت عن حقيقة القبائل العربية التي شكلت دولة الحضر •

واول ملك عربي في العراق خلال العهد الفرثي هو جذيمة الابرش ، فقد كان « من افضل ملوك العرب رأيا وكان اول من استجمع له الملك بأرض العراق وضم اليه العرب وغزا بالجيوش وكانت منازله ما بين الحيرة والانبار وهيت وعين التمر واطراف البر، وتجبى له الاموال وتفد اليه الوفود» (ابن الأثير ص ٣٤٠) •

لم يكن بمقدور العراقيين وهم مشتتون ، أزاحة الحكم الفرثي عن كاهل العراق ، بخاصة وأن الفرثيين أعتمدوا العراق قاعدة عسكرية رئيسية لتجميع جيوشهم في حروبهم مع الرومان ، ومن المحقق علميا ان طيسفون كانت مقر الحاكم الفرثي قبل اعتمادها عاصمة من قبل الساسانيين •

(*) يذكر المؤرخون العرب رواية جديرة بالأعتناء حول فترة حكم الفرثيين ، حيث يسمون عهدهم بعهد ملوك الطوائف ويذكرون بخصوصهم ما يلي : « قالوا ولما توفي الأسكندر حمى كل رجل من اولئك الزعماء الذين توجهم الاسكندر الذين ملكهم حيزه ودفعوا الحرب ... فسموا بذلك ملوك الطوائف » (الدينوري ـ ص٣٩) ويرى كريستنسن بأن هذه التسمية اقرب الى التطابق مع الواقع السياسي للدولة الفرثية ويرى في بعض المصطلحات البهلوية ما يتطابق مع مدلول اللفظة العربية(كريستنسن ص٨)

حكم الفرثيون قرابة الاربعة قرون (١٤١ ق • م —٢٢٤ م) ، شهد العراق خلالها تطورات كبيرة صوب مسك زمام مصالحه وحماية أرضه ، واصبحت مدينة الحضر مرشحة لتلعب دورا بارزا في مستقبل الاحداث ، لولا تكالب القوى الاجنبية ومطامعها في خيرات هذا البلد ومركزه الستراتيجي • وبسبب موقع الحضر عند الاطراف الشمالية الغربية للعراق ، القريبة وقتئذ من حدود النفوذ الروماني ، بذلك تحملت مسؤولية الدفاع عن العراق وأمنه من الهجمات الرومانية ، ونجحت بكل جدارة في ايقافها• وكانت الحضر دولة مستقلة، تلقب بعض حكامها بلقب «ملك العرب» وكانت تقاليدها وعباداتها وآلهتها قريبة الصلة مما نعرفه عند باقي العرب في تدمر او البتراء • كما يقرن الباحثون بين الشكل المعماري للكعبة المشرفة وبين كعبة الحضر ، ويرون فيها انعكاسا لافكار وطقوس عربية مشتركة • لذلك يمكننا تشخيص بداية نهوض قومي وفكري يحمل في طياته معالم النهوض الوحدوي خلال حكم الفرثيين • وكانت هذه الملامح الجديدة في تاريخ العرب في تطور مستمر صوب مرحلة النضوج لولا أن شهد العراق وبلاد العرب جميعا تحولات في الحياة السياسية لعالم الشرق الادنى القديم تركت آثاراً سلبية على مجرى التطور المستقل للمنطقة بوجه عام ، وعلى العراق بوجه خاص • ويتمثل ذلك التحول في قيام الدولة الفارسية الساسانية في عام ٢٢٤ أو ٢٢٦ للميلاد • وبعد أن كان التحرك العراقي خفيا ، يأخذ شكله في صيغة دويلات مستقلة ، او اعتناق الديانة التوحيدية المسيحية المخالفة لعقائد الشرك الفارسية ، تحول الى طابعه العلني في فترة حكم الساسانيين ، حيث نستكشفه من الاجراءات والاعمال اللئيمة التي اتخذها الحكام الساسانيون بحق العراقيين والعرب جميعا •

الصراع العراقي الفارسي في زمن الدولة الساسانية

الساسانيون نسبة الى أسم جدهم ساسان الكاهن الاعلى لبيت نار مدينة اصطخر بأقليم فارس • وهم من الاقوام الآرية التي استقرت في أقليم فارس ، وهو الاقليم الذي يحتل الاقسام الجنوبية الغربية من ايران، ومن مدنه القديمة بازرگاده وپرسيپوليس وأصطخر ، ومن مدنه الحديثة شيراز وكرمان وأصفهان • والراجح انهم من بقايا الاقوام الآرية الاولى من الميديين والاخمينيين • وقد حافظ الفرس الساسانيون بشكل استثنائي على كثير من التقاليد والافكار التي شاعت في عهد الدولة الاخمينية ، كما ان أمراء هذا الاقليم بقوا محافظين على كثير من جوانب التراث الاخميني وبخاصة أسماء الاعلام •

لذلك أعتبر الساسانيون انفسهم الورثاء الشرعيين لدولة الاخمينيين ، وكانوا في كثير من خطواتهم يسعون لتحقيق المطامع التوسعية لاسلافهم الاخمينيين • وعلى الرغم من ان ورثاء ساسان كانوا يحتلون مناصب عالية في ولاية اصطخر من ولايات الدولة الفرثية ، فقد كان بابك بن ساسان الكاهن الاعلى على الولاية ، وعيّن بدوره ولديه شاپور وأردشير في مراكز عسكرية وادارية عالية ، لكنهم عمدوا بشكل دنيء للتآمر على حكام الولاية ، واستلموا مقاليد الحكم فيها • وسرعان مانشب الخلاف بين السارقين ، وقامت حرب بين أردشير وبين أخيه شاپور حول عرش الولاية ، فأصاب أردشير النجاح فيها ، وتحرك بعدها بسرعة وفاجأ أردوان الخامس آخر الحكام الفرثيين في العاصمة طيسفون ، فقتله وانهى بقتله حكم الفرثيين ، وفي نفس العام ، سنة ٢٢٤ أو ٢٢٦ م توج أردشير ملكا على الدولة الفارسية الجديدة ، الدولة الساسانية •

أشرنا من قبل الى بدايات النهوض العربي في العراق مع مطلع العهد

الميلادي ، وكان ذلك في شكل دويلات مستقلة واستقرار قبائل عربية بعد تجوال وتنقل طويلين واقترن ذلك بازدهار الحياة الاقتصادية والفكرية ، وتعد الحضر خير مثال على ذلك • فقد بلغت أوج تطورها الاقتصادي والعمراني في القرنين الثاني والثالث الميلاديين • واستعادت بلاد بابل بعض أمجادها القديمة ، فأزدهرت في مناطقها وقراها مدارس الفكر والفلسفة مستندة الى التراث الفكري العريق لبلاد وادي الرافدين ، ومتفاعلة مع الافكار والفلسفات التي هبت على العالم آنذاك ، كالافكار اليونانية ومعتقدات المسيحيين • ورافق هذا النهوض العراقي تطلعات طموحة في اقسام اخرى من بلاد العرب ، فبرزت مدينة تدمر كواحدة من المراكز العربية المتقدمة ، وكانت على صلة فكرية واقتصادية وقرابية بالعراق، فالراجح أن التدمريين من القبائل التنوخية التي استقر بعض منها في العراق والآخر في الشام •

كانت هذه الاحداث والوقائع تتحرك في جسد الامة العربية ويدفع العراق بها الى النضوج ، وبسبب موقعه المتميز وتراثه الحضاري العريق ، فقد وقف بوجه المطامع والتحديات للنهوض العربي ، لذلك ايضا ناله من صلف المعتدين الفرس الشيء الكثير •

ومن جانب آخر ، استشعر الاتجاه القومي المتعصب الذي تسلّم سدّة الحكم في ايران بوصول أردشير الى العرش الساساني ، بأخطار هذه التحديات وتنامي قوة العرب على الاطماع الفارسية في العراق • لذلك نجد في أجراءات أردشير الادارية والتنظيمية والدينية والعسكرية ، مايعزز الرأي القائل بالصراع المحتدم خفية وابرازه الى سطح الاحداث الرئيسية في زمن الفرس الساسانيين •

أخضع أردشير نظام الحكم الى ادارة مركزية محكمة يديرها أشراف

الفرس ويرتبطون به من خلال القرابة أو الصلة القومية ، لانه وجد في نظام الحكم اللا مركزي الذي كانت عليه الدولة الفرثية خطرا على احلامه المريضة •

وجعل أردشير من الديانة الزرادشتية ، التي اعاد اعتبارها واحيا طقوسها واعتمدها دينا رسميا للدولة ووعاء فكريا يجتمع الفرس من خلاله حول زعامة الاسرة الحاكمة ، باعتبارها من سدنة هذا الدين ، وليواجه به ايضا التطلعات الفكرية المتحررة من قيود الفكر الشركي القديم للديانات الشرقية ، وبخاصة المذاهب الفلسفية الشرقية وفكر الديانة المسيحية ، اللذين شهدا تغلغلا واسعا بين فئات المجتمع العراقي •

ووضع أردشير نصب عينيه ، واختطها سياسة للدولة سار عليها من حكم بعده من الملوك الساسانيين ، أجتثاث مكامن القوى الصدامية العربية المتمثلة بالكيانات السياسية المستقلة مثل دولة الحضر او تدمر أو ميسان او هجر • واخيرا فأنه لجأ الى سياسة خبيثة بعيدة المدى في محاولة منه لتغيير الهوية السياسية والقومية لعروبة العراق ، وذلك عن طريق زرعه لعدد من المدن الفارسية في أقسام العراق والخليج العربي ، وارادها أن تكون واجهات سياسية وفكرية وربما بشرية بوجه المراكز الحضرية الاصيلة في هذه الاقطار•

وبذلك أختط الفرس سياسة عنصرية أزاء العراق كانت أساس الصراع بين الحق وبين الباطل ، بين الطموح وبين المطامع ، بين الاستقلال وبين الاستعمار ، بين تسلط الفكر الرجعي المشدود الى الديانات الوثنية وبين الفكر التحرري المتطلع الى الديانات والافكار الفلسفية المتعاقبة مع سنّة التطور في الحياة ، بين الفرس وبين العراقيين •

دولة الحضر رمز انطلاق العراقيين

الى الغرب من نهر دجلة بمسافة ٥٠ كم ، والى الجنوب الغربي من مدينة الموصل بمسافة ١٢٠ كم ، وعند اطراف وادي الثرثار ، وفي موضع

تكثر فيه العيون ، وتزداد نسبة سقوط الامطار ، وفي موقع متميز ، واجَهتهُ سهول دجلة والزابين وظهره البادية ، ويتحكم بخطوط التجارة البرية المتنقلة بين العراق وبين الشام ، استقرت أعداد من القبائل العربية منذ فترات قديمة وانشأت دولة الحضر • وتهيأت الظروف الموضوعية لهذه القبائل للتحرك السياسي والاقتصادي المستقل عن هيمنة مراكز الحكم الاجنبية في العراق والشام بحدود القرن الاول ق • م •

وشهدت دولة الحضر خلال القرنين الاول والثاني الميلاديين تطورا في كافة معالم حياتها ، وفي أزدهار اقتصادها ، وتنامي قدراتها العسكرية والدفاعية • ولاتزال بقايا ابنية الحضر تعكس بوضوح القدرات الكبيرة لدولة الحضر ، حتى انها اصبحت في دفاعاتها واسلحتها واسوارها مضربا للامثال وحديثا للمؤرخين من قدامى ومحدثين • والاكثر خطورة من ذلك ، أنها تحولت بمرور الزمن الى مركز عربي أمامي بوجه مطامع الفرس والرومان أجتمعت حولها القبائل العربية ، واصبحت معابدها وكعبتها محجا للعديد من هذه القبائل • لذلك اجتمعت في مدينة الحضر ميزتان ، سياسية ودينية ، وكانت هاتان الميزتان تستندان الى شروط اقتصادية متقدمة ، تظافرت كلها لتجعل من مدينة الحضر الهدف الاول لاحقاد الفرس الساسانيين •

وكان توجها سليما من أهل الحضر للاهتمام بدفاعاتهم واسوارهم وتطوير اسلحتهم ، وبالتالي توفير كل مستلزمات الامن والدفاع عن الارض من خطر الاطماع المحدقة بهم • وقد نجحوا عن طريق هذه الاجراءات فعلا في صد هجومين كبيرين قام بهما الرومان ضدهم ، فكانت صلابة المقاتلين والاسوار المنيعة والاسلحة المتطورة التي عرف بعضها بالنار الحضرية، تقف بالمرصاد لمطامع الاعداء وتجهض خططهم ومشاريعهم التوسعية •

ومثلما صدت الحضر مطامع الرومان ، وقفت بوجه الاطماع الفارسية

وأحبطت محاولة أردشير لاحتلال المدينة ، فبقيت الحضر شوكة في عيون الفرس فوق ارض العراق التي احتلوا معظم أرجائها •

أنتهج شابور بن أردشير (٢٤٢–٢٧١ م) كامل سياسة أبيه في الحروب التوسعية ، وبذل قصارى جهوده لاستكمال المشاريع التي بدأها أبوه • والمعروف عن عهد شابور انه صادف ظهور ديانة جديدة في تاريخ ايران الساسانية تعرف بالديانة المانوية نسبة الى داعيتها ماني • وقد صادف ماني هذا ومذهبه الجديد استحسان وتشجيع الملك شابور • والمعروف ان الديانة المانوية تستند الى فكر زرادشتي مطعم بكثير من عناصر الفكر المسيحي والبوذي • ولربما أراد شابور من تأييده للمانوية أحتواء القبائل العربية في العراق التي أخذت تميل الى النصرانية كدليل لمعارضتها لدين الفرس الرسمي ، الديانة الزرادشتية وتخبرنا كتب التاريخ العربي ان امرىء القيس البدء هو أول من تنصر من آل نصر بن ربيعة حكام الحيرة ، وكان حكمه زمن الملك شابور •

كان العراقيون ينفرون من حكم الفرس ، ولما أستولى أردشير على العراق « كره كثير من تنوخ المقام في مسلكته فخرج من كان منهم من قضاعة الى الشام » (ابن الاثير ص ٣٨٤) ، وقاومت دولة العرب الاولى في العراق محاولات أردشير ، وتصدت ثانية لحكم شابور ، وصمدت مدينة الحضر الباسلة بوجه حصار شابور الطويل لها ، ويقدر بسنتين أو اربع سنوات (الطبري ص ٤٨) • فأضطر شابور أمام الصمود البطولي لمدينة الحضر الى اللجوء للحيلة والخداع ، ونجح من أسقاط بعض النفوس المريضة التي قبلت ببيع أوطانها ، فتهيأت له بذلك فرصة دخول الحضر من ثغرة في السور وفرها له بعض الخونة ، فاجهز على المدينة وسكانها وثروتها ، وكانت ضربته لها من الشدة بحيث عمها الخراب بعد ذلك وهجرها السكان وتحولت الى انقاض وخرائب حتى بلغتها ايدي المنقبين الآثاريين مع مطلع القرن

الحالي ليكشفوا لنا عن جوانب مهمة ومتقدمة من تاريخ العراق في القرون الميلادية الثلاثة الأولى .

ولكن عرب الشام انتقموا فيما بعد لأبناء عمومتهم عرب العراق ، ومما أحله شابور بمدينتهم . وحدث ذلك بعد ان حقق شابور نصرا عسكريا كبيرا على جيش الروم وأسر امبراطورهم فاليريان ، وكان عائدا على رأس جيشه الى المدائن وهو مزهو بالانتصار ، فتصدى له أذينة زعيم التدمريين وأوقع بجيشه ضربة موجعة وغنم كثيرا من الاموال التي نقلها الفرس معهم من مدن الشام .

تعرضت الدولة الساسانية بعد وفاة شابور الأول الى فترة من الضعف والتردي والخلافات الداخلية ، وكان مطلعها قتل ماني واضطهاد مريديه ، ومحاولة تدخل رجال الدين الزرادشتي في أمور الحكم ليتجنبوا في المستقبل امتحانا عسيرا مثلما حدث لهم في زمن شابور وترجيحه للديانة المانوية .

وكانت هذه الاوضاع التي تمر بها دولة الفرس مشجعة للقبائل العربية في العراق واطرافه للتحرك السريع ، وتعويض الخسائر التي الحقها بهم اردشير وشابور . وكانت فرصتهم السانحة في زمن حكم الملك شابور الثاني (٣٠٩ـ٣٧٩ م) بخاصة وانه نصب على العرش وهو لم يبلغ سن الرشد ، وكانت امه وصية عليه تدير شؤون الحكم بمساعدة بعض النبلاء والاشراف .

« فسار جمع عظيم من بلاد أياد وناحية بلاد عبد القيس والبحرين وهجر وكاظمة الى اطراف العراق واسياف فارس فغلبوا أهلها على أرضيهم ومواشيهم » (الثعالبي : ص ٥١٤) و « كذلك هجمت جموع عظيمة من القبائل الغسانية في الجزيرة وأغاروا على السواد » (الدينوري ص ٤٨) .

ولم يكن التحرك العسكري ضد الفرس مقتصرا على العرب بل « امتدت أيدي العرب والروم والترك الى كثير من اطراف الدولة الساسانية» (الثعالبي : ص ٥١٤) . وعندما تدبر الفرس أمورهم ، وهمّ شابور لابعاد الاخطار المحدقة بدولته ، تحركت في نفسه احقاد دفينة ضد العرب « وكان حنقه عليهم ينمو بنموه وبغضه لهم يجري منه مجرى دمه فأجمع المسير اليهم والايقاع بهم » (الثعالبي : ص ٥١٤) . فلماذا كل هذا العداء والبغضاء ، بخاصة وان العرب لم يكونوا المهاجمين الوحيدين على ملك الفرس ؟ فسلوك شابور هذا يكشف من دون شك عن عقد فارسية لئيمة ضد العرب نجمت عن الضربات الموجعة التي وجهها العرب للفرس اولا ، كما يكشف ايضا عن الاصرار الفارسي لمنع العرب من النهوض السياسي والعسكري ، لانهم بنهوضهم سيكشفون عن اصالة حضارتهم وعمق جذورها ، تلك الحضارة التي بهرت الفرس الاخمينيين اجداد الساسانيين ووضحت مواطن تخلفهم . كما ان نهوض العراق السياسي والعسكري سيمنع تجاوزات الفرس ومطامعهم ببقية أقسام بلاد العرب . لذلك كان عرب العراق مستهدفين في الخط الامامي لبغض الفرس للعرب « فأوقع شابور أولا بمن في أطراف السواد من اياد حتى تركهم كالرميم » (الثعالبي: ص ٥١٨) وعندما تحققت له السيطرة على منطقة السواد وأطرافها ، أصبحت الابواب امامه مشرعة للتوغل في بلاد العرب « فقطع البحر فورد الخط ووضع السيف في أهل البحرين فمزقهم » « ثم مضى على وجهه حتى ورد هجر وبها خلق كثير من اعراب تميم وبكر بن وائل وعبدالقيس فسفك من دمائهم ثم عطف الى بلاد عبدالقيس فصب عليهم سوط عذاب بنزع الأكتاف ثم اتى اليمامة » (الثعالبي : ص ٥١٩) . ويكشف لنا السلوك الشاذ واللئيم الذي أتبعه شابور في محاربة العرب عن الحقد الفارسي الدفين الذي كان

ولايزال يستهدف وجود العرب والقضاء على مقدرات حياتهم وتقدمهم ومنع فرص التطور والنمو أمامهم • وتتمثل أبشع صور الابادة والاعمال البربرية في تجاوز شابور اعمال القتل الجماعي ، فانه « لم يمرّ بماء من مياه العرب الا طمه ولاجبّ لهم الا عوّره (الثعالبي : ص ٥١٩) • ومما يؤكد وحدة المصير العربي منذ القدم ، ان افعال شابور الشريرة هذه لم تقتصر على العراقيين والعرب في هذه الانحاء ، بل انه واصل حرب الابادة ضد بقية القبائل العربية في العراق «ثم كرّ على بلاد بكر وتغلب فيما بين مملكته ايران شهر ومناظر الروم بارض الشام فنكى في اهلها نكاية القضاء والقدر ، وأثر فيهم تأثير النار في يبس الشجر ، ثم عم سائر العرب في منازلهم وأكثر القتل منهم ونزع اكتاف خمسين الفا منهم حتى لقب بذي الاكتاف » (الثعالبي : ص ٥٢٠) • وبذلك فأن هذه الحرب تمثل اول حرب أبادة تعرض لها العرب من قبل الفرس الساسانيين ، وكان نصيب العراقيين منها كبيرا جدا • ولكن ذلك كله ، وعلى الرغم من قساوته الشديدة ، لم يثن من عزيمة العرب ولم يضعف من مقاومتهم للاحتلال الفارسي • وتتمثل لسان حالهم في احلك الفترات ، بالصيحة المدوية التي اطلقتها عجوز عربية بوجه شابور عندما اعترضت طريقه وقالت له « أيها الملك أن كنت تطلب ثأرا فقد أدركت وزدت وأن كنت تعم قبائل العرب بالقتل فاعلم أن لهذا قصاصا ولو بعد حين » (الثعالبي : ص ٥٢١) وبذلك كشفت هذه العجوز العربية في عبارتها البليغة عن الثقة العالية في النفس ، الناجمة عن البعد الحضاري لتاريخ العرب ، وعن قدرتهم الفائقة في احتواء المصاعب والمحن ، وذلك ما تحقق فعلا في النتائج النهائية للصراع الفارسي العراقي •

ولم تكن اجراءات شابور هذه ناجمة عن ردود فعل وقتية ، بل من الواضح تماما انه كان يدرك النتائج المتوخاة من أفعاله ، وانه « كان يفعل مايفعله (بالعرب) خوفا مما سمع من هبوب ريح العرب بخروجه (يقصد

بذلك ظهور النبي «ص») ومغالبتهم الفرس على ملكهم باسمه » (الثعالبي : ص ٥٢١) •

ومع كل الاجراءات القمعية وحروب الابادة وحملات التهجير التي تعرض لها العراقيون ، فأن اصلهم الثابت سرعان ما اينع ونما كالطود الشامخ ، وكان ذلك في عهد المنذر بن النعمان بن امرىء القيس ملك الحيرة ، وفي زمن الملكين الساسانيين يزدجرد الاول (٣٩٩–٤٢١ م) وأبنه بهرام الخامس (٤٢١–٤٣٩ م) •

الحيرة رمز النهوض العربي في العراق

تجمع المصادر التاريخية أن هجرة عربية كبيرة خرجت من اليمن صوب البحرين ، ثم مال بعضها الى ريف العراق فأناخ عند الحيرة ، وكان نزوحهم أيام ملوك الطوائف ، اي زمن الدولة الفرثية (أبن الاثير : ص ٣٤١) وكان جذيمة الابرش « اول من استجمع له الملك بارض العراق وضم اليه العرب وغزا بالجيوش وكانت منازله مابين الحيرة والانبار وبقة وهيت وعين التمر واطراف البر الى العمير وخفية ، وتجبى له الاموال وتفد اليه الوفود » (ابن الاثير : ص ٣٤٢) « ثم آل الامر في الحيرة بعد مقتل جذيمة الى ابن اخته عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن عمرو بن الحارث بن مسعود ابن مالك بن عمرو بن نمارة بن لخم ، وهو اول من اتخذ الحيرة منزلا من ملوك العرب • فلم يزل ملكا حتى مات وهو ابن مائة وعشرين سنة • فمنها ايام ملوك الطوائف خمس وتسعون ، وايام أردشير بن بابك اربع عشرة سنة واشهر ، وايام ابنه شابور بن اردشير ثماني سنين وشهران ، وكان منفردا بملكه لايدين لملوك الطوائف • ولم يزل الملك في ولده الى ان كان آخرهم ، النعمان بن المنذر » (ابن الاثير : ص ٣٥٠) •

ومال عرب العراق عامة وأهل الحيرة خاصة الى النصرانية ، وقد اشرنا

من قبل الى ان ميلهم هذا كان تعبيراً عن رفضهم الحكم الفارسي الذي يدين بالزرادشتية .

يبدو واضحا من سلوك يزدجرد الاول ، ان ملوك الفرس غيروا من سياستهم أزاء العرب وحاولوا استرضاءهم عن طريق احترام الشعائر الدينية النصرانية ، كما دفع يزدجرد بابنه الوحيد بهرام ليتربى بين اهل الحيرة في رعاية ملكها النعمان . وكانت الحيرة يومذاك مضرب المثل في طيب هوائها وحسن عمارتها وكرم اهلها . وكان للنعمان فيها قصر مهيب يعرف بالخورنق تردد ذكره كثيرا في الشعر العربي لعظمته وروعته .

وقد أحسن النعمان رعاية بهرام ، وعمل على تربيته وتأديبه بالعادات والاخلاق العربية ، فشب فارسا بارعا واديبا متمكنا ، ويروى انه بلغ من تأدبه بلغة الضاد قول الشعر فيها .

ولما مات يزدجرد ، كان بهرام لايزال في الحيرة عند المنذر بن النعمان ، فبلغه خبر تعاهد عظماء المملكة لحجب الملك عنه بسبب بغضهم لسيرة ابيه ، وربما كان ذلك بسبب تقرب يزدجرد من العرب والنصارى . فأستشار بهرام المنذر وابنه النعمان وناسا من اشراف العرب في الامر فقال المنذر « لايهولنك ذلك حتى الطف الحيلة فيه ، وجهز عشرة آلاف فارس ووجههم مع ابنه النعمان الى طيسفون وبهرسير مدينتي الملك وأناخوا عليهما » (ابن الاثير : ص ٤٠٢) وفي رواية اخرى « أن المنذر سار بنفسه على رأس ثلاثين ألف رجل من فرسان العرب وذوي البأس والنجدة منهم الى مدينتي الملك » (الطبري : ص ٧٢) ، « فأستشعر الفرس ضعفهم أمام عساكر المنذر فأذعنوا لامرهم وتوج بهرام ملكا على الساسانيين » (الثعالبي : ص ٥٥٣) .

وبذلك صحت تنبؤات المرأة العربية الحكيمة ، فاجتمع العرب حول الحيرة وملكها « واصبح سلطان المنذر وابنه النعمان يمتد مابين الحيرة الى

الحجاز فكان ذلك اول ريح هبت للعرب وعنوان اقبالها » (الثعالبي : ص٥٥٥) ولم يجرؤ بعد ذلك احد من ملوك الفرس للتطاول على العراقيين او على دولتهم المتنامية في الحيرة . وكان من اسباب قوتها وحدة العرب والتفافهم حول زعامة الحيرة ، فبلغت قوتهم وشهرتهم مبلغا استهدفته مطامع الفرس والروم (الثعالبي : ص ٦١٢) وعندها تحركت الأيدي الشريرة ، وتململت النفوس الضعيفة ، وعمد الفرس الى محاولة زرع بذور الشقاق والخلاف بين العرب طمعا في تفتيت وحدتهم التي كانت دائما رمز قوتهم .

الصراع العراقي الفارسي في زمن كسرى الثاني (پرويز) (٥٩٠ ـ ٦٢٨ م)

مرّت الدولة الساسانية بظروف شاذة واحوال مضطربة استغرقت عهد الملكين فيروز وقباذ (٤٥٧ـ٤٩٧ م) ومما زاد من وطأة الاوضاع المتردية في بلاد فارس ان شهدت في هذه الاثناء عاصفة دينية عرضت البناء الفكري والاجتماعي والاقتصادي للدولة الساسانية الى الخطر ، وتمثل ذلك بظهور الديانة المزدكية وميل قباذ اليها والعمل على تشجيعها ورواجها . وعلى الرغم مما احدثته هذه الديانة الجديدة من تفرق الصفوف وتعادي الناس، فأنها عرضت التاج الساساني الى الخطر ، حيث انها فسخت العقد المبرم بين رجال الدين الزرادشتيين وبين الطبقة الحاكمة وعلى رأسها الملك . وبدأ كل منهما يستقطب حوله اكبر عدد من رؤساء العوائل والقادة العسكريين وفئات المجتمع المختلفة ، فكان ذلك ايذانا باندلاع حرب اهلية ، لو استمر اوارها لأكلت الدولة وحولتها الى رميم .

ولكن الزرادشتيين وبزعامة كسرى انوشروان كسبوا المعركة ، فأعلنت ولاية عهد كسرى الزرادشتي المتحمس ، وحجبت عن كاووس الابن الاكبر لقباذ والمرشح التقليدي بموجب الاعراف القديمة لولاية العهد ، وكان كاووس

مزدكيا متحمسا . وبذلك دخلت ايران الساسانية مرحلة ثانية من الصراع الدموي والاجراءات القمعية لتصفية الحركة المزدكية وانصارها واجتثاث افكارها وتلافي آثارها في المجتمع الايراني . ومهما كان من شأن هذه الامور فأنها شغلت الفرس بشؤونهم الداخلية المضطربة ، وهيأت لدولة الحيرة ظروف النمو المطّرد وازدياد التفاف العرب حولها ، بخاصة وان الحيرة النصرانية كانت تستشعر الخطر المزدكي ايضا .

وأصبح لملوك الحيرة نفوذ كبير بين القبائل العربية وغدت كلمتهم مسموعة في البلاط الساساني .

ومن الاحداث التاريخية الهامة التي شهدها العرب في هذه الاثناء والتي تكشف تفاصيلها عن الشأن العظيم الذي اصبح للحيرة وملوكها ، مايرويه الاخباريون من احتلال الاحباش لبلاد اليمن وخروج سيف بن ذي يزن الحميري قاصدا قيصر، وكان بأنطاكية، يطلب منه المساعدة، فردّه القيصر بقوله « أولئك (أي الاحباش) هم على ديني وانتم عبدة أوثان فلم أكن لأنصركم عليهم » (الدينوري : ص ٦٣) فوفد سيف بن ذي يزن على النعمان ابن المنذر في الحيرة وشكا اليه امره ، فهاجت في نفس النعمان النخوة العربية، وعلى الرغم من نصرانيته ، فأنه لم يتخل عن اخيه العربي في محنته ، فكان ما كان من توسط النعمان لدى كسرى ودعم سيف بن ذي يزن بجند وسلاح ساعدته في طرد الاحباش من اليمن .

أستمرت الحيرة في تطورها ونموها واتساع شأنها بين العرب ، واصبح بلاطها موئل الشعراء والحكماء العرب ، وكان النابغة الذبياني من المقربين في بلاط النعمان . وقد عملت هذه الظروف على أزدهار اقتصاد الحيرة وثرائها. وكانت تجارة النعمان تصل الى الحجاز وكانت له احسن الابل في بلاد العرب ، ولقبت بعض نوقه بالعصافير لشهرتها وندرة نوعها .

وكان للنعمان اخوة واخوات يتميزون بجمال نادر بين العرب ، وتجتمع عند نساء النعمان اجمل الصفات المحببة في المرأة بين العرب .

ونصادف بين ثنايا روايات الاخباريين حديثا مطولا عن هذا الملك العربي وعلو شأنه ومبلغ قدرته وعظم ثروانه واتساع نفوذه . والاكثر خطورة من ذلك ، والذي ترك أثره على السياسة الساسانية أزاء الحيرة ، ذلك الاجتماع العربي الكبير حول النعمان والذي نجد صداه في التفاف الشعراء العرب حوله وقصدهم بلاطه ، ومنهم المنخّل اليشكري والمثقب العبدي والاسود بن يعفر وحاتم الطائي والنابغة الذبياني وحسان بن ثابت ولبيد بن ربيعة ، وهم من فحول الشعراء العرب ومشاهيرهم ولم تخلُ بعض اشعار هؤلاء من التلميح صراحة الى تجاهل بقية الملوك والرؤساء ، واعتبار النعمان اليد القوية العليا بين العرب ، وكأنهم يدعون في قصيدهم الى تجميع صفوف العرب حوله ، ومن ذلك قول النابغة في النعمان :

كأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب

ومقابل هذا الازدهار المطّرد الذي تميزت به الحيرة ، وظهور بوادر وحدة الصف العربي حول زعامة النعمان ، شهدت ايران الساسانية مزيدا من الاضطراب والتردي والخلافات ، بلغت ذروتها في مقتل الملك الساساني هرمزد وأحتدام الصراع بين القادة العسكريين وبين افراد الاسرة الحاكمة . وقد نجح القادة العسكريون في تنصيب كسرى الثاني ملكا ، وهو الملقب پرويز ، في عام ٥٩٠ للميلاد . ولم يكن كسرى ، الملك الصنيعة ، رجلا كفؤا جديرا بالاحداث العاصفة التي تمر بالدولة ، وشهدت له الاحداث موقفين يعكسان مبلغ جبنه احدهما فراره من العاصمة أمام زحف قوات فارسية معارضة له ، والثاني قتله لاثنين من العظماء ساعداه في استرجاع عرشه . ومع ذلك فقد تهيأت لهذا الملك من الظروف ماحققت له نصرا عسكريا

كبيرا على البيزنطيين ، فامتلأ بالغرور ، وأحاطه المؤرخون في كتاباتهم بهالة من العظمة الفارغة التي لم يكن ليستحقها .

ويصف لنا الطبري بصورة دقيقة احوال الدولة في عهده وجانبا من اخلاقه بقوله « لكثرة ماجمع من الاموال وانواع الجوهر والامتعة والكراع وافتتح من بلاد العدو وساعده من الامور ورزق من مواتاته وبطر وشره شرها فاسدا وحسد الناس على ما بأيديهم من الاموال فولى جباية البقايا علجا من اهل قرية تدعى خندق من طسوج بهر سير يقال له فرخ زاد ، فسام الناس سوء العذاب وظلمهم واعتدى عليهم وغصبهم اموالهم في غير حله بسبب بقايا الخراج وأستفسد بذلك وضيق عليهم المعاش وبغض اليهم كسرى وملكه » ويضيف « ان كسرى احتقر الناس واستخف بما لايستخف به الملك الرشيد الحازم » (الطبري ص ٢١٦) .

ويضيف ارثر كريستنسن ، وهو من مدققي تاريخ الساسانيين ما يلي :

« وان كان هرمز الرابع قد قسا على العظماء وعطف على الشعب ، فأن كسرى قد ظلم الشعب ليملأخزائنه كما أنه لم يرع العظماء ايضا . كان حقودا شديد الشك ينتهز الفرص ليقتل من يشك فيه من الذين أخلصوا فيخدمته » (كريستنسن ص ٤٣٣) . ويخلص كريستنسن من قراءاته في المصادر المختلفة بقوله « أنه لمن الصعب ان نكشف عن مميزات في صورة هذا الملك الحقود المرائي الجشع الرعديد » (كريستنسن ص ٤٣٧) .

وهكذا يقف القارىء ــ رغم الاختصار في الامثلة ــ على الفارق الكبير بين الملكين ، النعمان ملك الحيرة وكسرى پرويز ملك الساسانيين ، يضاف الى ذلك ان الساسانيين أخذوا يستشعرون خطر العرب عليهم سواء كان ذلك من تنامي قوة الحيرة وازدياد التفاف العرب حول ملكها ، او من الاخبار غير السارة التي وصلتهم من الحجاز عن قيام النبي العربي محمد (ص)

بالدعوة الى دين الحق ، والذي شم الفرس منه هبوب ريح العرب القوية . « ففي سنة عشرين من ملك كسرى ابرويز بعث الله محمدا (ص) فأقام بمكة ثلاث عشرة سنة وهاجر في سنة ثلاث وثلاثين من ملكه الى المدينة » (الطبري ص ١٨٧) . وقد عبّر كسرى صراحة عن هذا التخوف من قيام العرب ووحدتهم في جوابه على سؤال ابنه عن سبب قتله للنعمان بقوله : « فأن النعمان واهل بيته واطأوا العرب واعلموهم توكفهم (توقعهم) خروج الملك عنا اليهم ، وقد كانت وقعت اليهم في ذلك كتب ، فقتلته ووليت الامر اعرابيا لايعقل من ذلك شيئا » (الدينوري ص ١١٠) .

وهكذا يبدو جليا أن الاصطدام الذي وقع بين الفرس والعرب لم يكن سورة غضب او طمع في ثروة ، وانما كان هدفه الاول القضاء على احتمالات التحرك العربي الموحد الذي يهدد كيان الدولة الساسانية .

ولذلك ايضا تذرع كسرى بحجج واهية للايقاع بالنعمان ، حيث تجمع المصادر على ان كسرى طلب التزوج بفتاة من بيت النعمان ، وكان رفض النعمان حجة مقبولة لدى كسرى للايقاع به . ومع ذلك فقد استفاد كسرى من بعض الخلافات العربية بين آل لخم حكام الحيرة ، وبين آل قبيصة وهم من أسر الحيرة وينسبون الى طي .

وكان النعمان يدرك تماما مايضمره كسرى الثاني له من حقد وعداوة بسبب اجتماع العرب حوله ، وطمعا في ماله وجاهه ، لذلك اودع ماله وأهله بين قبيلة عراقية كانت بعدئذ على رأس المتصدين للحكم الفارسي في العراق ، وهم الشيبانيون .

ويورد بعض الاخباريين سببا آخر للخلاف بين كسرى والنعمان مفاده رفض النعمان لمرافقة كسرى عندما لاذ بالفرار من المدائن وتوجه الى قيصر الروم البيزنطيين طالبا المساعدة لاسترجاع عرشه . ولكن السبب الحقيقي للخلاف كشفه كسرى بنفسه عندما سأله ابنه عن سبب قتله للنعمان وصرف

ملكهم الى غير ولده قائلا له « فلم تحفظ فيهم ما كان يحفظه آباؤك من حضانته بهرام جور جدك ومعونته بعد ان خرج الملك عنه حتى رده عليه » فأجاب كسرى ابنه بما يلي « فأن النعمان وأهل بيته واطأوا العرب واعلموهم .... الى آخر الحديث الذي عرضناه قبل قليل . وبذلك يكشف لنا مضمون هذا الحوار عن كثير من جوانب الصراع الخفية التي كانت تحتدم سرا بين العراقيين ومن ورائهم العرب بزعامة الحيرة ، وبين الفرس الساسانيين . ومن الطبيعي جدا ان تبقى تحركات النعمان محاطة بالسرية التامة ، لذلك حار الاخباريون في اسباب الخلاف وأوردوا كعادتهم قصصا قريبة من الخيال .

فالذي نقرأه عند الاخباريين من علو شأن النعمان بين العرب وتردد الشعراء والخطباء والحكماء على بلاطه ، ولجوء المتنازعين لحله ، أضافة الى مايذكر من ثروات طائلة اجتمعت عنده ، كانت كلها سبلا لتهيئة الأمور لحالة جديدة في حياة العراقيين والعرب جميعا لم يكتب لها النجاح الا بعد حين .

وأخيرا ، لنا في قول كسرى بأنه نقل الحكم الى شخص لايعقل من ذلك شيئا ، خير دليل على العقل المدبر والقيادة الحكيمة التي توفرت للنعمان مما جعلته خطرا على كيان الدولة الساسانية . ولما بعث كسرى في طلب النعمان ، ادرك النعمان بأن خططه وتدابيره قد انكشفت وأنه مقتول دون شك ، لذلك عمد الى ايداع ماله وعرضه عند مسعود بن هاني الشيباني . ويبدو لنا في هذا السياق بأن عمل النعمان لم يكن القصد من ورائه المحافظة على عدد من الدروع وكمية من المال ، بل كان القصد الدفين في صدر النعمان من وراء ذلك استنفار عرب العراق للوقوف بوجه الساسانيين فهو يعرف تمام المعرفة جشع كسرى وحبه للمال ، لذلك فهو متأكد بأن كسرى سيسعى للحصول على ثروات النعمان مهما بلغت . ومن جانب آخر ، فهو يعرف

بأن من اعز الامانات عند العربي هي العرض والمال ، وهو يفتديها بروحه ان تطلب الامر ذلك ، افلم يقل شاعر منهم مايلي :

لايسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم

لذلك سعى النعمان عن طريق ايداع ماله واهل بيته عند الشيبانيين الى اذكاء روح التوثب بين القبائل العربية ، وجعلها في تناقض مباشر مع الساسانيين ، وكان له فعلا ما اراد .

وبعد أن غدر كسرى بالنعمان وكان في ضيافته ، وسعى للحصول على امواله وارسل في طلبها ، امتنع الشيبانيون عن تسليمها له ، فكان ذلك ايذانا بنشوب الحرب بينهما فكانت وقعة ذي قار المشهورة .

التحدي الكبير : معركة ذي قار الخالدة

ذي قار موضع ماء في بادية السماوة يتساقط عليه الشيبانيون عند القيظ واشتداد العطش ، لا يفارقونه لان في تركه هلاكهم ، وقد عرف الفرس بذلك ، فأخذوا يعدون انفسهم من الجند والسلاح ويستنفرون بعض القبائل العربية ايضا للهجوم على الشيبانيين .

ولمّا دنت الفرس من بني شيبان قال هانيء بن مسعود الشيباني لقومه : « يامعشر بكر ، انه لاطاقة لكم في قتال كسرى فاركنوا الى الفلاة ، فسارع الناس الى ذلك ، فوثب حنظلة بن ثعلبة العجليّ وهو يدرك انما تسعى الناس الى الهلاك بتفرقها في الفلاة وقال : ياهانيء أردت نجاتنا فألقيتنا في الهلكة ، ورد الناس وقطع وضن الهوادج وهي الحزم للرحال فسمي مقطع الوضن ، وضرب على نفسه قبة ، واقسم ان لايفر حتى تفر القبة » (الطبري ص٢٠٨) وبذلك اتخذ الشيبانيون بالاجماع قرار الحرب ، وهذا ما كان ينشده هانيء عندما خيرهم بين الفرار وبين القتال . فأستقى العرب ماء لنصف

شهر أستعدادا للمعركة • ولما دنت جيوش الفرس قاتلوهم فأنهزمت العجم خوفا من العطش فتبعتهم بكر" وعجل" وأبلت يومئذ بلاء حسنا • ونجح الفرس من الالتفاف حول عجل ، وتوقع الناس هلاكهم ، ثم حملت بكر فوجدت عجلا تقاتل وأمرأة منهم تقول :

إن يظفروا يحرزوا فينا الغُرلْ   ايهاً فداء" لكم بني عجل

وتقول أيضا :

ان تَهْزِموا نعانق   ونفرش النمارق

أو تُهزَموا نفارق   فراق غير وامق

وكان ذلك من عادة النسوة العرب اللواتي يرافقن المتحاربين ، وبخاصة عند احتدام المعركة وصعوبة القتال ، فينشدن ابياتا من الشعر تتضمن معاني الاستبسال والبطولة ويذكرن الرجال بالقيم العربية من رجولة وشهامة ، فيكون له وقع كبير على روحية المقاتل •

ولما توحدت سيوف بكر وعجل ثانية على الفرس ، مالوا ثانية الى بطحاء ذي قار ، وانتهى قتال اليوم الاول بتأكيد صمود العرب وأزدياد معنوياتهم •

وتكشف لنا وقائع حرب ذي قار عن أصطفاف العرب سوية وقت الشدّة ، وأدراكهم للمصير العربي الواحد بصرف النظر عن الخلافات الجانبية • فقد كان الفرس قد حركوا بعض القبائل العربية ضد الشيبانيين ومنهم أياد ، ولكن أياد واطأت بكرا وأرسلت تخبرهم بقولها : أن شئتم هربنا الليلة ، وان شئتم أقمنا وفرّ حين تلاقون الناس وعندها وجد الشيبانيون في موقفهم فرصة ثمينة لخداع الفرس والايقاع بهم فطلبوا من أياد ان يقيموا مع الفرس وينهزموا عند الالتحام • كما عمد الشيبانيون الى اعتماد طريقة الكمائن في الحرب وذلك بسبب عدم التكافؤ بين عدد

العرب وبين عدد الجنود الفرس • وبدأ ألتحام الفريقين والعرب تحرض بعضها بعضا على عادتهم ويستثيرون الهمم ، وكان صوت المرأة العراقية مدويا في المعركة ثانية ، ومنهم ابنة القرين الشيبانية وكانت تقول :

ويهاً بني شيبان صفا بعد صف   ان تُهزَموا يُصبغوا فينا القلف

ومما قيل من شعر الحماسة في هذا اليوم مايلي :

من فَرّ منكم فرّ عن حريمه   وجاره وفرّ عن نديمه •

فقطع سبعمائة من بني شيبان ايدي اقبيتهم (جمع قباء بمعنى رداء) من مناكبهم لتخف ايديهم لضرب السيوف ، فجالدوهم وبارز الهامرز وهو قائد الفرس ، فبرز اليه برد بن حارثة اليشكري وقتله • ثم حملت ميسرة بكر وميمنتها وخرج الكمين فشدوا على قلب الجيش ، وتنفيذا للاتفاق بين أياد وبكر ، ولّت أياد منهزمة من ساحة المعركة ، فأحدث ذلك ارتباكا بين صفوف الفرس فلاذت بالفرار واتبعتهم بكر تقتل ولاتلتفت الى سلب وغنيمة ، فتحقق للعرب في معركة ذي قار نصر عظيم هيّج في نفوس العرب جميعا مشاعر الاحترام للعراقيين الذين دقوا بضربتهم الخاطفة والبارعة هذه ، المسمار الاول في نعش الدولة الفارسية • وقد خلد الرسول الكريم (ص) هذا اليوم المشهود بحديثه الشريف « هذا أول يوم أنتصف العرب فيه من العجم وبي نصروا » •

وبذلك يتأكد لنا بأن وقعة ذي قار لم تكن هامة للعراقيين فحسب ، وانما بلغ صداها الحجاز وأقاصي بلاد العرب ، مثلما كانت تحديا ناجحا لصلف الفرس واستعمارهم واضطهادهم الذي طال أمده ، فكانت هذه المعركة كخيوط الضوء الفجرية التي بشرت بنهار عربي جديد •

أن اهم النتائج التي حققتها ملحمة ذي قار الخالدة تتمثل في زرع الثقة في النفوس واستعادة الهمم وتوحيد الصفوف ، وكان صدى ذلك واضحا بعد معركة ذي قار من الهجمات الموفقة التي نفذها العراقيون على

مسالح الفرس ومعسكراتهم ، وكان الشيبانيون رأس رمح حركة التحرر العربية من نير الحكم الفارسي .

وأخذت القبائل العراقية تنسق فيما بينها ، وتوحد مواقفها ، وبلغ التنسيق العربي ذروته في العمل العربي المشترك تحت راية الاسلام . وبقي العراقيون في الخط الامامي ، وبقيت اسماء زعمائهم تتصدر البطولات مثل ما فعل قائدهم المثنى بن حارثة الشيباني في موقعة الجسر وغيرها ، حتى كان موعد هبوب العاصفة العربية في معركة القادسية الخالدة .

وكم كان موقفا مشرفا ورائعا من المثنى الذي بادر أولا وكتب الى أبي بكر (رض) يعلمه ضراوته بفارس ويعرّفه وهنهم ويسأله أن يمده بجيش ، وكان المثنى يتوقع أمرة الجيش اليه ، ولكن الهدف الكبير الذي كان يسعى اليه ، دفعه الى نسيان امر الزعامة او الامرة وأنضم الى خالد ابن الوليد ممتثلا لاوامر الخليفة ، وقصدا سوية الحيرة . وتكرر موقف المثنى المشرف من أمر الحرب ثانية بعد فراغ أمرة الجيش بسفر خالد الى الشام ، ثم وفاة الخليفة ابي بكر (رض) ، فوجه الخليفة عمر (رض) أبا عبيد ابن مسعود ومعه أمر من عمر الى المثنى بالانضمام اليه ، فاستجاب المثنى لأمر الخليفة ، فقد كان هدفه الرئيس لا يتمثل في الحصول على منصب ولو كان أهلاً له وأنما الحفاظ على وحدة الكلمة واجتماع الصف وصولا الى الاطاحة بالدولة الفارسية وتحرير الارض واستعادة الكرامة وذلك ما تحقق فعلا بفضل الالتحام الرائع بين العراقيين والعرب المسلمين كافة في موقعة القادسية التي ستذكر تفاصيلها فيما بعد .

وكانت للمثنى آراء في محاربة الفرس صائبة جدا ، أكتسبها من صولاته الظافرة ضد الجنود الساسانيين ، فحرص على توجيه القوات العربية الاسلامية باسلوب يجنبها الاضرار وأحابيل الفرس في الحرب ويحقق لها الانتصار ، وكان رأيه معارضا لعقد الجسر ولعبور القوات الاسلامية ، وله

في ذلك مقولة مشهورة قالها للقائد المسلم أبي عبيد « ايها الامير لاتقطع هذه اللجة فتجعل نفسك ومن معك غرضا لاهل فارس » وكان جواب ابي عبيد للمثنى جارحا بقوله : « جبنت يا أخا بكر » ولكنه لم يكترث لذلك ولم يخالف رأي القائد وتصرف بمقتضيات المعركة المصيرية لا بحكم الانفعال لتصرفات ومواقف شخصية . وتأكدت سلامة نظرة المثنى بعد مقتل ابي عبيد والعديد من فرسان العرب وصناديده الذين تناوبوا على حمل الراية . فانبرى المثنى للموقف الحرج الذي احاط بالمسلمين ، فحمل الراية وتولى قيادة الجيش في اصعب الظروف ، وابدى مقدرة فائقة في احتواء الموقف وتوزيع القطعات لحماية المسلمين وهم يعبرون الجسر ثانية .

وواصل المثنى مواقفه البطولية الرائعة وانقاذه الجيش من المواقف الحرجة وتعاونه المطلق مع أوامر خليفة المسلمين ، فالتحم ثانية مع القيادة الجديدة التي اوصى بها عمر (رض) بعد مقتل ابي عبيد في وقعة الجسر . فسار المثنى وجرير بن عبدالله البجلي قائد المسلمين صوب الحيرة . وكذلك فعل الفرس فزحف الفريقان بعضهم لبعض ولهم زجل كزجل الرعد وحمل المثنى في اول الناس وحمل معه كافة المسلمين ، ولكن الفرس نجحوا في صدهم . فقبض المثنى على لحيته وجعل ينتف ما تبعه منها من الاسف ونادى « أيها الناس الي الي ، أنا المثنى » فكان نداؤه مدويا فأجتمع المسلمون من حوله ، فحمل بهم ثانية والى جانبه مسعود بن حارثة اخوه ، وكان من فرسان العرب فقتل فنادى المثنى « يا معشر المسلمين هكذا مصرع خياركم ، ارفعوا راياتكم » فحمل المسلمون على الفرس حملة صدقوا الله فيها ، وباشر مهران قائد الفرس الحرب بنفسه وكان من أبطال العجم ، فكان له المثنى بالمرصاد فقتله وهو يعلم ان العجم بقائدها ، فأنهزم الفرس لما رأوا مهران صريعا ولحقوا بالمدائن وانصرف المسلمون الى معسكرهم . وقال عروة بن زيد الخيل قصيدة في ذلك منها مايلي :

هاجت لعروة دار الحي أحزانا   وأستبدلت بعد عبدالقيس همذانا
وقد ارانا بها والشمل مجتمع   اذ بالنخيلة قتلى جند مهرانا
أيام سار المثنى بالجنود لهم   فقتل القومَ من رَجْلٍ وركبانا
سمَا لاجناد مهران وشيعته   حتى ابادهم مثنى ووحدانا
ما ان رأينا أميرا بالعراق مضى   مثل المثنى الذي من آل شيبانا
ان المثنى الامير القرم لا كذب"   في الحرب أشجع من ليث بخفانا

وكانت هذه المعركة التي برز فيها المثنى (أمير العراق) قائدا ومقاتلا فاتحة انتصارات عراقية لاحقة ، شكلت بداية التغير في موقف الفرس من مهاجمين الى مدافعين مثلما شجعت العرب على مواصلة الغارات في عمق الممتلكات الفارسية • فانبرى لهم بناحية البصرة سويد بن قطبة العجلي ، وكاتب عمراً (رض) بشأن الامداد والمساعدة ، فسير اليه عمر (رض) جيشا بقيادة عتبة بن غزوان المازني فبلغ البصرة ، وكانت للفرس مسالح بالخريبة تقف بوجه حملات العرب وتحمي الابلة التي كانت ميناء كبيرا تصله سفن الهند والصين وفيه تجارة رائجة للفرس • فكانت هدف المسلمين الاول في هذه الناحية ونجحوا من تحقيقه ، فافتتحها عتبة عنوة وكتب بشأنها الى عمر بما يلي « أما بعد فان الله وله الحمد فتح علينا الابلة وهي مرقى سفن البحر من عمان والبحرين وفارس والهند والصين » وخطّ عتبة للعرب في هذه الديار اول امصارهم وهي البصرة ، التي اصبحت منارا للاسلام بلغ شعاعه أقاصي الهند وفارس •

وهكذا تهيأت للعرب مواضع أقدام قوية في ملك العجم ، وكان للعراقيين دور بارز في تثبيتها ، فبدأوا يخططون للاجهاز على آخر ركائز الفرس في العراق ، العاصمة طيسفون (المدائن) ، فكانت موقعة القادسية التي سيأتي الحديث عن تفاصيلها في موضع لاحق •

الفصل الخامس

خلاصة عن الصراع العراقي ـ الفارسي في العصور القديمة

يشمل القسم الخاص بالصراع العراقي الفارسي في التاريخ القديم عصورا طويلة ابتداءاً من اقدم الاشارات الى بلاد عيلام في النصوص المسمارية في حدود ٢٧٠٠ ق • م وانتهاء بعصر الاسلام والخلافة العربية • ولذلك فان هذا القسم يغطي مايزيد على ٣٣٠٠ سنة من الاحداث التاريخية اي انه يعتبر اطول مراحل الصراع العراقي الفارسي قياسا بالعصور الاخرى الثلاثة التي تناولها الكتاب وهي العصور العربية الاسلامية ، والمعاصرة ، والحديثة •

لقد اشرنا في موضع سابق وفي الفصل الاول على وجه التحديد الى المراجع التي يستمد منها المختصون في التاريخ القديم مادتهم عن الصراع العراقي الفارسي • وقلنا ان الكتابات المسمارية (السومرية ، الاكدية ، البابلية ، والاشورية) تعتبر المرجع الاول والاصل في هذا الصدد • اذ ان ملوك بلاد وادي الرافدين دونوا في سجلاتهم اخبارا في غاية الاهمية عن احداث صراعهم مع العيلاميين والكوتيين والميديين والفرس الاخمينيين ومع غيرهم من القبائل التي كانت تحادد بلاد وادي الرافدين من جهة الشرق • كما

انهم دونوا ايضا اخبار الحملات الغادرة التي كانت تشنها هذه الاقوام على البلاد ومدى الدمار الذي كانت تخلفه في كل مرة • يضاف الى ذلك ان الفنانين العراقيين القدماء خلفوا لنا مشاهد منحوتة تصور بعض المعارك التي خاضها العراقيون ضد تلك الاقوام •

ونظرا لطول الفترة الزمنية التي يغطيها القسم القديم من هذا الكتاب وازدحامها بالاحداث ، ومن اجل الخروج بنتائج محددة من كل ذلك ، وجدنا انه من المفيد للقارىء الكريم ان نضع بين يديه خلاصة عن الصراع العراقي الفارسي في مراحل التاريخ القديم والتي يمكن ان تحدد بالنقاط التالية :

١ ــ اثبتت الاحداث التاريخية في العصور القديمة ان الفرس ومن سبقهم من الاقوام التي سكنت ايران كالعيلاميين والكوتيين والكشيين والميديين •• كانت لهم اطماع في العراق وانهم لذلك عملوا على احتلاله واستغلال خيراته •

٢ ــ ان تلك الاقوام وهي قبائل همجية بالاصل ومتخلفة حضاريا كانت تنظر بعين الحسد لما حققه سكان بلاد وادي الرافدين من تقدم حضاري وما كانت تنعم به المدن والقرى من رخاء وامان على امتداد النهرين العظيمين دجلة والفرات ، وانها كانت تتحين الفرص لمهاجمة هذه المراكز المتحضرة ونهبها وتدميرها •

٣ ــ هناك مؤشر واضح خلال سير الاحداث في التاريخ القديم هو ان اي ضعف او تخلخل في السلطة الداخلية في وادي الرافدين كان يصحبه هجوم من الاراضي الايرانية على العراق •

٤ ــ عمل العيلاميون والفرس الاخمينيون على خلق الفتن وعلى تغذية ودعم حركات الانشقاق بين البابليين والاشوريين بقصد تصديع الجبهة

الداخلية وتسهيل مهمتهم للسيطرة على العراق • وكان لهذه الحقيقة خطورتها البالغة لانها ادت بالفعل الى حروب طاحنة بين بابل وآشور •

٥ ــ لقد ادرك سكان بلاد وادي الرافدين ان بلاد عيلام التي صارت بلاد فارس فيما بعد عبارة عن امتداد طبيعي للسهل الرسوبي من العراق وادركوا ايضا وبالتجربة العملية من خلال تعاملهم مع الاقوام الفارسية اهمية ومقدار الخطورة التي يشكلها هذ السهل الرسوبي بالنسبة لامن بلادهم • ولذلك فقد اهتم ملوك العراق ومنذ اقدم العصور بالجبهة الشرقية هذه وأعاروا الاحداث والتغييرات السياسية فيها اهتماما كبيرا •

٦ ــ وبالفعل فقد استغل العيلاميون المنطقة الرسوبية هذه واتخذوا منها طريقا عسكريا سهلا للهجوم على المدن السومرية والبابلية • وكانت الحملات العسكرية العيلامية تبدأ من العاصمة شوش فتعبر الى الضفة الغربية من نهر كرخه وتسير في طريق بمحاذاة جبال زاكروس وصولا الى مدينة دير (قرب بدرة) لتكون على مشارف الحضارة في بلاد وادي الرافدين • وقد سلك ملوك العراق القديم الطريق ذاته في حملاتهم للثأر من عيلام • وشهدت هذه المنطقة الرسوبية كما شهدت ضفاف نهر كرخه وضفاف فرعه المسمى اولاي (في النصوص المسمارية) معارك طاحنة في العصور القديمة • ولعل من اشهر تلك المعارك التي كانت مدعاة لفخر البابليين بانتصارهم فيها ، المعركة الضارية التي خاضها الملك البابلي نبوخذنصر الاول ضد العيلاميين في شهر تموز (في حدود عام ١١١٠ ق • م) •

٧ ــ اتسمت الحملات العسكرية العيلامية على بلاد وادي الرافدين بالوحشية وهي حقيقة ثبتها العراقيون القدماء انفسهم للتاريخ في كتاباتهم المسمارية • فقد كان العيلاميون يمعنون القتل في سكان المدن السومرية والبابلية ويحرقون البيوت ويدخلون المعابد وينهبون كل ما فيها حتى انهم

كانوا يأخذون معهم تماثيل الآلهة البابلية الى عيلام وهذا ما فعلوه عندما غزوا البلاد في نهاية حكم الكشيين فاخذوا تمثال الاله مردوخ ، كبير الآلهة البابلية معهم الى شوش • كما اخذوا ايضا آثارا نفيسة مثل مسلات الملوك نرام ـ سين ومانشتوسو وحمورابي • ولاشك في ان نهب تمثال الاله يهدف الى تدنيس المعابد البابلية والنيل من كرامة البابليين بأسر إلههم الاعظم • ولكن « لم يغمض للبابلين جفن على هذه الفعلة الشنيعة » على حد تعبير احد النصوص المسمارية فثأروا لانفسهم من العيلاميين في المعركة الفاصلة التي جرت على ضفاف نهر كرخه بقيادة الملك البابلي نبوخذنصر الاول التي جئنا على ذكرها قبل قليل واعادوا تمثال الاله مردوخ الى بابل وسط احتفالات جماهيرية كبيرة •

٨ ـ ان ماتذكره التوراة عن كون العيلاميين من (الساميين) اي الجزريين مجرد قول لاصحة له • ومما يلفت النظر حقا ان التوراة في الوقت الذي اغفلت فيه ذكر الكنعانيين باعتبارهم من الاقوام (السامية) بصورة لا تقبل الشك فانها تعتبر العيلاميين من الساميين • وعلى اية حال فانه من الثابت الاكيد ان اللغة العيلامية ليست من اللغات السامية ، كما انه ليس لها علاقة باللغة السومرية ايضا • وعلى الرغم من عدم معرفتنا باللغة الام التي تنتمي اليها اللغة العيلامية فالراجح انها ترجع الى مجموعة اللغات القوقازية •

هذا من الجانب اللغوي • اما اذا كان الغرض من الاشارة التوراتية موضوعة البحث التلميح الى وجود (الساميين) كقوم في بلاد عيلام فالمسألة حقيقة معروفة • فالسهل الرسوبي الممتد من وادي الرافدين الى عيلام لا يشكل عائقا امام انتقال القبائل من الاراضي الواقعة شرق دجلة باتجاه عيلام • كما ان استعمال اللغة الاكدية في تدوين الوثائق القانونية والادارية وفي المراسلات والعقود في بلاد عيلام خلال العصر الاكدي يشير بوضوح الى وجود ثقل للثقافة الاكدية وبالتالي (للساميين) في بلاد عيلام • يضاف

الى ذلك ان القبائل الامورية في هجرتها الى بلاد وادي الرافدين قد استوطنت بالاضافة الى السهل الرسوبي (اي بلاد سومر واكد) المنطقة الواقعة شرقي دجلة (منطقة ديالى) التي يحدها من الشرق جبال زكروس والتي عرفت باسم يموت بعل • واسم يموت بعل في الواقع هو اسم القبيلة الامورية التي استوطنت في هذه المنطقة شبه الجبلية المتاخمة لبلاد عيلام ، مما جعلها تقع تحت نفوذ العيلاميين السياسي احيانا • وقد استطاع احد العيلاميين واسمه كودور مابك ان يسيطر على هذه الدويلة (يموت بعل) ويعين احد ابنائه ملكا في مدينة لارسه السومرية • ومن جهة اخرى فان سمات الجزريين في المنحوتات العيلامية يمكن تمييزها عن العيلاميين بشكل واضح وهي حقيقة سبقنا الى ذكرها الاستاذ (Hinz) في كتابه (The Lost Word of Elam) صفحة ٢١ •

ولذلك فان وجود الجزريين في عيلام مسألة واضحة في التاريخ القديم • ولكن ينبغي ان نعرف بان الذين كانوا يحكمون البلاد ويشنون الحملات العسكرية ضد بلاد وادي الرافدين هم العيلاميون وبقيادة الملوك العيلاميين انفسهم • لذلك تبقى الاشارة التوراتية القائلة بان العيلاميين من الساميين امراً مخطوءاً •

٩ ـ ان الحملات العسكرية العديدة التي نفذها ملوك بلاد وادي الرافدين ضد العيلاميين في ازمان متلاحقة ابتداءاً من العصر الاكدي وانتهاءاً بالعصر الاشوري كانت تعزى لواحد من الاسباب التالية :

آ ـ للثأر من العيلاميين بسبب هجوم غادر لهم شنوه على البلاد او بسبب تورطهم في مؤامرات واحلاف ضد السلطة الحاكمة في وادي الرافدين •

المدن الرئيسة في العراق القديم وبلاد فارس

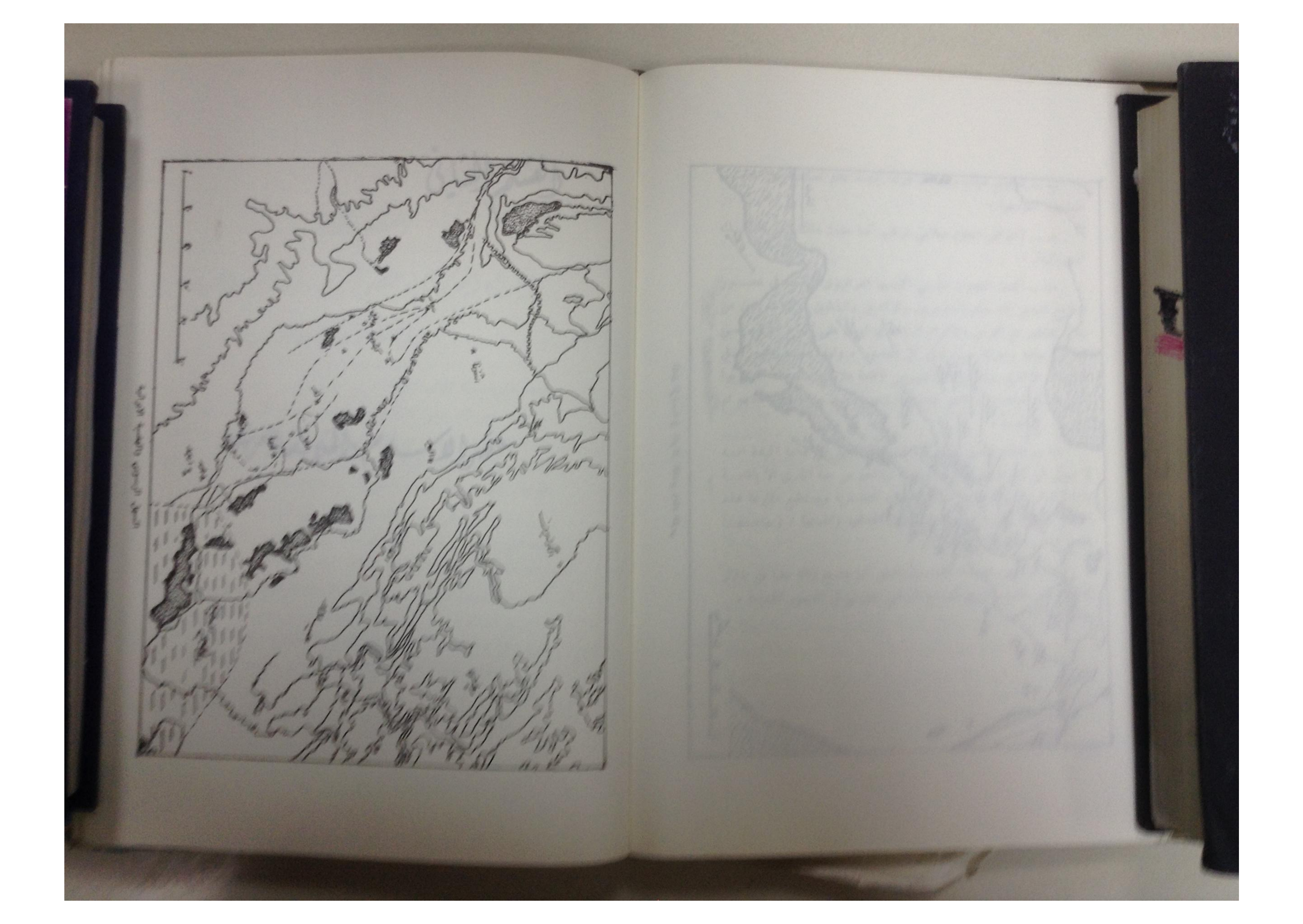
ب ـ لتحجيم عيلام واضعاف قوتها بقصد عدم تمكينها من تحقيق اطماعها التوسعية •

جـ ـ لاجهاض هجوم عيلامي مرتقب كما حدث ذلك زمن الملك اشوربانيبال •

١٠ ـ اكدت التجارب التي اكتسبها العراقيون القدماء في عصور التاريخ القديم ايام حكم السومريين والاكديين والبابليين ثم الاشوريين من خلال تعاملهم مع الفرس والاقوام السابقة في ايران على اطماع هؤلاء في العراق ومياهه وخيراته مستمرة في كل العصور • ولهذا فشلت معهم كل محاولات الاكديين والبابليين والاشوريين لاقامة علاقات سلمية • اذ جربوا معهم عقد المعاهدات ولكنهم نقضوها وجربوا معهم المصاهرة لكنهم لم يحترموا روابطها •

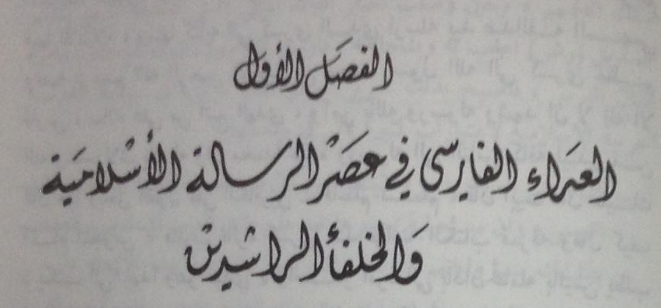
١١ ـ لذلك توصل ملوك بلاد وادي الرافدين الى قناعة اكيدة انه لا سبيل الى كبح جماح الاقوام المجاورة لبلادهم من جهة الشرق الا باقامة وادامة جيش قوي يستطيع حماية المنجزات الحضارية ويستطيع مقارعة هذه القبائل الهمجية الغازية ومنعها من تحقيق اهدافها واطماعها ، ومهاجمتها عندما تقتضي الضرورة في اراضيها •

وهذا ما انجزه اجدادنا القدماء بالفعل كما يتضح ذلك جليا من خلال الفصول التي تناولت تاريخ الصراع العراقي الفارسي في العصور القديمة •



القسم الثاني

عصر الاسلام والخلافة العربية



عصر الرسالة الاسلامية

لقد خص الله تعالى الامة العربية بخاتمة رسالاته السماوية ، حين انزلها على النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي حمل الرسالة وادى الامانة ، ونجح في بعث الامة العربية من جديد ، والتي وصفها الله تعالى بقوله « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .

وقد شهدت فترته صلى الله عليه وسلم ، مرحلة بناء ونهوض فكري وعقائدي ، تميز في وحدة الامة العربية وقدرتها على حمل الرسالة ، واداء مسؤولياتها السماوية والانسانية ، لانقاذ البشرية من الظلم والطغيان .

ان النهوض الجديد هذا ، والانطلاقة الانسانية المتميزة للامة العربية ودعوتها السماوية ، لم تلق استجابة وقبولا من لدن الفرس ، لانهم وجدوا فيها خطراً يهدد مصالحهم ويتعارض واطماعهم العنصرية ، في استعباد الشعوب وفرض هيمنتهم عليها ، فناصبوها العداء ، منذ وقت مبكر من قيامها ونهوضها .

وقد جاء موقف كسرى ابرويز معبرا بوضوح عن هذا العداء ،

فتشير المصادر الموثوقة الى ان الرسول صلى الله عليه وسلم ، ارسل في السنة السادسة للهجرة عدة كتب الى الملوك والرؤساء المعروفين آنذاك ، يدعوهم فيها للاسلام ، ومنها كتابه الى كسرى الذي ارسله بيد عبدالله السهمي ونصه « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله وشهد ان لا اله الا الله وحده لاشريك له وان محمداً عبده ورسوله الى الناس كافة لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ـ فاسلم تسلم ، فان ابيت فان عليك آثام المجوس » فثارت ثائرة كسرى عند قراءته الكتاب فمزقه وقال كيف « يكتب اليَّ بهذا وهو عبدي » واصدر امره الى باذان عامله باليمن يطلب منه القاء القبض على الرسول (ص) وارساله اليه مكبلاً .

ان موقف كسرى هذا ، يمثل الطبيعة العنصرية الاستعلائية للفرس تجاه العرب المسلمين عامة والرسول صلى الله عليه وسلم خاصة ، في حين رد الآخرون امثال النجاشي والمقوقس رداً جميلا على كتبه (ص) المماثلة ، وزاد بعضهم فارسل هدايا له صلى الله عليه وسلم ، تقديرا واحتراما لمكانته ، واعترافا بنبوته .

وعلى كل حال ، فان عبدالله السهمي ، اخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بقول كسرى وتمزيقه الكتاب وتهديده اياه ، فدعا عليه الرسول (ص) بقوله « يمزق الله ملكهم كل ممزق » وبشر المسلمين بقرب زوال ملك الفرس منبها اياهم لمسؤولياتهم القادمة في تحرير اراضيهم العربية المحتلة .

عصر الخلفاء الراشدين

تحرير العراق

واصل عرب العراق نضالهم وتصديهم للفرس ، خاصة قبائل ربيعة من بني شيبان وغيرهم ، بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني ،

بعد ان « جعلت الفرس تتعدى على العرب وتؤذيهم غاية الاذى لسبب المُلك انهفيهم » وحين وصلت اخبار القائد المثنى الى الخليفة ابي بكر الصديق (رض) اعجب به وبشجاعته ، فارسل اليه وولاه قيادة قومه ، وامره بقتال الفرس ، فاصبح بذلك تحرير العراق هدفا مركزيا في سياسة الدولة العربية الاسلامية لاعتبارات كثيرة يأتي في مقدمتها :

آ ـ ان ارض العراق ، جزء لايتجزأ من الارض العربية لكنها محتلة من قبل الفرس ، وان مسؤولية تحريرها تقع على عاتق العرب المسلمين ، فحددت بذلك مسؤولياتهم الدينية والتأريخية والقومية بهذا الاتجاه .

ب ـ ان عرب العراق بدأوا عملياتهم العسكرية ضد الفرس منذ وقت مبكر ، فكان لزاما على الدولة ومن واقع مسؤوليتها القومية ، دعم هذا النضال لتعزيز روح الصمود وصولا للنصر والتحرير .

جـ ـ النظرة الآنية والمستقبلية لاهمية موقع العراق ومكانته المتميزة في جسم الدولة العربية الاسلامية لتلك المرحلة ، والتي تلتها آنذاك ، اذ اصبح بعد وقت قصير من تحريره من الفرس المحتلين قاعدة مركزية لانطلاق الجيش العربي الاسلامي شرقا لتحريرالشعوب من الظلم والطغيان ، ونشر راية الاسلام واحلال الامن والاستقرار في ربوع تلك المناطق التي امتدت حتى حدود الصين .

جبهة العراق زمن الخليفة ابي بكر الصديق (رض)

اهتم الخليفة الصديق بالجبهة العراقية اهتماماً بالغاً ، فقرر تعزيزها ودعم صمود عربها ، فوجه في سنة ١٢ هـ القائد خالداً بن الوليد بجيش الى العراق وعينه قائدا عاماً لها ، وطلب من المثنى بن حارثة ان يكون تحت امرته .

وقد شهدت جبهة العراق نشاطاً عسكرياً متصاعداً منذ وصول خالد بجيشه ، كما شهدت تعاوناً وتنسيقاً بين القيادات العسكرية سواء اكان ذلك

في منطقة الحيرة ، ام منطقة الأُبلة بقيادة قطبة بن قتادة السدوسي . فكانت المنطقة المحصورة من الأُبلة ــ في البصرة ــ وحتى الانبار في اعالي الفرات مسرحاً لنشاط القوات العربية الاسلامية .

وبادر خالد بن الوليد بعد استلامه القيادة ، بارسال دعوات سلمية الى الفرس ومرازبتهم في المنطقة خلال كتب ارسلها لهم ، ومنها كتابه التالي « بسم الله الرحمن الرحيم ، من خالد بن الوليد الى مرازبة فارس ، اما بعد : فاسلموا تسلموا ، والا فاعتقدوا منى الذمة ، وادوا[1] الجزية ، والا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت ، كما تحبون شرب الخمر » فصالحته مناطق خفان ، وكسكر ، والحيرة في حين امتنعت اخرى ، مما ادى الى حصول معارك عسكرية بين الطرفين ، احرزت فيها القوات العربية انتصارات على الفرس . فانتصرت عليهم في موقعة ذات السلاسل وقتلت قائدهم هرمز سنة ١٢ هـ ، والحقت الهزيمة بقواتهم في موقعة المذار وموقعة الولجة قرب واسط ، وهزمت قوات جابان في أُليس قرب السماوة، وانتصرت على قواتهم في موقعة امغيشيا قرب الكوفة في صفر سنة ١٢ هـ ، الا ان هذه الانتصارات وغيرها لم تكن حاسمة .

ومع هذا فقد حصل تطور في الجبهة العراقية ، حين جرت مناقلة لبعض قطعاتها العسكرية ، بسبب احتياج جبهة الشام الى قوات اضافية لدعم صمودها امام الحشود الرومية الكبيرة ، فأصدر الخليفة امره سنة ١٣ هـ للقائد خالد بن الوليد ان يتحرك الى الشام بنصف القوات ويترك النصف الثاني بقيادة المثنى بن حارثة الذي توجه بعد وقت قليل من استلامه القيادة الى مقر الخلافة في المدينة المنورة لمقابلة الخليفة واطلاعه على الموقف العسكري في العراق واحتياجه الى قوات اضافية . استجاب الخليفة الصديق (رض) وهو في مرض موته ، لطلب المثنى ، فاستدعى عمراً (رض) وقال له « اسمع ياعمر ما اقول لك ، ثم اعمل به ، اني لارجو ان اموت يومي

هذا ، فاذا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى .. ولا تشغلنكم مصيبة وان عظمت .. وان فتح الله على امراء الشام فاردد اهل العراق الى العراق ، فأنهم اهله وولاة امره وحده ، واهل الضراوة منهم والجرأة عليهم » بهذه الكلمات العظيمة وبهذا المستوى الرفيع من الشعور بالمسؤولية ، يؤكد الصديق اهتمامه الكبير بالمعركة مع الفرس، وأهمية حشد طاقات الامة لمواجهة العدو ، كما يؤكد على الدور المهم للمقاتلين العراقيين الذين ناهضوا الاحتلال الفارسي وانتصروا عليه في اكثر من موقعة .

جبهة العراق زمن الخليفة عمر (رض)

بعد تولي عمر بن الخطاب (رض) قيادة الامة على اثر وفاة الصديق (رض) كان الشغل الشاغل له هو تحرير العراق واسقاط الدولة الفارسية المجوسية ، فأعد الامة لهذه المهمة الكبيرة ، واعلن الجهاد وقال « ... ايها الناس ان الله عز وجل وعد نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ان يفتح عليه فارس والروم ، والله لايخلف وعده ، ولايخذل جنده ، فسارعوا رحمكم الله الى جهاد اعدائكم من الفرس ، فانكم بالحجاز في غير دار مقام . وقد وعدكم الله عز وجل كنوز كسرى وقيصر .. وهذا المثنى بن حارثة قد اتاكم من العراق يدعوكم الى جهاد عدوكم ، فسارعوا رحمكم الله الى ذلك ، ولا تتغافلوا عن الجهاد في سبيل الله » .

فاستجاب ابو عبيد بن مسعود الثقفي اولا ، وتبعه سليط بن قيس الانصاري ، ثم تبعهم المسلمون ، فبلغوا ٤ آلاف مقاتل فعين لقيادتهم أبا عبيد الثقفي واوصاه بقوله « ... انك تقدم على قوم تجرأوا على الشر فعلموه ، وتناسوا الخير فجهلوه ، انظر كيف تكون ؟ واحرز لسانك ولاتفشين سرك ، فان صاحب السر مايضبطه متحصن لايؤتى من وجه يكرهه ، واذا ضيعه كان بمضيعة » واوصاه ايضا « اسمع من اصحاب النبي صلى الله عليه

وسلم واشركهم في الامر ولاتجتهد مسرعا حتى تتبين ، فأنهـا الحرب والحرب لا يصلحها الا الرجـل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف » .

وقد اتجه ابو عبيد بقواته الى العراق يتقدمها المثنى بن حارثة الشيباني ، فلما وصل العراق انضم اليه المقاتلون العراقيون من ربيعة وغيرهم واتخذ من العذيب في منطقة الحيرة معسكرا لـه . فوردته انباء الحشود الفارسية في تستر بقيادة جابان الاعجمي ، فاشتبك معهم والحق الهزيمة بهم . كمـا هزم قوات فارسية اخرى بقيادة الجالينوس ، فجهز كسرى يزدجرد جيشا جديدا قوامه ١٢ الف رجل ومعهم الفيلة بقيادة بهمن جاذويه وسلمه رايـة الفـرس الكبرى درفش كابيان ، فاتخـذ الفرس الجانب الثاني من الفـرات معسكرا لهـم .

موقعة الجسر

تصدت القوات العربية الاسلامية لقوات العدو الفارسي المجوسـي ، بعد عبورها الفرات في آخر رمضان سنة ١٣ هـ ، واشتبكت معهم في معركـة ضارية استبسل فيها فرسان العرب وابطالهم امثال سليط بن قيس، وابي محجن الثقفي وعـروة بن زيد . وقاتـل ابو زبيـد الطائـي الشـاعر حميـة للعربية . وقد استشهد في المعركة القائد ابو عبيد الثقفي وبلغ عدد الشهداء ٤ آلاف شهيد . وتمكن المثنى بن حارثة من انقاذ البقية الباقية من الجيش ، وانسحبت القوات العربية الى اطراف الصحراء .

ان سبب نكسة المسلمين في هذه الموقعة يعود الى خطأ عسكري ارتكبه ابو عبيد بعبوره الجسر رغم تحذير المسلمين لـه .

معركة البويب

لقد استطاعت القوات العربية تجاوز النكسة وتحويلها الى نصر في معركة

البويب عام ١٤ هـ فقد استدعى الخليفة عمر (رض) جرير بن عبدالله البجلي على رأس قوة مؤلفة من ٧٠٠ مقاتل ، ووجهه الى العراق قائلا « سـر الـى العراق فعسى الله عز وجل ان يدفع شر هؤلاء الاعاجم وتخمد بك جمرتهم » كما رفد الخليفة جبهة العراق بقوات اضافية اخـرى من الازد وغيرهـم . فاجتمعت القوات العربية الاسلامية تحت قيادة المثنى بن حارثة في منطقـة البويب وتصدت للقوات الفارسية التي عبرت النهر بقيادة مهران الهمذانـي وحسمت المعركة لصالح العرب المسلمين مسجلين فيها انتصارا كبيرا رغـم التفوق في عدة الفرس وعددهم .

معركة القادسية سنة ١٥ هـ

بعد الانتصار الذي حققه العرب المسلمون في معركة البويب ، بدأ الفرس بحشد كافة امكاناتهم المادية وطاقاتهم البشرية في مواجهة شاملة للعرب .

واتجاه هذا التطور العسكري ، ارسل المثنى الى الخليفة عمر (رض) يعلمه باستعدادات الفرس . فكتب اليه « اما بعد فاخرجوا من بين ظهـري الاعاجم وتفرقوا في المياه التي تلي الاعاجم » فانسحبت القـوات العربيـة واتخذت لها مراكز جديدة على اطراف الصحراء .

الخليفة والقرار الجريء

لقد ادرك الخليفة عمر بن الخطاب (رض) ان المعركة القادمة هي معركة مصيرية حيث حشد الفرس المجوس كل مالديهم من امكانيات بشرية وماديـة وهيأوا للمعركة خيرة رجالهم وسلاحهم . ولذلك فقد كان على الخليفة ان ينهض بمسؤولية التاريخ العربي الاسلامي وان يواجه العدو بشروط تتكافأ مع قوته وتأثيره ومن هنا كان عليه ان يعبيء قوى الامة وينظم صفوف مقاتليها بهدف سحق العسكرية الفارسية العنصرية وتدميرهـا ، وقـد عبر الخليفـة

عمر (رض) عن ذلك في كتابه الى المثنى بن حارثة « اما بعد ... ولاتدعوا في ربيعة احداً ولا مضر ولا حلفائهم احدا من اهل النجدات ولا فارسا الا اجتلبتموه فان جاء طائعا والا حشرتموه ، احملوا العرب على الجد اذا جد العجم فلتلقوا جدهم بجدكم » وهذا امر صريح من الخليفة الى المثنى باعلان النفير العام ، والطلب من القبائل العربية الانضمام الى صفوف الجيش العربي الاسلامي وتجنيد من يرفض التطوع تجنيدا اجباريا .

كما كتب الخليفة الى عمال العرب على الكور والقبائل « لا تدعوا احداً له سلاح او فرس أو نجدة او رأي الا انتخبتموه ثم وجهتموه اليّ والعجل العجل » وبمثل هذه الاجراءات التعبوية والميدانية وفي ضوء هذا الوعي التاريخي صمم الخليفة عمر (رض) لوحة القادسية الاولى وعمل على تنفيذها بنفسه وقرر قيادة المقاتلين الذين توافدوا على المدينة المنورة نحو العراق ، فسار بهم وعسكر في منطقة صرار الواقعة على ثلاثة اميال من المدينة باتجاه طريق العراق وبدأ مشاوراته مع الصحابة ، الذين اشاروا عليه بالبقاء « على ان يبعث رجلا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسده بالجنود فان كان الذي يشتهي فهو الفتح والا اعاد رجلا وبعث بآخر ففي ذلك غيظ العدو » وقال له عبدالرحمن بن عوف « اقم وابعث جنداً فقد رأيت قضاء الله لك في جنودك قبل وبعد فانه ان يهزم جيشك ليس كهزيمتك وانك ان تقل او تهزم في آنف الامر خشيت الا يكبر المسلمون والا يشهدوا ان لا اله الا الله ابداً » فاستجاب لرأيهم . وبدأ مشاورته معهم فيمن يوليه هذه المسؤولية الكبيرة .فوقع اختيارهم على سعد بن ابي وقاص لحكمته وشجاعته في ادارة الحرب « الاسد في براثنه » وكان آنذاك على صدقات هوازن في نجد ، فاستدعاه الخليفة واعلمه القرار .

مسير الجيش للعراق

بدأ سعد بن ابي وقاص بالتهيؤ للسير الى العراق بقواته العسكرية ، فاوصاه الخليفة بقوله « اني قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي فانك تقدم على امر شديد كريه لا يخلص منه الا الحق فعود نفسك ومن معك الخير واستفتح به واعلم ان لكل عادة عتاداً فعتاد الخير الصبر ، فاصبر على ما اصابك او نابك يجتمع لك خشية الله .. »

سار سعد بجيشه قاصدا العراق في اربعة آلاف مقاتل معهم نساؤهم وذراريهم ، والخليفة سائر معهم حتى الاعوص حيث ودعهم .

وقد امد الخليفة سعداً بقوات اضافية قوامها ألفا يماني وألفا نجدي فقدم سعد زرود فنزلها « وتفرقت الجنود فيما حولها من امواه بني تميم واسد وانتظر اجتماع الناس وامر عمر » وفي اثناء ذلك وصلته انباء وفاة المثنى بن حارثة الشيباني متأثرا من جراحه التي اصيب بها في موقعة الجسر ، فانضمت قواته البالغة ثمانية آلاف مقاتل من العراقيين الى قوات سعد . والتحق بقواته ايضا الف مقاتل من القيسيين وثلاثة آلاف من بني اسد والف وسبعمائة من اهل اليمن بقيادة الاشعث بن قيس وثلاثة آلاف من بني تميم والف من الرباب . عدا من التحق بصفوف الجيش من مناطق مختلفة رغبة في الجهاد .

ادامة جبهة العراق

ونظراً لاهمية جبهة العراق وستراتيجيتها التعبوية فقد تحتم ان توضع الامة وقواها وطاقاتها جميعا في خدمة المعركة الفاصلة مع الفرس المجوس ، ومن اجل ان تحسم المواجهة المسلحة لصالح العرب المسلمين فقد امر الخليفة عمر (رض) بتجميد جبهة الشام بصورة مؤقتة والدفاع عن المناطق المحررة فكتب الى ابي عبيدة بن الجراح يامره بان « يتمسك بما فتح الله

عز وجل على يديه ولايحارب احدا من الروم الا ان يفرغ سعد بن ابي وقاص مما هو فيه من امر العراق » وطلب منه ايضا «صرف اهل العراق وهم ستة آلاف مقاتل ومن اشتهى ان يلحق بهم » بعد مشاركتهم بجبهة الشام .

ولم تكن المعركة المرتقبة لتجري وقائعها دونما تهيئة الشروط المادية والمعنوية لتحقيق النصر فقد عمل الخليفة على توفير المستلزمات الضرورية التي من شأنها ان تعزز موقف المقاتلين العرب وتعينهم على انجاز مهامهم بنجاح اكيد يقول عمر (رض) : « والله لاضربن ملوك العجم بملوك العرب » فلم يدع رئيسا ولا ذا رأي ولا ذا شرف ولا ذا سطوة ولا خطيبا ولا شاعرا الا رماهم به فرماهم بوجوه الناس وغررهم » .

وقد تابع الخليفة الموقف العسكري بكل تفاصيله ، فارسل الى سعد وهو معسكر بشراف كتابا جاء فيه « اما بعد ... فاعلم فيما لديك انك تقدم على امة عددهم كثير وعدتهم فاضلة ... واذا لقيتم القوم او احدا منهم فابدأوهم الشد والضرب واياكم والمناظرة لجموعهم ولايخدعنكم فانهم خدعة مكرة امرهم غير امركم الا ان تجادوهم ... فان انتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الامانة رجوت ان تنصروا عليهم ثم لايجتمع لكم مثلهم ابداً الا ان يجتمعوا وليست معهم قلوبهم » .

وامر سعداً ان يرتحل بجيشه الى العذيب ، وكتب اليه « ... صف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كاني انظر اليه واجعلني من امركم على الجلية » فكتب اليه سعد واصفا له المنطقة بشكل دقيق ، ثم تحرك بقواته فنزل القادسية واتخذها معسكرا لجيشه ، وترك غالب بن عبدالله الليثي في قوة لحراسة النساء والصبيان في العذيب . واستمر الخليفة بتزويد الجيش بالمؤن اللازمة « فارسل اليهم من المدينة بالغنم والجزر » .

الاستعداد للمعركة

اتخذ سعد من قصر العذيب في القادسية مقرا لقيادته ، واخذ بترتيب مواقعه بالشكل التالي :

المقدمة بقيادة زهرة بن عبدالله بن الحوية ، الميمنة بقيادة عبدالله بن المعتم ، الميسرة بقيادة شرحبيل بن السمط الكندي ، ووضع على الخيل عاصم ابن عمرو التميمي وعلى الطلائع سواد بن مالك .

واراد سعد قبل المعركة ، حسم الموقف سلميا ، فارسل وفودا الى كسرى ورستم الذي حاول استغلال المفاوضات لصالحهم باطالة امدها بهدف اضعاف روح الصمود والقتال عند العرب ولكن سعد فوت عليه الفرصة عندما حدد للفرس ثلاثة ايام لاختيار احد الخيارات الثلاثة : الاسلام أو الجزية أو الحرب . وقد رفض الجانب الفارسي هذا العرض السلمي وهددوا العرب بالابادة منطلقين من نظرة عنصرية استعلائية وعنجهية فارغة وتمسك بالباطل . فقد هدد رستم الوفد العربي الاسلامي بقوله « لا يرتفع لكم الصبح غداً حتى اقتلكم اجمعين » . اما كسرى فوجّه تهديده للنعمان بن مقرن رئيس الوفد ، قائلاً « اني لا أعلم في الارض امة كانت أشقى ولا اقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم » « ارجعوا الى صاحبكم فاعلموه اني مرسل اليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسية وينكل به وبكم ، ثم اورده بلادكم حتى اشغلكم بأشد مما نالكم من سابور » .

المعركة الفاصلة

بعد فشل المساعي العربية السلمية ، استعد العرب للمعركة ، التي بدأت يوم الاثنين لثلاث بقين من شوال سنة ١٥ هـ بأيامها :

١ – يوم ارماث :

سيطرت القوات العربية على القنطرة ومنعت عبور الفرس عليها ، فعبروا

من مناطق اخرى ، واشتبك العرب في قتال شديد مع قوات العدو البالغة ١٢٠ الف رجل تصحبهم الفيلة بقيادة رستم ، وتمكن المسلمون من معالجة امر الفيلة واخراجها من القتال . وقد ركز الفرس على قبيلة بجيلة فساندتها قبيلة اسد ، واستمر القتال الى الليل ، فبلغ شهداء المسلمين ٥٠٠ شهيد ، فأمر سعد باخلاء ساحة المعركة من الشهداء وتولت النساء والصبيان دفنهم .

٢ ـ يوم اغواث :

وفي صباحه وصلت طلائع القوات العراقية القادمة من الشام يتقدمها القعقاع بن عمرو التميمي في الف فارس ، واشتركت في القتال الفعلي مع العدو ، فأرتفعت معنويات المسلمين ، وتمكنوا من قتل بعض قادة الفرس ، منهم بهمن جاذويه ، والبيرزان والبندوان . واخذت النساء العربيات يشجعن ابناءهن على القتال ، فقالت الخنساء لبنيها الأربعة « يا بني انكم اسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين ووالله انكم لبنو رجل واحد كما انكم بنو أمرأة واحدة ، ووالله ما هجنت حسبكم ولا فضحت خالكم ، وقد ترون ما أعدت الاعاجم للمسلمين ، فاذا دنوتم من الحرب فباشروا خميسها ويسموا وسيطها وجالدوا رائسها ، تظفروا بالغنم والسلامة والزلفة والكرامة في دار الفوز والمقامة » فقبل بنوها قولها ، فقاتلوا حتى استشهدوا جميعا وما دمعت لها عين ، وبلغ عدد الشهداء في هذا اليوم ٢٠٠٠ شهيد تولت النساء دفنهم ، اما قتلى الفرس فبلغوا عشرة آلاف قتيل .

٣ ـ يوم عماس وليلة القادسية :

استعمل العرب فيه تخطيطا جديدا حين تسللت بعض قطعاتهم العسكرية خلف خطوط العدو وهاجمته محدثة ارباكا في صفوفه ، في ذات الوقت الذي وضعوا قوات على طريق الشام ، توافدت اثناء المعركة ليوهموا العدو بأن الامدادات متواصلة ، وتمكن العرب المسلمون من اخراج الفيلة التي زج بها

الفرس في المعركة ، واستمر القتال بين الطرفين فوصلت في اثنائه قوات العراقيين من الشام بقيادة هاشم بن عتبة بن ابي وقاص في خمسة آلاف مقاتل ، وباشروا القتال في المعركة التي اتصل نهارها بليلها ، فسميت تلك الليلة بليلة القادسية او ليلة الهرير ، التي انفرج صباحها فلاحت بشائر النصر للمسلمين حين تمكنوا من اختراق قوات قلب العدو . فشتتوها ووصلوا الى مقر رستم فلم يجدوه فتبعه هلال بن علفة فقتله ونادى « قتلت رستم ورب الكعبة » وتتبع العرب المسلمون فلول العدو المنهزمة واوقعوا فيها القتل وبلغ قتلاهم ٤٠ الف قتيل بينما بلغ عدد شهداء المسلمين ٨٥٠٠ شهيدا تولت النساء دفنهم .

وبعد انتهاء المعركة ، كتب سعد للخليفة بالنصر وارسل كتابه مع سعد الفزاري .

لقد كانت القادسية بحق من المعارك الكبرى ، التي غيرت وجه التاريخ وحددت مسيرته لصالح العرب المسلمين ، بانتصارهم الحاسم على الفرس المجوس ، اذ لا يزال يذكر بكل فخر واعتزاز مفاصلها الحيوية وبطولات فرسانها الفريدة ، التي حملتها الاجيال ، فجسدتها من جديد .

استكمال تحرير العراق

أ ـ تحرير المدائن :

تقدم سعد بجيشه نحو المدائن متتبعا فلول الفرس المهزومة اليها ، مقدما زهرة بن الحوية واتبعه بعبدالله بن المعتم ثم بشرحبيل بن السمط وهاشم بن عتبة . وتمكن الجيش من تشتيت تجمعات الفرس وفلولهم في بابل والحاق الهزيمة بهم . وواصل سيره نحو المدائن فدخلها ، فوجد كسرى يزدجرد وبطانته قد ولوا منها هاربين باتجاه حلوان فدخلها سعد وقرأ في الايوان « كم تركوا من جنات وعيون وزروع .. » وصلى فيه صلاة الفتح في صفر سنة ١٦ هـ .

ب ـ معركة جلولاء :

تواردت الانباء على سعد وهو في المدائن ، ان يزدجرد حشد ثمانين الف مقاتل من الفرس ووجههم الى جلولاء بقيادة مهران ، فوجه لهم بأمر الخليفة عمر (رض) جيشا من ١٢ الف مقاتل بقيادة هاشم بن عتبة وعلى مقدمته القعقاع ابن عمرو وعلى ميمنته مسعر بن مالك وعلى ميسرته عمرو بن مالك بن عتبة وعلى ساقته عمرو بن مرة الجهني ، فتقدم الجيش نحو جلولاء وتمكن من الحاق هزيمة كبيرة بقواته رغم الامدادات والتعزيزات التي ارسلها كسرى لجيشه ، وتتبع القعقاع المنهزمين فادرك مهران في خانقين فقتله ، وكان تحرير جلولاء في ذي العقدة سنة ١٦ هـ ، وكتب سعد للخليفة بالنصر .

اما الجيوب الصغيرة من فلول العدو الفارسي والتي لجأت الى مناطق مختلفة ، فقد عالجها المسلمون وانهوا امرها ، سواء اكان ذلك في خانقين التي تقدم اليها جرير بن عبدالله فحررها ، ام في المناطق الاخرى « فلم يبق من سواد دجلة ناحية ، الا غلب عليها المسلمون وصارت في ايديهم » . واستأذن سعد الخليفة عمر (رض) بتتبع الفرس بعد هزيمتهم من حلوان فابى وقال «لوددت ان بين السواد وبين الجبل سدا لايخلصون الينا ولانخلص اليهم» . فتم بذلك تحرير العراق باكمله ، ورجعت السيادة العربية على ارضه بعد ان ظل فترة طويلة من الزمن يرزح تحت نير الاغتصاب الفارسي .

ج ـ معركة نهاوند سنة ٢١هـ :

ومن الجدير بالذكر ان الفرس بعد طردهم من حلوان تمكنوا من حشد كل طاقاتهم البشرية والمادية وعسكروا في نهاوند ، التي اصبحت خط دفاعهم الاخير . وقد ادرك الخليفة عمر (رض) ما للمعركة القادمة من نتائج على مستقبل الدولة العربية والرسالة الاسلامية فقال « ان هذا يوم له ما بعده من الايام » وطلب من الصحابة اختيار قائد للقوات العربية الزاحفة

نحو نهاوند فقال « اشيروا عليّ به واجعلوه عراقيا » فوقع الاختيار على النعمان بن مقرن المزني فعينه قائدا لتلك القوات التي التحق بصفوفها مقاتلو العراق من البصرة والكوفة وتقدم النعمان بقواته نحو نهاوند سنة ٢١ هـ واشتبك مع الفرس في معركة ضارية تمكن العرب فيها من سحق القوات الفارسية وحققوا نصرا تاريخيا واستشهد النعمان في المعركة .

وقد اطلق المؤرخون العرب على معركة نهاوند فتح الفتوح لانها انهت القوة الفارسية وفتحت الطريق امام العرب المسلمين لنشر رسالة الاسلام في تلك المناطق .

ان السر في الانتصارات الحاسمة التي احرزها العرب المسلمون على الفرس المعتدين في المعارك وعلى الاخص في معركة القادسية الخالدة ، يعود لاسباب عديدة ياتي في مقدمتها :

١ ـ نهوض القيادة السياسية بمسؤولياتها القومية والتاريخية وقيادتها للمعركة بكل تفاصيلها .
٢ ـ اختيار القيادة الموفق للقادة العسكريين .
٣ ـ اعتماد زمام المبادرة في اختيار ارض المعركة وتوقيتها .
٤ ـ ايمان المقاتلين بعدالة القضية التي يقاتلون من اجلها وتعلقهم بارضهم وتحريرها .
٥ ـ الاستعداد التام للمعركة وادامتها وذلك بحشد طاقات الامة وامكاناتها المادية والبشرية وصولا للنصر .
٦ ـ التنسيق الجيد بين القائد والقيادة والقوات على جبهات القتال من تعبئة وادارة وتموين وامداد .
٧ ـ سرعة تعامل الفكر العسكري العربي للمستجدات التي ظهرت في المعركة ومعالجتها ، وتفتق الذهنية العربية عن اساليب عسكرية جديدة مما قلب موازين القوى لصالحهم .

٨ ـ اصطحاب المقاتلين العرب لعوائلهم ومشاركة النساء في المعركة الهب شعور المقاتل العربي ودفعه للقتال بشكل متصاعد دفاعا عن شرفه وعرضه ووجوده .

٩ ـ البطولات الفردية والشجاعة النادرة والمعنويات العالية للمقاتل العربي واندفاعه الجريء في القتال طلبا لاحد الحسنيين النصر او الشهادة ، أذهل العدو واربك صفوف قواته .

التآمر على قادة الامة :

وبعد فشل الفرس في المواجهة العسكرية مع العرب تصاعد حقدهم على العروبة والاسلام، فاخذوا يتحينون الفرص ويدبرون المؤامرات لضرب العروبة وهدم الاسلام « فدخلوا الاسلام لا حباً في الاسلام وانما لهدم الاسلام باسم الاسلام لانهم كانوا يرون ان العرب اقل الامم ، فلما زالت دولتهم على ايديهم عظمت المصيبة لديهم وراموا كيد الاسلام فلم يقدروا فعمدوا الى الحيلة واظهر قوم منهم الاسلام ليتمكنوا من ضرب الاسلام » فاتبعوا اساليب الغدر والتآمر وكان ابرز مظاهر تآمرهم اغتيال قائد الامة الخليفة عمر بن الخطاب (رض) على يد الفارسي فيروز ابي لؤلؤة « وهو مجوسي من اهل نهاوند » الذي دخل المدينة المنورة تحت ستار انه يحسن بعض الاعمال النافعة للمسلمين . واخذ يخطط لاغتيال الخليفة وتمكن من تنفيذ مؤامرته يوم الاربعاء لثلاث ليال بقين من ذي الحجة سنة ٢٣ هـ وعمر (رض) قائم يصلي في المسلمين صلاة الصبح فطعنه بخنجر مسموم ست طعنات وطعن معه اثني عشر مسلما مات منهم ستة ولما حاول الهرب القى عليه رجل عراقي ثوباً فلما اغتم فيه قتل نفسه ، فاشار عمر (رض) على ابنه « ان انظر من قتلني قال : يا امير المؤمنين : قتلك ابو لؤلؤة ، فقال عمر (رض) « الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل سجد لله سجدة واحدة » مشيرا بذلك الى كره الفرس المجوس للاسلام وحقدهم على العروبة .

الفصل الثاني

ابعاد الصراع العراقي ـ الفارسي في عصر الامويين

استياء الفرس من الدولة العربية زمن الامويين ، وسياستها العربية الاسلامية ، التي لاتتفق وآمالهم واحلامهم باعادة امجادهم الفارسية ودولتهم المجوسية ، على حساب العرب ودينهم ، فتآمروا على اسقاطها عن طريق اثارة الفتن والاضطرابات ، وبث الافكار الالحادية والمعتقدات المجوسية التي اتخذت شكل حركة « شعوبية » ارتبطت بالزندقة ارتباطا وثيقا،وافرزت فرقاً مناوئةعديدة منها البيانية[1]والمختارية[2]،

---

(١) البيانية : اتباع بيان بن سمعان ، وهي فرقة شعوبية خارجة عن الاسلام ، ادعت الحلول والتناسخ .
وادعى بيان انه انتقل اليه الجزء الالهي بنوع من التناسخ ، ثم ادعى النبوة واباح محرمات الشريعة ووجوب اسقاط فرائضها ، قتله خالد بن عبدالله القسري . انظر : البغدادي: الفرق بين الفرق صفحة ٧٧ و ٢٥٥، والملل والنحل للبغدادي ، ص ٥٤الشهرستاني : الملل والنحل صفحة ٢٤٦ .

(٢) المختارية : اتباع المختار بن ابي عبيد ، الذي ادعى نزول الوحي عليه ، ثم ادعى النبوة ، وادعى ان له قرآناً خاصاً واول القران بتاويلات فاسدة . انظر المسعودي : مروج الذهب ٣/٣٢ الشهرستاني : الملل والنحل ص ٢٣٧ الرازي : اعتقادات ص ٦٢ البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٣٣ .

والجهمية[3]، والمغيرية[4] والكيسانية[5]، هدفها جميعا ضرب العروبة والاسلام متخذة من الاسلام غطاءا تحتمي به لتحقيق اهدافها العنصرية واطماعها التوسعية • يقول ابن حزم « والاصل في اكثر خروج هذه الطوائف عن ديانة الاسلام ، ان الفرس كانوا من سعة الملك ، وعلو اليد على جميع الامم ، وجلال الخطر في انفسهم حتى انهم كانوا يسمون انفسهم الاحرار والابناء وكانوا يعدون سائر الناس عبيدا لهم ، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على ايدي العرب ، وكانت العرب اقل الامم عند الفرس خطرا ، تعاظمهم الامر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الاسلام بالمحاربة في اوقات شتى » •

وكان طبيعيا ان تنشط الشعوبية في عصر نهضة العرب ، وتوسع الاسلام وانتشاره ، لان هذا الانتشار وتلك النهضة تشكل خطرا حاسما على كيانها وارثها واصولها ومعتقداتها المجوسية المستوحاة من نطاق حضاري خارج نطاق العروبة والاسلام ، فبدأت نشاطها التخريبي لضرب السيادة العربية

---

(3) الجهمية : اتباع جهم بن صفوان الترمذي من الموالي الفرس ، كان تلميذاً للجعد بن درهم الزنديق . انكر نصوص الشريعة ودعا الى ابطال نصوصها . نفى صفات الله وادعى ان علمه محدث ، وساوى بين الانبياء والبشر ، قال عنه كتاب الفرق «انه كافر ، ضال مبتدع . زرع شراً عظيماً » انظر : الطبري : تاريخ /حوادث ١٢٨هـ ، الذهبي : تذكرة الحفاظ رقم ١٥٨٤، البغدادي : الفرق ص١٩٩ والملل والنحل للبغدادي، ص ١٤٥ ، الشهرستاني : الملل ، ص ١١٣ .

(4) المغيرية : اصحاب المغيرة بن سعيد وهو من الموالي ، زعم انه المهدي المنتظر ، ثم ادعى الالوهية ،والنبوة واظهر الكفر الصريح . قتله خالد القسري . انظر : الرازي :اعتقادات ص ٥٨ ، البغدادي : الفرق ص ٢٢٩ ، الشهرستاني : الملل ص ٢٩٤ .

(5) الكيسانية : اتباع كيسان وهو من الموالي . نادى بترك اركان الشريعة الاسلامية وقال بالحلول والتناسخ على غرار الفرق السالفة . اكفرته الامة الاسلامية . انظر : البغدادي : الفرق ص ٢٧ ومختصر الفرق ص ٣٥ ، الشهرستاني : الملل ص٢٤٩ .

وهدم الاسلام معتمدة اسلوب التآمر والتخريب الذي تبلور في اتجاهين رئيسيين :

أولهما ــ اتجاه فكري هدفه تخريب بنيان الفكر العربي الاسلامي من خلال طعن العرب في مقوماتهم الحضارية وقيمهم الانسانية والسعي لخلق حالة تناقض وانفصام بين العروبة والاسلام لتفريغ محتوى احدهما وصولا لهدم الآخر واستبداله بفكر مجوسي •

ثانيهما ــ اتجاه سياسي تركز في شكل تآمر وتمرد مضاد سواء أكان مباشراً ام غير مباشر ، على الحكم العربي الاسلامي لاضعافه واحتوائه بحكم فارسي •

وفي كلا الاتجاهين اتخذت الشعوبية من الدين الاسلامي ستارا وغطاء لتمرير مخططها التآمري ، يقول الجاحظ « فانما عادة من ارتاب بالاسلام، انما جاءه هذا عن طريق الشعوبية » •

وقد انتشرت هذه الحركة بين صفوف الموالي ، وتركز نشاطها في العراق حتى اواخر العصر الاموي •

ففي المجال الفكري سلك الشعوبيون الفرس ، كل سبيل لاحياء الثقافة الفارسية ، وطعن الثقافة العربية الاسلامية والاستهانة بها « لدفع العرب عن كل فضيلة وإلحاق بها كل رذيلة » فشوهوا التاريخ العربي وقطعوا اوصاله لعزل العرب عن ماضيهم ، وهاجموا الانساب العربية وادعوا انها كاذبة ومنحولة وتفاخروا بانسابهم الفارسية ، وطعنوا الشعر العربي وهاجموا اللغة العربية بالتأكيد على عجزها عن مسايرة حركة التطور ، ونددوا بالمثل والقيم العربية وجاهروا بالخلاعة والانحراف الجنسي واعتبروهما نوعا من التحرر ،

وشككوا بالقرآن الكريم والسنة النبوية وتأولوهما ، فتأولوا قوله تعالى « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ... » فقالوا : ان الشعوب من العجم والقبائل من العرب ، والمقدم افضل من المؤخر . واشاعوا الافكار والمعتقدات المجوسية . فذكر ابن عبد ربه ، ان الشعوبية قالت « للامم كلها من الاعاجم ملوك تجمعها ومدائن تضمها واحكام تدين بها ، وفلسفة وبدائع من الادوات والصناعات ، ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ولا كان لها قط نتيجة في صناعة ولا اثر في فلسفة ، الا ما كان من الشعر وقد شاركتها فيه العجم » .

ومن اشهر الذين اضطلعوا بهذه المهمة في العصر الاموي من الشعوبيين والزنادقة ، يونس بن ابي فروة الذي وضع كتاباً في « مثالب العرب » والشاعر اسماعيل بن يسار النسائي الذي اعلن نزعته الشعوبية زمن الخليفة هشام ابن عبدالملك . يقول ابو الفرج في الاغاني « وكان ابن يسار مبتلى بالعصبية للعجم والفخر بهم ، فكان لا يزال مضروباً محروماً مطروداً » ومن مخضرمي العصرين الاموي والعباسي ، الحمادون الثلاثة ، حماد الراوية ، وحماد عجرد ، وحماد بن الزبرقان ، المعروفين بالزندقة والتهتك والخلاعة . يقول السيد المرتضى في اماليه عن حماد الراوية « واما حماد الراوية فكان منسلخاً من الدين ، زارياً على اهله ، مدمناً لشرب الخمور ، وارتكاب الفجور » وقد لعب دورا بارزا في افساد الشعر العربي وطعنه . وابن المقفع ، الذي نقل الكثير من تراث الفرس الى العربية روج فيها المفاهيم والمعتقدات المجوسية ، ككتاب خدا ينامه او سير ملوك فارس ، وكتاب التاج في سيرة انو شروان ، وكتاب مزدك . ويجمع هؤلاء كما يقول الجاحظ ، اصولهم الفارسية ، والزندقة وحقدهم على العروبة والاسلام .

اما في الاتجاه السياسي ، فقد سلك الفرس فيه مسلكا تآمريا مضاداً ، هدفه ضرب السيادة العربية وانهاء وجودها ، ومن ابرز مظاهره :

١ ــ اعتمادهم اساليب وحشية لتصفية العرب وقادتهم ، بتكوينهم فرقة ارهابية لاغتيال المواطنين العرب بالخنق أو بالبنج ثم قتلهم بالحجارة او بالحبال ، اطلق عليها ابن حزم « الخناقون والرضاخون » . وقد اتخذت هذه الفرقة من الكوفة مركزا لممارسة نشاطها المرعب ، فكان ابو منصور العجلي رئيس المنصورية « يأمر اصحابه بخنق من خالفهم وقتلهم بالاغتيال ويقول من خالفكم فهو مشرك فاقتلوه فأن هذا جهاد خفي » . وكانت طريقة تآمرهم تعتمد على « استدراج الضحية من العرب الى أحد دورهم ، فتأخذ عندئذ نساؤهم بقرع الطبول، وصبيانهم بالصياح ، ويهيجون كلابهم للنباح ، ويتولى الآخرون خنق الضحية دون ان يسمع لها حس » واستمر نشاط هذه الفرقة الارهابية الفارسية حتى خلافة المهدي العباسي .

٣ ــ محاولتهم التسلل الى مراكز الدولة الحساسة واستغلالها لصالحهم في محاولة لضربها من الداخل ، فاستغلوا دواوين العراق التي كانت تكتب بالفارسية ، ومعظم موظفيها من الفرس برئاسة زاذان فروخ الفارسي .

وقد لفتت هذه الظاهرة انتباه الدولة ، فأمر الخليفة عبد الملك بن مروان بتعريبها والاستغناء عن موظفيها الفرس ، وعهد بالمهمة الى صالح ابن عبدالرحمن وبلغ من حقد الفرس وعنصريتهم ان اتصلوا بصالح وعرضوا عليه رشوة مقدارها ١٠٠ الف درهم، مقابل اعتذاره عن تنفيذ هذا المشروع القومي الكبير ، فلما رفض طلبهم ، قالوا له « قطع الله اصلك من الدنيا كما قطعت اصل الفارسية » .

ومن الجدير بالملاحظة ، ان الدولة ومن واقـع سياستها القوميـة الرامية الى استكمال بناء مؤسساتها ، اقدمت على تحرير اقتصادها من نفوذ السيطرة الاجنبية ، حيث كان التعامل النقدي يجري بالدنانـير البيزنطية في الشام وبالدراهم الساسانية في العراق ، الأمر الذي شجع على التزييف والتلاعب ، وادى الى وضع غير ثابت للنقـد لارتباطه بهاتين العملتين سعرا ووزنا ، مما أضر بمصالح الدولة العربيـة التي اتسعت اطرافها وتجارتها شرقا وغربا .

وقد خطا الخليفة عبدالملك بن مروان خطوة مهمة ، فأمر بضرب النقود العربية الاسلامية ، فأصبحت عربية خالصة ، محـرراً بذلك الاقتصاد العربـي من السـيطرة الاجنبية ، يقـول الدينوري « ان عبدالملك ضرب الدنانير وأمر الحجاج واليه بالعراق بضرب الدراهم ، فضربها في العراق آخر سنة ٧٥ هـ ثم أمر بضربها في جميع النواحي سنة ٧٦ هـ » ويذكر الدميري « ان الدنانير العربية الجديدة اطلق عليهـا الدنانير العبدية نسبة لعبد الملك » اما ابن الجوزي فيذكر « ان بلاد العـراق كانت تمد حاجة الدولة العربية الاسلامية من العملة الاسلامية طـوال العصر الاموي ، فقام عدي بن أرطاة عامل عمر بن عبدالعزيز في العراق بضرب العملة » ويذكـر الماوردي « ان عمر بن هبيرة والي يزيد بـن عبدالملك على العراق قام بتجديد العملة فجعلها من الفضة الخالصة » وتبعه خالد القسري والي العراق بالتشديد في تجويـد العملـة وفرض رقابة شديدة عليها « اما الخليفة هشام بن عبدالملك فأمر بالا تضـرب العملة الاسلامية في أي بلد سوى واسط » وقد هيأت هذه الاجراءات للدولة استقرارا اقتصاديا قويا بعيدا عن نفـوذ السـيطرة البيزنطية والفارسـية .

إلا إن الفرس لم ترق لهم الخطوات القومية التي نفذتها الدولة في مجال الاقتصاد ، فتآمروا عليها لافشالها ، فقد ذكر الآلوسي في بلوغ الأرب (١/٣٥١) « ان هشام بن عبدالملك أمر عامله على العراق خالد القسري بتغيير النظام الفارسي القديم الذي يقضي بجباية الخراج فـي النيروز ، وهو اول السنة الفارسية ، فحاول الفرس ان يرشوا خالداً بمائة الف دينار ليثني هشاماً عن عزمه ولكن هشام أصر على رأيه » .

وبذلـك باءت محاولات الفرس التآمرية بالفشل .

٣ ــ اثارتهم الفتن والاضطرابات والاشتراك فيهـا ومحاولـة استثمارهـا لصالحهم وصولا لتحقيق هدفهم في اسقاط السيادة العربية ، وتلونت هـذه المشاركة بتذكر امجادهم الماضية ، او باحياء دياناتهم المجوسية ، فانضووا تحت رايـة كـل تمرد .

فحين اعلن المختار بن ابي عبيد الثقفي تمرده في الكوفة سنة ٦٦ هـ ، سارعوا للانضمام اليه ، وعلقوا آمالهم عليه « بعد ادعائه النبوة ، وان لـه قرآنا خاصا » فايدوه باعداد كبيرة ، قدرها الدينوري باربعين الفا ، ورأى المختار في الفرس خير وسيلة لتحقيق طموحاته في السلطة ، « فقرب العجم .. وباعد العـرب واقصاها » وابدى تسامحا تجاه آرائهم الالحادية ، حتى انه « لم يسمع في جيشه كلمة عربية واحدة » مما يدل على نوعية مؤيديه ، وبفشل التمرد ، انتقلوا الى تأييد حركات مماثلة » كان آخرها تاييدهم لحركة عبدالله ابن معاوية الذي اعلن تمرده في الكوفة سنة ١٢٧ هـ ، فالتف حوله « عبيـد اهل الكوفة وغوغاء الناس » والشعوبيون والزنادقة امثال عمارة بن حمزة ، ومطيع بن اياس وكان من ندمائـه المقربين وتوسـعت حركته فشملت مناطق

فارس ، وظهرت الآراء والمعتقدات الفارسية بين صفوف اتباعه بتأثير من الفرس ، وانتهت حركته بمقتله سنة ١٣٠ هـ .

الا ان اهم تآمر فارسي على الدولة العربية الاسلامية زمن الامويين جاء من خلال انضمامهم للدعوة العباسية في مناطق خراسان ومرو وغيرها ، فايدوها باعداد كبيرة ، لا ايماناً بعروبتها وانما نكاية بالامويين وسياستهم العربية وهويتهم القومية من جهة ، ومحاولة استغلالها وتحويل مسارها لصالحهم من جهة ثانية ، لكن فت في عضدهم استمرار العرب في قيادة الدولة ، فبدأوا تآمرهم من جديد وكان العراق مسرحا له .

الفصل الثالث

الابعاد السياسية للصراع العراقي . الفارسي في العصر العباسي

تمهيد

واجهت الامة العربية منذ تأسيس دولتها الموحدة في عهد الرسول (ص) موجة من الحقد الاجنبي لم تر أمة مثيلا له من قبل ، وعلى الاخص حقد الفرس عليها ، ذلك الحقد الموروث عبر قرون طويلة من الجوار ومعرفة مكامن القوة العربية ، وعلى الاخص في الجانب الحضاري والانساني فحاولوا فرض سيطرتهم على المنطقة العربية منذ اجيال سحيقة في القدم ، الا ان جهودهم باءت بالفشل ، وعاد حقدهم متأججا بعد ظهور الاسلام وتوحيده العرب الذين قاموا بتحرير الشعوب الايرانية من نير السيطرة الفارسية الساسانية الاقطاعية حيث اشتد الغيظ في نفوس البعض منهم ممن تضررت مصالحه نتيجة حروب التحرير العربية كأبناء الطبقة الارستقراطية وطبقة رجال الدين وطبقة كتّاب وموظفي الدولة الساسانية ، الا ان هذه العناصر كانت اضعف من ان تستطيع مواجهة القوة العربية في العصر الاسلامي الاول، في فترة الراشدين والامويين ، لهذا انضموا الى حركات العرب وثوراتهم ضد الامويين ، وكانت بلاد ايران عامة وخراسان خاصة مسرحا للعديد من

هذه الحركات ، ففي خراسان كان الاستياء على اشده بين العرب على السلطة الاموية وذلك بسبب اجراءات الامويين المالية والادارية • فقد ابقى الولاة السلطة المالية بيد رؤساء القرى من الدهاقين الايرانيين الذين اثروا على حساب المستوطنين العرب والموالي ، كما ان الجزية لم ترفع عمن اسلم من الموالي مما جعل الاستياء يعم بينهم ايضاء وقد حاول الوالي الاموي نصر ابن سيار اصلاح وتنظيم الضرائب بطريقة عادلة ، فقرر اعفاء مَنْ اسلم من دفع الجزية ولم يجد صعوبة في ذلك اذ وجد ثلاثين الف مسلم يدفعونها وثمانين الف مشرك رفعت عنهم جزيتهم ففرض عليهم الجزية واعفى المسلمين• ثم قسم خراسان الى مناطق وفرض على كل منطقة كمية معينة من الضريبة تجبى من الارض مهما يكن مالكها ، وقد اغضبت تدابير نصر هذه الدهاقين كما انها جاءت متأخرة لتنصف العرب ، فبقى الاستياء على حاله لهذا كان اقليم خراسان اكثر الاقاليم ملاءمة لقيام الثورات فيه ضد الامويين ، وقد تفهم رئيس الدعوة العباسية محمد بن علي هذا الوضع فامر دعاته باتخاذ خراسان مركزا لنشر الدعوة الجديدة ، وسرعان ما انضمت مختلف العناصر الى هذه الدعوة وايدتها ، وهكذا قامت الثورة على اساس التحالف بين مختلف العناصر الساخطة على الحكم الاموي من عربية وايرانية استطاع الدعاة العباسيون ان يجذبوها حولهم بتلويحهم بشعارات الاصلاح والمساواة والثأر، وبمخاطبة كل فئة باللغة التي تفهمها ، وكان العرب من اهل خراسان هم القوة الضاربة في هذه الثورة كما كانت القيادة بايديهم ، ولم يمنع ذلك من تسلل بعض العناصر الفارسية الحاقدة الى بنية هذه الثورة ومحاولة الانحراف بها عن اهدافها الاساسية من اجل ضرب الوجود العربي في بلاد ايران •

ومن ابرز هذه العناصر الفارسية الحاقدة ابو سلمة الخلال وابو مسلم الخراساني ، وقد حاول الاول نقل السلطة عن العباسيين مستغلا

الفوضى السائدة عند دخول الجيوش العباسية العراق ، والثورة ما تزال في بداياتها ، الا ان يقظة وحزم القيادة العربية كشفت هذا التآمر وقضت عليه ، والملاحظ في هذا المجال ان الذي قام بعملية التخلص من ابي سلمة هو ابو مسلم الخراساني ، مما يؤكد على ان هذه العناصر الحاقدة لا يجمعها مبدأ بل تسيرها مصالحها وانانياتها الفردية وحقدها على العرب والاسلام •

اما ابو مسلم الخراساني فقد اصبح زعيما كبيرا بعد ان كان خادما رقيقا لابراهيم الامام الذي وجهه ليقود الحركة العباسية عام ١٢٩ هـ ــ ٧٤٧ م معبرا في تعيينه هذا عن روح المساواة الاسلامية التي اكدت عليها الدعوة العباسية ، الا ان ابا مسلم اصبح في نظر الفرس ــ والخراسانيين على الاخص ــ مؤسس الدولة العباسية فعظم مركزه وكثرت تجاوزاته للخلافة كما ان افتخاره بنسبه الفارسي واستبداده بشؤون خراسان وقيامه بالتخلص من العديد من الدعاة العرب هناك جعل الخليفة يقف منه موقفا حذرا خوفا من طموحاته وتطلعه الى اعادة امجاد الفرس التي كان يتغنى بها وذلك بالانفصال بخراسان وهذا حدا بالخليفة المنصور الى التخلص منه عام ١٣٧ هـ ــ ٧٥٤ م • واستغلت الحركات الفارسية مقتله لاثارة الفتن بوجه السلطة العباسية حيث اصبح شعار عدد منها الثأر لمقتل ابي مسلم •

الحركات الفارسية المسلحة

اقامت الخلافة العباسية حكمها على قواعد ثلاث اساسية كانت مركز قوتها في بداية امرها ، وهذه الاسس هي : الدين الاسلامي وقيمه الحضارية، والجيش النظامي ، والجهاز الاداري • ومراكز القوة هذه اصبحت بمرور الوقت هدفا لهجمات العناصر الفارسية الحاقدة ، فتصدى الزنادقة والشعوبيون للدين الاسلامي طعنا وتحريفا وتأويلا ، كما تسللوا الى الجهاز

الاداري فأصبح هذا الجهاز مركزا من مراكز الشعوبية التي اخذت تطعن الدولة العباسية من الداخل ، كما ان الجيش تعرض لسيطرة العناصر الاجنبية عليه حتى وصلت الحال الى إبعاد العرب نهائيا عنه مما فسح المجال امام الحركات الفارسية لان تنجح في القرن الثالث في تأسيس دويلات عديدة في بلاد ايران .

لقد انضم الايرانيون الىحركات سياسية هدفها اسقاط الحكم العباسي، ويرجع ظهور هذه الحركات الى تشجيع الدعوة العباسية لهم لضمهم الى صفوفها تطبيقا لمبدأ المساواة والاستفادة منهم ضد الامويين ، كما ان دعاية ابي مسلم لعبت دورها في ظهور هذه الحركات وكثرة أتباعها ، إلا ان هذه الحركات وقفت موقفا خيانيا من الدولة العباسية واتخذت من مقتل ابي مسلم ذريعة للعصيان والثأر ، فقد اعتبرته الخرمية رئيسا دينيا لها ، كما اعتبرته بعض العناصر الاخرى كأحد خلفاء زردشت الذين انتظروا رجعته ليملأ الارض عدلا « ويعيد دولة المجوس ويستولي على الارض كلها ويزيل ملك العرب » الا ان موقف السلطة الحازم افشل هذه الحركات وقضى عليها .

ومن ابرز هذه الحركات :

١ ـ حركة سنباذ (١٣٧ هـ /٧٥٤ م) : الذي ثار غضبا لمقتل ابي مسلم وادعى ان ابا مسلم لم يمت بل تلا اسم الله الاعظم قبل ان يقتل فصار حمامة بيضاء وطار ، وانه عائد ، وكان يبشر اتباعه بان حكم العرب المسلمين صائر الى الزوال وان دولة المجوس آتية لاريب فيها ، كما وعد اتباعه بالذهاب الى الحجاز وهدم الكعبة .

٢ ـ حركة اسحاق الترك (١٣٧ـ١٤٠ هـ /٧٥٤ـ٧٥٧ م) الذي ادعى ان ابا مسلم لم يمت بل انه مختبىء في جبال الري ، وانه سيعود وينقذ

الناس من الظلم، وانه نبي ارسله زردشت، واتخذ اسحاق اللون الابيض شعارا لحركته .

٣ ـ الراوندية : فرقة ظهرت بتأثير الدعاية العباسية في ايران وانقسمت الى فرق متعددة اخطرها كانت الفرقة التي اسسها عبدالله الراوندي ، وكان اتباعها يقولون بالحلول والتناسخ ويزعمون ان ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو ابو جعفر المنصور وان ابا مسلم نبيه ، جاء بعضهم من خراسان الى هاشمية الكوفة ـ مقر المنصور آنذاك ـ سنة ١٤١ هـ / ٧٥٨ م واتوا الى مقر الخليفة فجعلوا يطوفون به ويقولون هذا مقر ربنا فاستنكر الخليفة ذلك وحبس بعضهم فثار الباقون واخرجوا اصحابهم من السجن وهجموا على الخليفة وكانت حياته في خطر انقذه منهم ثباته وتفاني اصحابه . والتناقض في موقف الراوندية هذا امر يثير الشكوك والتساؤل ، ويبدو انهم اظهروا حب وتقديس الخليفة لا حبا به بل تآمرا عليه وعلى دولته ، اذ لو سكت عنهم فهو شريك لهم في الكفر وهذا يزعزع مكانة الخليفة بين المسلمين ويحطم الاساس الاول الذي قامت عليه الدولة العباسية (الدين الاسلامي) ومن هنا كان خطر هذه الحركة التي اظهرت الحب واخفت الحقد والكره .

٤ ـ حركة استاذسيس (١٥٠ـ١٥١ هـ / ٧٦٧ـ٧٦٨ م) التي اعلن فيها انه نبي زردشت وان الدين المجوسي سينتصر على دين العرب ، وكانت هذه الحركة غاية في الخطورة فقد استولت على معظم مدن خراسان وكلفت العباسيين الكثير من الجهد والعديد من الجيوش لاخمادها .

٥ ـ حركة المقنع الخراساني (١٥٩ـ١٦٣ هـ /٧٧٦ـ٧٨٠ م) كان المقنع من اتباع ابي مسلم وقائدا من قواده ، اتخذ لنفسه قناعا غطى به وجهه المشوه ليسبغ الغموض والسرية على نفسه ، واتخذ صفة الالوهية

واسقط عن اتباعه كافة العبادات سوى السجود له حيثما يكون ، واباح لهم المحرمات ، وعندما فشلت حركته ادعى انه سيصعد الى السماء وانه عائد ،ورمى نفسه في تنور فاحترق فاعتقد اصحابه بانه قد صعد الى السماء مما زاد في اقتناعهم به وبادعاءاته •

٦ ـ حركة بابك الخرمي (٢٠١ـ٢٢٢ هـ /٨١٧ـ٨٣٧ م) كانت اخطر الحركات الفارسية التي واجهت الدولة العباسية ، فقد كانت دينية في مظهرها سياسية في اهدافها • وتتميز عن الحركات السابقة بتنظيمها وسعة رقعة انتشارها وبراعة قيادتها، فقد انتشرت بين فلاحي بلاد اذربيجان واران والجبال ، كما انضم اليها جماعة من الاكراد ، وانتشرت في طبرستان وجرجان حيث انضم اليها عدد كبير من الديلم •

وقد اخذت هذه الحركة بعدا جديدا لها حين استعانت بدولة اجنبية لتحقيق اهدافها فاتصلت بالدولة البيزنطية وتعاونت معها • وتشير المصادر البيزنطية الى مفاوضات سرية بين بابك والبيزنطيين وتعاون عملي بين الطرفين ففي عام ٢١٦ هـ /٨٣١ م حاربت فئة من اصحاب بابك بجانب البيزنطيين ضد الدولة العباسية ، ولما هربت فرقة من اتباع بابك سنة ٢١٨ هـ /٨٣٣ م التجأ قسم من افرادها الى بلاد الروم • كما قام الامبراطور تيوفيل بالهجوم على الدولة العباسية في سني ثورة بابك الاخيرة لتخفيف الضغط عن الخرمية ، وبعد هزيمته التجأ قسم من جيشه الى الاراضي البيزنطية ، وهكذا اجتمع الفرس والروم على الحقد على العرب وعلى ضرب الدولة العباسية ، ولكن فألهم خاب فقد اظهرت هذه الدولة قوتها الكامنة فقضت على هذه الحركة ودحرت البيزنطيين في معركة عمورية المشهورة ، وبذلك خرجت الدولة العباسية منتصرة وقوية •

٧ ـ حركة المازيار : وبعد اخماد حركة بابك قام المازيار صاحب طبرستان بحركته العلنية ، فقد كان على صلة ببابك وبالافشين (قائد المعتصم الذي قضى على ثورة بابك) وكان خرميا يمجد مزدك وبابك والمجوس الآخرين الذين ارادوا القضاء على الوجود العربي في بلاد ايران • وقد اغرى المازيار الفلاحين بقتل ارباب الضياع من عرب وغيرهم في طبرستان واباح لهم ممتلكاتهم ، وكان المازيار يهدف الى انتزاع خراسان من يد بني طاهر لهذا وقف هؤلاء ضده وفضحوا علاقته بالافشين ، وقضوا على حركته عام ٢٢٤ هـ /٨٣٩ م ، وتخلص المعتصم من الافشين قائده الفارسي المشهور بسبب حقده على العرب ونواياه السياسية الخطيرة ومعاونته للمازيار وعلاقته السرية ببابك •

الفتن

ولم يقتصر الحقد الفارسي على القيام بالحركات العلنية والعصيانات المسلحة فقط بل سعى مَنْ تبوأ منهم مناصب مهمة في الدولة العباسية الى محاولة زعزعة السلطان العربي مستغلين وجودهم في الادارة ثم ضرب الخلافة من الداخل • فالبرامكة الذين انضموا الى الدولة العباسية منذ نشوئها لم يكن ليهدأ حقدهم على العرب والاسلام ، فاستغلوا نفوذهم وخاصة في عهدي المهدي والرشيد ، في الاستئثار بالاموال والوظائف المهمة وحصرها في اتباعهم واقاربهم مما جعل الرشيد ينقم عليهم خاصة بعد ان ظهرت منهم نيات خبيثة بالعصيان في اقليم خراسان والانفصال به ، فصادرهم وقضى عليهم سنة ١٨٧هـ / ٨٠٣م • وكذلك كان الحال بالنسبة للفضل بن سهل ربيب البرامكة المجوسي الذي كان من ابرز المحرضين على القيام بالحرب الاهلية بين الامين والمأمون فقد حاول نقل عاصمة الخلافة الى مرو (عاصمة خراسان الادارية) كمرحلة اولى لاضعاف هذه الدولة

بابعادها عن مركز قوتها ، العراق وبغداد ، فبعد ان قتل الامين بقي المامون في مدينة مرو ، وقد عبر العراقيون عن استيائهم من الخليفة الجديد بالثورات العديدة عليه فقامت ثورة ابي السرايا سنة ١٩٩هـ/٨١٥م ضد سياسة الفضل ابن سهل الفارسية وضد عبث العناصر الفارسية بمقدرات العراق (كالحسن ابن سهل وطاهر بن الحسين) وانتهت الثورة عام ٢٠١هـ/٨١٧م بمقتل ابي السرايا ، الا ان ذلك لم يُثنِه انزعاج العراقيين من سياسة المأمون ووزيره الفضل ، فعندما قام المأمون بالبيعة لعلي الرضا بولاية العهد وذلك بتحريض من الفضل بن سهل لا حبا بالعلويين ولكن كرها للعباسيين واجبارا للدولة الجديدة على البقاء في خراسان حتى ان نعيم بن حازم قال للفضل بن سهل امام المأمون « انك انما تريد ان تزيل الملك عن بني العباس الى ولد علي ثم تحتال عليهم فتصير الملك كسرويا ، ولولا انك اردت ذلك لما عدلت عن لبسة علي وولده وهي البياض الى الخضرة وهي لباس كسرى والمجوس ... الخ » وقد رد الهاشميون في بغداد على ذلك بان بايعوا لابراهيم بن المهدي خليفة في ذي الحجة سنة ٢٠١هـ/٨١٧م انفة من غلبة الاتجاه الفارسي على المأمون • وقد شعر الخليفة بالخطر المحدق به فترك مرو وتخلص من ولي عهده ومن الفضل بن سهل وعاد الى العراق عام ٢٠٢هـ /٨١٨ م • ولكن المأمون لم يستفد كثيرا من تجربته مع بني سهل اذ سرعان ما اعتمد على عائلة فارسية اخرى هي عائلة طاهر بن الحسين واسند اليها ادارة الكثير من المناطق فادى الامر بهذه العائلة بعد ان تولت ولاية خراسان الى الانفصال فعلا بهذا الاقليم الكثير الاضطرابات وكونت لها الدولة الطاهرية هناك •

الخلافة والاتراك

عند مجيء المعتصم (٢١٨-٢٢٧ هـ / ٨٣٤-٨٤٢ م) الى الحكم كانت تواجه الدولة مشاكل كثيرة فبلاد ايران وخراسان بالذات كانت

غير مأمونة الجانب فقد رسخ آل طاهر حكمهم هناك ، وتواجه الدولة مشاكل حركة بابك الخرمي وهجمات الدولة البيزنطية ، كما ان اهل الشام ومصر كانوا متذمرين ، لهذا كان بحاجة الى عنصر عسكري جديد يستطيع ان يستخدمه في اسناد سلطته، وقد وجد المعتصم العنصر التركي اكثر العناصر ملاءمة لذلك ، فهناك بعض الفرق في الجيش العباسي من الاتراك وكانوا في ساحات القتال عناصر ضاربة جيدة ، كما ان الحصول عليهم كرقيق كان امرا ميسورا فأخذ المعتصم يستزيد منهم الى ان اصبح معظم جيشه مكونا منهم مما جعل وضعه في بغداد مع كثرة هؤلاء البدو خشني الطباع امرا غير مرغوب فيه ، فقام ببناء سامراء لتكون معسكرا للجند الاتراك ، وبانتقال المعتصم الى سامراء ابتعد عن عاصمة الخلفاء التقليدية بغداد التي كانت مركزاً لنفوذ الخلفاء وقوتهم •

وقد زاد نفوذ الاتراك في عهود الخلفاء الذين جاءوا بعد المعتصم حتى اصبحت هذه العناصر الاجنبية مسيطرة على شؤون الخلافة ومقاليد الامور بايدي قادتها فافرغوا خزائن الدولة من الاموال واستأثروا بالسلطة وقد ادى ذلك الى فوضى سياسية واقتصادية في مركز الخلافة ، فقامت حركات خطيرة في العراق كحركة الزنج وحركة القرامطة المتأثرين بالتعاليم الدينية الخرمية •

الدويلات الفارسية

وقد ادت الفوضى السياسية في العراق الى فتح الطريق امام المتذمرين والحاقدين والطامحين الى القيام ضد دولة بني العباس ، فانفصلت الولايات البعيدة وكونت دويلات محلية في بلاد ايران ، كالدولة الطاهرية في خراسان والصفارية في سجستان والسامانية في مناطق من خراسان وبلاد ماوراء النهر ، والزيارية في طبرستان وجرجان ، والغزنوية في خراسان

وبلاد السند ، ثم الدولة البويهية والسلجوقية . وكان كل من يسيطر على الهضبة الايرانية ويجاور العراق من هذه الدول يطمع في مد نفوذه وسيطرته على هذا القطر تحقيقا لنزعة عنصرية او طمعا في استغلال خيراته الوفيرة ، وحتى الشعوب غير الايرانية عندما كانت تسيطر على ايران سرعان ماتصبح بحقدها وعدوانها على العراق اشد واسوأ من الفرس انفسهم ، فهؤلاء السلاجقة يسيطرون على العراق ويضعونه تحت حكمهم ، والخوارزميون الاتراك الذين كانوا حلفاء بغداد بالامس في القضاء على السلاجقة ، ما ان جاوروا العراق الا وتطلعوا الى احتلاله ووضعه تحت حكمهم وكذلك فعل المغول ، ولو اتيح للسامانيين والغزنويين مجاورة العراق لما شذوا عن هذه القاعدة ايضا .

وترعرع في بلاطات هذه الدويلات كل اتجاه معاد للعروبة والاسلام فقد احتضنت الشعوبية واعيدت التقاليد الفارسية في المظهر والسلوك واللغة ، فهذا طاهر واولاده يفخرون باصولهم الفارسية ويتبنون التقاليد والمراسيم الكسروية .

والدولة الصفارية (٢٥٤–٢٨٩هـ / ٨٦٨–٩٠٢م) التي كان مؤسسها يعقوب بن الليث الصفار اصلا من الخوارج الا انه يعتز بنسبه الفارسي ويتخذ من اللغة الفارسية لغة رسمية له ويشجع الشعراء على النظم بها . وكان من ابرز شعرائه ابراهيم بن مشاد صاحب القصيدة سيئة الصيت والتي مطلعها :

انا ابن الاكارم من نسل جم وحائز ارث ملوك العجم

وقد تمادى يعقوب بن الليث في طموحه واراد غزو العراق والسيطرة عليه الا انه فشل في ذلك بسبب المقاومة المجيدة التي ابدتها الدولة العباسية.

والدولة الزيارية (٣١٦–٤٧٠هـ / ٩٢٨–١٠٧٨م) دولة فارسية اخرى

نشأت في اقليمي جرجان وطبرستان وكان لقادتها طموحات ومواقف معادية للعرب والخلافة العباسية فمرداويج امير هذه الدولة وضع خطة للسيطرة على العراق واوصى قادة جيشه ان يعيدوا بناء ايوان المدائن كما كان عليه في عهد الدولة الساسانية حالما ينتهي من فتح بغداد . وقد اعد لهذه المناسبة تاجا مكللا بالياقوت يشبه تيجان الاكاسرة وكان يقول « انا ارد دولة العجم وابطل دولة العرب » وقد احيا مرداويج تقليدا فارسيا قديما في عيد النوروز حين امر بجمع الحطب من الجبال والنواحي واشعال النيران في كل مكان حتى انه علق حطبا بأرجل الطيور واشعله اظهارا منه لقدسية النار المجوسية كما كان يفعل اجداده الفرس من قبل .

وعلى الرغم من كل مظاهر العداء والحقد الذي اظهرته الدويلات السالفة الذكر الا انها عجزت عن اسقاط النظام السياسي للدولة العباسية وبقيت خارج حدود العراق تلوح بالتهديد تارة وتلتمس العفو من الخلافة والاعتراف بسلطتها تارة اخرى .

التسلط الاجنبي

استطاعت الدولة البويهية (٣٢٠–٤٤٧ هـ / ٩٣٢–١٠٥٥ م) ان تسيطر على مقاليد الامور السياسية في العراق عام ٣٣٤هـ/٩٤٦م وبذلك كانت الدولة الاجنبية الاولى التي حكمت العراق في العصر العباسي .

وقد استبد البويهيون بالامر دون الخلفاء فأصبحت جميع الامور الادارية والمالية والعسكرية بايديهم ، ولم يعد للخليفة اية صلاحيات حتى لم يعد له وزير بل كاتب يدير اقطاعه فقط ، والزم عضد الدولة الخليفة بالخروج لاستقباله عند عودته الى بغداد عام ٣٧٠هـ / ٩٨٠م استهانة به ولم يبق للخليفة سوى بعض النفوذ في الامور الدينية كاعلان الجهاد واقرار المساجد التي تقام بها الجمعة واقامة الصلاة واقرار تعيين القضاة . وقد

استبقى البويهيون الخلافة العباسية بعد ان افرغوها من اية سلطة فعلية ، وابقوا عليها لا لكونها ضرورية لديمومة سيطرتهم الذاتية بل انهم كانوا لا يملكون بديلا يستطيع ان يحل محل الخليفة العباسي .

ولكن مع كل هذا الضعف ظلت مكانة الخليفة الدينية محترمة ومؤثرة فكان الفقهاء يكونون حزبا يؤيد الخليفة ، استعمله الخلفاء عند ضعف السلطة البويهية وسيلة لتهديد الامراء وتحديد نشاطهم المعادي للخلافة وللبلد ، كما كان الخليفة بالنسبة لهؤلاء الامراء مصدر السلطة فهو الذي يمنحهم التقليد اي تخويلهم حكم البلاد بصورة شرعية ويسبغ عليهم الالقاب الشرفية .

وقد تعرض البويهيون لمقت وكراهية العراقيين لكونهم سلطة اجنبية وغرباء عن البلد ، لهذا نراهم يسعون الى مصاهرة الخلفاء لتقوية مركزهم من ناحية والاتصال بسبب الى النسب العباسي من ناحية اخرى ، فقد تزوج الخليفة الطائع من شاه بار ابنه عز الدولة عام ٣٦٦هـ/٩٧٧م وبعد خمس سنوات تزوج من ابنة عضد الدولة ، كما تزوج الخليفة القادر من ابنة بهاء الدولة .

اتبع البويهيون سياسة طائفية خطيرة في العراق عمقت الخلافات المذهبية وادت الى نشوب الفتن والصراعات الداخلية كان الشعب ضحيتها الاولى ، كل ذلك من اجل ادامة سيطرتهم وتحكمهم ، الا ان وجودهم أثار الوعي بوجوب التخلص منهم لدى أهل العراق شعبا وخلافة وحكاما محليين ، فقاومتهم التجمعات الشعبية كمنظمة العيارين والشطّار ، كما قاوم وجودهم الحمدانيون والعقيليون في الموصل ، وبنو مزيد في الحلة ، والاكراد في شمال الوطن .

وضعف البويهيون في سنيهم الاخيرة فساد الصراع والنزاع بين الامراء

كما كانت البلاد نهبا للفوضى والفتن بين الديالمة (المشاة) والاتراك (الفرسان) مما ادى الى تدهور اقتصادي وسياسي في اوضاع العراق . وهذا جعل الخليفة يفكر بالتخلص من السيطرة البويهية الاجنبية .

وفي تلك الفترة كان السلاجقة الاتراك يؤسسون دولتهم في بلاد ايران ، وقد جرت اتصالات بينهم وبين الخليفة كانوا يظهرون فيها ولاءهم وطاعتهم التامة له . فشعر الخليفة بانه يستطيع ان يضرب بهم البويهيين ، وفعلا قام باستدعائهم عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥ م .

دخل طغرلبك بغداد وتشرف بمقابلة الخليفة الذي اسبغ عليه لقب (السلطان) . ولكن جنده الاتراك اضروا بالناس حيث اقاموا في منازلهم وشاركوهم في ارزاقهم مما حدا بأهل بغداد الى الثورة بوجه السلاجقة فاستبيحت بغداد ونهبت ، وقد حاول الخليفة معالجة الامر ، فأمر وزيره باستدعاء وزير السلطان منبها اياه انه في حالة عدم وضع حد لتعديات الجند ، فان الخليفة يفكر في مغادرة بغداد ، وقد استجاب السلطان محاولا تهدئة الحال .

اظهر السلاجقة حقيقتهم كمتسلطين اجانب لا يهمهم سوى السيطره والاستعباد والاستغلال ، وعلى الرغم من انهم كانوا اتراكا ولكن طول مقامهم في بلاد ايران جعلهم فرسا بالثقافة واللغة والعداء للعرب ، يشهد بذلك سوء معاملتهم للخلفاء ولأهل العراق . وقد استعانوا بالبيروقراطية الفارسية في ادارة دولتهم وبالمربين الفرس في تنشئة وتعليم اولادهم ، لهذا تعلم هؤلاء الفارسية على حساب العربية وكانت اللغة الفارسية ومانظم بها من شعر ونثر لها سوق رائجة في البلاطات السلجوقية ، كما ان معظم ما كتب لهم من تواريخ كان باللغة الفارسية ، وهذا كبير وزرائهم نظام الملك يؤلف كتابه (سياست

ذمه) بالفارسية ، كما تبنوا تقاليد الحكم الساساني في بلاطاتهم واحتفلوا بعيد الفرس القدماء واتخذوا من الابطال الخرافيين الايرانيين اسلافا لهم وربطوا نسبهم بهم ، لهذا فان موقفهم من العراق واهله لم يختلف عن موقف البويهيين وبقية الانظمة الحاكمة الفارسية •

سعى طغرلبك الى ربط الخليفة به عن طريق المصاهرة فزوجه من ابنة اخيه ، كما فرض عليه ان يزوجه بابنته ، وقد حاول الخليفة ان يمانع ويرفض هـذا الزواج لانه سابقة خطيرة لم تواجه العباسيين من قبل ، الا ان السلطان هدده واجبره على الموافقة ، وعن هذه الحادثة يقول ابن الاثير « وهذا لم يجر للخلفاء مثله ، فان بني بويه مع تحكمهم ومخالفتهم لعقائد الخلفاء لم يطمعوا في مثل هذا ولا ساورهم فعله » •

وكانت اخطر المصاهرات بنتائجها هـي زواج المقتدي بأمر الله من ابنة السلطان ملكشاه ، حيث رزق الخليفة من زوجته هذه بولد ، فأراد ملكشاه من الخليفة ان يعيّن ولده هذا وليا للعهد على الرغم من وجود ولي عهد للخليفة ، وعندما رفض الخليفة هذا الطلب ارسل السلطان يطلب من الخليفة مغادرة بغداد ، ويظهر انه كان ينوي عزله عن الخلافة ، ولما طلب الخليفة امهاله بعض الوقت حتى يغادر عاصمته رفض السلطان منحه اية مهلة ولكن بعد توسطات وافق على امهاله عشرة ايام فقط ، ولكن وفاة ملكشاه الفجائية حسمت الموضوع ، وهذه الحادثة تظهر بجلاء نزوع السلاجقة الى السيطرة على الخلافة ووضعها تحت هيمنتهم بمختلف الوسائل •

محاولات التحرر

وقد رد الخلفاء على تسلط السلاجقة بمحاولات الاستقلال والتخلص من سيطرتهم ، لهذا عمل الخليفة على تعزيز دوره القيادي

في المجتمع محاولا شد رعاياه الى سياسته لا من خلال المراسيم الدينية فقط بل باهتمامه المباشر بمصالح رعاياه تمهيدا لتحرير العراق من نير سيطرة الاجانب • لذلك نجده يصدر سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨ م نتيجة لاعتداء احد الاتراك من خدم خاتون السلجوقية على احد المواطنين ببغداد امرا بابعاد جميع الاتراك العاملين ضمن حاشية خاتون خارج حريم دار الخلافة وبذلك اسقط الحصانة عنهم فاخرجوا على اقبح صورة • وتتوالى مواقف الخلفاء الجريئة ، ففي عام ٤٨٨هـ /١٠٩٥م امر الخليفة بالشروع ببناء سور عظيم حول بغداد يقيها هجمات الطامعين ويحمي الاحياء السكنية من الغرق ، وليعزز خططه في التحرر • الا ان السلاجقة منعوا اكمال بناء السور بكل الوسائل وهدموا مابني منه •

وبتولي المسترشد للخلافة عام ٥١٢ هـ / ١١١٨ م بدأ الصراع الفعلي من اجل التحرر من السيطرة السلجوقية ، فقد قام الخليفة باستخدام كافة الاسلحة لتحقيق هذا الغرض وعلى الاخص السلاح الروحي والاعتماد على الشعب في تكوين جيش قوي للدفاع عن البلد وحمايته من الطامعين وقد استجاب اهل بغداد وأبدوا استعدادهم في دعم خطواته في ضرب المفسدين وقطاع الطرق وتحقيق الاستقرار وحفظ الامن ، وبالمقابل فقد قام الخليفة باجراءات للتخفيف عن كاهل الرعية برفع بعض الضرائب واعادة الاموال المصادرة الى اصحابها ، وتحديد قيمة النقد ، وقد كسب الخليفة الرأي العام بهذه الاجراءات •

وقد اعاد بناء جيشه ، وكان تطوع اهل العراق شديدا مما يدل على استعدادهم للدفاع عن انفسهم ومعاونة الخليفة • كما ساعده اهل بغداد عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م في اعادة بناء سور بغداد ، وقد تأزم

الوضع بين السلطان السلجوقي والخليفة عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م حيث شعر السلطان بمرامي الخليفة بأبعاد السلاجقة عن العراق فهاجم بغداد واحتلها على الرغم من المقاومة العنيفة التي ابداها اهل بغداد ولم يستطع احتلالها الا بمعاونة الاتابك عماد الدين زنكي والي الموصل ولهذا نرى الخليفة يقوم سنة ٥٢٧ هـ / ١١٣٣ م بالانتقام من زنكي بمهاجمة الموصل ومحاصرتها ولولا قصد السلطان السلجوقي مسعود بغداد وتهديده لها لما عاد المسترشد عن الموصل دون فتحها .

واندفع الخليفة الى تأجيج نار الخلافات بين الامراء السلاجقة ففي عام ٥٢٩هـ/١١٣٩ م قصد محاربة السلطان مسعود في همدان وبعد قتال شديد اسر الخليفة وقتل غيلة وقيل ان الباطنية (الاسماعيلية) هم الذين اغتالوه ولكن على الاغلب تم الاغتيال بتدبير السلطان السلجوقي الذي خاف من طموحات الخليفة ومساعيه الحثيثة في انهاء الوجود السلجوقي من العراق .

ولما وصل خبر اسره الى بغداد اظهر الناس حزنهم لذلك وهاجموا الشحنة وقتل من الناس اكثر من مائة وخمسين شخصا كما كسروا المنبر والشباك ومنعوا من الخطبة .

وقد طالب السلطان السلجوقي الخليفة الجديد بالاموال الكثيرة فأعتذر الراشد بعدم وجود المال لديه وتقدم لمقاتلة السلاجقة وانتصر عليهم، وقام اهل بغداد بنهب دار السلطنة ثم اعاد السلطان الكرة وحاصر بغداد ودخلها فخرج الخليفة منها سنة ٥٣٠هـ/١١٣٥م الى الموصل ومنها الى اصفهان حيث اغتيل هناك عام ٥٣٢هـ/١١٣٨م .

وقد عزل الخليفة الراشد عن منصبه وعين بدلا منه المقتفي بأمر الله،

وكان موقف اهل بغداد من السلاجقة وجندهم احد العوامل التي دفعت الخليفة الجديد الى ان يسير بنفس الاسلوب التحرري السابق في عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م قصد بعض امراء مسعود المنشقين عنه الى بغداد فتهيأ الخليفة وامر بترميم سور بغداد وتهيأ الجند للمقاومة وقد نجحت مساعي الخليفة بابعاد الاتراك عن بغداد .

وقد توفى السلطان مسعود عام ٥٤٧هـ/١١٥٢م ، ولما وصل الخبر الى بغداد سيطر الخليفة على دور اصحاب السلطان والشحنة واخذ كل ما كان فيها وجمع الخليفة الرجال والعساكر واكثر التجنيد واخذ بطاردة شحنة بغداد مسعود بلال واستطاع ان يضم اليه الحلة وواسط .

وقد نجح الخليفة المقتفي لأمر الله في أزالة الكثير من مظاهر النفوذ السلجوقي في العراق وعمل على اضعافهم وتغذية الخلافات بينهم ، كما انه اخذ بتقوية جيشه حتى اصبح القوة الضاربة البارزة في العراق ، واخذ يتعرض لبقايا نفوذهم وكان حصار السلاجقة لبغداد عام ٥٥١هـ/١١٥٦م هو آخر العمليات الحربية الخطيرة التي واجهت الخلفاء . ونجح الخليفة في رد الهجمات وانسحب الجيش السلجوقي فجأة فطارده جيش الخليفة مبعدا اياه عن العراق ، وبذلك حقق العراق استقلاله من السيطرة الاجنبية وكف السلاطين السلاجقة ايديهم عنه اذ لم يعد بمقدورهم ان يعيدوا نفوذهم المتدهور كما وان ظهور صلاح الدين والدولة الايوبية واعادة الخطبة للخليفة في مصر قد قوت جانب الخلافة وجعلتها بمنأى عن الاعتداءات الخارجية .

بويع الخليفة الناصر لدين الله سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م فقاد العراق

نحو العز والكرامة واحيا هيبة الخلافة فبلغت في عهده قمة المجد ووصف بأنه من افاضل خلفاء بني العباس • بعد ان ثبت سلطته في الداخل وقمع كل المتسلطين ووضع حدا لتلاعب رجال الجيش والادارة بمقاليد الخلافة نراه يلتفت الى انهاء الوجود السلجوقي الذي كان لا يزال جاثما في ايران يتحين الفرص لاعادة نفوذه الى العراق ، ففي عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م تلقى الخليفة طلبا من السلطان طغرل الثالث باعادة الخطبة له ببغداد واعمار دار السلطنة لانه مزمع على القدوم الى بغداد والسكن بها • وكان رد الخليفة الناصر سريعا وحاسما فقد امر بهدم دار السلطنة وازالة آثارها قائلا « مالنا حاجة ان تكون عندنا آثار العجم » وبعد محاولات عسكرية غير ناجحة بحث الناصر عن حليف جديد قوي يمكن ان يعاونه في كبح جماح طغرل • وقد وجد هذا الحليف في الدولة الخوارزمية الصاعدة التي كانت تسيطر على اقاليم ما وراء النهر وخراسان ، فأرسل الى علاء الدين تكش موضحا له تذمره من طموحات طغرل ويطلب منه محاربته مقابل تعهد الخليفة ان يعطيه حق حكم بلاد الجبال • وافق علاء الدين وتحرك باتجاه همدان فامده الخليفة بجيش قوي ، وقد استعد طغرل للحرب الا انه بعد معارك طاحنة قتل وارسل رأسه الى بغداد عام ٥٩٠هـ/١١٩٣م • وقد سر الناصر بذلك وسيّر وزيره مع خلع سلطانية لعلاء الدين تكش وبعهد توليته على جميع اقاليم السلطنة السلجوقية في بلاد ايران ، وهكذا انتهت السلطنة السلجوقية وزالت من الوجود •

تصاعد نفوذ الخوارزميين في بلاد ايران وتركستان ، ولم تدم علاقتهم الودية مع الخلافة طويلا ، فقد اخذوا يطالبون الخليفة الناصر بالخطبة لهم في بغداد ، وقد رفض الخليفة الذي بذل ما في وسعه لابعاد

شبح اية سلطة اجنبية عن العراق وعن الخلافة العباسية ، وقد ادى رفض الخليفة الى قطع ذكر اسمه في الخطبة في بعض الاقاليم التابعة لهم ولكن دون جدوى حتى انهم هددوا العراق عسكريا ، ولكن ظهور المغول في بلاد ما وراء النهر اجبرهم على الاهتمام بستلكاتهم هناك • وبعد معارك عنيفة دارت بين المغول والخوارزميين تحطمت فيها قوة هذه الدولة وسقطت على يد جنكيزخان •

وقد اهتم الناصر بالجيش اهتماما كبيرا فتميز بعدده وتدريبه واصبح يد الخليفة الضاربة لردع الاعداء والاداة الفاعلة لحماية الأمن والاستقرار ، ودفع الخطر الذي بات يتهدد العراق بعد ان وصلت هجمات العدو الجديد (المغول) الى حدوده • واستطاع الخليفة بهذا الجيش ان يوسع نفوذ دولته ويحرر الكثير من المناطق في بلاد الجبال ويضمها الى العراق ، كما ضم داقوق وتكريت وهيت والحديثة والاحواز ، وبذلك استعادت الخلافة العباسية بعضاً من نفوذها السابق •

وقد سار المستنصر بالله (٦٢٣-٦٤٠هـ/١٢٢٦-١٢٤٣م) على هدى سياسة والده في تثبيت سلطته فأعاد سيطرة الخلافة على اربيل وشهرزور ، وكانت علاقته بملوك الاطراف وعلى الاخص الايوبيين منهم جيدة ، واستمر بالاعتماد على جيشه لضمان استقلال الخلافة وابعاد الطامعين عنها • وقد ازدهرت المدارس في عهده فبنى المستنصرية ورعى العلماء ، واخذت الدولة تنعم بالهدوء والاستقرار ، الا ان الضعف بدأ يدب فيها بعد سيطرة العناصر العسكرية على شؤونها ، فلما جاء المستعصم (٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٣-١٢٥٨م) وكان ضعيفا اخذ المتسلطون من قادة الجيش والاداريين يسيرون شؤون الدولة

فأهمل الجيش خاصة بعد ان نضبت موارد الدولة المالية ولم يعد بالامكان الانفاق عليه بسخاء فأهمل شأن الجند وسرحت اعداد كبيرة منهم ، لهذا عندما اخذ هولاكو بالتقدم غربا من بلاد ايران لم يكن امام الخلافة من مخرج الا طلب المساعدة من امراء الاطراف ، ولكن لم ينجدها احد ، كما ان دفاعاتها كانت ضعيفة وسورها متهدما ومع ذلك قاوم اهل بغداد مقاومة الابطال الا ان العدو كانقويا منظما ويعرف مكامن الضعف فيبغداد والخلافة ولهذا لم تستطع بغداد الصمود طويلا فسرعان ما سقطت بيد هؤلاء عام ١٢٥٨/٦٥٦ وبذلك زالت الخلافة العباسية من العراق .

الفصل الرابع

الأبعاد الثقافية والاقتصادية للصراع العراقي ـ الفارسي في العصر العباسي

أولا _ الابعاد الثقافية

لقد اتخذ الصراع العراقي الفارسي في العصر العباسي أبعادا خطيرة من حيث الهدف والاسلوب والاداة ، وخاض العراق الصراع نيابة عن العرب المسلمين وايمانا منه بالدور الحضاري الذي أُهِّلَ له عبر التاريخ .

لقد وضع اعداء الامة العربية الاسلامية ، أعداء العراق ، مخططهم لاسقاط السيادة العربية والوصول الى السلطة منطلقين من فهمهم التقليدي للعلاقة بين أساسي الحكم ، الدين والدولة بالاضافة الى وعيهم للترابط بين العروبة والاسلام(*) . فكان لابد لهم من هدم أحد الاساسين ليُهْدَم الآخر، وكما رأينا فيالفصل السابق فان بعضهم ـ مستغلا تسامحالثورة العباسيةـتسلل اليها وتآمر عليها منذ ساعاتها الاولى مستهدفا حرفها عنالطريق الذياختطته لها قيادتها، فيحين انالبعض الآخر أعلن العصيان المسلح على الثورة عندما رأى « أن انتقال الخلافة من الامويين الى العباسيين

(*) عندما دخل الكثير من الخراسانيين الاسلام شكا الدهاقين قائلين « من نأخذ الخراج وقد صار الناسكلهم عرباً » اي مسلمين .

لم يحقق مطالبهم فقد انتقلوا من يد عربية وهي اليد الاموية الى يد اخرى هي اليد العباسية • ومطمح نفوسهم ان تكون الحكومة فارسية في مظهرها وحقيقتها ، في سلطتها ولغتها ودينها » •

الا ان أغلب تلك الحركات المسلحة فشل في ضرب السلطان العربي الاسلامي مما يظهر لنا قوة السلطة المركزية اولا وضعف تلك الحركات رغم ..متها وحقدها ثانيا •

وعلى الرغم من ذلك فقد رأينا في الفصل السابق كيف استطاع بعض الطموحين من الفرس ان يحقق شكلا من اشكال الانفصال عن الدولة العباسية كالطاهريين والصفاريين والسامانيين والزياريين ، وانفسح لهم المجال ليظهروا ميلهم في اعادة مجد ايران باحياء النظم والثقافة الساسانية ، ففي بلاطاتهم جمعت تواريخ الفرس في الشاهنامة ، وترجم تاريخ الطبري وتفسيره الى الفارسية ، وانكشف الغطاء عن ميول زرادشتية واضحة فالشاعر الرودكي السمرقندي يقول في شعره « لا معنى لتحويل القبلة للاسلام والقلب منجذب الى القدسية المجوسية » بل نجده يفضل « شفتي حبيبة ودين زرادشت على كل شيء » •

ان قوة السلطة في العصر العباسي الاول ، وصعوبة الجهر بالعداء للدين، دفعا الشعوبيين الفرس لمهاجمة العرب ــ وهم مادة الاسلام ــ والطعن بأمجادهم وتشويه تراثهم ودورهم الحضاري التاريخي تمهيدا لانهاء دورهم في الدولة والمجتمع ، وليسهل عليهم بعد ذلك اضعاف الاسلام واسقاط دولته والعودة الى الديانة المجوسية والنظم الساسانية القديمة • وابتدأوا في هجومهم على حضارة عرب ما قبل الاسلام وقيمهم ليأمنوا ردّ الفعل ، وليمهدوا للهجوم على العرب وقيمهم في الاسلام • وفي الفترة الاسلامية ركزوا الهجوم في البدء على العصر الاموي مستغلين موقف السلطة من

الامويين • ومن هنا اندفعوا في غزوهم الثقافي الهدام الذي اتسع ليشمل العقيدة الدينية للمسلمين • وقد المح الجاحظ الى ذلك بقوله : « ان عامة من أرتاب بالاسلام انما جاءه هذا عن طريق الشعوبية ، فاذا ابغض شيئا أبغض أهله وان ابغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة ، فلاتزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الاسلام اذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف » •

لقد تبنت الحركة الشعوبية على اختلاف اطرافها وممثليها وتنوعهم ، من كتاب وشعراء وامراء ووزراء واشراف وتجار وصناع ونساء ، تلك الاهداف وعملت بوسائلها المختلفة لتحقيقها مستغلين الحرية السياسية والاجواء الثقافية والاجتماعية الرحبة التي وفرتها لهم الدولة العباسية ، واختارت الشعوبية العراق ميدانا رئيسا لنشاطها ادراكا منها لأهميته الحضارية باعتباره الوارث الشرعي لحضارات الساميين القديمة ولدوره في تثبيت العروبة والاسلام دينا ودولة • فكانت مراكز التماس ، البصرة والكوفة وبغداد صامدة امام الغزو الفكري والثقافي الذي روج له وقام به ممثلو الشعوبية كابن المقفع وبشار بن برد(*) والحمّادين الثلاثة وعلان الشعوبي وسهل بن هارون والبرامكة وبني سهل وغيرهم •

ولابد من الاشارة هنا الى ان البرامكة كانوا طرفا نشطا في المجال الثقافي فضلا عن السياسي كما رأينا سابقا • لقد شحن البرامكة دوائر الدولة كافة بالموظفين من طبقة الكتاب الموالية لهم ، اذ اعتبر هؤلاء الكتاب انفسهم

(*) لقد انكر هذا مبادىء الدين الاسلامي من بعث وحساب معلنا زندقته قائلا :

إبليس خير من ابيكم آدم	فتنبهوا يا معشر الفجار
ابليس من نار وآدم طينة	والارض لا تسمو سمو النار
الارض مظلمة والنار مشرقة	والنار معبودة مذ كانت النار

انهم خير من يمثل قيم الحضارة الايرانية ، وان عليهم تقع مهمة احياء التراث الايراني ــ دينا وتقاليد ــ ونشره بين الناس ، مقابل الاستهانة والتقليل من شأن الحضارة العربية وقيمها .

واستنادا الى ذلك كله وبرعاية البرامكة ترجم اولئك الكتاب الكثير من كتب الادب والتاريخ من الفارسية الى العربية ، ككتاب الخداينامه ، والآيين نامه ، وكليلة ودمنة ، وكتاب التاج في سيرة انوشروان ، وكتاب مردك وغيرها من الكتب .

ولم يكتفوا بذلك بل ألفوا الكتب ونسبوها الى الفرس لاظهار سعة علم الفرس ومعرفتهم وقد اشر الجاحظ ذلك عندما قال « ونحن لانستطيع ان نعلم ان الرسائل التي بايدي الناس للفرس انها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة ، اذ كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون وابي عبيدالله وعبدالحميد وغيلان يستطيعون ان يولدوا مثل تلك الرسائل ويصنعوا مثل تلك السير » .

وتمشيا مع مخططهم العنصري اتخذ البرامكة الاجراءات الكفيلة بفحص الانتماء الفكري لفئة المثقفين من الكتّاب والشعراء ، فخول ابان ابن عبدالحميد مهمة « امتحان الشعراء وترقيتهم في الجوائز » وفسح المجال لمن سار بخطهم وأبعد من لم يستجب لذلك ، وأعد بعضهم الكتب الخاصة لاعداد الناشئة من طبقة الكتاب كجزء من مخططهم في الغزو الفكري والثقافي وفي هذا الخصوص لم يكن الجاحظ مبالغا عندما انتقد فئة الكتاب من الزنادقة مؤشرا أسس ثقافتهم قائلا « انه لم ير كتابا قط جعل القرآن سميره ولا علمه مسيره ، ولا التفقه في الدين شعاره ولا الحفظ للسنن والآثار عماده » .

لقد حاول بعض اطراف هذا التجمع ان يطعن في الدين وذلك عن طريق تأويل معاني القرآن تأويلا يخدم أغراضهم العنصرية ويفسح

المجال لادخال عقائدهم الفارسية في الاسلام ، كذلك مارسوا نشاطا في الدس على الرسول (ص) ووضع الاحاديث المؤيدة لادعاءاتهم محاولين هدم الدين والمجتمع من الداخل . وكان لبعض الزنادقة من المانوية نشاط واضح في هذا المجال أدى الى نشر كتب ماني وابن ديصان بين الناس .

ومع ذلك فقد تظاهر بعضهم الآخر بالمجون والظرافة والانحراف الخلقي مستهدفاً هدم القيم الخلقية للمجتمع متستراً على زندقته مستغوياً الشباب باسم الظرافة وقد شخّص الجاحظ أساليبهم هذه قائلا « وربما سمع أحدهم ممن لا معرفة عنده ولا تحصيل له ان الزنادقة ظرفاء وانهم عقلاء وادباء . فينزو نحوهم ويرى انه متى أتهم بهم فقد قضي له بذلك كله فلا يزال كذلك حتى يسهل في طباعه ويرفع عنده ان يزعم انه زنديق » ولم يكتفِ هؤلاء بذلك بل عمد بعضهم الى تشويه الاخلاق والقيم العربية وتصوير قيم الشرف والكرم والشجاعة العربية على انها رذائل ومناقص ذميمة .

ومهم جدا ان نؤشر في هذا المجال العلاقة بين رؤوس الكفر هذه وبين اليهود ، فهذا ابن الراوندي المعروف بعدائه للعرب والاسلام يؤلف كتبه في الكفريات لحساب اليهودي ابي عيسى بن لاوي الاهوازي ويظهر أن ابن الراوندي قد عاش والف في كنف هذا اليهودي .

كذلك عمل الشعوبيون من اللغويين واهل الادب والأنساب والأخبار على الحط من العرب في لغتهم (*) ــ وهي لغة القرآن ــ كالذي فعله ابو عبيدة معمر

(*) لقد عاب الزمخشري على الشعوبيين جحودهم لفضل اللغة العربية . وكذلك ابن دريد الف كتابه الاشتقاق لان قوما كانوا يطعنون على اللسان العربي وينسبون اهله الى التسمية بما لا اصل له في نفوسهم ، والى ادعاء ما لم يقع عليه اصطلاح من اوليتهم ، وعدوا اسماء جهلوا اشتقاقها ولم ينفذ علمهم في الفحص عنها فعارضوا بالانكار .

ان المثنى عندما ارجع بعض الكلمات العربية الى اصول فارسية • او انتقادهم لبعض الأسماء العربية وانتقاصهم من العرب في خطابتهم كاتخاذ المخصرة والقضيب وجلوسهم وقيامهم اثناء الخطابة • وركزوا كذلك على النسب والشعر العربي والفوا لذلك كتب المثالب ككتب ابي عبيدة معمر بن المثنى والهيثم بن عدي وعلان الشعوبي ففي الوقت الذي تفاخر هؤلاء العجم بانسابهم بل وانتحالهم انسابا اوصلوها الى اسحق بن ابراهيم وهو من سارة وهي حرة نجدهم ارجعوا نسب العرب الى ذرية اسماعيل من هاجر وهي امة وقد اطلقوا عليها اللخناء ، فبنو الأحرار عندهم العجم ، وبنو اللخناء عندهم العرب • ومهما يكن سبب طعنهم في المرأة العربية وشرفها فانه صورة من حرصهم على الحط من النسب العربي وقد وصل بهم التمادي الى حد ان جعلوا من الولاء وسيلة للفخر على العرب فالمولى في نظرهم اصبح اشرف من العربي لانه جمع نسب العجم وشرف الانتساب الى الاسلام •

وعلى الرغم من هذه المحاولات بالطعن والحط من نسب العرب نجد أن « عضد الدولة البويهي رغم سلطانه يحاول ان يتلمس لنفسه نسبا عربيا ويهدد ابا اسحق الصابي ليعمل مثل هذا النسب ، فلا يرى الا نسبته الى بني ضبة » اما في مجال الشعر فقد شككوا فيه وزيفوه عن طريق الوضع كالذي فعله الحمادون وخلف الأحمر • ويوضح لنا الصاحب ابن عباد العلاقة بين المجوسية وبين الطاعنين في الادب والنسب العربي فعندما « دخل عليه أحد شعراء العجم وأنشده قصيدة يفضل فيها قومه على العرب » ، التفت الصاحب الى بديع الزمان الهمداني قائلا له « أجب عن ثلاثتك : ادبك ونسبك ومذهبك » ، فما كان من الهمداني الا ان يرتجل دفاعا عن قيمه ، وبعد ان فرغ التفت الصاحب بن عباد الى الشاعر الشعوبي وقال « جائزتك عندي جوازك • والله ان رأيتك بعد هذا ضربت عنقك • ثم قال : لا ارى احدا يفضل العجم الا وفيه عرق من المجوسية ينزع اليه » •

ولم يسكت العرب المسلمون على تخرصات الحاقدين من الشعوبيين بل جاء الرد سريعا سواء على المستوى الرسمي او الشعبي واشترك فيه الخليفة والفقيه والمحدث والاديب والمؤرخ والشاعر والفيلسوف وكان ردا موضوعيا واعيا للذات العربية ولمكوناتها ولدورها الحضاري فهذا الخليفة المنصور يردع ابن المقفع لشعوبيته وذلك المهدي يحث اهل الكلام للرد على الشعوبية بالمناظرات والمساجلات وتأليف الكتب لازالة شبهاتهم ، كما اوصى ابنه الهادي بمتابعة الامر بعده ، كذلك لم يتردد الرشيد في ضرب البرامكة عندما حاولوا هدم المجتمع والدولة •

لقد كان من نتيجة الرد ان جمع الحديث فكانت كتب الصحاح والسنن ، ودون التفسير ، وألفت كتب الفقه بمدارسه المختلفة واستنبط النحو وجمع الشعر فكانت مفضليات الضبي وحماستا ابي تمام والبحتري ودونت حكم العرب وامثالهم وخطبهم ونثرهم فكانت كتب البيان والتبيين ، والبخلاء ، والحيوان ، والامتاع والمؤانسة ، والاغاني ، والاضداد ، والاشتقاق ، وفقه اللغة ، وغيرها من الكتب • ودونت كتب الانساب وروايات الايام وتواريخ الامم فكانت كتب البلاذري والاصمعي والمسعودي وابن قتيبة وغيرهم •

وبفعل ذلك الرد شمخ صرح الحضارة العربية الاسلامية في ارجاء العالم العربي الاسلامي عموما وفي العراق بشكل خاص • وخلدت الرسالة الحضارية للامة بابنائها البررة وتراجعت مندحرة امام اصرار العراق الجبار الاحقاد الفارسية •

ومن خلال ذلك النتاج الانساني الذي خلفته الامة العربية عبر العرب المسلمون عن عمق وعيهم ودورهم في صنع امجادهم التاريخية وبناء دولهم وكياناتهم السياسية خلال التاريخ •

ورغم دورهم الواضح ذاك فانهم لم يتنكروا للحضارات القديمة التي افادوا منها بل اصبح تفاعلهم الايجابي مع الحضارات سمة مميزة وجزءا صميميا من رسالتهم الحضارية الى الشعوب .

ثانيا – الابعاد الاقتصادية للصراع

العصر العباسي الأول

لقد حبا الله أرض العراق بالخصب والخير لذا أصبح محط أنظار الطامعين خصوصا سكنة الهضبة الايرانية . وأصبح تاريخه في كثير من فتراته يحكي تاريخ الصراع بين الاقوام السامية التي استوطنته ، وآخرها العرب ، وبين الاقوام الايرانية الطامعة .

وبقدر تعلق الامر بالعصر العباسي ، فان الاطماع الايرانية تبدو واضحة فعلى الرغم من الجهد الذي بذله العباسيون الاوائل لاصلاح الاوضاع الاقتصادية سواء بتنظيم جباية الضرائب وتثبيت أسسها الاسلامية وتشجيعهم للنشاط التجاري ، والزراعي ، والصناعي ، فان الحركات الانفصالية المسلحة والنشاطات التخريبية التي قام بها العنصريون الفرس ، استنفدت جزءا كبيرا من النتاج الاقتصادي للامة لغرض تسيير الماكنة العسكرية بالاضافة الى الدمار الذي لحق المؤسسات الاقتصادية القائمة آنذاك ، علاوة على ما أتلفه بعض الفرس المتنفذين من الاموال لكسب الانصار والمؤيدين لهم ولسياستهم العنصرية . فعلى سبيل المثال شحن البرا[illegible] – وهم مجوس فارس كما يصفهم الاصمعي – مرافق الدولة بالمسؤ[illegible]ين من أبنائهم ومقربيهم وأغدقوا العطاء عليهم وفي هذا الصدد يقول ثمامة بن اشرس « لم يكن يرى لجليس خالد بن برمك دارا الا وخالد بناها له ، ولا ضيعة الا وخالد ابتاعها له ، ولا ولدا الا وخالد ابتاع أمة ان كانت أمة او أدى مهرها ان كانت حرة ، ولا دابة الا وخالد حمل عليها من نتاجه او من نتاج غيره » فلا غرابة ان ينفق احد

البرامكة على بناء دار له « نحوا من عشرين ألف ألف درهم » ولم يكن مبالغا ابن خلدون عندما قال « وانما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم اموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه ، وشاركوه في سلطانه ... واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والامصار وسائر الممالك » .

التسلط البويهي

ان التخلص من البرامكة فسح المجال لنمو جديد في المؤسسات الاقتصادية !الا أن ذلك النمو سرعان ما أصيب بانتكاسة عندما أندلعت الفتنة بين الامين والمأمون . ومع ذلك فأن الضربة القوية للمؤسسات الاقتصادية جاءت عندما غزت العراق عام ٣٤٤ للهجرة موجة من الشعوب الايرانية هم البويهيون .

لم يكن البويهيون ليختلفوا كثيرا عن بقية اقوام الهضبة الايرانية ، فبحكم تخلفهم الحضاري فانهم لم يألفوا سوى حياة الاقطاع القبلي القائم على اسس من الاقتصاد الطبيعي والمتميز بعلائق انتاج استعبادية واستغلالية وبذلك كان حكمهم بداية لانحراف في التطور الاقتصادي من الاعتماد على التجارة والصناعة والنقد الى الاعتماد على الزراعة والى نشوء النظام الاقطاعي العسكري .

وبحكم كونهم متسلطين اجانب فلم تهمهم شؤون الاهلين بل كان همهم الاول والاخير الحصول على اكبر ما يمكن من الضرائب . ومن اجل ان يدفعوا مخصصات جندهم نجدهم يقطعون الاراضي الزراعية الى الجند وقد ترك لنا مسكويه وصفا دقيقا لابتداء هذه الظاهرة الاقطاعية ففي حوادث سنة ٣٣٤/٩٤٦ « وبسبب شغب الديلم على معز الدولة لاطلاق رواتبهم اقطع معز الدولة قواده وخواصه واتراكه ضياع السلطان وضياع المستترين وضياع أبن شيرزاد وحق بيت المال في ضياع الرعية واصبح اكثر السواد مغلقا وزالت

ايدي العمال عنهم وبقي اليسير منه من المحلول فضمن واستغنى عن اكثر الدواوين فبطلت .. وصار الرسم جاريا ان يخرّب الجند اقطاعاتهم ثم يردوها ويعتاضوا عنها من حيث يختارون . وبسبب الاهمال وسوء الادارة وانتشار الرشاوى ، فسدت المشارب وبطلت المصالح وانت الجوائح على التناء ورقت احوالهم فمن بين هارب جال وبين مظلوم صابر لاينصف وبين مستريح الى تسليم ضيعته الى المقطع ليأمن شره ويوافقه . فبطلت العمارات واغلقت الدواوين وانتشر نظام الالجاء دفعا للظلم فملكوا البلاد واستطالوا على العمال وحاموا على التجارة ... واستعبدوا الناس واستمر ذلك وازداد الى اليوم »(*) .

التسلط السلجوقي

ان التدهور السياسي والاقتصادي والاضطرابات الاجتماعية التي سادت الفترة البويهية خصوصا العقدين الاخيرين دفعت الخليفة العباسي ان يفكر جديا بالتخلص من السيطرة الاجنبية البويهية . وكما رأينا سابقا حل السلاجقة محل البويهيين بدخولهم بغداد عام ٤٤٧ هـ .

وكدأب المتسلطين الاجانب لم تكن مواقف السلاطين الجدد لتختلف كثيرا عن سابقيهم . فمنطق السيطرة والاستعباد والاستغلال كان دائما هو المنطق الذي يحكم تصرفاتهم ، وفي الوقت نفسه كان موقف ابناء الامة واحدا أبدا ، رفضا ومقاومة ، تضحية وصمودا حتى النصر على الغزاة المعتدين .

ان حماية الرعية وتحقيق العدل كان هدفا لسياسة الخليفة تحدد في ضوئه العلاقة بأي من السلاطين في الوقت الذي نجد أن سياسة أغلب السلاطين او ممثلهم الاداري (العميد) او العسكري (الشحنة) ، كان العمل على جباية أكبر قدر من المال بأي وسيلة كانت ، فهذا وزيرهم نظام

(*) مسكويه : تجارب الامم ، ٢/٩٦ ، ٩٧ ، ١٧٤ .

الملك يصف الامراء السلاجقة بأنهم لايتورعون عن ارتكاب عشر جرائم من أجل الحصول على دينار واحد .

ان تناقض أهداف الادارتين العباسية والسلجوقية جعل العلاقة طوال هذه الفترة علاقة غير مستقرة متأزمة بين قوى تنزع الى الاستقلال وتؤكد قيم الحرية والعدالة وقوى ظالمة تعمل على استغلال واستعباد الناس وكبت حرياتهم .

وعلى الرغم من كل ظروف القهر الناجم عن التسلط الاجنبي والتناقض الاجتماعي استمر العراقيون في كفاحهم من أجل البناء والحياة الفضلى فمارسوا كل انواع النشاط الانساني الخاص والعام سواء في الزراعة والصناعة والتجارة بالاضافة الى الفكر والثقافة والعلوم .

ففي الريف استمر الفلاح يحرث الارض ليزرع الخير والنماء معبرا عن عشقه للارض الطيبة وعن عمق ارتباطه بها مع ان معظم انتاجه قد استحوذ عليه الاقطاع العسكري أو المدني الاجنبي ، وعلى الرغم من فداحة الضرائب وأسلوب جبايتها الرهيب لم يسلم الفلاح على نفسه او أهله أو ماله ، فكثيرا ما نهب الفلاحون واستبيحوا وأجلوا عن أراضيهم أو نزحوا الى المدن طلبا للنجاة ، ولكن ما أن كانت الامور تهدأ حتى يعود أكثرهم ثانية الى قراهم ومزارعهم ، وتدب الحياة من جديد في الريف العراقي .

ان تكرار المأساة دفع قسما من الفلاحين الى النزوح النهائي عن الريف والالتجاء الى الربط الصوفية ، مما وثق العلاقة بينهم وبين مشايخ الربط وكبار الزهاد .

لقد مارست هذه التجمعات نشاطات اقتصادية وثقافية وتربوية . اما القسم الآخر من الفلاحين فقد أنضم الى تشكيلات اتخذت العنف طريقا لنيل حقوقها فكان من بينهم من عرف بالعيارين والشطار . ومن الطبيعي ، والحالة

هذه ، ان يشهد ريف العراق انتفاضات ضد الظلم والعسف ، وان تتردد اصداء الثورة في المدن ، ففي سنة ٤٥٣ / ١٠٦١ انتفض أهل الضياع وجاؤوا الى بغداد ومنعوا الخطيب من القاء خطبة الجمعة وساندهم في ذلك جموع الناس (العوام) ، وتكرر الامر سنة ٤٦١/١٠٦٩ .

ان ما ذكر عن الفلاحين ينطبق تماما على سكان المدن من الصناع والحرفيين . فعلى الرغم من التناقضات المهنية والطائفية والاقليمية الضيقة التي اضعفت اصحاب المهن ، فانهم استطاعوا وفي عدة مناسبات ان يتجاوزوا تناقضاتهم ويوحدوا صفوفهم ضد مستغليهم من ممثلي السلطة السلجوقية ومن هنا يمكن ان نفهم سر قوة الانتفاضات والثورات التي حدثت في الاعوام (٤٨١/١٠٨٨) ، (٤٩٥/١١٠١) ، (٥٢٠/١١٢٦) ،(٥٣٠/١١٣٥) ، (٥٤٣ /١١٤٨) ، (٥٥١/١١٥٦) والتي قادها أو اسهم فيها اصحاب المهن .

كذلك شاركت المنظمات المهنية في المناسبات الوطنية والاجتماعية ، الا ان المساهمة المتميزة في هذه الفترة ، كانت الاحتفالات التي جرت عام (٤٨٨ / ١٠٩٥) ابتهاجا بالشروع ببناء سور بغداد والذي اصبح رمزا سياسيا باعتباره جزءا من الاعداد للتحرر من السلطة الاجنبية وتحقيق الاستقلال .

كذلك لابد من الاشارة الى الدور الذي لعبه اصحاب المهن في الحرب ضد السلاجقة والتي احرز فيها العراقيون النصر والاستقلال .

وهكذا يتبين لنا ان الاحتلال والسيطرة اللذين وقع العراق تحت وطأتهما على يد البويهيين والسلاجقة ، لم يمنعا ابناء العراق من المضي الواثق في كفاحهم الازلي الخالد للذود عن حياضهم وعن ارضهم ومياههم ، فسرعان ما انتفضوا وحطموا القيود التي كانت تكبلهم ليعود العراق ثانية موحدا قويا عزيزا ، يحدوه التصميم على تحقيق قيم العدالة والحرية التي بشر بها كجزء من رسالته الخالدة في الحياة .

القسم الثالث

عصر الغزاة

الفصل الأول

الصراع العراقي - الفارسي من سقوط بغداد حتى نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)

١ - في عهد الاحتلال المغولي

كان سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، ايذانا بانتهاء دور العراق باعتباره مركزا للدولة العربية الاسلامية، ومصدرا للاشعاع الحضاري والفكري في العالم • وأشّر بدايةً مرحلة طويلة من الانحسار السياسي والجمود الفكري، تعرض فيها العراق لغزوات الطامعين وللسيطرة الاجنبية •

وسواء أكان في أثناء زحف المغول على بغداد، أم في أثناء حصارهم لها، فقد لعب الفرس دورا رئيسا في اضعاف الخلافة واسقاطها • اذ عمل بعض رجالات ايران الذين كانوا يحقدون على الخليفة العباسي، وعلى رأسهم نصير الدين الطوسي المتوفى ٦٧٢/١٢٨٣، على تحريض هولاكو لكي يحول سيره نحو بغداد، متنبأ له بسقوط الخلافة العباسية • ورغم تحذيرات بعض علماء المسلمين لهولاكو من خطورة التعرض للخلافة، لكن الطوسي اخذ يشجعه على ذلك، ويفلسف له ما يشاع من موانع بما يحقق الاجهاز عليها •

وتضمنت رسائل الطوسي التي كان يكتبها على لسان هولاكو،

وبعث بها الى امراء المسلمين عامة ، والى بعض السياسيين المحيطين بالخليفة، تفسيرات دينية وتبريرات لتخليهم عن الخلافة وقبول موالاة المغول • وكان لهذه الرسائل اثر كبير في الموقف الودي الذي اتخذه بعض هؤلاء من المغول ، واظهار الطاعة لهم ، لحدّ الافتاء بشرعية تفضيل الكافر العادل على المسلم الجائر •

لقد ادى هذا الموقف الى ظهور دعوات انهزامية ، افقدت الخلافة هيبتها ، والى استمالة بعض المحيطين بالخليفة من ذوي الاصول الفارسية والمتعاونين معهم ، من امثال الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي ، الذي كان على اتصال بهولاكو منذ سنة ٦٥٤/١٢٥٦م • واتفق معه على خيانة الخليفة ، واطمعه باحتلال العراق ، وهيأ له الامور باساليب متعددة منها اشارته على الخليفة بتسريح اكثرية جنده •

ومن الزعماء الذين تأثروا برسائل الطوسي ، وجاروا المغول ، صاحب الديوان في بغداد فخر الدين ابن الدامغاني ، وكذلك تاج الدين ابن الصلايا حاكم اربل •

وتشير بعض المصادر الى ان ابن العلقمي ، الذي تولى الوزارة للخليفة المستعصم مدة اربع عشرة سنة ، لم يتورع عن ان يصدر امره اثناء حصار بغداد ، بفتح احد السدود المقامة على نهر يقع خارج بغداد فأغرق الكثير من جند الخليفة • واضافة الى دوره التخريبي هذا ، فقد كانت له يد في قتل الخليفة، بالاتفاق مع هولاكو ، حين خدعه بانه مهد طريق الصلح وحسّن اليه الخروج لملاقاة هولاكو ، في الوقت الذي كانت تجري محاولة لتهريب الخليفة واتباعه من بغداد بسفينة الى احدى الجزر القريبة من البصرة،

حتى تسنح الفرصة ويعودوا • ولما خرج الخليفة لملاقاة الغازي مع ١٣٠٠ شخص من رجال الدولة ومن القضاة والعلماء والتجار والحرفيين ، قتلوا عن آخرهم •

ولم يقتصر دور الفرس على ذلك ، بل ساهموا في جيش هولاكو الزاحف نحو بغداد ، ومن هؤلاء أبو بكر صاحب فارس ، ومظفر الدين صاحب لورستان ، والمظفريين في يزد • كما ساهموا في ابادة العلماء والفقهاء في اثناء المحنة ، ويشير ابن الفوطي ، وهو مؤرخ عراقي معاصر ، وكان ممن اسره المغول ، الى ان كلا من فخر الدين ابي بكر عبدالله الطهراني ، وشهاب الدين الزنجاني ، كانا ممن يخرجون الفقهاء من باب السور الى مخيم هولاكو ليقتلوا • ويبدو ان ذلك جرى بالتواطؤ مع ابن العلقمي ومع الطوسي ، الذي امره هولاكو ايضا بان يقف عند باب الحلبة ، ويؤمن الناس للخروج من هذا الباب ، فأخذوا يخرجون جماعات كبيرة ليواجهوا مصيرهم •

ان مكانة الطوسي عند هولاكو ، لم تشفع للمسلمين بعد استباحة بغداد ، فحتى الذين استسلموا سيقوا الى الذبح كالاغنام • ولم يستثن المغول من القتل ممن صادفوه سوى من كان على اتصال بهم قبل دخولهم بغداد ، من موظفي الادارة ، وبعض التجار الفرس الذين كانوا يسافرون بين العراق وخراسان ، وينقلون لهم الاخبار عن احوال الخلافة ، أي كانوا بمثابة عيون لهم في بغداد ، اذ زودوا بفرامين لعدم التعرض بهم وارسل معهم من يحرس بيوتهم •

ومن جهة اخرى اسهم الفرس في تدعيم الحكم الوثني الذي اقيم بعد

سقوط بغداد ، واعطوه الصفة الشرعية • فقد كتب الطوسي خطابا الى بغداد عام ٦٩١/١٢٦٢ يزكي فيه الدولة « القاهرة الايلخانية » ويشيد بفتوحاتها ، ويخيف الناس من معارضتها • وامتدت ايديهم الى ما بقي للعراق من تراث فكري ، فنقلوا الكتب النفيسة الى مدنهم ، كما فعل الطوسي حين قدم الى بغداد مرتين سنة ٦٦٢/١٢٦٣م لجمع الكتب من مكتباتها ، وكذلك من الحلة والكوفة والمسيب والموصل لنقلها الى المكتبة الملحقة بدار الرصد في مراغة في أذربيجان والتي ضمت اكثر من اربعمائة الف مجلد •

ان اباء العراقيين ورفضهم التعاون مع المغـول الذين لم يمارسوا في حياتهم غير الاعمال العسكرية ، ادى الى بروز دور الفرس في الحكومة الجديدة التي ضمت ايران والعراق • فاسندت الوظائف العليا وبخاصة الوزارة ، الى الاسر الفارسية التي اظهرت الاخلاص للمغول • فتسلطوا على شؤون الدولة ، واستغلوا نفوذهم ابشع استغلال من أجل بعث دولة الفرس من جديد • ويشير الى ذلك ايرينجين ، وهو احـد الامراء المغول الساخطين على تصرفات الوزراء الفرس ونفوذهم في الدولة الايلخانية بقوله « أصبح في وسع احد الفرس أن يذهب الى السلطان في منتصف الليل ، ويطلب منه مقابلة سرية ، ليهدم في لحظة واحدة كل ما فعلناه وقلناه » •

وتمشيا مع هذه السياسة وزّع المغول وظائف الادارة فـي العـراق على العناصر الفارسية ، وعلى بعض موظفي الادارة السابقين ، ممن قبل التعاون معهم • فأعادوا ابن العلقمي الى منصب الوزارة ، وكذلك فخر الـدين الدامغاني صاحبا للديوان • وعينوا علي بهادر الخراساني شحنة لبغداد ، وعماد الدين عمر القزويني ممثلا للسلطة في الديوان ، ونجم الدين احمد

ابن عمران الملقب (راست دل) واليا على اعمال شرقي بغداد ، وهكذا بالنسبة للوحدات الادارية الاخرى •

وفي الوقت الذي سيطر فيه الفرس على شؤون المملكة الايلخانية ، تعرض العراقيون بخاصة والمسلمون بعامة الى محنة جديدة في عهد السلطان ارغـون بن اباقا ٦٨٣-٦٩٠/١٢٨٤-١٢٩١ م نتيجة لالتقاء الحقد الفارسي مع مكر اليهود وخبثهم • فقد أخذ ارغون يتشكك بالاسلام والمسلمين ، واعاد شؤون الاوقاف الى اعوان ابيه وجده هولاكو من آل الطوسي • وكان سلفه أحمد تكودار (وهو أول ايلخان مغولي يعتنق الاسلام) قـد امر بنقلها من هذا البيت، وازال حقوق الاطباء والمنجمين من اهل الذمة ، الذين كانوا يتقاضونها من مواردها منذ زمـن هولاكو • واسـتقدم أرغـون يهودا من تفليس للاشراف علـى تركات المسلمين ، وهي وظيفة اسلامية ، مما دعا الى انتفاضـة سكان بغداد ، ونهب دكاكين اليهود وبيوتهم • كـما قام نواب ارغون في العراق بتعطيل المدارس والمساجد وهدمها لاستخدام احجارها في بناء قصورهم •

وتشجع بعض أهل الذمة المتسترين بالاسـلام ، على التاليف والطعـن بالاسلام ، مثل عزالدولة بن كمونة اليهودي ، الذي اتهم سنة ٦٨٣/١٢٨٤ بتاليف كتاب (الابحاث عن الملل الثلاث) ، تعرض فيـه للنبوات • فثار سكان بغداد واجتمعوا لكبس داره وقتله ، لكن ابن كمونة حمل في صندوق الى الحلة ، وكان ولده كاتبا فيها فمات هناك بعد عدة ايام •

استمر تعاون الفرس مع اليهود طيلة العهد الايلخاني ولم يبد منهم اي اعتراض او رد فعل حين اخذ اليهود ينتزعون منهم الوظائف الادارية واحدة

بعد الاخرى . بل انهم لم يحركوا ساكنا حين تمكن هؤلاء من الوصول الى رأس السلطة في الدولة الايلخانية ، حين عهد ارغون بالوزارة الى سعد الدولة اليهودي . ذلك الدلال السابق في سوق الموصل الذي مكنه دهاؤه وامتهانه للطب ، من الوصول الى بلاط ارغون ، فعينه مشرفا على العراق في أول الامر . وتمكن من خلال اضطهاده للعراقيين ، واستخراجه الاموال منهم بشتى الطرق ، كالضرب بالعصا والتعذيب ، من جمع مبالغ كبيرة ارضاء لجشع ارغون ، فنال استحسانه وعهد اليه بمنصب الوزارة في الدولة الايلخانية سنة ٦٨٨/١٢٨٩ .

وسرعان ما استبد سعد الدولة وتحول الى طاغية ، وبادر الى طرد الموظفين المسلمين من البلاط ، ووظائف الدولة الاخرى ، وتعصب لاقاربه وابناء جلدته وولاهم المناصب الهامة في العراق . فعين اخاه فخر الدولة نائبا للوزارة ، أي واليا على العراق ، يساعده نصر بن الماشعيري اليهودي . اما اخوه الآخر امين الدولة فقد عينه حاكما على الموصل وماردين وديار بكر كلها . وهكذا استحوذ اليهود على الوظائف الادارية في مدن العراق المختلفة ، وشرعوا بالتخلص من العلماء وموظفي الادارة الذي عرفوا بالنزاهة .

ونظرا للموقف الودي الذي اتخذه الفرس من اليهود فقد اظهر سعد الدولة عداءه السافر للاسلام ، لدرجة انه اقترح على السلطان ان يحول الكعبة الى معبد للاصنام ، بل انه سعى للقضاء على الاسلام نهائيا بمحاولة تحويل المسلمين الى عبادة الفرد . فادخل في روع ارغون ان النبوة وصلت اليه بالوراثة عن جنكيزخان ووجوب طاعة الناس لاوامره وعبادتهم له ، وان قوام كل دين يتوقف على جهاد المخالفين له واستئصال شأفتهم .

لم يبد الفرس معارضة لهذه الحركة حين اخذ سعدالدولة يجتمع بالبارزين منهم ، فيجرهم الى القول معه بما في أرغون من صفات نادرة لا تتوفر في الرجال ، ثم يأخذ تواقيعهم على الاعتراف بذلك . فكان بعضهم يوقع رهبة او رغبة بينما اندفع البعض الآخر في تزلفه ، فيكتب عبارة « الناس على دين ملوكهم » . في الوقت الذي وقف فيه العراقيون بحزم ضد هذه الحركة ، وتصدوا لها بالاضرابات والمظاهرات ومهاجمة اليهود تارة ، وتارة بالتأليف والرد عليهم من قبل علماء بغداد واعيانها ، الذين نظموا محضرا يتضمن الطعن باليهود وسعد الدولة ، وتحريض المسلمين على الوقوف ضده ، وأن اليهود « طائفة اذلهم الله ومن حاول اعزازهم اذله الله » . وقد ادى هذا الموقف الحازم اضافة الى حقد بعض الامراء المغول على سعد الدولة الى قتله سنة ٦٩٠/١٢٩١ ، وكان لنبأ قتله صدى كبير في العالم الاسلامي ، وتعرض اليهود لغضب الجماهير فصودرت اموالهم ، وقتل في بغداد وحدها ما يزيد على المائة من زعمائهم .

ومع ذلك فقد ظل يهود ايران يتمتعون بسلطات واسعة في عهد السلاطين الثلاثة المتأخرين وهم غازان المتوفى سنة ٧٠٣/١٣٠٣ ، وخلفه اولجايتو (خدابنده) ٧١٧/١٣١٧ وخلفهما ابو سعيد ٧٣٦/١٣٣٥ . وقد احتل منصب الوزارة في عهد هؤلاء السلاطين الثلاثة رشيد الدين الهمداني ، وهو من اصل يهودي ، استخدم اليهود على نطاق واسع ، وتسبب في قتل نقيب الطالبيين وولديه سنة ٧١١/١٣١١ لوقوفه بوجه اليهود ، وتحويله احد معابدهم القريبة من الحلة الى جامع وعظ للمسلمين .

وفي الوقت الذي كان فيه اليهود يتمتعون بهذا النفوذ الواسع في الدولة

الايلخانية ، ويحوكون الدسائس والمؤامرات ، كان الشعوبيون الفرس المحيطون بأولجايتو وراء المذابح والفتن الطائفية التي عمت العالم الاسلامي وخاصة في بغداد وشيراز واصفهان •

وبلغ من تأثير هؤلاء الحاقدين وتعصبهم ، أن اقنعوه بالامر بعدم ذكر الشيخين ابي بكر وعمر (رض) وبتجهيز جيش كبير بقيادة ابي طالب الدلقندي للذهاب الى مكة والاستيلاء عليها ، ثم الذهاب الى المدينة المنورة والتعرض الى نبش قبري ابي بكر وعمر (رض)• لكن القبائل العربية في العراق بالتعاون مع حاكم البصرة، جمعوا جيشا بقيادة محمد بن عيسى بن مهنا، وتمكنوا من الحاق الهزيمة بالجيش المغولي قرب البصرة سنة ٧١٦/١٣١٦ •

وقبل وفاة اولجايتو تمكن جماعة من الغياري من اقناعه بخطورة ما اقدم عليه ، فأضطر الى التراجع وكتب الى البلاد يقر الناس على مذهب اهل السنة والجماعة •

لقد جر هذا الصراع الى كثرة الثورات والى ضعف الدولة الايلخانية ، ونشوب الخلاف بين الامراء حول السلطة ، بعد وفاة أبي سعيد ، وتجزأت ايران التي تقاسمتها الاسر المغولية، وبعض الاسر المحلية• اما العراق فقد تمكن الجلائريون من حكمه بصورة مستقلة •

٢ ــ في عهد الاحتلال الجلائري

بعد سلسلة من الحروب بين الامراء المغول الطامعين بالسلطة ، تمكن الشيخ حسن الجلائري من الاستقلال بالعراق سنة ٧٣٩/١٣٣٩ ، وضم اليه الاحواز وديار بكر • وبذلك بدأ حكم هذه الاسرة التي تمتع العراق في عهدها بالاستقلال الذاتي ، وعادت بغداد عاصمة للدولة •

ثم بدأ الشيخ حسن بانهاء انتمائه السابق ، وقطع كل صلة تربطه بالايلخانيين ، معززا استقلاله بالعراق بسلسلة من الحروب خاضها ضد بقايا الاسر الايلخانية التي ظلت تحكم ايران واذربيجان ، والتي كانت تسعى لفرض سيطرتها على العراق، وقد استمرت تلك الحروب حتى عام ٧٤٨/١٣٤٧ حين تمكن الشيخ حسن من احراز النصر النهائي ، وطرد الغزاة خارج حدود العراق •

كان من نتائج هذا الاستقلال ان تناقصت التأثيرات الفارسية ، وسعى الشيخ حسن الى الاندماج بالمجتمع العراقي بصورة كلية ، والتقليل من استخدام الفرس • واخذ يعتمد على العرب والاتراك في تكوين الجيش ، وتقرب الى القبائل العربية وبخاصة آل فضل الذين كتب لهم تقليدا بالامرة على العرب واختار له وزيرا من العراق •

ورغم كونه الحاكم الفعلي في العراق لكنه لم يعلن نفسه سلطانا ، وفضل ان ينقل ولاءه للسلطان المصري ، وذلك من اجل الحصول على مساعدته للوقوف بوجه الاسر المغولية والحكومات المحلية في ايران الطامعة بالعراق ، فأخذ يلح على السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤٠/١٣٣٩ ، بعد ان ضرب السكة واقام الخطبة في بغداد باسمه ، لارسال الجيش المصري الى العراق ليتسلمها تمهيدا لوحدة البلدين تحت التاج المملوكي • وقد امر السلطان الناصر بتجهيز الجيش ، لكن وفاته في السنة الثانية حالت دون ذلك •

ادت سياسة الشيخ حسن الى عودة الاستقرار ، واستعاد العراقيون نشاطهم لاعادة العراق كما كان في عهد الازدهار • وشهدت البلاد انتعاشا اقتصاديا وحركة واسعة لانشاء المدارس والمكتبات ودور العلم والمستشفيات

من قبل الحكام والموسرين من العراقيين ، وشرع طلاب العلم بالتردد الى
بغداد من الاقطار الاسلامية الاخرى • كما استعاد العراق شيئا من قوته
العسكرية ، مما مكن أُوَيْس الذي تسلم السلطة سنة ١٣٥٦/٧٥٧ بعد وفاة
ابيه الشيخ حسن ، من احتلال اذربيجان ، وبعض الاجزاء الايرانية الاخرى،
وضمها الى نفوذه سنة ٧٦٠ / ١٣٥٨ •

لكنه ارتكب خطأ كبيرا حين نقل العاصمة الى تبريز ، فوقع تحت تأثير
الفرس ، الذي كانوا ينظرون بحسد الى العراق ، فأكثر من استخدامهم
في الجيش ودواوين الادارة والوظائف العامة ، واصبحت اللغة الفارسية
لغة الحكومة الرسمية • وقد قوبلت هذه السياسة بمعارضة العراقيين ،
وقامت الثورات ضدها •

كان من اخطر هذه الثورات ثورة بغداد سنة ٧٦٥ – ١٣٦٣/٧٦٦–
١٣٦٤ ، التي حاولت المصادر الفارسية طمسها وتشويهها فوصفتها بالتمرد
حينا وبالعصيان حينا آخر •

وفي الحقيقة فأن خروج العاصمة من بغداد ، وفقدان العراق استقلاله
الذاتي ، والافراط في استخدام الفرس ، لم يَرُقْ للامراء وموظفي الادارة
والسكان في بغداد فأجبروا الوالي امين الدين مرجان على الثورة وخلع
السلطان اويس واعلان استقلال العراق عن العاصمة تبريز ، ولم يتمكن
مرجان من مخالفتهم • ولكي يعزز الثوار قدراتهم الدفاعية ، اتجهوا نحو
الامة العربية يطلبون منها العون ، فكاتبوا السلطان المصري الاشرف
شعبان بن حسين (ت ١٣٧٦/٧٧٨) ، وارسل له مرجان وفدا ليشرح له
ظروف الثورة ، ويبين له انه أقام الخطبة وضرب السكة باسمه في بغداد ، فاذا

نجحت الثورة فسيكون نائبه فيها ، اما اذا فشلت فسيلجأ الى مصر • فرحب
السلطان المصري بالوفد ، وبعث الى مرجان اعلاما منه ومن الخليفة العباسي،
وكتب له تقليدا بالنيابة ، والاذن له بدخول مصر اذا فشلت الثورة •

وقدمت القبائل العربية المحيطة ببغداد دعمها للثورة ، وكذلك آل فضل
وكان يرأسهم حيار بن مهنا امير العرب في العراق •

اراد اويس تطويق الثورة وتحجيم قوة الثوار ، فطلب من السلطان
المصري عدم حماية مرجان واتباعه او مساعدتهم او ايوائهم ، اذا لجأوا الى
سوريا او مصر • لكن السلطان المصري رفض ذلك واعلن استعداده لارسال
الجيش الى العراق اذا طلب الثوار ذلك • كما اصدر اويس امره بطرد أمير
العرب حيار بن مهنا واتباعه من العراق •

ثم سار اويس نحو بغداد على رأس جيش كبير ، جمعه من اذربيجان
وايران ، فوصلها في اوائل الربيع • واستعد سكان بغداد للمقاومة ، مستغلين
زيادة المياه في دجلة وكسروا السدود ، فأحاطت المياه بالمدينة لمسافة اثنى
عشر ميلا ، معرقلين بذلك تقدم الجيش •

وهكذا بقي اويس اربعين يوما دون ان يتمكن من القيام بعمل ما ،
واخذ اتباعه يفكرون بالعودة والنجاة بانفسهم • لكن حاكم واسط الجلائري
امده بعدد كبير من السفن لنقل الجنود وايصالهم الى بغداد • وتؤكد
المصادر المعاصرة ان مرجان لم يكن صادقا مع الثوار ، فما ان شاهد السلطان
حتى انسحب الى داخل المدينة ، وفي اليوم الثاني طلب رحمته ، ثم فتح
الابواب • وشعر الامراء بعدم جدوى المقاومة فتفرقوا ، وقام اتباع اويس
بالقبض على عدد منهم ، اعدم بعضهم في الحال ، وارسل البقية الى تبريز ،

بينما فر الآخرون الى بلاد الشام • واضطر السلطان الى البقاء في بغداد مدة احد عشر شهرا لتهدئة الاوضاع ، وتصفية العناصر المؤيدة للثورة •

ومع ان الثورة فشلت في تحقيق الاستقلال النهائي للعراق ، لكنها نبهت اويس الى ضرورة تعديل سياسته تجاه العراق فأرسل سنة ٧٧٥/١٣٧٣ ابنه الشيخ علي ليحكمه بصورة مستقلة واعفاه من دفع الضرائب الى بيت المال من اجل استرضاء العراقيين •

ولم تكن محاولة إلحاق العراق باذربيجان هي الخطر الوحيد الذي واجهه العراقيون في ذلك الوقت ، بل خاضوا صراعا ضد الدولة المظفرية في فارس ، التي كانت هي الاخرى تطمع في ضم العراق والسيطرة عليه •

ينتسب آل مظفر ، الذين استقروا في يزد الى امير خراساني ، وقد استعان بهم هولاكو اثناء زحفه على بغداد • واستمروا في خدمة المغول حتى اصبح لهم نفوذ واسع في الدولة الايلخانية وعهدوا اليهم امر جباية الضرائب ومحافظة الطرق وحكم بعض المدن في فارس • ويعلق المؤرخ العراقي الغياثي على نفوذ آل مظفر في عهد الايلخانيين بقوله «في دولة الترك احيوا دولة العجم» •

وبعد سقوط الايلخانيين استقل مبارز الدين محمد بن مظفر في اقليم فارس ، وخاض سلسلة من الحروب تمكن خلالها من ضم المدن الايرانية الواحدة بعد الاخرى ، واستقر بشيراز • وقد دفعته انتصاراته تلك الى ان يحلم باقامة امبراطورية واسعة ، تضم الاقطار الاسلامية الاخرى • ولكي يضفي على اطماعه طابعا شرعيا ، فقد اتى بشخص يقال له ابو بكر ابن المستكفي بالله ، ولقبه المعتضد بالله ، ونصبه خليفة • اما هو فأعلن نفسه نائبا للخليفة ، وتلقب بناصر امير المؤمنين •

وفي سنة ٧٦٠/١٣٥٨ ثار عليه ولده الشاه شجاع واستولى على الحكم في شيراز ، بعد ان سمل عيني ابيه وسجنه ، ثم شرع بتهديد العراق سيرا على خطه سلفه • واستغل وجود السلطان اويس في بغداد سنة ٧٦٥/٧٦٦ هـ فطلب منه الشاه أن يعمل على تهدئة الاوضاع بعد الثورة، ويسلم له العراق ، وان يعلن الخضوع والطاعة له ، محذرا اياه من المقاومة «انا الذي وصلت شهرة صلابتي مثل صيت فتوحاتي في انحاء البسيطة ونعل حصاني تاج قيصر وقباذ» •

وقد رد السلطان اويس على هذه التهديدات بتحذير الشاه من مغبة التحرش بالعراق «لا تفعل فتندم في النهاية من مكر الثعلب الظافر لجيش بغداد» • ومع معرفة الشاه بعدم قدرته على القيام بعمل ما ضد العراق ، بسبب قوة الجيش العراقي من جهة ، وبسبب الصراع بينه وبين اخوته على العرش من جهة اخرى ، لكن رسائل التهديد استمرت • فلم يجد اويس بداً من اللجوء الى العمل العسكري لردع الشاه ، فبادر الى تقديم دعمه لمحمود المظفري ، الاخ الأصغر للشاه شجاع وحاكم اصفهان وقم وقاشان سنة ٧٦٥/١٣٦٣ ، وكان ثائرا على الشاه ، فعد ذلك نصراً للجلائريين الذين امتد نفوذهم الى حدود كرمان وهرمز والخليج العربي •

اما الشاه شجاع فقد اخذ يتحين الفرصة لاسقاط الجلائريين واحتلال العراق • فأستغل موت السلطان اويس ٧٧٦/١٣٧٤ ، وهاجم تبريز في السنة التالية • لكن السلطان حسين الذي خلف والده على العرش تمكن من طرده منها ، بعد ان قدم من بغداد على رأس جيش عراقي كبير أمده به اخوه الشيخ علي حاكم العراق •

ولما تكررت هجمات المظفريين على تبريز وعلى بغداد ، اتجه السلطان حسين الى الحكومة المصرية عارضا عليها التحالف ضدهم سنة ١٣٨١/٧٨٣، غير ان هذا التحالف لم يكتب له النجاح ، اذ تمكن الامير احمد بن اويس من الاستيلاء على الحكم في تبريز ، بمؤامرة دبرها ضد اخيه السلطان حسين في العام التالي .

والتف الامراء ورجال الدولة في بغداد حول الشيخ علي ، الذي عزز استقلاله بعد ان تخلص من وزيره الفارسي اسماعيل بن زكريا ، ونصبوه سلطانا على العراق وساروا به على راس جيش عراقي كبير الى تبريز ، تمكن من الانتصار على السلطان احمد ، الذي هرب لائذا بحلفائه التركمان القره قوينلو ، وتمكن بواسطتهم من الانتصار على الشيخ علي وقتله .

ولم يحسّن المظفريون علاقتهم بالعراق بعد استيلاء السلطان احمد عليه بل ظلوا يدبرون المؤامرات للسيطرة على الحكم في بغداد .. وقد رد السلطان احمد على مواقف المظفريين العدائية هذه ، بتقديم دعمه العسكري لاحد افراد هذه الاسرة وهو الشاه منصور بن مظفر اليزدي سنة ١٣٨٤/٧٨٦ وتحريضه على احتلال تستر (شوشتر) فتمكن الشاه منصور من احتلالها وصار شوكة في جنب الدولة المظفرية . وهكذا ظل الصراع قائما بين العراق وفارس حتى وقع البلدان تحت سيطرة غاز جديد هو تيمور ، ٧٣٦-٨٠٧/ ١٣٣٦ - ١٤٠٥ .

٣ ـ في فترة الاحتلال التيموري

ما ان اوشك القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) على الانتهاء حتى بدأت قوات تيمور باجتياح ايران والعراق . ولم يحاول المظفريون

مقاومة الفاتح الجديد ، بل سرعان ما هادنه الشاه شجاع وارتبط معه برباط المصاهرة ، وأخذ يتزلف اليه ، لحد انه اوصى قبل موته سنة ١٣٨٤/٧٨٦ ان يكون تيمور وريثا للدولة المظفرية . وهكذا لم يجد تيمور مقاومة تذكر في فارس عند اندفاعه الاول نحوها سنة ١٣٨٧/٧٨٩ ، فأخذ يخطط للخطوة التالية وهي احتلال بغداد سنة ١٣٩٣/٧٩٥ .

وفي مثل تلك الظروف لم يُخفِ الفرس مواقفهم العدائية من العراق وتقديم كل مساعدة ممكنة لتيمور ، كما فعلوا مع هولاكو . سواء كان ذلك بترويج سلطته ، واعتبار توسعه الخارجي «كرامات صوفية تصدر عن الالهام الالهي والهاتف السماوي » وبتفسير الآية « واطيعوا الله والرسول واولي الامر منكم »ان ولي الله هو تيمور ، وانه المجدد للدين الاسلامي على رأس القرن الثامن الهجري ، كما افتى بذلك شريف الجرجاني . وبذلك فأن طاعته واجبة ، وان الانضواء تحت لوائه والاشتراك في فتوحاته يعد عملا جهاديا.ام كان ذلك بمراسلة تيمور وحثه على الزحف نحو بغداد،وبتقديم المعلومات العسكرية عن اوضاع العراق ، كما فعل مسعود الكججاني الذي كان بمثابة عين لتيمور في بغداد ، ثم اصبح من الملازمين له ، واخذ يمهد له الطريق لفتح الشام ومصر ، او باستقبال تيمور ، وتقديم فروض الطاعة له كما فعل نظام الدين شامي وهو تبريزي الاصل قطن ببغداد ، فألحقه تيمور بحاشيته والف له كتابا سماه « الظفرنامه » اي كتاب النصر . وقد كافأ تيمور الفرس على هذه المواقف بتعيين مسعود الخراساني حاكما على بغداد بعد احتلاله لها .

وسرعان ما استعاد الفرس نشاطهم بعد العناية التي اولاها تيمور

لفارس وللغة الفارسية ، في الوقت الذي واجه العراق نكبة كبيرة حين امر تيمور بتخريب دور العلم ونهب المكتبات ونقل كتبها الى عاصمته ، وكذلك تهجير العلماء والمفكرين والحرفيين ممن سلم من القتل،او ممن لم يسعفه الحظ بالهرب ، الى سمرقند والى المدن الايرانية •

وفي ذلك الوقت الذي فقد فيه العراق القدرة على التأثير في مجرى الاحداث ، قامت حركات فارسية تدعو لبعث دولة الفرس عن طريق الدعوات الدينية والغلو ، كما هي الحال في الحركات الفارسية السابقة • ومن تلك الدعوات « الحروفية » التي اسسها فضل الله الاسترابادي ، الذي قيل انه جاور النجف عشرين سنة ، واخذ يدعو الى اغفال الاحكام الشرعية ، وأوّل آيات القرآن ، واخذ يبشر بافكاره هذه في انحاء ايران • وفي ٧٨٦/١٣٨٤ ، اعلن مهديته ، وتلقى البيعة على ذلك سرا ، على ان يخرج بالسيف متى حان الوقت • وانتشرت دعوة الحروفية بعد قتله من قبل ميرانشاه بن تيمور سنة ٨٠٤/١٤٠١ ، على يد تلاميذه في ايران والعراق والشام •

ويرى اغلب الباحثين ان الحروفية لا تعدو عن كونها تعبيرا عن الروح الفارسية ، التي لا تتهيب الخوض في افكار الزندقة والغلو ، وانها حلقة في سلسلة الاضطرابات التي اشعلها العنصر الفارسي على العرب ، عن طريق التظاهر بالدين • فقد اعتبر الحروفيون مهدية فضل الله عليهم «رجعة لكيخسرو من غيبته في الغار » • واعتبار شخصه « مظهرا لمخلصهم القديم من الفتح العربي ، وقائدا للعنصر الفارسي بالسيف » • وميزت الحروفية اللغة الفارسية على اللغة العربية وجعلتها في المقام الاول ، واسبغت على النصوص التي كتبها فضل الله صفة الوحي •

٤ ــ في عهد التركمان القره قوينلو والآق قوينلو

لم يستمر حكم تيمور في العراق وايران طويلا ، فقد وضعت وفاته سنة ٨٠٧/١٤٠٤ نهاية لا مبراطوريته الواسعة ، وتقاسمها اولاده واحفاده • اما العراق فقد خضع لسلطة غزاة جدد هم التركمان القره قوينلو سنة ٨١٤/١٤١١ ، بعد ان احتلوا ديار بكر واذربيجان •

ولم تقم في عهد هؤلاء حكومات موحدة في هذه المناطق بل تقاسمها الامراء وابناء السلاطين ، فكانت اقرب لدويلات المدن منها الى الحكومات المركزية •

خاض العراق صراعا طويلا في عهد القره قوينلو ضد بقايا الدولة الجلائرية في الاحواز وجنوب العراق ، التي استمرت محاولاتها لاستعادة حكمها في بغداد حتى سنة ٨٣٥/١٤٣١ • كما واجه تهديدات مستمرة من قبل بقايا الدولة التيمورية في ايران ، حتى تمكن بيربوداق ابن جهانشاه حاكم بغداد ، من ضم فارس والمناطق المحيطة بها الى حكمه سنة ٨٥٦/١٤٥٤، واتخذ من شيراز مقرا لحكومته بدلا من بغداد • لكنه اضطر الى العودة الى بغداد بعد عشر سنوات وظل فيها حتى مقتله سنة ٨٧٠/١٤٦٦ •

ومنذ منتصف القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ، خاضت هذه الدولة حروبا مستمرة مع احدى الامارات العربية التي نشأت في الحويزة والأحواز ، تلك هي امارة المشعشعين ، التي تمكنت من احتلال الدورق وتستر ودزفول واخيرا هاجمت شيراز عاصمة بيربوداق سنة ٨٦٠/١٤٥٥ ، لكنها لم تتمكن من احتلالها •

واستمرت هذه الحروب حتى مقتل جها نشاه رئيس دولة القره قوينلو

سنة ٨٧٢/١٤٦٧ ، على يد حسن الطويل حاكم قبيلة التركمان الآق قوينلو في ديار بكر ، الذي مد نفوذه ليشمل ايران ، ووزع حكوماتها بين ابنائه وامرائه ثم احتل العراق .

وسرعان ما استأنف المشعشعون هجماتهم على المدن الخاضعة للآق قوينلو وظل العداء قائما بين الطرفين باستثناء فترة السلطان يعقوب ٨٨٣ـ٨٩٦/ ١٤٧٨ ـ ١٤٩٠ ، اذ تميزت العلاقات بطابع سلمي ، لكن فترة الهدوء هذه لم تستمر طويلا ، فما لبثت الاشتباكات ان تجددت بينهما ، واستمرت حتى بداية القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ليشهد العراق محاولات جديدة لغزوه واحتلال اراضيه على يد الدولة الصفوية .

الفصل الثاني

السياسة السوقية الأيرانية تجاه العراق في العصر الحديث

ان تاريخ العلاقات العراقية الايرانية في العصر الحديث لا يمثل جانبا منه في الاقل الا تاريخ التجاوز المستمر على الاقاليم الحدودية للعراق وضمها تدريجيا وبذرائع مختلفة الى الولايات الايرانية الغربية . ان الانتقاص الدائم من سيادة العراق ، مهما كان نوع السلطة فيه . على أراضيه الشرقية ، كان سببا رئيسا في توتر العلاقات السياسية بين السلطتين الايرانية والعثمانية وليس نتيجة له ، كما كان ، من نواح اخرى سببا في اراقة كثير من دماء سكان تلك الأراضي ، وتخريب مناطق واسعة وتعطيل الزراعة والري ، وجميع مظاهر الانتاج الاقتصادي فيها .

ولقد كانت العلاقات العثمانية الايرانية ذات طابع خاص محلي ودولي منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي . فقد كان ظهور الدولة الصفوية في ايران من جملة الاسباب التي احدثت انقلابا في ستراتيجية الدولة العثمانية ، فتوقف زحفها في اوربا او كاد ، وبدأ صراع طويل بين الدولتين .

وفي قمة التوسع الايراني ، تحالف الشاه اسماعيل الصفوي مع القوى الاوربية ، ليواجه قوتين كبيرتين ، الاتراك العثمانيين ويمتدون من طوروس والاناضول الى قلب اوربا الشرقية ، والمماليك الذين يمتدون من طوروس والشام حتى مصر والحجاز ، وهم في حرب مع البرتغاليين في المياه العربية الجنوبية .

تمتع العراق بأهمية ستراتيجية سياسية واقتصادية على مر العصور كان موضع اهتمام القوى العالمية ذات المصالح . وفي التاريخ الحديث احتدم الصراع بين الفرس والعثمانيين للاستيلاء عليه . وقد تمكن الشاه اسماعيل في سنة ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م ان يصفي دولة (الآق قوينلو) التي كانت تعاني الاحتضار منذ العقد الاخير من القرن الخامس عشر ، وخضعت بغداد للاحتلال الايراني وقدر لسكانها ان يعانوا مجددا الوانا من المآسي والفواجع .

بيد ان الاحتلال الايراني للعراق الذي استهدف الهوية القومية العربية واجه مقاومة عنيفة لاهاله ، كما ان ميزان القوى في الشرق الادنى ، بدأ يتغير في اعقاب موقعة جالديران سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م التي حطمت قوى الدولة الصفوية ، واهتز وجودها بعنف في العراق ، حيث انتهى نفوذها في المنطقة الشمالية التي اصبحت تحت الهيمنة العثمانية . ولم يستطع الشاه اسماعيل ان يقوم بعمل جدي سواء في اتجاه الشرق او الغرب حتى وفاته سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م ، بالرغم من تحالفه مع البرتغاليين الذين كانوا اشد القوى خطرا على العالم الاسلامي حينذاك ، وقد ساعدت سياسته هذه في تقوية التسلط البرتغالي على الخليج العربي .

وعندما تولى الشاه طهماسب عرش ايران سنة ١٥٢٤ ، استمرت سياسة التحالف الايراني – الاوربي لمتابعة الحرب ضد الدولة العثمانية . وهي سياسة خدمت اوربا التي كانت بحاجة الى اشغال العثمانيين والتخفيف من ضغطهم على حدودها . غير ان تردي الاوضاع الداخلية في ايران وتعرض أقاليمها الشرقية باستمرار لحملات قوات قبائل الاوزبك التركية في تركستان ، جعل تحالفها مع اوربا غير مجد .

وتمكنت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ – ١٥٦٦م) ان تشن حربا على ايران وتستولي على اجزاء منها ، وانتهت بتصفية الاحتلال الايراني في العراق عام ٩٤١ هـ / ١٥٣٤ م . وأمتد النفوذ العثماني بعد ذلك الى سواحل الخليج العربي الشمالية .

وبعد ذلك استمرت حالة الحرب بين الدولتين العثمانية والصفوية ، حتى عقدت في ٨ رجب ٩٦٢ هـ / ٢٩ مايس ١٥٥٥ م ، أول معاهدة بينهما ، عرفت بأسم « معاهدة أماسية » . بعد أن شعر كل من الطرفين ان به حاجة الى التعايش السلمي لمواجهة مشاكله الخاصة . مما جعل المعاهدة ليست بذات قيمة ، لان اسباب الصراع كانت قائمة بصفة مستمرة ، فتجددت الحرب مرات عديدة ، كما نقضت معاهدات عقدت في السنوات ١٥٩٠ و ١٦١١ و ١٦١٣ و ١٦١٨ .

وأيا كان شكل العلاقات بين العثمانيين والايرانيين ، فان العراق ظل ميدانا لصراعهما متجاهلين مصالح الشعب العراقي وامنه . وفي سنة ١٠٣٣ هـ/١٦٢٣ م انتهز الشاه عباس الاول فرصة تمرد وقع في الحامية العثمانية في بغداد قام به بكر صوباشي ، وزحف بقواته الى العراق وتمكن

من احتلال بغداد ، بعد مقاومة ضارية ، ويروي المؤرخ مرتضى نظمي زاده نقلا عن والده الذي عاصر هذه الاحداث ، ان القوات الايرانية فتكت بالكثير من السكان ، وان من سلم من القتل لم يسلم من التعذيب ، وان العديد منهم ارغموا على ترك بيوتهم ومغادرتها ، وان الامان الذي نودي به كان امانا خادعا ، اذ تلا ذلك اضطهاد منظم .

وسرعان ما لاح للشاه فائدة التعاون مع دول اوربا الاستعمارية بهدف تشكيل حلف سياسي - عسكري منه ومن تلك الدول ، يوحد جهودهم ، وينسق بين تحركاتهم ، ضد العدو المشترك لكلا الطرفين ، وهو الدولة العثمانية التي كانت تفرض سيادتها على شرق اوربا ومعظم الوطن العربي ، والوجود العربي المستحكم في طرق التجارة الدولية في الخليج العربي والمياه العربية الجنوبية ومناطق واسعة من المحيط الهندي . وعلى الرغم من الدعاوى الدينية للشاه الايراني ، بل واتخاذها ذريعة للتوسع على حساب جيرانه ، فانه لم يجد في اختلاف ايديولوجيته الدينية عن ايديولوجية الدول الاوربية التي كان يغذيها البابا بروح صليبية عارمة ، ما يحول دون عقد مثل هذا الاتفاق السوقي الخطير ، فكان من آثار تقارب المواقف والتعاون استعانة الشاه بأحد دهاة الانكليز ، وهو السير انطوني شيرلي لتنظيم شؤون دولته التوسعية ، وبخاصة الجيش بصنوفه المختلفة . ولم ينحصر دور شيرلي في شؤون التنظيم حسب ، وانما في وضع خطط التوسع الايراني نفسه . وكان من ابرز مظاهر التعاون الايراني - الاوربي المستهدف اساسا امن العراق وهويته القومية وفرض الهيمنة الاجنبية على الخليج العربي ، تلك السفارة المريبة التي قام بها شيرلي ، بتفويض كامل من الشاه عباس للاتصال

بـ « امراء اوربا » اي البابا وامبراطور المانيا وملكة انكلترا وملك ايكوس Ecosse واسبانيا وفرنسا وبولونيا ومجلس فينيسيا . وقد اشتملت رسالة الشاه ، التي حملها شيرلي على ما يأتي :

« ايها الامراء الذين يؤمنون بالسيد المسيح (!؟) اعلموا ان شيرلي عهد اليه بدعم الصداقة بيني وبينكم ، ان هذه الرغبة كانت تحدونا من زمان ولكن احدا لم يتقدم لتذليل على الطريق وازالة الحجب التي تفصلنا بعضا عن بعض .. وانه عندما يصلكم شيرلي يا امراء المسيحية ، فان رجاءنا ان تعتمدوه في كل ما يطلبه اليكم او ينقله عن شخصنا .. »

وتظهر التقارير ان مشروع الشاه كان موجها ضد « العدو المشترك » الباب العالي ، وان المشروع قوبل بكل ترحاب من قبل ملوك اوربا آنذاك .

ان حقبة الضعف التي كانت تمر بها الدولة العثمانية حينذاك ، لم تكن أقل تأثيرا في تمهيد الامر لهذا الاحتلال الايراني ، اذ يذكر المؤرخ كريسي « انه كانت تصل من كل اجزاء الدولة الرسائل حاملة أنباء لا تسر .. وان في القسطنطينية نفسها ، كانت هناك خزينة خاوية ، ودار صناعة معطلة ، ومخازن للذخيرة هزيلة .. » .

وفي سنة ١٦٢٥ جرت المحاولة الاولى لطرد الايرانيين ، ذلك ان طموح البلاط العثماني كان ملحا في استعادة بغداد منذ اللحظة التي أضيعت فيها . وقد اسفرت أولى العمليات العسكرية التي دارت في شهر زور عن ايقاع الهزيمة بالايرانيين وتصفية نفوذهم هناك . وواصلت القوات العثمانية التي كانت بقيادة الصدر الاعظم حافظ أحمد باشا تقدمها باتجاه بغداد ، فاثار

ذلك ذعر القيادة الفارسية التي سارعت بارسال الامدادات ، وتحرك الشاه
عباس بجيشه من اصفهان ، غير ان طلائع الجيش الايراني هزمت وفرض
الحصار على بغداد ، وخلال مدة الحصار التي دامت تسعة اشهر ، جرت
مفاوضات بين الطرفين لم تسفر عن شيء • ولما كانت القوات العثمانية
غير مستندة الى مدفعية كافية ولا مجهزة بالذخيرة اللازمة فان الحملة انتهت
بالخيبة ، وتراجعت القوات عن بغداد •

وقد قضت الاضطرابات الداخلية التي كانت تمر بها الدولة العثمانية
في تلك الحقبة ، ان تنصرم أعوام ثلاثة دون ان تظهر علامات الاستعداد
ثانية للزحف نحو بغداد التي كانت ترزح تحت كابوس الاحتلال الايراني •
وفي سنة ١٠٣٨هـ / ١٦٢٩م شهد العراق مرة اخرى مواجهة عسكرية بين
الطرفين ، وتمكنت القوات العثمانية من تطويق بغداد والضغط على الحامية
الفارسية ، الا ان الحصار الذي دام اربعين يوما ، خاب ثانية ، وتم التراجع
عن بغداد بصورة منتظمة ، ودون أن يتمكن الايرانيون من اعاقته • ويعزى
سبب الاخفاق ، الى ان القوات العثمانية قد استنفدت معظم عتادها في
العمليات العسكرية التي قامت بها في الاراضي الايرانية ، قبل ان تتوجه
الى هدفها بغداد ، حيث هاجمت همذان واقتربت في تقدمها من مدينة قزوين
كما ان قواها قد انهكت في الشهور العديدة التي قضتها في الجبهة
الشرقية •

ان مزيدا من الاضطرابات قد حدث في العاصمة العثمانية ، بعد وصول
أنباء فشل المحاولة الثانية لطرد الايرانيين من بغداد • ويذكر كريسي ان
وضعا شاذا قد ساد الدولة ، وان الانكشارية تمردوا في السراي نفسه ، وكاد

تمردهم ان يطيح بالسلطان مراد الرابع • ولكن صرامة السلطان انقذت
البلاد ، « وكان أسوأ العسف الذي قام به أهون شرا على الدولة من
الفوضوية العسكرية التي قضى عليها » •

ومنذ ذلك الوقت برهن السلطان على أنه المعيد الحقيقي للصحة
والحياة في جسم دولته ، وبات في حكم المقرر توجيه حملة قوية على الفرس
وتصفية وجودهم في بغداد • في سنة ١٠٤٨هـ/١٦٣٨م شرع مراد الرابع في
تحقيق هذا الهدف ، وقاد جيشه متوجها نحو العراق • وعند وصوله بغداد
اتخذ مواقعه في مواجهة اسوارها • وخلال الايام الاولى من القتال تمت عملية
الاطباق الكلي على الحامية الايرانية ، واشتد الهجوم على جميع مواقعها
القائمة عند ابواب بغداد الاربعة • ورفض السلطان طلباً لعقد الصلح تقدم
به الشاه صفي عن طريق مبعوث خاص • وقد تواصل القتال الضارى بين
الطرفين اربعين يوما ، حيث أعلن القادة الايرانيون الاستسلام ، وتم
الاستيلاء على بغداد في ١٨ شعبان ١٠٤٨هـ / ٢٥ كانون الاول ١٦٣٨م • وبعد
ان أسند السلطان حكم المدينة الى حسن باشا الصغير اغا الانكشارية ووضع
حامية مؤلفة من ثمانية آلاف جندي ، ترك بغداد في رمضان ١٠٤٨هـ / شباط
١٦٣٩م عائدا الى عاصمته •

ان هزيمة الايرانيين قادت بالنهاية الى عقد معاهدة صلح وتحديد للحدود
بين الدولتين في ١٤ محرم ١٠٤٩هـ /١٧ مايس ١٦٣٩م ، عرفت بـ « معاهدة
زهاب » ، وقد شكلت نصوصها اساسا من أسس المعاهدات التالية • ويتبين
من دراستها ان النفوذ الايراني غربي جبال زاغروس قد زال وبقي
في شرقيها فقط ، وانما عينت الحدود بين الدولتين على قاعدة مناطق حدود ،

وليس على أساس خط للحدود ، وهو الذي تبدأ به سيادة الدولة وينتهي بسيادة دولة أخرى ، كما ان صياغة المعاهدة ما كانت لتحسم الخلافات بين الدولتين حول الحدود . ومما هو جدير بالذكر انها لم تتعرض لشط العرب ، وفي هذا سند قوي بأن شط العرب بضفتيه يخضع بلا جدال لسيادة الدولة العثمانية .

ان معاهدة زهاب حتى لو كانت تناولت حل مشكلات الحدود بصورة تفصيلية وعلمية ، فمن المشكوك فيه انها سوف تنهي النزاع بين الدولتين تماما لما تعتورها من ملابسات واطماع . واذا قدر لهذا الصلح ان يدوم حقبة تمتد الى ثمانين عاما ، دون أن يعكره أي قتال جدي بينهما ، فأن ذلك يمكن ان يعزى الى انشغال الدولة العثمانية بحروبها الاوربية والدولة الصفوية بمشكلاتها الداخلية حيث كانت ايران في تلك المرحلة قد شهدت تزايد انحلال الاسرة الصفوية الحاكمة وسيرها نحو الانهيار بخطى سريعة ، وما رافق ذلك من موجات عاصفة من الاضطراب وعدم الاستقرار وصلت مداها خلال العقد الثالث من القرن الثامن عشر بتمزق ايران على اثر سقوط الحكم الصفوي سنة ١١٣٥ هـ / ١٧٢٢ م .

عاد العراق منذ العقد الرابع من القرن الثامن عشر ، ميدان نزاع مسلح بين العثمانيين والفرس ، وتعرضت مدنه باستمرار لعدوان قوات الطرفين اللذين توالى غزوهما للعراق ، فقد غزته قوات الايرانيين بقيادة نادر قلي الذي عرف فيما بعد بنادر شاه وكان ظهور هذا القائد في ايران ايذانا بتحولات عسكرية وسياسية مهمة في المنطقة ، عانى منها العراق والخليج العربي الكثير . فلقد استطاع هذا القائد المغامر الذي ينتمي الى قبيلة افشار

التركمانية ان يستغل حالة الفوضى والتمزق التي سادت ايران على اثر الغزو الافغاني والروسي والعثماني ، ليوسع من نفوذه بصفته زعيما لقبيلته من ناحية ، وحاكما على احدى مدن خراسان ، مما دفع بالشاه طهماسب مرزا المدعي بالعرش الصفوى الى ان يكسبه الى جانبه ويلحقه بخدمته كأحد اخص قادته واستطاع نادر ان يستفيد من اضفاء ثوب الشرعية على اعماله من قبل هذا المدعي بالعرش فادعى انه انما يتوسع باسم سيده ، فضم ، على هذا النحو ، خراسان وبلاد الافغان ، مما دعا بالشاه طهماسب الى ان يرقيه ليكون قائدا عاما لقواته ، مانحا اياه لقب « طهماسب قولي خان » أي عبد طهماسب ، وتمكن نادر بعد هذا من الحاق الهزيمة بقوات الافغانيين التي كان يتزعمها اشرف خان في معركة عند نهر مهماندوست سنة ١١٣٧هـ/ ١٧٢٥ م ، فتخلى الافغانيون على اثرها عن العاصمة اصفهان منسحبين الى شيراز ، ودخل نادر بقواته اصفهان ليعلن عودة الحكم الصفوي الى ايران ، ثم لينطلق بعدها لملاحقة القوات الافغانية في جنوبي البلاد ، وفي ناحية شمال شرق شيراز حدث الصدام المتوقع بين قوات الطرفين ، فكان النصر حليفا لنادر ، وتقهقر الافغان نحو بلادهم الاصلية (نواحي قندهار) فاقدين بذلك معظم قواتهم ، وقائدهم اشرف خان نفسه .

وبعد هزيمة الافغان وسقوط اصفهان ، وجه نادر اهتمامه صوب العثمانيين ، الذين كانوا يسيطرون على مناطق واسعة من غربي ايران ، فقام بمهاجمة الحامية العثمانية في نهاوند ، واحتلال المدينة سنة ١١٤٢هـ/١٧٣٠م، ومنها مضى ليستولى على جميع المدن الخاضعة لسيادة العثمانيين ، واهمها همذان واردلان وكرمنشاه ، اضافة الى مناطق الشمال وعاصمتها تبريز . ولم يحل انتصار العثمانيين المؤقت على قوات الشاه سنة ١١٤٤هـ/١٧٣١م دون

مضي نادر في سياسته العسكرية ، وأنكر المعاهدة الموقعة من الطرفين الصفوي والعثماني ، وعين نفسه وصيا على الشاه الطفل عباس ميرزا ، بعد ان نحى اباه طهماسب عن العرش وتسلم هو مقاليد السلطة الفعلية في البلاد .

وسرعان ما كشفت اعمال نادر التالية عن حقيقة نواياه التوسعية ، واطماعه الرامية نحو احتلال العراق والسيطرة على مقدراته السياسية والاقتصادية ، متذرعا بعلل واهية ، كلما اعوزته الظروف ذلك . ففي خريف ١١٤٥ هـ / ١٧٣٢ م بدأ نادر شاه زحفه من العاصمة اصفهان باتجاه الحدود العراقية ، وبعث برسالة الى احمد باشا يتوعده فيها وينذره بانه زاحف نحو بغداد لاحتلالها حيث خاطبه قائلا : « نحن سائرون حالا على رأس جيشنا المظفر لنتنسم هواء سهول بغداد العليل ولنستريح في ظل اسوارها » . فأسرع احمد باشا بتحصين مواقع الحدود في درنة ومندلي وبدرة وعزز حامياته في زهاب وقصر شيرين ، ثم أصلح مراكز الدفاع الموجودة في سور بغداد .

وقد واجهت القوات الايرانية التي كانت تقدر بمائة الف جندي ، مقاومة عنيفة خلال توغلها في الاراضي العراقية أجبرتها على التقهقر في عدة مناطق .

وكانت تلك القوات قد توزعت عند دخولها الاراضي العراقية ضمن عدة محاور فتقدم قسم منها باتجاه كركوك ـ اربيل وقسم باتجاه الموصل ، في حين كانت القوة الرئيسية تواصل زحفها نحو بغداد ، وقد اضطرت القوات الايرانية في محوري كركوك ـ اربيل والموصل الى التقهقر بعد ان تكبدت خسائر فادحة وقتل قائد القوات المهاجمة للموصل .

وفي اواخر رجب ١١٤٥هـ / كانون الاول ١٧٣٢م ، بدأ نادر شاه بفرض حصاره على الجانب الشرقي من بغداد واستعان بمهندس أوربي كان يرافقه في حملته ، وفي انشاء جسر عائم من جذوع النخيل ، على بعد عدة اميال من شمال بغداد ، وذلك لتمكين القوات الايرانية من العبور الى الجانب الايمن من نهر دجلة ، واذ ذاك أمر احمد باشا سكان جانب الكرخ بالانسحاب العام الى الرصافة ليكونوا في حماية سورها المنيع ، وفي اثناء ذلك كانت ارتال من القوات الايرانية قد بعثها نادر شاه لاحتلال سامراء والحلة وكربلاء والنجف والحسكة .

ومن آثار الضيق الذي أصبح عليه السكان في بغداد بسبب الحصار الذي فرض عليها ان أخذت ويلات المجاعة شكلا مروعا فأكل الناس لحوم الحمير والكلاب والقطط وانتشرت الاوبئة ، وبلغت الحالة ـ كما يصفها الشيخ عبدالرحمن السويدي ـ انه اثناء خروجه من المسجد بعد انتهاء صلاة الجمعة ، شاهد في طريقة امرأة منكبة على جيفة حمار وبيدها سكين تقطع من لحمه وتضعه في حجرها ، وبالرغم من ذلك فان القيادة الايرانية حين دعت بغداد للاستسلام ، تلقت خطابا شديد اللهجة من وجهائها وعلمائها جاء فيه : « نحن لا نسلم حجرا من احجار بغداد حتى نقبر في مكاننا هذا ، وان ذخيرتنا كافية ومددنا كثيرة العدد متواصلة المدد ، ولم يكن توقفنا عن مناوشتكم في بعض الايام دون حكمة ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » .

وفي اليوم السادس من صفر ١١٤٦هـ/١٩ تموز ١٧٣٣م دارت معركة حامية بالقرب من الدجيل استمرت تسع ساعات متواصلة وانتهت بهزيمة

القوات الايرانية وتكبدها خسائر فادحة تقدر بثلاثين الف قتيل وثلاثة آلاف أسير ، اضافة الى فقدانهم لمدفعيتهم وذخائرهم ، وهرب قائدهم نادر شاه ومعه فلول قواته المنهزمة عن طريق بهرز باتجاه الاراضي الايرانية • ويقال بأن الغنائم التي جمعت من المعركة ، تكفي لتحصين وتسليح مدينة جديدة • اما بغداد التي مضى على حصارها سبعة شهور ، فان حاميتها قامت عند وصول انباء الانتصار بمهاجمة القوة الايرانية عند اسوارها ، فقتل معظم افرادها وهرب الباقون •

وبعد حوالي الثلاثة شهور ، عاودت ايران عدوانها على الاراضي العراقية في محاولة يائسة اخرى ، لازالة الهزيمة التي لحقت بها من قبل ، فعبرت قواتها الحدود العراقية ، وتقدمت ارتال منها باتجاه محور كركوك ـ اربيل ، وعند وصولها سهل ليلان جنوبي شرقي كركوك في الخامس عشر من جمادى الاولى ١١٤٦هـ / ٢٤ تشرين الاول ١٧٣٣ م ، واجهت مقاومة عنيفة ، ثم دارت معركة حامية عند مضيق (اق دربند) ، اسفرت عن تكبد الطرفين خسائر فادحة • وقد أضطر نادر شاه الى طلب الصلح لاسيما انه تلقى اخبارا عن تفاقم الاضطرابات في مختلف انحاء ايران ، وقيام (محمد خان بلوج) حاكم اقليم فارس بثورة للاطاحة بحكمه •

وبعد مفاوضات استمرت اكثر من اسبوع ، عقدت معاهدة صلح في اليوم الحادي عشر من رجب ١١٤٦هـ/١٩ كانون الاول ١٧٣٣ ، عدت فيها الحدود بين الدولتين كما خططتها معاهدة زهاب سنة ١٦٣٩ •

غير ان اطماع ايران لم تحل دونها أية معاهدة ، اذ عاودت عدوانها على العراق مرة اخرى ، وتركز في هذه المرة على البصرة • ففي نيسان

١٧٣٥م/١١٤٨هـ دخلت الى شط العرب ثلاث سفن ايرانية من نوع (الغراب) وخمسون سفينة كبيرة من نوع (الترانكي) ، بالاضافة الى قوة ايرانية برية مؤلفة من ثمانين الف جندي ، بدأت بالتقدم أعلى النهر • وعند الجزء الضيق من شط العرب ، أسفل البصرة بخمسة عشر ميلا ، دار قتال مرير لمدة ثلاثة ايام انتهى بانسحاب القوات المعتدية •

ويذكر جون غوردن لوريمر في كتابه : « دليل الخليج » ، ان نادر شاه طلب من الانكليز ان يساعدوه في عدوانه على البصرة ، غير ان سلطات بومباي أصدرت اوامر حاسمة لممثلها في بندر عباس بالا يضع أية سفينة من السفن الحربية العائدة الى شركة الهند الشرقية في خدمته او تحت تصرفه ، اذ كانت تخشى من تعرض مصالحها الى الخطر •

عدوان سنة ١٧٤٣ وحصار المدن العراقية

وفي سنة ١١٥٦هـ/١٧٤٣م شنت ايران هجوما واسعا على العراق ، حيث عبرت قواتها بقيادة الشاه نفسه ، وكانت تقدر بمائة وسبعين الف جندي ، الحدود من جهة مندلي وشهرزور ، وتقدمت باتجاه محور كركوك ـ اربيل • ولما كان هدف القوات الايرانية الاستيلاء على بغداد ، فان خطتها كانت ترمي الى السيطرة على الموصل اولا ، وذلك لقطع خطوط المواصلات بين القيادة العثمانية وبغداد مما يسهل احتلالها من قبلهم ، لذلك واصلت تلك القوات تقدمها نحو الموصل ، التي كانت قد تسربت اليها انباء من القوات الايرانية نفسها عن الخطة المبيتة ، فاستعدت للدفاع عن كيانها بحماس شعبي منقطع النظير ، وهيأت الخنادق واصلحت الاجزاء المتصدعة من سور المدينة ، وحصنت القلاع بالمدافع ، وتجهزت بالذخيرة اللازمة •

وقد بعث نادر شاه ، وهو في طريق تقدمه نحو الموصل ، بخطاب يحذر فيه أهاليها من مغبة المقاومة ويدعوهم الى الاستسلام ، ولكن الموصل اجابت بخطاب شديد اللهجة ، بعد ان شهدت اجتماعا شعبيا كبيرا ، وقد جاء في الرد : « فما وعيدكم عندنا الا كصرير باب ، أو كما طن في لوح الهجير ذباب ، أفرأيتم ان القصاب يقهره كثرة الغنم ، أو الاسد الغشمشم يدهشه تراكم النعم، كلا ستعلمون ثم كلا ستعلمون الرقاع بالقراع ، ونحن الاسود الضارية ، والسباع الكواسر العادية ، اسيافنا صقيلة ، وسطوتنا ثقيلة ، وحلومنا رزينة ، وقلوبنا كالحديد متينة ، وبلدتنا – بحمد الله – حصينة .. فلا سمعا لكم ولا طاعة وأهلا بالسعادة والشهادة هذه الساعة ، فيما بيننا الا ما صنع الحداد من سيوف حداد ورماح مداد » .

وفي ٢١ رجب ١١٥٦ هـ / ١٠ ايلول ١٧٤٣ م ، شوهدت قوات ايرانية تتقدم باتجاه قرية (يارمجة) شرق دجلة على بعد زهاء خمسة كيلو مترات عن مدينة الموصل ، فاسرع الوالي حسين باشا الجليلي من الاسرة الجليلية العربية الحاكمة في الموصل آنذاك بارسال ثلة من الخيالة يقدر عددها بثمانمائة مقاتل ويقودها اخوه الشاب عبدالفتاح بك الجليلي للتصدي لها ، وبعد قتال عنيف ، تمكنت هذه القوة من الانسحاب الى المدينة على الرغم من محاولة الايرانيين قطع طريق عودتها .

وبعد اربعة ايام وصل الشاه وقواته الى (يارمجة) ، فعسكر فيها ، وأمر بنصب المعابر على دجلة ، أعلى واسفل الموصل ، وارسل قسما من قواته الى الجانب الغربي من النهر ، كي يكملوا الالتفاف حول المدينة . وفي الوقت نفسه بعث رسولا الى الوالي الجليلي محذرا اياه من بطشه – على حد زعمه –

فجاءه الجواب : « وما بيننا وبينك الا السيف واذا أرسلت سفيرا آخر نرجعه اليك بلا رأس » .

وقد بدأ الايرانيون ، بعد ان احاطوا بالمدينة تماما ، باقامة المتاريس والاستحكامات ، حيث شيدوا في مواجهة ابراج سور المدينة ، اثنى عشر برجا تحتمي بها مدفعيتهم التي كانت تتكون من (١٦٠) مدفعا ثقيلا و (٢٣٠) مدفعا من مدافع الهاون . وقد فتحت هذه المدافع نيرانها مرة واحدة في ٦ شعبان ١١٥٦هـ/٢٥ ايلول ١٧٤٣ م ، ولمدة ثلاثة ايام بلياليها دون توقف ومن كل اتجاه ، وتصدع السور في عدة أماكن ، ولكن المدافعين الذين كانوا مسلحين بالايمان والشجاعة ، كانوا دائما يتمكنون من اصلاح الثغرات قبل ان يجد الايرانيون سبيلا الى النفاذ خلالها . وتصف المصادر المحلية المقاومة الباسلة والرائعة التي أبداها أهالي الموصل ، وكيف ان قنابل المدفعية الايرانية التي (كانت نهارا تتساقط على الاسوار كالمطر ، وليلا تتناثر كنجوم من اديم السماء) لم تكن تؤثر في عزيمتهم وصمودهم وهذا ما جعل نادر شاه ينقل مقر قيادته من (يارمجة) الى موقع قريب من المدينة ، ليشرف بنفسه على القتال ، فأمر بقصف مدفعي شديد لبرج (باش طابية) في شمال الموصل ، حيث مقر الحكومة ، فتعالت من البرج اصوات التكبير ، وردت مدفعيته باطلاق النار على المهاجمين ، بيد أن غزارة القصف أدت الى تهدم جانب من البرج ، لكن المجهودات العظيمة التي بذلت احكمت البرج من جديد . وواجهت القوات الايرانية ضربات رادعة وقوية عندما حاولت النفاذ الى المدينة ، وتكبدت عددا من القتلى . وتوالى هدير المدافع خمسة ايام اخرى دون انقطاع قدر ما القي على الموصل خلالها بـ ٤٠٫٠٠٠ أو ٥٠٫٠٠٠ قنبلة

مدفع ، و ١٠٠ر٠٠٠ قذيفة هاون ، ولم تنجح محاولة الشاه في ثني العراقيين عن المقاومة بتحويل احدى شعبتي نهر دجلة ، وهو مورد اهل الموصل الرئيسي ، في تحقيق هدفه ، فقد شرب الموصليون مياه الآبار دون ان يؤثر ذلك في صحة عزائمهم .

وبعد ان وجد نادر شاه ثبات اهل الموصل وصمودهم ، وتكبد قواته الكثير من الخسائر ونفاذ مؤنه ، يئس من الاستيلاء على المدينة ، وأدرك عدم جدوى القتال ، فاضطر الى ان يطلب الصلح .

ويذكر نيبور ، ان حصار الموصل أظهر ان الايرانيين لا يحسنون فن المدفعية ، وانهم لا يعرفون شيئا من فنون حصار القلاع .

وفي ٤ رمضان ١١٥٦ هـ / ٢٢ تشرين الاول ١٧٤٣ م ، انسحب نادر شاه بقواته الى الوسط بعد حصار للموصل دام اكثر من أربعين يوما ، تعرضت خلالها قرى الموصل الى التخريب بشكل ليس له نظير على يد القوات الايرانية ، كما نهبت واحرقت أديرة عديدة .

ان صمود الموصل افشل جميع مخططات الشاه التوسعية ، خاصة وان قواته التي قد بعثها الى بغداد والبصرة لم تتمكن ايضا من تحقيق اهدافها ، بالرغم من اعمال القتل والتدمير التي قامت بها في معظم قرى هاتين المدينتين ونواحيهما . ولذلك عقد الشاه صلحا مع والي بغداد احمد باشا ، الذي اشترط عليه الانسحاب الفوري من الاراضي العراقية .

وكانت البصرة ، خلال الحصار الايراني للموصل ، تواجه عدوانا ايرانيا اذ قامت في ٧ رجب ١١٥٦هـ/٢٨ آب ١٧٤٣م ، قوات ايرانية تبلغ

اكثر من اثنى عشر الف جندي باجتياز شط العرب على جسر من الزوارق شيد لهذا الغرض ، او بواسطة السفن ، وبعد اتمام عملية العبور الى الضفة الغربية من الشط ، واصل الجيش تقدمه بمحاذاة النهر ، فاستولى على قرية (السيبليات) الواقعة على ضفة شط العرب ، على بعد ١٣ كيلومتر من مدينة البصرة حيث ارتكب مذبحة رهيبة ، قتل فيها الرجال ، واسترق النساء والاطفال . ثم واصل تقدمه مجتازا الانهار والجداول العديدة التي تأخذ مياهها من شط العرب ، حتى وصل الى قرية السراجي ، على النهر المنسوب اليها ، وهي قرية تبعد عن البصرة زهاء كيلومترين فقط ، فاستولى عليها ، وارتكب فيها مذبحة كما فعل في سابقتها . وعاثت قوات الغزو في عدد من القرى في حين اضطرت قرى اخرى الى اعلان خضوعها للغزاة ، خشية تعرضها الى نفس المصير .

ولم تنج (الزبير) وهي بلدة مهمة تقع على حافة البادية ، الى الجنوب من البصرة ، من الغزو والتخريب ، ولم يتوان الغزاة عن تدمير قبور الاموات ايضا فهدمت القبتان الضخمتان اللتان كانتا على مرقدي طلحة والزبير ، كما اتلفت بعض الاضرحة والاماكن الاخرى .

وفي ١٨ آب وصلت القوات الايرانية الى البصرة ، وبدأت حصارها بالفعل في ٢٨ من الشهر نفسه . وفي اول ايلول ارسل امير الحويزة عبد الله بن فرج برسالة الى حكومة البصرة حاول فيها استمالة مختلف فئات المجتمع البصري واقناعهم بالاستسلام . وازاء رفض القيادة البصرية للعرض ، واصلت القوات الغازية حصارها المفروض على المدينة ، الا ان تكافؤ الاسلحة لدى المهاجمين والمحاصرين وقف ـ على ما يبدو ـ حائلا دون نصر سريع يحققه احد الطرفين على الآخر .

وفشلت عدة هجمات شنتها القوات الغازية في اثناء الحصار ، فقد كانت هذه القوات تفتقر الى مدفعية ثقيلة ، كما ان تسليحها كان ، بوجه عام ، تسليحا خفيفا ، وقد احست القيادة الايرانية بهذا النقص وكانت التقارير المرفوعة الى نادر شاه تطالب بتزويد الحملة بمدفعية ثقيلة العيار ، يمكن ان تلعب دورا حاسما في الحرب •

وفي ٢٧ تشرين الثاني وصلت الى مواقع القوات المهاجمة مدافع ثقيلة لاستخدامها في الحصار • ورغم عدم وجود معلومات عن عدد هذه المدافع ومدى فاعليتها فان بامكان المرء أن يتصور أهميتها في تعزيز القوات الغازية ، فقد قصفت المدينة قصفا شديدا اضر ببعض منشآتها ، واشار السويدي الى هذا القصف بقوله (فحاصروها مع اضرام نار الحرب بين البين ، واشتعال الاطواب والقنابر بين الجانبين) • وقد استمر القصف ليل نهار ، اصيبت فيه بعض المباني المهمة مثل القنصلية الفرنسية وخان الكرمليين ، وهي مبان كانت تقع في القسم الاعلى من المدينة •

ثم شددت القيادة الايرانية من ضغطها على القوات المدافعة فازداد قصف مدافعها • وقامت قواتهم بهجوم آخر ، الا ان قوات البصرة نجحت مرة اخرى في صدها ودحرها ، وبذلك فشلت آخر محاولة لجيش نادر شاه لاسقاط المدينة ، كما فشل في الوقت نفسه في فتح مدينتي الموصل وبغداد •

ان فشل حصار نادر شاه حرمه من الاستفادة من عامل الزمن المحسوب في خطته ، فقد استغرقت عملياته في العراق من الوقت ما ضيع عليه تحقيق انتصارات عسكرية سريعة ، تعزز مكانته لدى قواده وشعبه ، وهو امر

سرعان ما اثار مزيدا من السخط والتذمر بين اتباعه ، واظهر معالم التمرد والثورة في بلاده ، هذا بالاضافة الى افساحه المجال امام العثمانيين للتحرك ضده ، وبخاصة في مناطق التخوم التقليدية في شرق الاناضول •

وفي اوائل كانون الاول أظهر نادر شاه تنازله عن معظم مطاليبه السابقة واضطر الى الاتفاق مع احمد باشا والي بغداد على الصلح تمهيدا لعقد معاهدة سياسية معتدلة وقد عقدت في سنة ١٧٤٦ •

وقد ادى انشغال ايران بمشاكلها الداخلية ، على اثر مصرع نادر شاه في سنة ١١٦٠هـ/١٧٤٧م الذي كان ايذانا بانتشار الفوضى في جميع ارجاء البلاد ، حيث بدأت صراعات دموية على العرش ، الى ان يكون العراق في مأمن من الغزو الايراني مدة عشر سنوات •

ولم تقتصر السياسة الايرانية على ما تقدم وانما اتخذت صورة أوسع لاسيما في عهد كريم خان الزند الذي تولى السلطة في ايران سنة ١٧٥٧ وغزا البصرة سنة ١١٨٩هـ / ١٧٥٧م • ويقدم بعض الاوربيين المختصين بشؤون الخليج العربي تفسيرا لذلك فيقول مالكولم ان كريم خان أراد بغزوه للبصرة اشغال الجيش الايراني بمهمات خارج الحدود بعد ان شعر بوجود تذمر بين صفوفه • ويرى لوريمر ان هناك ما يشير الى اعتقاد كريم خان بأن احتلاله للبصرة يساعده على اخضاع عُمان التي كانت أغلب تجارتها مع هذا الميناء ويساعده ايضا على احباط السياسة التي أتبعها الوكيل الانكليزي في البصرة والتي تهدف الى مقاطعة الموانىء الايرانية وجعل البصرة مركزا رئيسا للتجارة جميعا • أما مايلز فيعتقد ان هزيمة الجيش

الايراني في شمال العراق (*) هي التي دفعت كريم خان الى التفكير بشن الحرب على نطاق واسع • وكان من المتوقع ان ينتقم بعمل ضد بغداد او البصرة • وكانت الثانية هي أرجح الاحتمالين حيث ان كريم خان كان مغتاظا من النجاح التجاري الذي احرزته البصرة التي اتسعت عوائدها وتزايدت أهميتها في تلك المرحلة ، في حين تضاءلت الاهمية التجارية لميناء بوشهر بعد ان اغلقت شركة الهند الشرقية الانكليزية وكالتها التجارية (**) في هذا الميناء بسبب متاعبها مع كريم خان ، وتركزت في البصرة جميع تجارتها مع الخليج العربي ، ومن ثم كان انهيار تجارة بوشهر محتوما •

والحقيقة ان الغزو الايراني للبصرة وان كانت بعض اسبابه تتعلق

(*) لقد شهدت المنطقة الكردية اندفاعا عسكريا ايرانيا مستمرا لاحتلال الاراضي العراقية وعلى سبيل المثال ما شهدته المنطقة من عدوان ايراني ايام حكم نادر شاه وكريم خان الزند وهما من ابرار منفذي السياسة الايرانية التوسعية فلقد اندفعت القوات الايرانية باعداد كبيرة عبر اذربيجان الى سنندج ومن هناك اتخذت مسار تقدمها باتجاه مريوان وهنا تصدت لها القوات العراقية التي شارك فيها الاكراد مشاركة فاعلة والحقوا بها خسائر فادحة مما اضطرها على التقهقر في مناطق عديدة وفي عهد كريم خان الزند شنت ايران هجوما واسعا على شمالي العراق في عام ١٧٧٤ حيث تقدمت قوات تعدادها عشرة آلاف جندي باتجاه السليمانية غير انها دحرت بعد معركة خارجية بالقرب من قلاجولان وهي مركز الامارة الكردية البابانية قبل انتقالها الى السليمانية التي بقيت عام ١٧٨٤ وقد اخذ قائدالقوات المهاجمة اسيرا الى بغداد (دوحة الوزراء ، ١٤٩) •

(**) اقامت شركة الهند الشرقية الانكليزية وكالتها التجارية في بوشهر سنة ١٧٦٣م بعد غلق مكتبها التجاري في ميناء بندر عباس (كانت تسمى غومبرون ثم صارت تدعى بندر عباس منذ سنة ١٦٢٢م) . حيث تعرض لهجوم الفرنسيين سنة ١٧٥٩م . انظر جان جاك بيربيي ، الخليج العربي ، ٢١٥ ، ولسون ، ص٢٠٥ .

بتجارة البصرة كما أشار لوريمر ومايلز ، الا انه لا يخرج عن نطاق المشاريع الايرانية التوسعية • فقد سبق أن تعرضت البصرة ـ كما أشرنا ـ لغزو ايراني في السنوات ١٦٣٤ و ١٦٢٥ و ١٦٢٩ ، ١٧٣٥ و ١٧٤٣ •

ومهما يكن من أمر ، فان كريم خان كان يبحث عن ذريعة لتحقيق أطماعه التوسعية تكون بمثابة عود ثقاب يشعل بها نار الحرب ، فطالب برأس والي بغداد مدعيا انه يسيء معاملة التجار الايرانيين ويسلب اموالهم ، كما اتهم حكومة بغداد بتقديم المساعدة الى أحمد بن سعيد إمام عمان ، وكان كريم خان قد أبدى رغبته في مشاركة السفن الانكليزية والعثمانية في الهجوم الذي ينوى القيام به ضد عمان ولمح بأنه سيغزو البصرة اذا لم يجب مطلبه •

ولم يكن موقف كريم خان الا حجة لاعلان الحرب على العراق ، فقبل أن يتلقى جواب حكومة بغداد ، شنت القوات الايرانية عدوانا واسعا على العراق من عدة جبهات • اذ تحركت من شيراز لمهاجمة البصرة قوات تعدادها خمسون الفا بقيادة صادق خان ـ شقيق كريم خان ـ اضافة الى قطعات بحرية تتكون من حوالي ثلاثين سفينة صغيرة ، وفي الوقت نفسه كانت هناك قوات ايرانية أخرى يقدر عددها بعشرين الفا قد عبرت حدود العراق الشمالية واحتلت عدة مواقع مهمة ، وأخذت تتقدم باتجاه محور كركوك ـ اربيل •

وكان الهدف من هذه الخطة العسكرية دفع العراق لان يحارب على عدة جبهات ، مما يسهل مهمة القوات المتقدمة ، لاحتلال البصرة الهدف المقصود من شن الهجوم على العراق ، لذلك ما أن بدأت القوات الايرانية

بمحاصرة البصرة حتى أصدرت القيادة الايرانية اوامرها الى قواتها في جبهة العراق الشمالية بالانسحاب الى داخل الحدود الايرانية .

لقد كان الموقف العسكري بالغ الخطورة اذ لم يكن لدى حكومة بغداد من القوات ما تستطيع به مواجهة العدوان الايراني ، لذا عرضت الامر على الباب العالي وطلبت المساعدة العاجلة . ولما كانت الدولة العثمانية قد خرجت منذ وقت قريب من حرب خاسرة مع روسيا انتهت بعقد معاهدة كجك قينارجي ١٧٧٤ ، فانها حاولت ايقاف الحرب بالطرق السلمية حيث اوفدت مبعوثا الى العاصمة الايرانية ليقابل كريم خان ويتباحث معه حول الموقف ويبلغه بأنها على استعداد لعزل والي بغداد اذا كان ذلك يؤدي الى عودة السلام . غير أن مباحثات المبعوث العثماني لم تسفر عن أية نتيجة اذ رفض الخان سحب قواته من الاراضي العراقية .

وفي السادس عشر من آذار ١٧٧٥ وصلت القوات الايرانية شط العرب وأصبحت بالقرب من مصب نهر السويب ، تواجهها قوات عربية كبيرة من عشائر المنتفق بقيادة الشيخ عبد الله السعدون ، كانت قد اتخذت مواقعها على الجانب الغربي من شط العرب لتمنع عبور الغزاة الى هذا الجانب . وقد تقدمت البصرة بطلب عاجل الى امام عمان احمد بن سعيد لمشاركة اسطولها في الدفاع عن المدينة ، فبعث الامام بخطاب يعد فيه بتلبية الطلب .

وكانت قوة البصرة العسكرية اذا ما قورنت بحجم القوة العسكرية الايرانية الغازية تكون سهلة المنال بحكم الحسابات العسكرية التقليدية . لكن هذا الواقع العسكري لم يكن ليؤثر في شجاعة وتضحية هذه المدينة . ويبدو الامر واضحا من خلال رفض زعماء البصرة وأهلها الاستجابة لابتزاز

الايرانيين . فبينما كانت المدينة تشهد جهوداً كبيرة في تقوية الاستحكامات والتحصينات الدفاعية ، وصلها مبعوث ايراني يعرض استعداد حكومته للتخلي عن غزوها لقاء مبلغ كبير من المال ، غير ان المبعوث طرد دون أن يتلقى رداً . وبعد ذلك بحوالي اسبوع (٢٣ آذار ١٧٧٥) وصل وفد ايراني عرض على حكومة البصرة أن تدفع مبلغا جسيما والا فان قواتهم ستحتل المدينة في غضون خمسة ايام ، لكن الوفد الايراني طرد دون جواب كما حدث في المرة السابقة .

تواصلت استعدادات البصرة الدفاعية وتم اقامة حاجز يمنع الملاحة في شط العرب ويحول دون وصول الامدادات الى القوات الايرانية بالحد من عبور المزيد من السفن الى شمال المدينة . والحاجز عبارة عن جسر من القوارب الكبيرة ربط بعضها ببعض بالسلاسل والحبال وتم حصرها في صدر نهر العشار . كما وصلت من بغداد قوة من الانكشارية يبلغ عددها حوالي مئتي جندي مع رسالة من الوالي الى حكومة البصرة يذكر فيها بانه سيرسل المزيد من القوات لرد العدوان الايراني .

وفي السادس من نيسان اقتربت طلائع القوات الايرانية من المدينة ، وقدّر عددها حسبما جاء في تقارير الوكالة البريطانية في البصرة التي شاهد موظفوها تقدم هذه القوات من شرفة الوكالة ، بعدة آلاف من الخيالة والمشاة . وأخذت بالتمركز قرب « باب بغداد » الذي يؤدي الى قلب المدينة المأهول بالسكان . وفي صباح اليوم التالي وصلت مؤخرة القوات وأخذت مواقعها في الخطوط الامامية . وبالرغم من اقتراب القوات الايرانية فان

معنويات السكان(*) كانت عالية وبهذا الصدد يقول پارسونز الذي كان شاهد عيان للحصار الايراني .

« كان جميع الرجال في البصرة يحملون السلاح ، وواضح ان قواهم المعنوية كانت عالية . وهم طوال الليل في حراسة أسوار المدينة وعلى أهبة الاستعداد الكامل لصد أي هجوم بمجرد أية محاولة للقيام به » .

وقد حاول ثلاثمائة ايراني في صباح الثامن من نيسان ، الاقتراب من الأسوار للتعرف عليها ، غير ان طلقات المدافع سرعان ما انهالت عليهم . وفي الوقت نفسه أجبرت ست عشرة سفينة ايرانية حاولت ان تقترب من المدينة على التراجع .

واصلت القوات الايرانية حصارها المفروض على البصرة ، وشهد القسم الشمالي من المدينة هجمات عديدة في محاولة لاحداث ثغرة بسوره وكان أعنف هجوم ذلك الذي تعرضت له المدينة في يوم ٩ نيسان ودار القتال بين المهاجمين والمدافعين من رجال قبيلة المنتفق العربية ولم ينته الا بهزيمة الايرانيين المنكرة .

وازاء ذلك ، شدد الايرانيون من حصارهم وتقدمت قواتهم الى مسافة قريبة جدا من المدينة ، وشنت هجمات عديدة باءت جميعها بالفشل . غير

(*) يقول پارسونز ان عدد سكان البصرة في ذلك الوقت يتراوح بين ٨٠ – ٩٠ الف نسمة ، وكان من بينهم حوالي ٥٠ الف رجل وشاب قادر على حمل السلاح . ويذكر ان عدد سكان البصرة قبل ان يحل وباء الطاعون فيها سنة ١٧٧٣م كان يبلغ ٣٠٠ الف نسمة .
اما مالكولم فيقول ان عدد السكان كان اربعين الفا ، وتشكل الحامية حوالي ربع السكان .

انهم تمكنوا في هجوم واسع عنيف من احداث ثغرات بالسور في خمسة مواقع ، بعد ان دكت المدينة بالمدفعية التي كانت تحت قيادة ضباط أوربيين . كما هوجم ليلا جسر القوارب الذي كان قد وضع في صدر العشار ، واحرق أحدها . وكانت قدرة المدينة البحرية قد ضعفت حيث فوجئت في ١١ نيسان بمغادرة القطع الحربية الانكليزية وعلى ظهرها الوكيل هنري مور وموظفو الوكالة وپارسونز ومعهم القطع الحربية الاربع التابعة للعراق التي كانت – كما أشرنا – تحت قيادة انكليزية ، الأمر الذي أثار استياء السكان ونقمتهم واعتبروا هذا العمل – مهما كانت دوافعه – لا يخرج عن كونه خطة ترمي الى تسهيل عملية الاحتلال الايراني للبصرة .

والحقيقة أنه منذ أن بدأ الغزو الايراني للبصرة ، كانت هناك اتصالات بين الفرس والانكليز بقصد تسوية جميع المشكلات القائمة بينهما . فقد وصل الى بوشهر في السابع من نيسان ١٧٧٥ أي في نفس اليوم الذي بدأت فيه القوات الايرانية حصارها للمدينة ، روبرت جاردن أحد أعضاء شركة الهند الشرقية في بومباي ، في مهمة تستهدف استئناف العلاقات مع كريم خان واعادة فتح الوكالة التجارية في بوشهر . وفي الحادي عشر من نيسان بعث جاردن بخطاب الى كريم خان شرح فيه مهمة بعثته ، وذكر أنه لما كانت الصداقة التامة بين الانكليز والايرانيين موجودة منذ القدم ، فان حكومة بومباي قد فوضته في اعادة فتح الوكالة البريطانية في بوشهر وعودة السفن الانكليزية الى ممارسة نشاطها التجاري مع الموانيء الايرانية . وقد كان التأكيد الايراني للمبعوث الانكليزي (بان كريم خان ليس لديه شيء اكثر أهمية من تأسيس الوكالة الانكليزية في المناطق التابعة لنفوذه) .

وواضح أن التنسيق الايراني مع الانكليز يعيد الى الاذهان تحالفهم مع البرتغاليين في مطلع القرن السادس عشر وقوى أوربية أخرى ، ضمن سياسة تهدف الى فرض نفوذهم في منطقة الخليج العربي .

لقد تصور الايرانيون ان البصرة بعد أن فقدت قوتها البحرية الرئيسة ، ساقطة بأيديهم في الحال ، غير أن حساباتهم العسكرية كانت هي الساقطة ، فقد استطاعت هذه المدينة بضعة سفن صغيرة ، ان تواجه باقتدار القوة البحرية الكبيرة المعادية وتحطم العديد من القطع الحربية . كما ان المدفعية الايرانية لم تتمكن من تحقيق أي نجاح في مواجهة الاستحكامات ، وقد جاء في تقرير يصف حالة المدينة :

« ان رجال قبيلة المنتفق وغيرها من قبائل العرب مجتمعون لحماية البصرة . وان الصحراء تفيض بالمحاربين ، وأن لا خطر على البصرة من الجيش الفارسي » .

يضاف الى ذلك ان امام عمان احمد بن سعيد وهو المدرك للاطماع الايرانية في الخليج العربي ، تقدم بأسطوله في شهر آب ١٧٧٥ ليشارك البصرة صمودها امام الايرانيين ، وقد اتخذ الأسطول مواقعه عند مدخل شط العرب بعد أن حطم السلسلة التي وضعها الايرانيون لعرقلة تقدمه ، ودمر العديد من سفنهم ، فأمن السيطرة على هذا النهر ولو لفترة محدودة ، الأمر الذي ساهم في دعم صمود ودفاع المدينة .

وبعد أن صمدت البصرة اكثر من عام كامل (٧ نيسان ١٧٧٥ ـ ١٥ نيسان ١٧٧٦) دخلت القوات الايرانية البصرة وكانت مؤلفة من ستة آلاف جندي . وبعد خمسة أيام (٢١ نيسان) دخل صادق خان تصحبه قوات كبيرة أحدثت

الفوضى وهي تبحث عن مساكن تنزل بها ، الأمر الذي ارغم العديد من السكان على اخلاء بيوتهم ومغادرتها . ولم يحترم الايرانيون تعهدهم ، فآذوا السكان واستباحوا الحرمات ، واعتقلوا المتسلم ورجال حكومته وكذلك وجوه أعيان البصرة ، وأرسلوهم جميعا اسرى الى العاصمة شيراز .

وقد أسهم المؤرخ البصري ابن سند في ذكر المظالم التي انزلها صادق خان في البصرة ، حيث قال عنه ما نصه :

« فدخل البصرة بعسكره وهتكها وفضحها . ولم يبق مأثما الا ارتكبه هو وقومه ، ولم يف بشيء مما وعد به من العهود . وما ترك نوعا من الظلم الا تجشمه ، أفعال ولا افعال التتار »

وحين تلقى كريم خان أخبار احتلال البصرة ، أصدر أوامره بختم البيوت المهجورة وتقديم قائمة كاملة بها . ويبدو ان الغرض من ذلك حصر الأموال والغنائم التي استولت عليها قواته . كما طلب « وصفا تفصيليا وواضحا للبلاد الممتدة من البصرة باتجاه مسقط » . ويعلق لوريمر على ذلك قائلا :

« ومن هذه التعليمات الأخيرة يبدو أن كريم خان لم يكن يهدف لأن يستغل البصرة ماليا فقط ، بل وينوي ايضا اتخاذها قاعدة لفتوحات أخرى » .

وهكذا فان تعليمات كريم خان الأخيرة تعكس أطماع ايران في منطقة الخليج العربي ، وتبدد ادعاءاته ومبرراته لغزو البصرة .

لقد عاد الانكليز الى البصرة بعد الاحتلال الايراني ، حاملين الهدايا الى صادق خان ، ووصف تقرير لمجلس الوكالة البريطانية موقفه من موظفي الوكالة الذين شرعوا بممارسة أعمالهم من جديد :

« ان حالة وكالة الشركة ممتازة ، وأن صادق خان بنفسه عرض عليهم مودته ورعايته ، وأبلغهم أن شعبه يحتفظ باحترام خاص للوكيل وللمجلس ، وأنه اذا كانت الأمور قد تعقدت في البداية ، فان في مقدورهم اليوم دون شك ان يأملوا في أن تزدهر تجارتهم أيما ازدهار في ظل الحكم الفارسي للبصرة » .

وفي الوقت الذي كانت فيه البصرة تواجه الغزو الايراني ، تعاقب على السلطة في بغداد العديد من الولاة الذين لم يكترثوا للحالة التي كانت تمر بها البصرة آنذاك . فقد انصرف كل منهم الى تعزيز مركزه ومحاربة منافسيه . ورافق ذلك حدوث الكثير من الاضطرابات والثورات الداخلية التي تبين ان احد كبار المسـؤولين في حكومة بغـداد كان وراءها ، وهو محمد بك الفارسي الاصل الذي عرفه البغداديون باسم « عجم محمد » . وقد جاء الى بغداد من ايران أيام حكم والي بغداد سـليمان باشا أبي ليلة (١٧٥٠-١٧٦٢) تصحبه أمه واخته فألفوا جوقا موسيقيا اذ كانت أخته ترقصان وأمه تنقر الدف وهو يغني . واستطاع أن يؤثر على بعض ضعاف النفوس في حكومة بغداد فعين دويدارا (أي حامل الدواة) في عهد الوالي عمر باشا (١٧٦٤-١٧٧٥) ، ثم تزايد نفوذه في عهد الولاة الذين جاءوا من بعده ، فارتقى مناصب عدة حتى وصل منصب (الخزنه دار) وصار يطمح لمنصب الباشـوية . وتمكن عجم محمد بنفوذه ومركـزه في الحكومة من توجيه سياسة ولاية بغداد ، ومارس بالتنسيق مع ايران دورا تخريبيا حال دون تقديم العون العسكري المطلوب للبصرة ، فقد أشارت المصادر الى اتصالاته السرية بالفرس واحتوائه لجميع المحاولات التي استهدفت مواجهة الغزو الايراني .

لقد كانت البصرة ، في الوقت الذي يتنافس فيه المتنافسون على تولي السلطة في بغداد ، تذوق الأمرين من وطأة الاحتلال الايراني . ولو لم يعان سكانها وقتئذ تفشي الطاعون المروع ، وأهوال المجاعة ، واحتلال الجند للبيوت ، لحدثت ثورة تقضي على الغزاة . وعلى هذا لم يبق في نفوس أهل البصرة الا بصيص أمل كان معلقا بالقبائل العربية المجاورة . لأن الايرانيين لم يكن بحوزتهم سوى المدينة نفسها وعدة من البساتين المجاورة . وكانت « المنتفق » في مقدمة من تصدى لهم ، وقد اقدم رئيسها الشيخ ثامر السعدون على تدبير الخطط لتحرير البصرة ، مما حمل الايرانيين على التحرك لغزوها . ففي سنة ١٧٧٧ توغلت قوات ايرانية في ديار المنتفق وشنت هجوماً عليها ، ودارت معركة عنيفة في مكان يقال له « الفضيلة » غرب نهر الفرات ، أسفرت عن اندحار الايرانيين وتكبدهم خسائر فادحة .

واذ ذاك قام الايرانيون في اوائل سنة ١٧٧٨ بشن هجوم واسع عنيف على مدينة الزبير التي تبعد حوالي عشرة كيلو مترات عن البصرة ، فأحرقوا بيوتها وذبحوا عددا كبيرا من أهلها ، ثم تقدموا الى قرى كويبدة - على بعد عدة كيلو مترات من الزبير على طريق القوافل الى حلب - ففعلوا بها الشيء نفسه . وانذر القائد الايراني محمد خان ، شيخ المنتفق ثامر السعدون ، بأن ينزل على طاعته ويذعن لأوامره ، ولكن الشيخ أبى كل الأباء وأعلن استعداده لمحاربته . وعندئذ تحركت من البصرة قوات ايرانية يبلغ تعدادها عشرة آلاف جندي مع ثمانية عشر زورقاً نهريا تحمل المدافع لمهاجمة بلاد المنتفق . وعند (أبي حلانة) على بعد سبعة وعشرين كيلو مترا من البصرة ، كان عدد ضخم من رجال المنتفق بانتظار وصول القوات الايرانية فدارت

معركة عنيفة بين الطرفين ، اضاع فيها القائد الايراني حياته وجيشه بأجمعه تقريبا • ويورد المؤرخ الانكليزي لونكريك وصفا لما حدث للقوات الايرانية فيقول :

«واستطاع المنتفكيون تدبير حيلة تراجعوا فيها عن العدو فكانوا يعقبونهم بصورة متمادية حتى دخلوا في الفخ وهم لا يعلمون فأصبح الفرس في فسحة من الارض المنبسطة قد اكتنف جانبها عاقول لنهر الفرات واحاط بها من الجانب الثالث هور منيع غير مخترق ، أما الجهة الرابعة التي دخل منها الفرس فقد كمن فيها قسم من قوات ثامر ، ووجدوا أنفسهم في ارض مرزئة تجافى عنها العرب ، وبعد ان انتشلوا انفسهم من هذه التهلكة ، وكابدوا المصاعب والخسران فيها ، توجهوا الى طريق الخلاص فوجدوه مسدودا دونهم • فهلك المئات منهم عندما حاولوا الفرار سباحة ، وقتلت مئات اخرى كان بينها علي محمد نفسه ، واستمرت المذبحة فيهم حتى أفنوا عن آخرهم ، ولم ينج من الجيش باجمعه سوى ثلاثة انفار فروا راجعين الى البصرة ، وقد استغرق تنظيف ميدان المعركة بعد ذلك عدة اسابيع ، وظلت عظام القتلى ، وكانت كثيرة تشير الى هذه الموقعة الرهيبة مدة جيل واحد » •

وقد كانت لابادة الجيش الايراني في موقعة أبي حلانة أثرها الكبير على كريم خان ، فما ان وصلت أخبارها اليه حتى أذهلته ، ثم اضطرت القيادة الايرانية الى سحب قواتها من البصرة في التاسع عشر من آذار ١٧٧٩ على اثر وفاته ونشوب حرب أهلية في البلاد •

وعندما انتهى الاحتلال الايراني ، كانت البصرة ـ كما تصفها المصادر المعاصرة ـ مدينة خربة وقد اقفرت من سكانها وخمدت الحياة التجارية فيها ،

بعد أن كانت تعتز بكونها ثرية مكتظة بالسكان ، وبكونها ميناء بحريا مزدهرا بسبب ما تتمتع به من موقع جغرافي ممتاز له اهميته التجارية •

ويذكر الكولونيل جيمس كابر ، الذي وصل البصرة في ١٨ كانون الاول ١٧٧٨ ، انه وجد المدينة يخيم عليها الوجوم ، حتى خيل اليه ان عدد سكانها لا يزيد على ستة آلاف نسمة بما فيهم القوات الايرانية ، والشوارع الرئيسية أشبه بالمدافن •

وتصف المقيمية البريطانية في البصرة ، في تقرير لها عن تجارة بلاد العرب وايران ، الحالة التي أصبحت عليها هذه المدينة في ظل الاحتلال الايراني فتقول :

« لقد تلقت تجارة البصرة اكبر ضرر من جراء الظلم الغاشم والابتزاز الذي قام به الفرس ومن فرار كثير من اغنياء التجار نتيجة لذلك ، وفرار قسم كبير من سكانها الآخرين ، ومن حمل الفرس لكميات ضخمة من النقد الى بلدهم وكانت البصرة في عامي ١٧٧٩ و ١٧٨٠ تبدو قرية كبيرة لا مدينة غنية ناشطة مكتظة بالسكان ولا ميناء بحريا مزدهرا ، وكانت تزهو من قبل بأنها أحق المدن بذلك اللقب دون منازع » •

ومهما يكن من أمر ، فان البصرة استطاعت ان تسترد مكانتها وتعود الى ما كانت عليه من الازدهار الاقتصادي ، حيث يذكر تقرير المقيمية البريطانية أن المدينة أخذت في الانتعاش فازداد عدد سكانها تدريجا ، وعاد اليها التجار الذين هجروها ايام الاحتلال الايراني ، وقام كثير منهم ، يشجعهم الأمن والطمأنينة السائدة ، باتخاذ الاجراءات اللازمة لاستئناف عمليات الاستيراد •
وقد أخذت السفن الانكليزية وتلك التي يملكها التجار الهنود تتردد اليها

مرة أخرى ، كما أخذ تجار اسطنبول ودمشق وحلب واورفة وديار بكر وماردين والموصل وبغداد يرتادونها ورفعت التجارة رأسها المنكس •

وبوصول القاجار الى السلطة في ايران سنة ١٢١٠هـ/١٧٩٥م ، بدأت مرحلة اخرى بأتجاه التطلع نحو العراق لتحقيق الاطماع التوسعية • والقاجار قبيلة ذات اصل تركي ، استقرت لمدة طويلة في ارمينية ، وكان تيمورلنك هو الذي أحضرها الى ايران ، ثم عدت احدى قبائل قزل باش التي كانت تساند الاسرة الصفوية • وقد قسمها الشاه عباس الأول (١٥٨٧-١٦٢٩) الى ثلاثة فروع : فرع جعل مقره كنجه بجورجيا لكي يصد هجمات اللزجين (ساكني الجبال بين جورجيا وبحر قزوين وهم الآن من رعايا روسيا) ، وفرع ثانٍ خطط له ان يقيم في مرو للدفاع ضد هجمات قبائل الأوزبك من موقعها على حدود خراسان ، واما الفرع الثالث فقد استقر في استراباد (وهي مدينة على السواحل الشرقية لبحر قزوين) •

ويعد فتح علي شاه القاجاري (١٧٩٧-١٨٣٤) من ابرز حكام ايران الذي تميز عهده بالتدخل المستمر في شؤون العراق واستخدام القوة المسلحة من اجل ذلك • وهذا ما تجلى في ولاية شهرزور (السليمانية - اربيل - كركوك) المحاددة لأيران التي كانت تشهد على الدوام حالة من الفوضى والاضطراب بسبب التدخل الايراني في شؤون الأمارات القائمة فيها حتى اصبحت المنطقة مسرحاً للقوات الايرانية التي كانت تحاول ان تكون طرفاً في تعيين الحكام لهذه الأمارات وتغري البعض باللجوء اليها لتدعمه بعد ذلك بالقوة المسلحة •

وقد حفل عهد فتح علي شاه القاجاري بأمثلة عديدة من هذه

التجاوزات • ولعل من ابرزها ما حدث سنة ١٨٠٥ حين أغرت ايران الامير عبدالرحمن البابانى الذي كان يتولى حكم مقاطعات بابان وكوي وحرير بالتمرد على حكومة بغداد ثم أخذت تتوسط له حين شددت قوات بغداد الخناق عليه واضطر الى الفرار نحو الاراضي الايرانية حيث خصصت له ولأتباعه مقراً في سقز بالقرب من كرمنشاه • ووصل الامر ان أرسل الشاه فتح علي مبعوثاً الى حكومة بغداد لطلب العفو عنه واعادته الى منصبه • ولما رفضت الوساطة الايرانية أتخذت ايران موقفاً سياسياً مضللاً فقد تظاهرت أمام مبعوث لوالي بغداد بحرصها للحفاظ على العلاقات بين البلدين وفي الوقت نفسه أتفقت سراً مع عبد الرحمن البابانى على احتلال ولاية شهرزور ووضعت تحت تصرفه عدداً من القادة ومبلغاً يقدر بخمسين الف تومان • وبالفعل تقدم عبد الرحمن البابانى نحو السليمانية على رأس قوة كبيرة وبغية تسهيل عملية تقدمه عملت ايران على فتح جبهة من جانبها باتجاه خانقين حيث تقدمت قوات ايرانية كبيرة جداً يتولى قيادتها احد ابناء الشاه وهو محمد علي ميرزا حاكم كرمنشاه حتى وصلت القوات الى مدينة السعدية وأخذت تشن هجماتها على القوى المجاورة لها وتنهب سكانها • وازاء هذا الموقف الخطير ولضمان انسحاب القوات الايرانية اضطر والي بغداد الى الموافقة على تعيين عبدالرحمن البابانى متصرفاً للسليمانية •

ولم يثن اجراء كهذا ايران عن الاستمرار في التدخل في شؤون العراق ففي سنة ١٨١٨ شنت هجوماً واسعاً على جبهته الشمالية حيث تقدمت ثلاثة جيوش كل واحد منها باتجاه معين وعلى الوجه التالي :

١ - جيش بقيادة محمد علي خان قوامه عشرة آلاف جندي أتخذ مساره نحو السليمانية •

٢ ـ جيش من قوات لورستان بقيادة حسن خان باتجاه مندلي •

٣ ـ جيش بقيادة علي خان كلهر وكلي علي خان يقدر باربعة آلاف جندي باتجاه بدرة وجصان •

وفي الوقت نفسه تحرك الشهزادة محمد علي ميرزا حاكم كرمنشاه على رأس قوات باتجاه خانقين وبالرغم من توغل القوات الايرانية في الاراضي العراقية الا انها واجهت مقاومة عنيفة مما اضطرها على التقهقر في عدة اماكن بما في ذلك تلك القطعات التي كان يتولى قيادتها حاكم كرمنشاه حيث اجبرت على التراجع عند مضيق (باي‌طاق) • ثم توقفت العمليات العسكرية وجرت مفاوضات تعهدت فيها ايران بعدم التدخل في شؤون العراق الداخلية وانسحاب قواتها من اراضيه وفي الوقت الذي نفذت فيه الانسحاب الا انها استمرت في خلق حالة الفوضى والاضطراب في ولاية شهرزور المحاددة لها •

والحقيقة ان اوضاع ايران الخارجية في تلك الفترة هي التي أملت عليها اجراء مفاوضات الصلح ، حيث كانت تواجه خطراً روسياً منذ ان عقدت بينهما معاهدة كولستان في ١٢ تشرين الاول ١٨١٣ اذ تخلت ايران بموجبها عن دربند وباكو وشيروان وشاكي وقره باغ وجزء من تاليش واقلعت عن اي ادعاء بكرجستان وداغستان ومنغريليا وايمرشيا وابخاسيا كما انها وافقت ضمناً على ان لا يكون لها اسطول في بحر الخزر •

ولذا فان ايران سرعان ما عادت مرة اخرى الى استخدام القوة المسلحة ضد العراق ضمن نهجها القائم على عدم التمسك بأي اتفاق تحقيقاً لسياستها التوسعية • ومن هنا اندلعت الحرب على نطاق واسع سنة ١٨٢٠ ، حيث اجتازت قوات ايرانية كبيرة الحدود العراقية من عدة محاور وباتجاه خانقين

وحلبجة بهدف احتلال ولاية شهرزور باكملها ، وبعد ان احتلت بعض المواقع هناك على اثر معارك ضارية ، عجزت عن فرض سيطرتها على المدن الرئيسية ، مما جعل حاكم كرمنشاه الذي كان يتولى قيادة الهجوم بنفسه ، يترك بعض قطعاته هناك ويتقدم بالقوة الرئيسية باتجاه بغداد وعند وصوله الى المنصورية واجه مقاومة عنيفة من قبل عشائر شمّر الجربا برئاسة شيخهم صفوق الفارس • غير ان المعركة الفاصلة لم تقع بسبب تفشي وباء الكوليرا في المنطقة ، كما ان القائد الايراني نفسه اضطر الى الدخول في مفاوضات لانهاء الحرب ، وقد اسفرت عن انسحاب القوات الايرانية من الاراضي العراقية واعقب ذلك اتصالات على مستوى عالٍ بين الدولتين العثمانية والايرانية بهدف تنظيم العلاقات بينهما في اطار معاهدة يتم التوصل اليها • وقد اختيرت ارضروم مكاناً للمفاوضات التي اسفرت عن عقد معاهدة في ٢٨ تموز ١٨٢٣ عرفت باسم (معاهدة ارضروم الاولى) واتخذت من معاهدة زهاب سنة ١٦٣٩ أساسا لها ، وتضمنت مقدمة وسبع مواد حددت بموجبها أسس العلاقات بين الجانبين وبشكل تفصيلي • غير ان هذه المعاهدة في واقع الامر لم تحل دون تجدد الحرب لما يعتورها من اطماع •

ويمكن ان نعلل الهدوء بين الدولتين في الجبهة العراقية في اوائل الثلاثينات بان فتح علي شاه كان في اواخر ايامه • فلما تولى محمد شاه الحكم في ١٨٣٤ توترت العلاقات من جديد • حيث عاودت ايران سياسة التدخل في شؤون العراق الداخلية وذلك باثارة الفتن والاضطرابات في المنطقة الشمالية • وقد حاولت في سنة ١٨٣٦ فتح ممثلية لها في بغداد وجاء في الطلب الذي تقدمت به الى وزارة الخارجية العثمانية انها بحاجة لرعاية شؤون الايرانيين المقيمين في العراق • وقبل ان يبت في الامر ارسلت ايران

ممثلاً عنها للاقامة ببغداد يدعى مرزا مهدي منجم باشي الذي عمد حال وصوله الى جمع الاتباع حوله من ذوى الاصل الايراني وأخذ هؤلاء بارتكاب الكثير من المخالفات المنافية لقوانين البلاد فأتخذت حكومة بغداد اجراءات رادعة وابلغت الباب العالي بأنه ليس من المناسب الموافقة على اقامة ممثل ايراني في بغداد وجاء في مذكرتها بهذا الصدد والمؤرخة في ١٣ رمضان ١٢٥٢هـ/٢٢ كانون الاول ١٨٣٦م ، ان فتح ممثلية ايرانية في بغداد سوف يؤدي الى جعلها مصدراً لكل انواع التخريب واثارة القلاقل والفتن ٠

ولم تلبث العلاقات ان تطورت بأتجاه تجدد الحرب حيث لم تكتف ايران بالتدخل في شؤون العراق الداخلية وانما قامت باحتلال الفلاحية والمحمرة (١٨٤٠-١٨٤٢) واخذت تتطلع الى ما وراءهما فهددت بارسال جيش لاحتلال الكويت والبحرين ٠

ولأهمية منطقة الاحواز للمشروعات الاستعمارية دخلت بريطانيا وروسيا طرفاً في الصراع ٠ وكانت بريطانيا تسعى الى تدويل شط العرب ولعبت الدور الاول في ممارسة الضغط في هذا الصدد فضلاً عن الحفاظ على ود روسيا ومكانتها الدبلوماسية في البلاط الايراني وقد أدى الضغط الروسي - البريطاني الى تشكيل لجنة رباعية لتخطيط الحدود تضم مندوبين عنهم ٠

اتخذت لجنة الحدود مدينة ارضروم مقراً لها وعقدت اول اجتماع في ١٥ مايس ١٨٤٣ وقدمت كل من الدولة العثمانية وايران مطاليبها فأكدت الدولة العثمانية على عائدية المحمرة وكل ما هو غربي نهر كارون وفرعه قبان وكذلك عائدية زهاب ومنطقتها حسب نص معاهدة ١٦٣٩ وتسوية كافة

خلافات الحدود بما في ذلك تبعية العشائر النازلة على الحدود بين الدولتين ٠ اما ايران فانها طالبت بان يكون لها الحق في اختيار حاكم السليمانية وتحديد الحدود طبقا للنص الايراني لمعاهدة ١٦٣٩ والتمثيل القنصلي في الدولة العثمانية بنفس الحقوق التي للدول الاوربية وتسليم الأمراء الايرانيين اللاجئين الى الدولة العثمانية وحق زواج الرعايا الايرانيين من الرعايا العثمانيين وغيرها من المطالب التي تهدف الى التدخل في الشؤون الداخلية ٠ وكانت ايران مستفيدة من الوضع الراهن آنذاك فهي تسيطر فعلاً على المحمرة وزهاب واصابعها تلعب بوضوح في السليمانية ٠

لقد استمرت المفاوضات طيلة المدة ١٨٤٣-١٨٤٧ ولما وجدت الدول الأربع ان مشكلات الحدود تحتاج الى وقت طويل لحلها وحتى يمكن ان يرسم خط واضح بين الدولتين العثمانية والايرانية اقترحت ان تعقد معاهدة تنص على حل لبعض المشكلات القائمة وان يترك البعض الآخر للدراسة والتسوية وعلى هذا الاساس تم الاتفاق على ابرام المعاهدة التي عرفت باسم معاهدة ارضروم الثانية التي نصت المادة الثانية منها على ان « تتعهد الحكومة الايرانية بان تترك للحكومة العثمانية جميع الاراضي المنخفضة الكائنة في القسم الغربي من منطقة زهاب وتتعهد الحكومة العثمانية بان تترك للحكومة الايرانية القسم الشرقي منه اي جميع الاراضي الجبلية من المنطقة المذكورة » كما نصت على اعتراف الدولة العثمانية بسيادة ايران على مدينة المحمرة ومينائها وجزيرة خضر (جزيرة عبادان) والاراضي الواقعة على الضفة الشرقية من شط العرب من مصبه الى اتصال حدود الدولتين قرب المحمرة (عند إلتقاء كارون بشط العرب) وعلى ان تتنازل الحكومة الايرانية عن كل ما لديها من ادعاءات في مدينة السليمانية ومنطقتها وبعدم التدخل

في شؤون هذه المنطقة ، وتطرقت المعاهدة الى سياسة حسن الجوار والمحافظة على امن واستقرار الحدود بين الدولتين وجواز فتح القنصليات لكل دولة في الدولة الاخرى حسب الحاجة وبالمقابل .

ولقد استمرت اجتماعات لجنة الحدود خلال السنوات ١٨٤٩-١٨٥١ دون جدوى وشهد العراق تدخلاً ايرانياً متواصلاً في شؤونه ، وبالرغم من المفاوضات التي جرت عند زيارة الشاه ناصر الدين للعراق سنة ١٨٧٠ حول مشكلة الحدود والمشاكل الاخرى المعلقة بين البلدين الا ان الاتفاق الذي تم التوصل اليه بشأن بعض القضايا لم تلتزم به ايران الامر الذي اضطر مدحت باشا والي بغداد الى وضع خطة للدفاع تقضي بانشاء مواقع عسكرية في الممرات التي تربط بين حدود البلدين لمنع التجاوز بقوة السلاح . ولكن الخطة لم تطبق لان الباشا أعفي بعد ذلك عن منصبه ولم يهتم الولاة الآخرون بتطبيقها .

وشهدت العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين استمرار النزاع على المحمرة حيث تمسكت الدولة العثمانية بعائديتها وبسيادتها على شط العرب وخلال ذلك كانت بريطانيا تشجع ايران على بناء التحصينات على الضفة الشرقية بهدف التدخل في شؤون ملاحة شط العرب وضمان مصالحها السياسية والاقتصادية .

الفصل الثالث

تطور مشاكل الحدود

لم تكن الحدود العراقية ــ الايرانية بصفتها الحاضرة حدودا ثابتة ، بل هي مجرد الصورة الاخيرة للتجاوزات الايرانية على الارض العراقية عبر التاريخ ، وكانت هذه الحدود تتخذ في كل حقبة صورة مختلفة ، هي أبعد عن الأنصاف والحقيقة ، من صورتها في الحقبة التي سبقت .

ان مدنا واراضي عديدة مثل « بانه » و « سربيل زهاب » و « كرند » و « قصر شيرين » و « نفط شاه » و « سومار » لم تكن مدنا وأراضي ايرانية حتى عهد قريب،وانما جرى ضمها بالقوة المسلحة على مراحل بطيئة لكنها دائبة .

وقد اتبعت الحكومات الايرانية في توسعها الدائب على حساب ارض العراق ، السياسات الرئيسة الآتية :

١ ــ سياسة التدخل في الشؤون الداخلية :

حيث استغلت تلك الحكومات بعض الاوضاع والمشاكل التي كانت قائمة في العراق إبان العصر العثماني ، وخاصة في ولاية شهرزور (السليمانية

ـ اربيل ـ كركوك) لفرض نفوذها السياسي على تلك المناطق • وقد جهدت الحكومات الايرانية المتعاقبة وبخاصة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لايجاد حكام لتلك المناطق موالين لها • فكانت تستغل حالات توتر العلاقات بين اولئك الحكام والحكومة المركزية في بغداد لتتدخل عن طريق فرض هذا المرشح او ذلك ، أو باسناده بالقوة المسلحة اذا لزم الامر ، أو بتهديده أحيانا ، وذلك بهدف زيادة نفوذها في تلك المناطق العراقية الستراتيجية ، وفرض نوع من الهيمنة السياسية عليها ، تمهيدا لضمها الى بلادها في نهاية المطاف • وقد أدى هذا الأسلوب دورا غير حميد في انتزاع ايران مدنا واراضي عراقية مهمة في منطقة شهرزور ، فضلا عن احداث اضرار ومآس متنوعة في الأراضي العراقية الاخرى استمرت حتى توقيع معاهدة (ارضروم) سنة ١٨٤٧ التي كشفت عن تحول اهتمام ايران الى اقليم الاحواز العربي •

٢ ـ سياسة التضليل الدبلوماسي :

لم تثبت ايران حدودها البرية الغربية ، ولم تعلن عنها بصفة رسمية ، فقد كانت تعمد ، عقب توقيعها أية معاهدة حدود ، الى خرق بنود تلك المعاهدة ، بفرض واقع جديد يستدعي عقد معاهدة اخرى ، فاذا ما عقدت ، شرعت باستغلالها لتثبيت ما كانت قد حصلت عليه في الحقبة السابقة ، والتهيئة في الوقت نفسه ، الى عمل توسعي آخر •

لقد نقضت الحكومات الايرانية معاهدات عديدة طوال العصر العثماني محققة ، من ورائها ، مكاسب اقليمية توسعية • من ذلك مثلا ان معاهدة ارضروم سنة ١٨٤٧ كانت في حد ذاتها مكسبا للحكومة الايرانية آنذاك اذ استولت فيه على أراض مهمة في منطقة زهاب العراقية ، وعلى اقليم

الاحواز العربي ، الاّ انها لم تكف عن المضي في ضم الاراضي والتوسع وخلق حالة من الفوضى على طول خط الحدود ، وصولا الى وضع معقد يمكن استغلاله في عقد معاهدة جديدة • وقد تم لها بعض ذلك في بروتوكول الحدود في الاستانة سنة ١٩١٣ الذي أخذ بمبدأ استيفاء الوضع الراهن ، وهو الوضع الناجم عن التغييرات التي طرأت على الحدود ما بين سنة ١٨٤٨ وسنة ١٩٠٥ ، وهذه التغييرات تعني الواقع الذي فرضته ايران خلال المدة المذكورة •

٣ ـ سياسة تغيير التركيب القومي والقبلي :

لقد راعت المعاهدات المعقودة بين الطرفين العثماني والايراني ـ في معظم الاحوال ـ الوضع القبلي على المناطق الحدودية بين دولتيهما ، فأقرت وحدة العشيرة ، وحالت دون شطرها بحسب الحدود الفاصلة ، بان ثبتت تبعية كل قبيلة لاحدى الدولتين ، وتركتها تنتقل بحرية تامة بين مشاتيها ومصايفها • فشكل هذا عاملا متحركا مناقضا لمبدأ ثبات الحدود واستقرارها ، فالقبائل التي عينت تبعيتها معاهدة زهاب في القرن السابع عشر ، تكاثرت ، وتفرعت ، واكتسبت اسماء جديدة على مر الزمن ، بل وغيرت مواطنها على نحو شامل ، مما جعل من العسير تحديد الحدود بين الدولتين في تلك المواطن ، وخلقت وضعا قانونيا معقدا بسبب ازدواجية السيادة على افراد القبيلة ، وعلى ارضها في وقت واحد •

ولقد دأبت الحكومات الفارسية المتعاقبة ، وبخاصة منذ منتصف القرن الثامن عشر ، على استغلال هذا العامل المتحرك في دفع حدودها مع العراق ، والتوسع على حساب اراضيه التاريخية تدريجيا • وكانت وسيلتها في ذلك

دفع القبائل الفارسية واللورية غربا للضغط على القبائل العربية في تلك المناطق الحدودية وطردها منها • أو تشكيل نسبة عددية من اتباعها من شأنها ان تغير الكيان القومي في المناطق المذكورة ، تمهيدا لسلخها عن الارض العراقية وضمها الى ايران •

٤ ـ سياسة القوة المسلحة :

دأبت ايران كما أوضحنا ، منذ بدايات العصر الحديث ، على استخدام القوة العسكرية لانتزاع اجزاء من ارض العراق ، وضمها اليها عنوة • وقد طغى هذا الأسلوب على علاقات ايران بالولايات العراقية ، وسار بتوافق مع الأساليب الاخرى ، لتحقيق أكبر المكاسب التوسعية ، عن طريق فرض الأمر الواقع بالقوة ، تم تكريسه بالوسائل السياسية والاجتماعية المختلفة •

ان سياسة « القضم » المستمرة التي انتهجتها الحكومات الايرانية ازاء مناطق الحدود العراقية ، كانت تتوخى ، بالدرجة الأولى ، تغيير معالم تلك المناطق المستولى عليها من مدن وقرى وجماعات بشرية ، بل ومسخ اسمائها ، لتغدو كأنها جزء من البلاد الايرانية بيد ان أية دراسة مدققة للظروف التاريخية التي مرت بها هذه المناطق ، تكشف بوضوح عن حقيقة مهمة ، هي أن سياسة التوسع الدائب من الجانب الايراني ، وسياسة السكوت والتراجع من الجانب العثماني ، هما المسؤولتان عن سلب أجزاء مهمة من اراضي العراق القومية •

لقد كانت اراضي الحدود العراقية معروفة منذ القرون الوسطى ، بشكل أفاض في وصفه البلدانيون والجغرافيون المسلمون أبان تلك المرحلة ، وبقيت كذلك طوال العصور التالية ، وقبل احتلال العثمانيين للعراق ، وعقد

أول معاهدة عثمانية ـ ايرانية • مثال ذلك انه حينما احتل الصفويون العراق سنة ١٥٠٨ اعلنت الدولة العثمانية ان هذا الاحتلال يمثل خرقا لحدودها ، أي تجاوزا لحدود ايران المعروفة نفسها ، ولم تكن ، أي الدولة العثمانية ، قد استولت على العراق بعد • وفي معاهدة فرهاد باشا المعقودة بين الطرفين سنة ١٥٩٠ تركت شهرزور للدولة العثمانية ، دون أي تحديد لحدودها ، مما دل على انها لم تكن خافية على اهل ذلك العصر ، ويمكن القول ان عدم تفصيل المعاهدات الأولى بين الطرفين لحدودها كان بسبب وضوح تلك الحدود ، اتباعا للقاعدة القائلة بأن المعروف لا يعرف ، ولم تأخذ المعاهدات المتأخرة بالتفاصيل الا بعد أن برزت مشكلة التجاوزات الايرانية على أراضي العراق واقتطاع اجزائه الشرقية •

ونظرا لطول حدود العراق البرية ، وتنوع الظروف التاريخية التي أثرت فيها ، فسوف نقسمها على ثلاثة اقسام هي :

الأول : من ملتقى حدود الدولتين الى منطقة اورمان •

الثاني : من درتنك الى نفط شاه •

الثالث : من سومار الى دهلران حيث يبدأ اقليم الاحواز •

ـ ١ ـ

يخترق خط الحدود الحالي المنحدر من نقطة التقائه بالحدود الايرانية ، وحتى منطقة حلوان (زهاب) ، ما كان معروفا بأسم « كورة شهرزور » القديمة • فقسم من هذه الكورة يشكل الآن محافظات السليمانية واربل وبعضا من التأميم (كركوك) في العراق ، والقسم الآخر منه يؤلف ما يعرف

حاليا باستان (محافظة) كردستان (أو اردلان) وجزءا من استان كرمانشاه وجزءا من استان اذربيجان الغربية في ايران • ووصف الجغرافيون المسلسون في القرون الوسطى حدود شهرزور بانها « كورة واسعة في الجبال بين أربل وهمذان » • وقد ضمت شهرزور الى الموصل ، حتى انفصلت عنها في آخر خلافة الرشيد • وفي مرحلة ضعف الادارة العباسية انحسرت عنها سلطة الدولة الفعلية ، لتنشأ فيها عدة امارات محلية ، ثم عادت ، في أول القرن الثاني عشر ، جزءا من امارة الموصل ، ثم من امارة اربل ، وكانت اربل نفسها تعد من اعمال الموصل ، أو من العراق العربي •

ولقد أدى سقوط العراق بأيدي المغول في القرن الثالث عشر للميلاد الى احداث تغييرات مهمة في احوال شهرزور ، فقد اندثر قسم من مدنها ، كمدينة شهرزور نفسها ، وانتقل مركز ثقلها الى قراها الريفية • ونشأت في اعمالها الريفية هذه امارة مستقلة عرفت بامارة حكام اردلان • وشملت نواحي زلم وسروجك وقره داغ وشهر بازار وهاورن (هرون) وقزنجة (في العراق الحالي) وتغسو وشيران والان ودمبران وسنه (سننذج) وحسن آباد (في ايران الحالية) • واستمرت هذه الامارة مستقلة موحدة حتى القرن السادس عشر ، اذ انضمت مع احتفاظها باستقلال ذاتي محدود ، الى الدولة العثمانية ، فأصبحت مدنها وقراها المذكورة من املاك هذه الدولة • وعندما حاولت الدولة الصفوية في ايران استغلال الخلافات بين افراد البيت الاردلاني الحاكم لبسط نفوذها على الامارة ، ضم العثمانيون هذه الامارة الى ادارتهم بصفة مباشرة ، فاصبحت تعرف بايالة شهرزور ، وبذلك فقد استرجعت المنطقة وضعها الطبيعي السابق في العصر العباسي وأصبحت تعد

جزءا اساسيا من أعمال المدن المركزية في العراق • ويعين البدليسي تاريخ اعادة شهرزور الى وضعها المذكور في حدود سنة ١٥٦١ فيقول « وهكذا دخلت ولاية شهرزور في عداد الممالك السلطانية ، واصبحت من ذلك التاريخ احدى الولايات المحققة للدولة العثمانية » وجعلت سنه (سننذج) وحسن آباد ، وقزنجة ، وقره طاغ (قرة داغ) ومهران (مريوان) وشهر بازار وغيرها ، سناجق (ألوية على حسب القاعدة المتبعة في الولايات العراقية الاخرى ، ومنحت الى افراد من الاسرة الحاكمة السابقة • وعندما وضعت قواعد الادارة في العراق في آخر القرن السادس عشر ، أصبحت ايالة شهرزور تتألف من ٢١ سنجقا ، وتشمل مناطق واسعة تصل شمالا الى الطرف الجنوبي من بحيرة اورمية وتصل شرقا الى سنه ويحكمها وال يقيم في قلعة كلعنبر في جنوب السليمانية) • وقد أقرت الدولة الفارسية وضع الولاية المذكورة في المعاهدة المعقودة بينها وبين الدولة العثمانية سنة ١٥٩٠ ثم اعادت اقرارها هذا في معاهدة ١٦١١ ، وفي معاهدة سنة ١٦١٣ ، وبذلك فقد رسمت هذه المعاهدات حدود العراق البرية في ذلك العهد •

وعلى الرغم من اعتراف السلطة الفارسية بهذه الحدود المرة تلو الاخرى ، فانها ما انفكت تحاول التدخل في شؤون ايالة شهرزور الداخلية عن طريق تحريض بعض الحكام العثمانيين من السلالة الاردلانية على ابداء الولاء لايران • وفي زمن الغزو الفارسي للعراق (من ١٦٢٢ الى ١٦٣٨) سلخت السلطة الفارسية لواء سنه ، ولم تعده اليه معاهدة زهاب المعقودة بين الطرفين سنة ١٦٣٩ ، فجعل ذلك الحدود الايرانية - العراقية تتخذ شكلا غائرا في الارض العراقية ، وهو ما اطلقت عليه المعاهدة المذكورة عبارة المنفذ المتجه

نحو شهرزور .. وقد أمسى هذا « المنفذ » الايراني ، بمثابة الجسر الذي تدخلت عن طريقه الحكومات الايرانية المتعاقبة في شؤون المناطق الاخرى من شهرزور وشمالي العراق بصفة عامة .

وفي المراحل التي تلت معاهدة زهاب ، استمرت ايران في عملية سلخ اجزاء من العراق ، وتغيير مناطق الحدود لغير صالحه ، ويمكن ايراد « نماذج » منها على النحو الآتي :

أ ـ اشنى (اشنو ، اشنويه) :

مدينة قديمة ، انشأها ـ على رواية ـ الخليفة هارون الرشيد ودمرها المغول ، ثم أعيد تعميرها في عهد الجلائريين . وهي احدى ألوية ايالة شهرزور في العصر العثماني ، وموقعها اليوم عند بداية الحدود العراقية ـ الايرانية ، بين خط الحدود نفسه ، وبحيرة اورمية (رضائية كما سماها الفرس) . وقد ورد اسمها ضمن التنظيمات الأدارية في القرن السادس عشر لكونها اللواء العشرين في تلك الايالة . وتولى تمثيل السلطة الرسمية فيها سلالات حاكمة قبلية ، تقوم بجباية ضرائب اقامة القبائل المسماة « خراج » باسم الدولة . وعند توسع امارة راوندوز في عهد محمد باشا ميركور (١٨١٣-١٨٣٨) مد هذا الامير نفوذه الى اشنى ، وأخذ باستيفاء الضرائب والرسوم لحساب خزينة راوندوز . واستمر هذا الوضع حتى بعد انتهاء حكم محمد باشا المذكور . وفي اواخر القرن التاسع عشر وضع حكام ايران يدهم على اشنى بالقوة المسلحة ، وبرشوة قبائل المنطقة . وجاء بروتوكول الحدود المعقود بين الطرفين الايراني والعثماني في الاستانة سنة ١٩١٣ ليثبت سلخ هذا اللواء المهم تماما وضمه الى الدولة الفارسية .

ب ـ لاهيجان (لارجان) :

مدينة ومقاطعة في اقليم شهرزور القديم ، تقع اليوم مقابل خط الحدود في الجانب الايراني ، الى الجنوب من اشنى ، وكانت في اواخر القرن الخامس عشر جزءا من أراضي الامارة البابانية . وبأنضمام امراء البابان الى الدولة العثمانية سنة ١٥٣٤ أصبحت تلك المقاطعة جزءا من الاملاك العثمانية . وحتى القرن التاسع عشر كانت لاهيجان تابعة لولاية بغداد ، يحكمها ضابط بعينه متسلم كوى سنجق . ثم أن أمير راوندوز محمد باشا ميركور مد اليها نفوذه وضمها الى امارته في حدود سنة ١٨١٣ .

ونظرا لموقع المنطقة المهم ، والتحكم في طرق القوافل ، والمشرف على بعض المقاطعات في ايران ، مثل ساوجبلاق ومراغة ، فقد شرعت الحكومة الايرانية بمد نفوذها تدريجيا ، حتى أصبح جزء منها تحت سيطرتها فعلا منذ اواخر القرن التاسع عشر . وأصبحت تدفع رواتب لبعض زعماء العشائر المحلية هناك بان تعدهم تابعين لها . وعندما قامت لجنة تحديد الحدود سنة ١٩١٣ بعملها ، كانت هذه المنطقة قد انتزعت من اعمال راوندوز ، وأمست قسما مهما في ما عرف باسم « استان اذربيجان الغربية » في ايران .

ج ـ بانه :

مدينة مهمة ، تقع اليوم في شمالي استان كردستان (اردلان) في الجانب الايراني ، والى الشرق من مدينة السليمانية العراقية . كانت ارضها قديما جزءا من كورة شهرزور ، ثم تكونت بها ، بعد سقوط بغداد بأيدي المغول ، امارة وراثية ، عرفت بامارة بانه . وتشير معلومات بعض السياح الذين مروا بالمنطقة الى ان بانه هو اسم المنطقة ، اما حاضرتها فتدعى « بيروزة » ثم نسي الاسم الاخير ، فأطلق اسم بانه على المدينة ذاتها ، وعرفت

به منذ القرن التاسع عشر • ويذكر البدليسي في القرن التاسع عشر ان الامارة المذكورة تضم قلعتين وناحية ، احداهما قلعة بيروز ، والثانية شيوه ، اما الناحية فهي بانه • وقد حاولت السلطات الفارسية الصفوية التدخل في شؤون الامارة عن طريق فرض مرشحين لحكمها ، مستغلة ضعف السلطة المركزية في العراق قبل ضمه الى الدولة العثمانية • وعندما فتح السلطان سليمان القانوني العراق سنة ١٥٣٤ عادت (بانه) الى وضعها القديم كجزء من هذه البلاد • وأصبحت أحد الالوية الستة التي تتألف منها ايالة الموصل في القرن السادس عشر • وكان يحكمها « امير لواء » يتولى الالتزامات الادارية والاقطاعية نفسها المفروضة على سائر ألوية الايالة • بيد ان ضعف السلطة العثمانية في المرحلة التالية أدى الى قيام بعض السلالات المحلية بحكم بانه ذاتيا ، فاطمع ذلك السلطات الفارسية المتربصة بها ، وجرت محاولة فارسية للسيطرة عليها في عهد كريم خان الزندي سنة ١٧٧٧ ، ثم استولت عليها في زمن لاحق (ربما في اول القرن التاسع عشر) • ويستنتج ريج قنصل بريطانيا في بغداد آنذاك انها خضعت الى والي سنه (سنندج) بمقتضى معاهدة • وليس في مجموعة المعاهدات المعقودة بين ايران والدولة العثمانية ما يبرر هذا الاستنتاج ، وشهدت بانه ، في الربع الاول من القرن التاسع عشر ، اول مشروع ايراني لتسليحها بالمدفعية • ويظهر ان لموقعها القريب من اراضي العراق الاخرى أثرا في ذلك • وقد اقر بروتوكول الحدود لسنة ١٩١٣ سلخ « بانه » عن ارض العراق تماما •

هـ ــ مريوان (مهروان ، مهريان) :

مدينة في اقليم شهرزور ، تعد مركز المنطقة وتعرف باسمها ، وتشكل

اليوم ما يدعى بشهرستان مريوان ، احدى الوحدات الادارية المؤلفة لاستان كردستان (اردلان) الايراني • وكانت ارضها جزءا من كورة شهرزور قديما ، ثم دخلت في املاك الامارة الاردلانية التي كانت تحكم هذه الكورة ، وفي القرن السادس عشر تقريبا ، اقطع احد امراء اردلان مريوان لفرد من اسرة كلباغي المحلية • ثم انتقلت تبعيتها مع سائر ولاية شهرزور ، الى العثمانيين ، وبقيت كذلك حتى الغزو الفارسي (١٦٢٢) حين استولى عليها الفرس مع ما استولوا عليه من أرض العراق ، الا انه بمجرد اندحار الغزاة وانسحابهم سنة ١٦٣٠ استرجعت مريوان وضعها الطبيعي السابق • ولم يفلح الشاه الصفوي في احتلالها مرة أخرى ، لذا فقد نالت المدينة أهمية كبيرة لكونها مركزا لحامية عثمانية قوية • الا ان القوات المذكورة انسحبت منها بموجب معاهدة زهاب سنة ١٦٣٩ التي قضت بأن يترك السلطان العثماني « مهربان وتوابعها لتكون في تصرف الشاه وضبطه » واذ لم تكن واضحة تلك الظروف التي دعت الى التنازل عن منطقة حساسة كهذه ، فمن المؤكد ان التنازل عن أرض عراقية ، مثل مريوان ، كان يشكل مكسبا للجانب الايراني ، ناله دونما جهد كبير ، واستغله فيما بعد في التحرش بالمدن والنواحي العراقية الاخرى والتجاوز على مناطقها الحدودية •

و ــ آورمان (هاورمان) :

مدينة مهمة ، يتبعها عدد كبير من القرى ، تشكل الآن ما يعرف باسم « شهرستان آورمان » التابع لاستان كرمانشاه • وكان في أصله جزءا من كورة شهرزور • ولبثت ، حتى القرن السادس عشر ، تعد قسما من الامارة الاردلانية الحاكمة في ذلك الاقليم ثم ضمت ، مع سائر الاراضي الامارة ،

الى الدولة العثمانية . وأصبحت ، منذ تنظيم الأدارة في العراق سنة ١٥٧٤
لواء من ألوية ايالة شهرزور . ولم يتغير وضعها هذا حتى قيام السلطة
الفارسية بسلخ لواء سنه من الاملاك العثمانية اثناء الغزو الفارسي
(١٦٢٣-١٦٣٨) واقر هذا السلخ في معاهدة زهاب سنة ١٦٣٩ حين نصت
على ترك آورمان وقراها التابعة للشاه . ونظرا لعدم وضوح هذا التحديد ،
فقد عمدت ايران ، في المراحل اللاحقة ، على انتزاع كل ما يمكن انتزاعه من
القرى العراقية المجاورة في منطقة حلبجة بحجة انها تابعة لآورمان . ثم
مضت فادعت ، في جلسات قومسيون تحديد الحدود سنة ١٩١٣ بملكيتها
لقرى عديدة اخرى (أهمها اليوم نوسود وآلان القريبة من الحدود في
ايران) . ورغم الأدلة القوية التي قدمها الجانب العثماني ، وتشمل سجلات
النفوس والضرائب والتجنيد والطابو وغيرها ، مما يثبت - بما لا يقبل
الشك - عائديتها الى العراق ، فان ايران حصلت على معظم مطالبها غير
المشروعة ، مقتطعة بذلك اجزاء مهمة ، وذات قيمة ستراتيجية عالية ، من أرض
العراق القومية . ان منطقة آورمان تضم اليوم نحو ١٧ قرية تابعة لقضاء
حلبجة ، وناحية هورمان (في العراق) وباقي القرى التابعة لايران ، وهي
نحو ١٠٠ قرية . منها باوه (وهي بلدة عراقية في كورة شهرزور القديمة)
وسر قلعة ، وثلاث وغيرها .

- ٢ -

ان خط الحدود الحالي الممتد من آورمان - حلبجة الى نفط شاه -
نفط خانه ، لهو صورة اخرى للتجاوزات الايرانية على مدن العراق وأراضيه
الشرقية . واذا كان خط الحدود في المنطقة نفسها قد شطر كورة شهرزور

الى شطرين ، احدهما لايران ، فان خط الحدود في هذه المنطقة قد اقتطع
« كورة حلوان » الغنية المهمة باجمعها تقريبا من العراق دفعة واحدة ،
وضمها الى الجانب الايراني ، باسم جديد هو « شهرستان قصر شيرين » .

وحلوان كورة واسعة ، وصفها الجغرافيون العرب بأنها قرب شهرزور
وخانقين . بل عدت بعض مصادر القرن العاشر خانقين واربل من اعمالها .
وهي جزء من أرض العراق ، وفيها مدينة حلوان الشهيرة في التاريخ العربي
الاسلامي . وتعد آخر مدن العراق ، ومنها يصعد الى الجبال ، اذ ليس
بالعراق مدينة بالقرب من الجبل غيرها . وهي بوابة بغداد الشرقية ، فمصير
كل منهما مرتبط بالآخر . وقد رسمها الجغرافيون العرب ضمن خارطة
العراق العربي . وسماها ياقوت « حلوان العراق » وعدها « آخر حدود
السواد مما يلي الجبال من بغداد » . واسم حلوان عربي بحت ، فالحلوان في
اللغة الهبة ، وقد اشارت المصادر الى ان مؤسسها عربي من قضاعة ، انشأها
قبل الاسلام ، مما دل على قدم الوجود العربي في هذه المنطقة . ثم فتحها
العرب المسلمون صلحا بعد معركة جلولاء سنة ١٩ هـ (٦٤٠م) - بقيادة
القعقاع التميمي ، وجرير بن عبد الله البجلي . واستوطنها العرب ، ومنهم
قسم من أحفاد القائد جرير ، وأزدهرت في عهدهم ازدهارا سريعا . فوصفت
في القرن العاشر الميلادي بانها رابع مدينة ، من حيث العمارة والخصب والكبر
في العراق . بيد ان الصراعات السياسية ، وخاصة في عهد السلاجقة ، ثم
الزلازل ، أديا الى تدهور حلوان . وزاد هذا التدهور الى حد الاضمحلال
بعد سقوط بغداد بأيدي المغول ، في القرن الثالث عشر ، حتى وصفها القزويني
بأنها « عامرة طيبة والآن خراب » وفي القرن التالي كانت المدينة خاوية تماما ،

ما خلا مزارات الاولياء فيها ، وكان في ناحيتها ثلاثون قرية مما دل على ان مركز الثقل الحضـــاري فيها أخذ بالتحول الى الريف • وهي ظاهرة عامة شهدتها مدن العراق في ذلك العصر ، ونتيجة لهذه الكوارث ، اخذ اسم حلوان المدينة بالاندثار ، ولم يعد يطلق الا على الناحية التي تحتوي آثار المدينة الغابرة (وتعرف اليوم باسم سربل ، أي رأس الجسر) • وفي مصادر القرن الرابع عشر نجد ان اسما جديدا أخذ يرث قسما من أرض حلوان ، هو « درتنك » ووصفت حلوان ودرتنك بانهما منطقتان متجاورتان • وما ان حل القرن الخامس عشر حتى كان اسم حلوان قد نسي تماما ، لتحل محله أسماء لمواضع عدة ، منها زهاب ، وكرند ، وبشيوه ، وسربل زهاب ، وقصر شيرين ونفط خانه ، وسرمين ، وخسرو آباد ، وورزنه ، ومنصور بيك ، وغيرها •

على أن تغير الأسماء لا يغير التبعية الطبيعية والسـياسية للارض نفسها ، فلبثت أرض حلوان القديمة ، بأسمائها الجديدة ، جزءا لا يتجزأ من أرض العراق ، ولم تكن قط موضوع نقاش ومفاوضة ، لذا فقد خلت المعاهدات الفارسية ـ العثمانية الأولى (١٥٥٥ و ١٥٩٠ و ١٦١١ و ١٦١٣) من أي ذكر لها • ولاحت أولى المطامع الفارسية فيها في معاهدة سنة ١٦١٨ حين طلبت الحكومة الايرانيـة من العثمـانيين بعض نواحي حلوان كثمن لايالة اخسخة التي ضمها العثمانيون الى بلادهم في شرقي الاناضول ، فوافقت الحكومة العثمانية على الطلب • وهكذا فقد جرت المبادلة على حساب ارض العراق التأريخية •

بيد ان حصول الجانب الايراني على بعض المكاسب في المنطقة لم يكفه

عن السعي للاستيلاء على أجزاء منها ، حتى تطلب الامر ، لاول مرة ، وضع حدود واضحة ، ودقيقة نسبيا ، للاراضي العراقية ، فنصت معاهدة زهاب سنة ١٦٣٩ على تحديد منطقة حلوان القديمة ، وتعيين بعض المواقع الحدودية الفاصلة بين الدولتين وكشفت المعاهدة ، من ناحية اخرى ، عن الاجزاء التي سلختها ايران بموجب المعاهدة السابقة • ولكن قرار الحكومة الايرانية بهذه الحدود لم ينه مطامعها في سائر اراضي حلوان الاخرى ، لـذا فقد تكررت تأكيدات الدولة العثمانية على الحدود المذكورة في كل معاهدة جديدة (معاهدات ١٧٣١ و ١٧٣٩ و ١٧٤٦) دون ان يمنع ذلك ايران ، رغم اقرارها من طرفها قانونيا ، من التجاوز المستمر على هذه المنطقة العراقية المهمة ، والتحرش بموظفيها ، ومحاولة بسـط نفـوذها عليهم • وفي اوائل القرن التاسع عشر ، انتهزت حكومة القاجاريين الايرانية ضعف الدولة العثمانية ، وانشغالها في البلقان ، وارضروم ، وانصراف حكومة بغداد الى درء مخاطر الغزوات الوهابية عن أراضي العراق الغربية ، فقامت بعمل عسكري مباغت ، احتلت على أثره معظم المدن والنواحي العراقية في منطقة حلوان (درنه ـ زهاب ـ كرند ـ وحتى قصر شيرين) وبذلك فقد سلخت عن العراق أجزاء مهمة ، وعزيزة ، من أرضه القومية ، وخلقت وضعا ستراتيجيا ضارا بأمنه ومصالحه ، فان فقدانه هذه المنطقة ، جعل الحـــدود الايرانية تقترب من وسطه ، على شكل « بروز » يمتد الى مسافة كبيرة في أراضيه • وفي الواقع فان الحدود المشتركة بين « شهرستان قصر شيرين » والوحدات الادارية الايرانية الاخرى (شهرستان شاه آباد) ليست الا حدود العراق التاريخية القومية ، منذ العصر العباسي ، وحتى ما قبل قرن ونصف من يومنا هذا •

وسنعرض ، فيما يأتي ، الى دراسة المناطق الحدودية العراقية التي اقتطعتها ايران ، وما نجم عنها من تغير لخط الحدود في هذه المنطقة لغير صالحه :

أ ـ درتنك :

أرض كانت تشتمل على مدينة وقلعة حصينة ، تشرف على مدينة حلوان . وبعد ان أصاب الاخيرة الخراب في القرن الثالث عشر ، حلت درتنك محلها ، فأصبحت مركز هذا الاقليم . وقد وصفت درتنك في القرن الخامس عشر بانها « قلعة منيفة على قمة جبل » وعرفت بمشايخ الصوفية العرب فيها . وعند تقلص نفوذ بغداد السياسي عقب تعرضها للغزوات المغولية ، انفصلت درتنك مؤقتا عن ادارتها . وتولت الحكم فيها سلالة محلية قوية عرفت بامراء درتنك ، وشملت منطقة حكمها عدة مواضع معظمها في كورة حلوان القديمة . ومنذ بداية الحكم العثماني في العراق ، عادت درتنك الى وضعها الطبيعي بوابة العراق وموقعه الحدودي الاول . وضمت ، المدن والقلاع التابعة لها ، الى ولاية بغداد ، وأصبحت درتنك ، في التنظيمات الادارية العثمانية الموضوعة في القرن السادس عشر ، لواء من الوية بغداد ، فيها حامية عسكرية ، وبيك الاي ، وامراء ، وقاض ومحتسب وشهبندر (رئيس التجار) . وبعد ان كانت حدود اعمال درتنك تصل الى اطراف الدينور (نحو بعد ٢٥ ميلا من غربي كنكوار ، في الشمال من كرمنشاه) تقلصت تلك الحدود في اواخر القرن السادس عشر ، ثم تنازل العثمانيون عن أعمال درتنك الشرقية ، أي معظم نواحيها وقراها ، لقاء احتفاظهم بمناطق مهمة في شرقي الاناضول ، وذلك بموجب معاهدة سراو سنة ١٦١٨ وفي

اثناء المفاوضات سنة ١٦٣٨ تمسك العثمانيون بكونها « حدود بغداد » بل رفضوا التفاوض اصلا قبل اعادتها الى العراق . وثبت ذلك رسميا في معاهدة زهاب سنة ١٦٣٩ حيث نصت على ان تبقى درتنك ضمن الاملاك العثمانية ، وتكون المنطقة المقابلة لها للجانب الايراني ، وتذكر المصادر المعاصرة تحديدا ادق لخط الحدود ، حيث يذكر اوليا جلبي ـ وقد زار هذه النواحي بنفسه في منتصف القرن السابع عشر ـ ان نهاية بوغاز (مضيق ، وادي) درتنك ، ويبلغ طوله ميل ، وفيه تمر طرق التجارة ، هي آخر حدود ايالة بغداد . وان المضيق ، والأراضي المشرفة عليه ، حيث تقع قلعة شاهين (وهي بلدة عراقية ما تزال تعرف بهذا الاسم ، داخل الارض المستولى عليها) كلها من توابعها . وبعد منتهى المضيق « خط الحدود الواضح » منذ عهد مراد الرابع ، وكان كذلك عند قدوم هذا السائح الى المنطقة . وجاءت معاهدة سنة ١٧٣١ تؤكد هذه الحقيقة ، فنصت على أن درتنك من الحدود القديمة أساسا للحدود بين الدولتين . وتعهد الطرفان بعدم تجاوز ذلك في المعاهدتين التاليتين (سنة ١٧٣٩ وسنة ١٧٤٦) . ورغم ذلك كله ، فقد خرقت الحكومة الفارسية أحكام تلك المعاهدات ، فتعرضت المنطقة الى هجمات ايرانية مخربة ، وخاصة سنة ١٧٧٧ وسنة ١٨١٧ ، ثم احتلتها سنة ١٨٢٠ ولم تنسحب منها . ورغم ان معاهدة ارضروم الاولى سنة ١٨٢٣ نصت على وجوب ارجاع جميع القلاع والقرى والمدن العراقية التي استولت عليها ايران بمختلف السبل ، خلال مدة شهرين ، فان شيئا من ذلك لم يحدث وفي سنة ١٨٤٧ ثبتت ايران توسعها الجديد في معاهدة ارضروم الثانية المبرمة في تلك السنة ، حيث نصت المعاهدة على ان تترك الدولة العثمانية لايران القسم الشرقي (أي جميع الاراضي الجبلية) من منطقة زهاب . وبهذا أصبح خط الحدود ينحدر مع قسم جبال

مريوان (آورمان) تاركا منطقة شيران في العراق ، ثم ينحدر مع سفوح جبال حمرين حتى يلتقي بنهر حلوان (الوند) عند بلدة قصر شيرين • وهذا يعني ان العراق فقد درتنك ، ومضيقها الستراتيجي ، ومناطق اخرى مهمة ، لتضاف كمكاسب توسعية جديدة لايران •

ب ـ درنـــه :

ارض حدودية كانت تعد من اعمال بغداد وتقع اليوم ضمن « شهرستان قصر شيرين » وكانت قديما جزءا من كورة حلوان • وعدت في القرن السادس عشر من اعمال درتنك المذكورة آنفا ، حيث تبعد عنها بنحو تسع ساعات ، وعندما ضمت درتنك واعمالها الى الدولة العثمانية ، ونظمت ادارة العراق سنة ١٥٧٤ أصبحت درنة سنجقا (لواء) من سناجق ايالة بغداد ، وفي القرن الثامن عشر أدمج هذا السنجق ، بسنجق عراقي آخر ، كان يتبع سابقا ايالة الموصل ، ويعرف بسنجق باجلان (باجوان) وتولى حكم هذين السنجقين المدمجين (درنه وباجلان) متصرفون عراقيون من اسرة بابان الشهيرة ، يعينهم في منصبهم والي بغداد ، ويعملون بأوامره وحده •

وقد أقرت هذا الوضع الطبيعي معاهدة زهاب ١٦٣٩ اذ نصت على ان تكون درنه ، كغيرها من مدن جسان وبدرة وبندنيجين (مندلي) تابعة لولاية بغداد ، وتشكل ودرتنك الجانب العراقي من خط الحدود واكدتـه ايضا المعاهدات التالية (١٧٣١ و ١٧٣٩ و ١٧٤٦) الا ان ايران استمرت في تحرشـاتها واعتداءاتها على درنة ونواحيها ، فهاجمتها القوات الايرانيـة المتوجهة من كرمانشاه سنة ١٧٧٧ ودمرتها ثم احتلتها عنوة سنة ١٨٢٠ ولم تنسحب منها رغم تأكيدات معاهدة ارضروم الاولى سنة ١٨٢٣ وجاءت معاهدة ارضروم الثانية سنة ١٨٤٧ لتقر سلخها بصفة نهائية عن أرض العراق •

ج ـ كيـــلان :

مدينة من اعمال بغداد مهمة ، تقع على امتداد السهل العراقي (السواد) عند سفوح الجبال ، الى الجنوب الشرقي من قصر شيرين ، كانت تشكل سنجقا من سناجق ايالة بغداد في اواخر القرن السادس عشر ، وقد عرفتها مصادر تلك الحقبة باسم « كيلان عراق » ، ثم غير الفرس اسمها الى «كيلان غرب» وكان يحاددها لوءان عراقيان آخران هما هارونية ، والصاح ، وتعد فيما اورده صاحب كتاب جهان نما (القرن ١٧) من ألوية الحدود وفي منتصف القرن الثامن عشر سلخت ايران هذا اللواء العراقي وضمته ـ عنوة ـ الى « استان كرما نشاه » • وتقع مدينة كيلان ، بحسب التقسيمات الادارية الايرانية» ، في «شهرستان شاه آباد» على الحدود بينها وبين «شهرستان قصر شيرين » • وهذا ما يؤكد حقيقة ان هذه الحدود الادارية ، لم تكن الا حدود العراق التأريخية نفسها ، يوم كانت « شهرستان قصر شيرين » او كورة حلوان ، جزءا من أرضه •

د ـ كرنـد :

مدينة ذات موقع ستراتيجي مهم ، قريبة من مدينة حلوان القديمة ، وكانت تعد في القرن الرابع عشر « عند رأس درب حلوان » ، ومن المرجح ان يكون موقعها في العصر العباسي ما عرفه البلدانيون العرب باسم « مرج القلعة» وهي بلدة ذكروا ان بينها وبين حلوان منزلا واحدا ، وكان بها «دواب الخلفاء في المروج » •

وقد تولت حكم كرند ، في القرون التي تلت الغزو المغولي ، سلالات محلية حاكمة ، منها اسرة « كلباغي » ، لكنها سرعان ما انضمت الى العراق

من جديد ، بعد ان فتحه العثمانيون ، في القرن السادس عشر • ونظمت الادارة فيها على الاسلوب المتبع في سائر انحاء العراق ، اذ جعلت لواء من الوية ايالة بغداد الثمانية عشر • ولا يعلم – على وجه التحديد – تأريخ اقتطاعه منها ، ومن المحتمل ان يكون في اثناء الغزو الفارسي للارض العراقية سنة ١٨٢٠ حيث أشارت معاهدة ارضروم الثانية سنة ١٨٤٧ الى ان « الحكومة العثمانية تترك وادي كرند الى الحكومة الايرانية » فيكون سلخ من العراق قبيل ذلك التأريخ •

هـ – زهاب (زهاو) :

مدينة حدودية قديمة من توابع بغداد ، قريبة من مدينة درتنك ، ومن موقع (سربيل ، سربول) عند ضفة حلوان جاي ، حيث تقع خرائب مدينة حلوان ، وتعرف اليوم باسم « سربيل زهاب » (سربيل تعني : رأس الجسر) • وقد ورد اسم زهاب في مصادر القرن السادس عشر لكونها جزءا من امارة درتنك ، وبانضمام امراء الاخيرة الى العثمانيين في القرن المذكور ، أصبحت زهاب تابعة الى ايالة بغداد ، ثم سرعان ما زادت أهميتها على درتنك نفسها ، وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر أنشأ أحد امراء زهاب فيها جامعا ودار حكومة واتخذها مقرا لامارته ، فانتقل مركز الحكم من درتنك اليها ، وصارت لواء زهاب بدلا من لواء درتنك • وكان يتولى حكم زهاب امراء من الاسرة البابانية العراقية ، يخضعون لوالي بغداد بصفة مباشرة • وقد دمج لواء زهاب في اوائل القرن التاسع عشر بلواء درنه وباجلان ، وعدت زهاب احدى المناطق الحدودية الحصينة للعراق ، وكانت تعسكر فيها حامية عثمانية قوية ، وهي آخر محطة على الطريق قبل الدخول في

الاراضي الايرانية • قال الكركوكلي عن حملة عثمانية كانت تقوم بعمليات عسكرية دفاعية سنة ١٨٠٦ « واصلوا تقدمهم حتى زهاو حيث عسكروا فيها بانتظار جواب الدولة العلية » وذكر ايضا ان بعض القوات « تخطت الحدود وبلغت ناحية مايدشت » فمايدشت (ماهيدشت) اول منطقة ايرانية بعد مدينة زهاب العراقية وليس بينهما موقع متميز فاصل ، وقال ايضا في حوادث سنة ١٨٢٠ « الشاه زاده ميرزا محمد نحو زهاو وتخطى الحدود » • وذكر صاحب مطالع السعود انهم « دخلوا في حدود ممالك الدولة العلية ووصلوا الى بلدة زهاب قاصدين بغداد » ، فحدود العراق كانت واضحة معلومة •

وكانت اطماع الفرس تتطلع الى زهاب نظرا لموقع هذه المدينة الجغرافي المهم ، وسيطرتها على طريق المواصلات في المنطقة ، وفي سنة ١٧٧٧ قام كريم خان الزندي بعملية عسكرية مباغتة احتل على اثرها زهاب ، فاضطر حاكمها والموظفون الى الانسحاب منها مؤقتا ، ولم يترك الغزاة المدينة الا بعد نحو ستة أشهر ، حققوا خلالها توسعا جديدا على حساب الحدود العراقية ، باقتطاعهم ناحيتي كيلان التي ذكرناها سابقا وكلفين من ارض لواء زهاب ، وضمهما الى ايران • ولم تنته التجاوزات الايرانية على المناطق الحدودية العراقية طيلة المرحلة التالية • وفي عهد فتح علي القاجاري (١٧٩٧–١٨٣٤) استولت القوات الايرانية على زهاب عنوة ، ودون أي مبرر ، ونظرا لمخالفة تصرفهم هذا نص المعاهدات السابقة كافة ، وتجاوزهم للحدود العراقية بشكل سافر ، فقد اضطرت الحكومة الايرانية الى الاعتراف ، في معاهدة ارضروم الاولى سنة ١٨٢٣ ، بوجوب اعادة جميع ما استولت عليه من القلاع والاراضي والقرى والمدن الى الدولة العثمانية ، الا أن القوات الايرانية لم

تنسحب من زهاب ، كما لم تنسحب من المناطق الاخرى ايضا • وجاءت معاهدة ارضروم الثانية سنة ١٨٤٧ لتثبت ما كانت ايران قد سلخته من أرض العراق ، حيث نصت بعبارة غامضة على تعهد الحكومة الايرانية بأن تترك الحكومة العثمانية جميع الاراضي المنخفضة في القسم الغربي من منطقة زهاب ، وتعهدت الحكومة العثمانية على ترك القسم الشرقي ، أي جميع الأراضي الجبلية من المنطقة المذكورة الى الحكومة الأيرانية • ولم تنص المعاهدة على وضع مدينة زهاب نفسها ، وفي الواقع فان قوات الاحتلال الفارسي لم تنسحب منها منذ ذلك الحين •

و ـ قصر شيرين :

مدينة كانت جزءا من كورة حلوان الحدودية العراقية ، وتبعد بمسافة فرسخ عن مدينة حلوان نفسها ، وقد فتحها العرب المسلمون بقيادة القعقاع التميمي سنة ١٦ هـ بعد فتحهم جلولاء •

تردد اسم قصر شيرين في المصادر العربية لكونها منطقة اثرية قديمة أكثر منها مدينة سكنية ، وبأنها محطة على طريق حلوان (او درتنك) • ولم يرد اسمها في المعاهدات العثمانية ـ الايرانية لانها جزء من الاراضي العراقية ، وبعيدة عن خط الحدود الفاصل بين الدولتين • ورغم ذلك فقد استولت عليها القوات الايرانية عنوة سنة ١٨٢٠ بعد استيلائها على زهاب مباشرة • ولم تتعرض معاهدة ارضروم الثانية سنة ١٨٤٧ الى وضع قصر شيرين ، على الرغم من انها كانت تقع في عمق لواء زهاب السليب • ولم يقر هذا السلب الا في بروتوكول الحدود الموقع من الطرفين سنة ١٩١٣ ، وباقراره ، فقد العراق أجزاء اخرى من ارضه ، مما كان يتبع قصر شيرين ، وأهمها منطقة آبار النفط المعروفة ـ الآن ـ بنفط شاه ، وكانت هذه الآبار تعطى من قبل ادارة مندلي بالالتزام الى طالبيها ، ويسلم ريعها الى صندوق مال مندلي •

يخترق خط الحدود الحالي الممتد من منطقة نفط شاه ، الى دهقران (حيث يلتقي باقليم الاحواز ـ عربستان ـ العربي) عدة مناطق من اعمال طريق خراسان القديم ، ومن أعمال واسط ، ومن كورة ميسان • وتمثل هذه المناطق الامتداد الطبيعي لأرض « سواد العراق » وذلك من حيث التكوين الجيولوجي والتضاريسي والمناخي ، كما انها ـ وهذا ما يتصل بنطاق بحثنا ـ تمثل الامتداد التاريخي لنفس العوامل الحضارية والاقتصادية التي صاغت الحياة في مدن العراق وأراضيه الاخرى • لقد ارتبطت تلك المناطق ، بروابط عميقة وعديدة ، تشمل القومية واللغة والعادات والاعراف والنشاطات الاقتصادية والاجتماعية كافة ، وشكلت ـ على الدوام ـ اقليما عراقيا واحدا •

وقد عمدت ايران ، منذ العهد الصفوي فيها ، الى احداث تغييرات قومية مستمرة في الاراضي الحدودية العراقية ، يهدف الى السيطرة على المناطق المرتفعة المشرفة على السهل العراقي المجاور ، والتحكم في الموارد المائية الهابطة منها ، ومن ثم تهديد مراكز الحياة والحضارة فيه على الدوام وحرمان العراق من مواقعه الدفاعية الطبيعية في تلك المرتفعات • وكانت وسائل ايران في تنفيذ هذا الهدف ، تنسجم مع طبيعة الحياة القبلية غير المستقرة التي تتميز بها المنطقة ، حيث دفعت ، على نحو مستمر ، القبائل الفارسية واللورية العديدة مثل سنجابي ، وكلهر لاستيطانها بصفة دائمة ، ومزاحمة القبائل العربية التي تسكنها منذ عهود بعيدة ، وخاصة قبائل بني لام ، والقبائل العربية المنضوية تحت زعامتها ، امثال كعب ، والسواعد ، وربيعة ، وكنانة ، والصفور ، والخزرج ، وغيرها ، فكان ذلك كله سببا في تغيير الصبغة القومية العربية للمنطقة ، والتمهيد لايران حتى تمد نفوذها السياسي

والعسكري اليها ، بما يدفع خط الحدود غربا ويحقق مصالحها المذكورة • وهكذا فان تاريخ هذه الحدود لم يكن ، في حقيقة الامر الا تاريخ التدخل المستمر في التركيب القومي والعرقي .. للمجتمعات الحدودية ، وحسر العروبة عن اراضي العراق في تلك المنطقة المهمة •

ويمكن القول ، استنادا الى شواهد مختلفة ، بأن تاريخ بدء اهتمام السلطات الايرانية بالمناطق الحدودية هذه ، وسلخها من العراق تدريجيا هو أواخر القرن الثامن عشر ، وخاصة في عهد كريم خان الزندي الذي يعد أحد ابرز منفذي هذه السياسة التوسعية ، وكانت اهتمامات الحكومات الايرانية قبل ذلك منصبة ، بشكل اساس ، على مناطق الحدود الشمالية والوسطى في شهرزور وحلوان • وزادت هذه السياسة نشاطا وسرعة في القرن التاسع عشر ، حتى اقتطعت اجزاء مهمة من ارض العراق التأريخية ، مثل سومار ، والطيب ، ودهلران ، ومهران ، وجنكوله ، وغيرها ، مؤلفة منها معظم ما عرفته باسم « استان عيلام » •

وفيما يأتي « نماذج » من المدن والاراضي العراقية المذكورة :

١ ـ سومار :

مدينة تقع على الوادي المعروف باسمها ، وفيه مجرى نهر غنكير (كنكير) الذي يسقي مدينة مندلي في العراق الحالي • واسم سومار حديث ، ومن المحتمل انه استخدم في القرن التاسع عشر • بيد ان موقعها شغلته ، في العصور السابقة ، وخاصة في العصر العباسي ، عدة مدن وقرى زاهرة ، لعل أهمها مدينة « اربوجان » التي وصفت بانها « مدينة حسنة في الصحراء ، بين جبال كثيرة الشجر ، كثيرة الحمات والكباريت والزاجات والبوارق والاملاح ، وماؤها يخرج الى البندنيجين (مندلي) فيسقى النخل فيها » • وقد خربت اربوجان في القرن الثالث عشر ، ولم يبق

منها في عهد ياقوت الا بعض الآثار والعيون (وهي التي تصب ماءها في وادي سومار ، او كنكير) فورثت اهميتها ومكانتها في تلك الناحية ، بلدة مجاورة لها ، قريبة من ضفة الوادي المذكور ، عرفت في التاريخ باسم «ده‌بالا» وفيها دفن الخليفة المهدي العباسي سنة ١٥٨هـ/٧٨٥م ، وكان قبره موجودا بها الى حقبة متأخرة من العصر العباسي • واستعادت ده‌بالا مكانتها في القرن السادس عشر حينما اصبحت ، ضمن التنظيمات العثمانية لايالات العراق ، لواء من الوية ايالة بغداد ، يحادده من الشمال لواء كرند ، ومن الغرب لواء قزانية ، ومن الجنوب لواء جنكوله ، اما من الشرق فخط الحدود العراقية ـ الايرانية ، ومنها يصعد الى درنه ، فكرند ، فدرتنك (ثم زهاب) • وكان نهر سومار (كنكير) يجري ، بأجمعه ، في أرض هذا اللواء العراقي ، حتى ينتهي بمدينة مندلي (ضمن لواء قزانية) • والى الاخيرة يعود حق استيفاء اجور مياهه • وكان اصحاب الاراضي الزراعية في وادي سومار ، وهم عراقيون من سكان مندلي ، يستوفون ضريبة الارض المسماة « عقر » من مزارعيهم ، ومن العشائر الذين يعملون في تلك الارض ويدفعون خمس محصولهم الى مندلي •

ومنذ منتصف القرن الثامن عشر ، اخذت قبائل لورية ، من التبعية الايرانية ، باجتياز الحدود والاستقرار في تلك النواحي • وفي سبعينات القرن المذكور أخذت حكومة الزنديين في ايران تنفيذ مشاريعها التوسعية في المنطقة ، فمنح كريم خان الزندي (١٧٥٧-١٧٧٩) حاكمية منطقة ايران (قرب ده‌بالا) الى والد زوجته علي خان ، وكانت قبائل كلهرية ، ايرانية التبعية ، قد حلت في المنطقة اثناء تلك الحقبة • واخذت نسبة افرادها بالتزايد السريع ، حتى اخذوا ، منذ اوائل القرن التاسع عشر ، ينافسون ـ واحيانا يقاسمون ـ اهل مندلي في استيفاء الضرائب ، واجور مياه سومار ، من مزارعهم • ونتيجة لضعف الادارة العثمانية في مندلي ، فقد توقف اصحاب

اراضي سومار عن سداد خمس محاصيلهم الى هذه الادارة ، ثم اخذوا
نتيجة لضغط قبائل كلهر ، يدفعها الى زعماء تلك القبائل • وفي سنة ١٨٣٢
هاجمت القوات الايرانية بقيادة محمد حسين ميرزا القاجاري مندلي بغتة ،
ودمرتها ونهبت ما فيها بوحشية ، واتلفت ما لدى اهلها من سندات تثبت
ملكيتهم لمزارعهم في سومار • وبذلك تم سلخ هذا اللواء عن الارض
العراقية تماما ، وضمه الى « استان كرمانشاه » في ايران • وباستيلاء
الايرانيين على سومار ، برزت مشكلة توزيع مياه (نهر كنكير) بينهم وبين
مدينة مندلي • لذا فقد اوصى بروتوكول الحدود لسنة ١٩١٣ قومسيون
التحديد بوضع « اتفاقية خاصة » لتوزيع مياهه ما بين الفرقاء ذوي
الشأن • وتم توضيح حصة قضاء مندلي من تلك المياه بشكل واف في نص
الجلسة ٢٨ من محضر القومسيون المذكور ، ويتلخص ذلك في تقسيم مياه
هذا الوادي مناصفة بين مندلي وسومار ، الا ان الحكومات الايرانية
تذرعت بحجة قلة المياه متناسية ان تلك القلة لم تكن الا بسبب اغتصاب
الزراع الايرانيين حصة العراق اثناء جريان النهر في الاراضي المستولى عليها
قبل وصوله مندلي • وما تزل قلعة دهبالا موجودة حتى يومنا هذا ، على
الضفة اليسرى لنهر سومار ، في اعلى مدينة سومار ذاتها ، وتسمى الآن
« دبرولي » •

وثمة نواح ومدن اخرى من هذه الارض العراقية ، ضمت مع سائر
المنطقة الى ايران ، لتسمى ما يعرف الآن بـ « شهرستان عيلام » منها مدينة
« الصالح » وموقعها الى الجنوب من سومار • وهي مدينة عربية بناها
آل صالح ، في المرحلة التي سبقت مجيء العثمانيين الى العراق ، واصبحت
في القرن السادس عشر ، لواء من ألوية بغداد ، مربوطا ـ من النواحي
المالية ـ بدفتر التيمار (سجل المقاطعات الزراعية) فيها • وقد اطلق الفرس
على المدينة ، بعد انتزاعها من العراق ، اسم « صالح آباد » وما تزال تعرف

بهذا الاسم • ومنها قلعة لان (وما تزال معروفة باسمها هذا) وكانت
اقطاعا عراقيا تابعا لمدينة زنك آباد •

ب ـ اراضي بادرايا وباكسايا (مهران) :

منطقتان زراعيتان (طسوجان) من مناطق العراق الخصبة في العصور
الاسلامية ، وكانتا جزءا من منطقة النهروان الوسيعة احدى اغنى اراضي
العراق في تلك العصور • وتعد مدينتا بادرايا (بدرة الحالية) وباكسايا
(آثارها قرب مركز شرطة الشهابي جنوب بدرة) حاضرتي تلك المنطقة ،
وهما من اعمال مدينة واسط العراقية الشهيرة • وكان طسوجاهما
(الطسوج : منطقة زراعية) يشملان ناحية جنكوله وسائر النواحي الممتدة
في الجهة الشرقية من خط الحدود الحالي ، مقابل بدرة ، وحتى نهر
الطيب (في استان عيلام حاليا) قال ياقوت واصفا بادرايا « طسوج بالنهروان
وهي بلدة بقرب باكسايا بين البندنيجين (مندلي) ونواحي واسط » وقال
واصفا باكسايا « بلدة قرب البندنيجين وبادرايا بين بغداد وواسط من
الجانب الشرقي في اقصى النهروان » • ويبدو ان الكوارث البشرية والطبيعية
التي حلت بالمنطقة بعد انتهاء العصر العباسي ، ادت الى خفوت ذكر هاتين
المدينتين ، لتحل محلهما مدينات ونواح اخرى نشأت في طسوجيهما او في
اطرافهما • وابرز تلك المدينات « جنكولة » وموقعها الى الشرق من باكسايا
في قدمات جبال بشتكوه • وما يزال يحمل اسمها مجرى مائي ينساب من
تلك الجبال ، ويخترق الحدود العراقية الحالية عند قرية سيد احمد الى
الجنوب من بدرة • لقد ورثت هذه البلدة اهمية المدن السابقة ومكانتها ،
فاصبحت ، منذ التنظيمات العثمانية الاولى لاراضي العراق في القرن السادس
عشر ، مركزا للواء من الوية بغداد ، يحده من الشمال لواء دهبالا ، ومن
الجنوب لواء بيات (الطيب) ويمثل حده الشرقي (ويصل الى ذرى جبال
كبير كره) حدود العراق الشرقية نفسها •

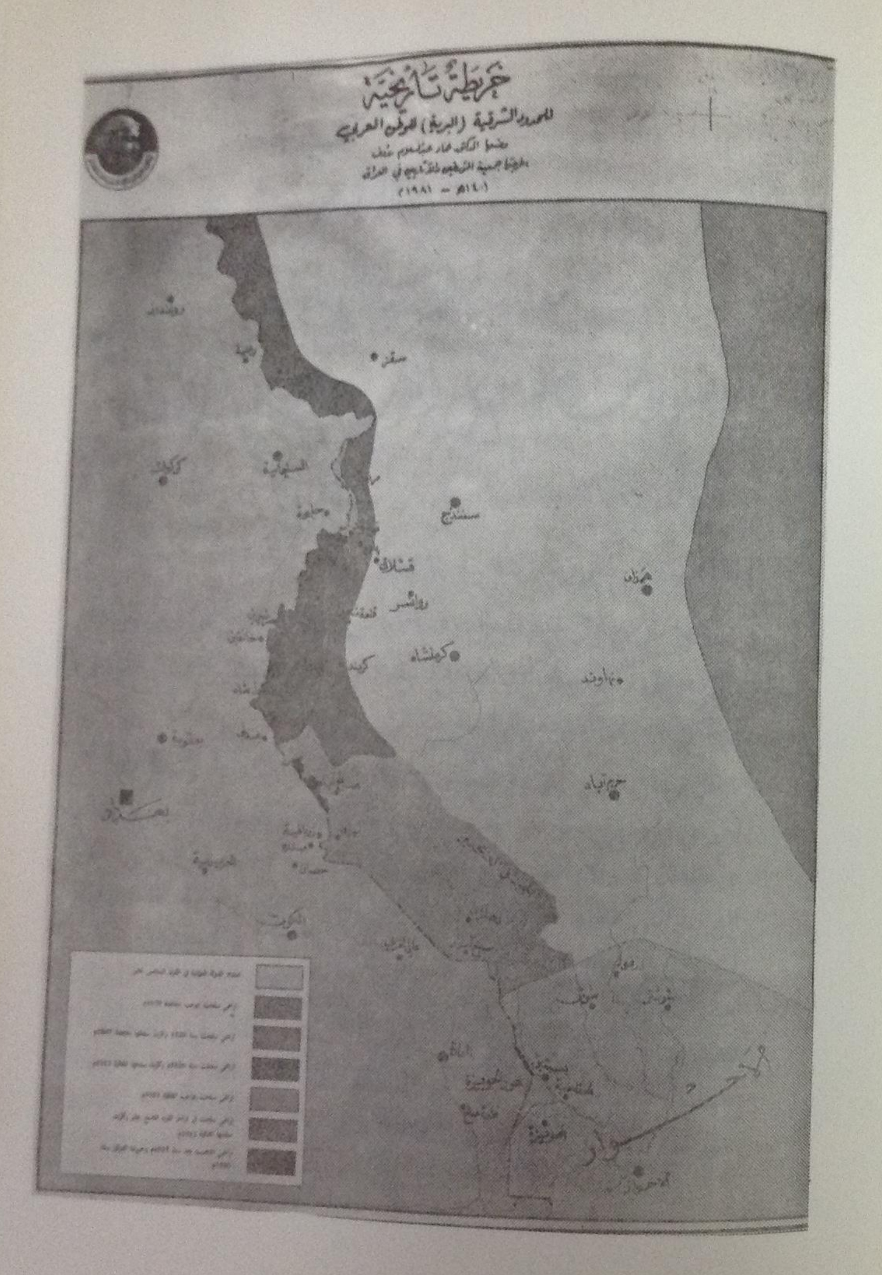
وكان سكان هذه المنطقة الواسعة ، كغيرهم من سكان وسط العراق وجنوبه ، عربا اقحاحا ينتمون الى قبائل عربية شهيرة ، توطنت فيها منذ عهود سحيقة ، منهم في المرحلة التي سبقت العصر العثماني ، قبيلة ربيعة العدنانية ، ثم استقرت فيها ، منذ مطلع ذلك العصر ، قبائل بني لام بعشائرها وفروعها الكثيرة • وزاد ارتباطهم بادارة بغداد المركزية الى حد ان ولاة بغداد اخذوا منذ مطلع القرن الثامن عشر ، يعزلون شيوخها ويولون آخرين بدلهم • وتشير الوثائق الى ان اولئك الولاة كانوا يمنحون اراضي باكسايا الى شيخ بني لام ، في القرن التاسع عشر ، دفعة واحدة ، ويقوم هو بمنحها مساحات صغيرة الى الشيوخ الصغار ، وكان يتسلم منهم الايجار الميري ويدفعه الى الحكومة • وما تزال في منطقة باكسايا ، بالقرب من الجبال ، خرائب ثكنة ومستودعات قامت الحكومة العثمانية ببنائها ، مما يؤكد تبعيتها آنذاك للعراق • وهو أمر تصرح به التقارير الرسمية العثمانية وسجلات التزام الاراضي في ذلك القرن • وتؤكد المصادر الجغرافية العثمانية ، في اواخر القرن التاسع عشر ، على ان منابع نهر دجلة ، في سلسلة جبال بشتكوه ، مما استولى عليه الايرانيون آنذاك ، كان معدودا من ارض العراق •

وكانت انحدار القبائل اللورية (الفيلية من التبعية الايرانية) الى السفوح بشتكوه الغربية قد اخذ في اول الامر (اواخر القرن الثامن عشر) صفة اللجوء والبحث عن فرص للعمل في كنف قبائل بني لام العراقية ، ثم سرعان ما تحول ذلك ، في القرن التالي ، الى دفع حقيقي لهم ، من شأنه تهديد وجودهم وطمس هوية البلاد القومية ، وزاحمت تلك القبائل بني لام وغيرهم من العرب في مواطنهم وسبل رزقهم ، وشنت الهجمات التخريبية على قراهم وزروعهم ، وما ان حل منتصف القرن التاسع عشر حتى كانت مساحات شاسعة من تلك الارض ، تنتهي بسفوح مرتفعات بشتكوه ، قد أمست تحت السيطرة الايرانية فعلا ، متمثلة بوجود الفيلية فيها ، فانحسرت حدود العراق الى

الشريط الممتد بين بدرة والطيب ، الا ان عملية التوسع الايراني لم تتوقف عنده ، بل تجاوزته في المرحلة التالية ، مقتطعة من الارض العراقية اجزاء واسعة غنية ، وضمتها الى ما عرف باستان عيلام في ايران • ولم تقر نتائج هذا التوسع ، الا في بروتوكول الاستانة سنة ١٩١٣ رغم السجلات والوثائق والشهادات العديدة التي قدمها الجانب العثماني والتي تثبت ، بما لا يقبل الشك ، ان تلك الارض كلها ليست الا جزءا من أرض العراق نفسها ، ومن أهم المدن التي تقع في هذه المنطقة ، مدينة « مهران » الواقعة في مقابل مدينة زرباطية وبدرة العراقيتين •

ج ـ الطيب ودهلران :

أرض واسعة خصبة من كورة واسط ، كانت تقع فيها ، أبان العصور الاسلامية ، بلدة عرفت بالطيب ، وصفت بانها « تتصل بعمل واسط » وتتوسط المسافة بينها وبين خوزستان (اقليم الاحواز العربي) وقد اشار ياقوت الى ان « اهلها نبط الى الآن ولغتهم نبطية » والنبطية هي اللغة الارامية ، او بعض لهجاتها ، من لغات الجزيرة العربية التي كان يتكلم بها سكان العراق قبل الفتح العربي الاسلامي ، ثم اختصت بالفلاحين منهم حتى ازمنة متأخرة ، فسكان الطيب عرب فلاحون ويذكر ياقوت انهم كانوا صابئة فأسلموا عند الفتح • وقد اندثرت بلدة الطيب ، بعد ياقوت ، لتنشأ في جوارها منذ القرن الرابع عشر بلدة اخرى ورثت دورها في المنطقة ، هي « بيات » التي اكتسبت اسمها من بعض القبائل الوافدة على العراق فيما بعد الغزوات المغولية لمدنه واراضيه • ويظهر ان مكانة بيات تعاظمت في القرن السادس عشر ، حتى انها أصبحت ، بحسب التنظيمات العثمانية في ذلك القرن مركزا لأحد الالوية التابعة لايالة بغداد ، ولكن اراضيه لبثت تعرف بالطيب ،



حيث يسقيها نهر يحمل هذا الاسم ، وعلى ضفته نشأت ، في القرن التاسع عشر ، بلدة دهلران (دليران) الحالية .

وتميزت الطيب ونواحيها في العصر العثماني بأنها كانت موئلا لقبيلة ربيعة ، ثم لقبائل بني لام التي اتخذت الارض الممتدة بينها وبين نهر دويريج (الى الجنوب منها) موطنا لبيوت زعمائها ، وانتشرت قبائلهم في منطقة واسعة شغلت ما بين باكسايا ودهلران ونهري كنجان جم وكانوى (وعلى الاخير تقع مهران المقابلة لمندلي) وبعمق يصل الى نهر الكرخة . وبما ان بني لام كانوا من التبعية العثمانية بحسب الفرامين والاعراف القديمة ، ويتبعون في شؤونهم ادارة بغداد ، فان منتهى مواطنهم تلك ، مثّل في العصر العثماني الحدود العراقية – الايرانية . بيد ان هذه الاراضي اخذت بالتناقص ، نتيجة للتوسع الايراني والتجاوز المستمر على القبائل العربية ، ودفع القبائل الفارسية واللورية اليها ، لذا لم يبق بأيدي بني لام في منتصف القرن التاسع عشر الا الضفة اليمنى لنهر دويريج ، فعد ذلك النهر الحد الفاصل بين الدولتين ، وفي السنين التالية تجاوز التوسع الايراني هذه الحدود ، اذ شرعت القبائل من التبعية الايرانية بارهاب القبائل العربية المستقرة هناك ، فدمرت عشائر الفيلية دهلران وبيات وباغ شاهي ، ونكلت بسكانها العرب ، واستولت عنوة على جميع الاراضي الزراعية في باكسايا ، مما اضطر بنو لام للانسحاب الى الاراضي الواقعة بين نهري كنجان جم وكاوى بالقرب من زرباطية . ورغم قوة الدلائل التي قدمها الجانب العثماني وكلها يؤكد تبعية باكسايا وتلك المدن والقرى للعراق ، ومنها سجلات بغداد والعمارة ، وحقوق التزام الاراضي المذكورة ، واصحابها السابقون انفسهم ، فقد جاء بروتوكول الحدود لسنة ١٩١٣ ليثبت خط الحدود على هذه الصورة الاخيرة ، فخسر العراق بذلك اجزاء واسعة ومهمة من اراضيه التاريخية .

الفصل الرابع
معاهدة ارضروم الثانية
وتسويات ماقبل الحرب العالمية الأولى

١٨٤٧ - ١٩١٤

معاهدة أرضروم الثانية ١٨٤٧

تم التوقيع على هذه المعاهدة في ٣١ مايس ١٨٤٧ بحضور المندوبين البريطاني والروسي • وتعد اول معاهدة حدود تتعرض بالذكر لشط العرب • ويمكن تلخيص بنودها الرئيسة بما يلي :

١ - فيما يختص بقضية الحدود تتعهد الحكومة العثمانية رسميا بالسماح لفارس بوضع يدها على مدينة وميناء المحمرة والمرسى ، وجزيرة خضر « عبادان » والاراضي الواقعة على الضفة الشرقية (اليسرى) من شط العرب التي تقطنها قبائل معترف بها بانها من رعايا فارس • وقد حددت المادة الثانية من المعاهدة تفاصيل ذلك وما تقدمه فارس للدولة العثمانية مقابل هذا التنازل حيث نصت على ان « تتنازل الحكومة الفارسية عن كل ما لها من ادعاءات في منطقة شهرزور • اما الحدود الممتدة من المحمرة في الجنوب والى الشمال منها فلم يأت ذكرها في المعاهدة مطلقا لهذا فقد ترك أمر تسويتها بموجب بند نهائي في معاهدات لاحقة •

اما بخصوص ادارة الحدود فقد تقرر ان تجبر كل قبيلة على الاقامة فقط على جانب واحد من الحدود ، وان اعمال الغارات والجرائم التي ترتكب عبر الحدود يجب ان يعاقب عليها من قبل سلطات الحدود التي ترتكب فيها هذه الاعمال .

والملاحظ ان هذه المعاهدة قد حلت جميع النقاط التي يدور حولها الخلاف لكنها تركت معظم المسائل التفصيلية لتسويات المستقبل .

وفي ٢٦ نيسان ١٨٤٧ ، وقبل التوقيع على المعاهدة ، الحقت مذكرة ايضاحية حول بعض الشروط الواردة فيها ، قدمت من الدولة العثمانية الى السفيرين الوسيطين في اسطنبول طلبت ما يعنيه المرسى الذي تنازلت عنه بالضبط ، واكدت ان تنازلها عن مدينة المحمرة والميناء والمرسى وجزيرة خضر لا يعني انها تخلت عن اي اراض أخر او مرافىء يمكن ان تقام في المنطقة المذكورة . كما ان تنازلها هذا لا يعني انها تنازلت عن الاراضي التي تخص الدولة العثمانية في الضفة اليسرى حتى في حالة اقامة القبائل الفارسية بشكل جزئي او كلي على الضفة . ولا يحق لفارس تحت أي ادعاء المطالبة بالمناطق الواقعة على الضفة اليمنى من شط العرب .

والواقع ان موضوع حركة القبائل العربية المستمرة بين ضفتي شط العرب اليسرى واليمنى سبب ظروفا صعبة للغاية بشأن علاقات الحدود العثمانية ــ الفارسية . ولما كانت ضفتا شط العرب تكونان وطنا واحدا بالنسبة لتلك القبائل فان كثيرا من قبائل كعب والمحيسن وغيرهما من قبائل الاحواز كانت تسكن على طول ضفة شط العرب اليمنى في البصرة ولم يمكن اعاقة انتقالها بين الضفتين .وهم في الوقت نفسه يملكون شهادة الجنسية

العثمانية . ومن هنا جاء تأكيد الدولة العثمانية في مذكرتها الايضاحية بعدم اعطاء فارس الحق تحت اي ادعاء المطالبة بهم او بمناطق سكناهم .

وبعد دراسة المذكرة العثمانية اجاب السفيران « البريطاني والروسي » الباب العالي بمذكرة مشتركة شملت تأكيدا اكثر وضوحا جاء فيها « ان مرسى المحمرة هو القسم الواقع مقابل مدينة المحمرة في قناة الحفار فقط (الممر المائي الذي يصل نهر كارون بشط العرب) الى مسافة تبعد قليلا من نقطة اندماجه بشط العرب لا الرسو في شط العرب بالذات . وهذا التفسير لا يحتمل تعريفا آخر في معناه » . ويصرح كذلك المثلان الموقعان بانه « سوف لا يكون لفارس الحق باية حجة كانت في ان تقدم ادعاءات حول المناطق الكائنة على الضفة اليمنى من شط العرب ولا حول الاراضي العائدة للدولة العثمانية على الضفة اليسرى التي تقطنها العشائر العربية من كعب والمحيسن » .

وقد وافق الشاه محمد على الايضاحات التي قدمها ممثلا الدولتين الوسيطتين الى الباب العالي . وعليه ابلغ ميرزا محمد علي خان السفيرين البريطاني والروسي موافقة حكومته على مذكرتهما ، وانه ابلغ مندوب حكومته في ارضروم للتوقيع على مسودة المعاهدة . وبعد عشرة اشهر (تقريبا) من توقيع المندوبين حضر السفير الفارسي في باريس الى الاستانة بناء على صدور الاوامر له ــ وهو في طريقه الى طهران ــ وقام بابرام التصديق وتبادل الوثائق ، وذلك في ٢١ آذار سنة ١٨٤٨ .

والذي يمكن ملاحظته على معاهدة ارضروم الثانية ما يلي :

ان تنازل الدولة العثمانية عن اقليم عربي تسكنه قبائل كعب العربية الى

فارس يعني ان تلك المناطق لم تكن تابعة لفارس من قبل • وقد جرى تبادلها باعتبارها من المناطق المتنازع عليها • واصبحت الحدود بناء على هذا التنازل (بين الدولتين) هي الضفة اليسرى لشط العرب • وان سيادة فارس على المحمرة وميناءها لا تشمل شط العرب باي شكل من الاشكال • وان مرسى المحمرة يقع على قناة الحفار (في مصب نهر كارون) لا على شط العرب •

وبهذا فان معاهدة ارضروم الثانية ـ رغم انها جاءت على حساب الحق العربي في المنطقة ـ قد نظمت الحدود بين الدولتين العثمانية والفارسية ، واستمرت ـ مع بعض التعديلات ـ تعد الاساس في قضايا الحدود بين الدولتين العراقية والايرانية بعدئذ •

ولكن الذي حدث ان ايران الحديثة اخذت تحاول التشكيك فيها والطعن بها وتعدها قد فرضت عليها من قبل ممثلي روسيا القيصرية وبريطانيا (الدولتين الوسيطتين) وادعت بانهما تصرفا من جهة واحدة من غير ابلاغ فارس بالمذكرة الايضاحية التي دارت حولها المراسلات • وان ميرزا محمد علي خان لم يكن مخولا بالتوقيع على المذكرة الايضاحية • ولو كان قد قبل المذكرة التي اضيفت الى المعاهدة المذكورة كمعاهدة ملحقة لكان معنى ذلك مخالفته للتعليمات الصادرة اليه وتعديه حدود صلاحياته لكنه مع ذلك اخذ على عاتقه ـ بعد الحاح الباب العالي ـ ان يقبل بالمذكرة الايضاحية في وثيقة الابرام بشكل يتطلب تصديق الشاه • ويلاحظ انه اوضح وقتئذٍ أن صلاحياته لم تكن لتشمل ذلك الامر وان تصريحه كان تصريحا شخصيا محضا • وهكذا ابرمت المعاهدة من غير ان يتم قبولها • كما اعترضت على مسألة تنظيم المعاهدة للحدود • وترى ان الحالات التي تكون فيها الحدود

الدولية على ضفة واحدة من النهر بحيث يصبح النهر ملكا خاصا لدولة واحدة فقط لا وجود لها في خرائط العالم السياسية •

اما العراق فقد اتخذ موقفا آخر رغم ان المعاهدة جاءت على حساب حقوقه القومية • فانه عد معاهدة ارضروم الثانية وثيقة شرعية لا يمكن لايران الطعن بها • وان توقيعها والتصديق عليها وتبادل وثائقها قد تم وفقا للنظم القانونية • وان ما تحاول ايران التدليل عليه لا تؤيده الوقائع التاريخية • وان قضية الحدود في شط العرب ليست بدعة تنفرد ايران والعراق بها • ففي العالم عدد من الانهار الحدودية يمتد اقليم احدى الدولتين فيها حتى شاطىء الدولة الاخرى شاملا كل مياه النهر • ومنها نهر (الدوب) الذي يفصل بين فرنسا وسويسرا حيث يعد النهر كله اقليما فرنسيا • ومنها ايضا نهر الفستولا الذي اتبع فيه هذا الاسلوب في رسم الحدود بين المانيا وبولندا •

هذا وان شط العرب كان يعد دائما نهرا تابعا للدولة العثمانية منذ ان مدت الحكومتان العثمانية والفارسية سلطاتها عليه واتصلتا ببعضهما في جواره • وان محاولة ايران التحلل من نص المعاهدة بشأن مرور سفنها الحربية في شط العرب صادف معارضة شديدة من العراق • ذلك ان حق المرور البرىء للسفن الحربية يمكن تطبيقه على المياه الاقليمية للبحر المفتوح بمسافة معينة • اما تطبيقه على المياه الوطنية للعراق فهو مخالف لابسط قواعد القانون الدولي • وان موافقة العراق على دخول السفن الحربية على مياهه في شط العرب حتى بعد حصول الاذن هو تسامح قلما تقدم عليه دولة حتى ايران نفسها • والا لحق للعراق ان يدخل سفنه الحربية الى قناة بهمشير او نهر كارون • فالشيء المنطقي هو انه اذا كان حق المرور البرىء للسفن الحربية الايرانية في المياه الوطنية العراقية مكفولا فلابد من كفالة حق المرور للسفن

العربية العراقية في المياه الايرانية ، علما وان التصريح بورود السفن الايرانية العربية لم يكن مبنيا على القانون الدولي ، وانما جاء اتفاقا بين الطرفين المتعاقدين نفسه معاهدة ارضروم الثانية ، وكان من باب اولى ان يحتج العراق على المعاهدة قبل ايران ذلك ان الوجود الايراني على ضفة شط العرب اليسرى لا يتفق ومصلحة العراق ، ويبقى دائما مصدر تهديد لأمنه وتجارته .

والواقع ان حالة الحدود الفارسية ـ العثمانية بعد عقد معاهدة ارضروم الثانية ظلت مثار خلاف مستمر واخفقت كافة اساليب المفاوضات ، واستمرت الفوضى والاضطرابات على طول الحدود ، حيث جعلت الفريقين يدركون ان الامل في التوصل الى حل مشاكلها بعيد المنال .

محاولات التسوية وتخطيط الحدود

بروتوكول طهران لسنة ١٩١١

لم تنقطع حوادث الحدود ومشاكلها حتى بداية القرن العشرين ، وقد فشلت لجنة تخطيط الحدود المنبثقة عن معاهدة ارضروم الثانية في معالجة المشكلة ، وبعد اتفاقية سنة ١٩٠٧ المعقودة بين روسيا القيصرية وانكلترا التي بها حددت مناطق نفوذهما وسويت مشاكلهما في المنطقة ، وجدتا من الضروري ان تتيح الفرصة للدولتين العثمانية والفارسية لكي تحسما نزاعهما بشكل مباشر .

وكان من حصيلة الاتصالات المباشرة بين طرفي النزاع ان وقع وزير الخارجية الفارسي والسفير العثماني في طهران في ٢١ كانون الاول سنة

١٩١١ بروتوكول طهران ، لغرض وضع اسس المفاوضات لتخطيط الحدود المشتركة والاصول التي تتبع في ذلك التحديد .

ويتكون البروتوكول من خمس مواد ، نص في مادته الاولى على تعيين لجنة مؤلفة من مندوبي الحكومتين تجتمع في الاستانة باسرع وقت ممكن وتكلف بمهمة تخطيط الحدود وفقا لاسس معاهدة ارضروم الثانية . ويلاحظ من نصوص البروتوكول انه لم يشرك لاول مرة مندوبي الدولتين الوسيطتين ، كما اعتدنا ان نجده في اللجان المؤلفة منذ سنة ١٨٤٧ .

اما مادته الثانية فقد دعت اللجنة لان تقرر باخلاص وعدم محاباة خط الحدود بعد الرجوع الى الوثائق والادلة المقنعة ، على ان تعقبها لجنة فنية تثبت التحديد النهائي على الارض وفقا للاسس التي تضعها اللجنة السابقة .

وقد اقرت المادة الثالثة شرعية معاهدة ارضروم الثانية لسنة ١٨٤٧ واعتبرتها الاساس المعول عليه في تخطيط الحدود ، فقد نصت على ان « تكون اعمال القومسيون المشترك الذي سيجتمع في الاستانة مبنية على مواد المعاهدة المعروفة بمعاهدة ارضروم المنعقدة في سنة ١٨٤٧ » . ولهذه المادة اهميتها لان ايران الحديثة عادت بعد الانقلاب البهلوي تنكر صحة المعاهدة المذكورة وتعدها باطلة وملغاة ، واخذت تردد ان المعاهدة فرضت على ايران من قبل ممثلي الدولتين الوسيطتين بريطانيا وروسيا القيصرية ، وافصحت في مناسبات عديدة عن عدم رضاها عن تلك المعاهدة .

والمادة الرابعة من البروتوكول ترجع نص الخلافات العالقة الى محكمة التحكيم الدولي الدائمة في لاهاي ، وهذا اتجاه جديد لحسم النقاط المختلف عليها ، وكانت قبلا ترجعها الى الدولتين الوسيطتين .

ودعت المادة الخامسة الى ضرورة المحافظة على الوضع الراهن ، واشترطت ان لا يتخذ من الاحتلال العسكري للاراضي المتنازع عليها حجة في الادعاء بملكيتها .

وبموجب البروتوكول اجتمعت لجنة تقرير الحدود في الاستانة لتحديد الحدود . وعقدت ثماني عشرة جلسة في الفترة من ٢٥ آذار الى ٢٢ آب سنة ١٩١٢ . لكن اللجنة اختلفت في تفسير المذكرة الايضاحية الملحقة بمعاهدة ارضروم الثانية . فقد اعتبرتها الدولة العثمانية جزءا من المعاهدة بينما أبت فارس الاعتراف بها . وقد ادى ذلك الى عرقلة نتائج المفاوضات واجهاضها ، وتدخل الدولتين الوسيطتين مرة اخرى في تسوية الحدود .

بروتوكول الاستانة لسنة ١٩١٣

تمخضت المفاوضات التي اجراها مندوبو الدول الاربع (العثمانية والفارسية ، وروسيا القيصرية وانكلتره) عن تعريف خط الحدود في منطقة شط العرب في بروتوكول من ثماني مواد وقع عليه في الاستانة في ٤ تشرين الثاني سنة ١٩١٣ . وهذا البروتوكول يحدد الحدود بتفصيل كبير . وهو غالبا ما يشير الى الظواهر الجغرافية .

واصبح خط الحدود في شط العرب يسير على الوجه الآتي :

« يسير خط الحدود من نقطة تقع الى الشمال الشرقي من كشك البصرة نحو الجنوب لحد قناة الخيين الى نقطة كائنة بين نهر ديايي ونهر ابو العرايد . ويتبع منتصف مجرى قناة الخيين لحد نقطة اتصال القناة المذكورة بشط العرب عند مصب نهر نازالله « نزيلة » ومن هذه النقطة تتبع الحدود مجرى شط العرب لحد البحر تاركة النهر وجميع الجزر الموجودة فيه تحت السيادة العثمانية .

كما تضمن البروتوكول المواد التالية :

١ ـ أقر لايران الجزر التالية :

أ ـ جزيرة محيلة « الحاج صلبوخ » .

ب ـ الجزيرتان الواقعتان بين جزيرة محيلة والضفة اليسرى «الشرقية» من شط العرب .

جـ ـ الجزر الاربع الواقعة بين جزيرة شطيط وجزيرة معاوية .

د ـ الجزيرتان الواقعتان مقابل منيوحي والتابعتان لجزيرة عبادان .

هـ ـ جميع الجزر الصغيرة الموجودة الآن والتي قد تتكون فيما بعد والتي تتصل عند هبوط الماء بجزيرة عبادان او الاراضي الفارسية الى اسفل نهر ناز الله .

٢ ـ يبقى ميناء ومرسى المحمرة الى فوق واسفل ملتقى نهر كارون بشط العرب تحت السلطة الفارسية عملا بما جاء في معاهدة ارضروم الثانية . بيد انه ليس لهذا الامر مساس بحق الدولة العثمانية في استعمال هذا القسم من النهر . كما ان سلطة فارس سوف لا تتناول اقسام النهر الواقعة خارج المرسى .

٣ ـ لا يجري تغيير ما في الحقوق والتقاليد الحالية فيما يتعلق بصيد الاسماك في الضفة اليسرى من شط العرب . وتشمل كلمة ضفة الاراضي التي تتصل بالساحل وقت هبوط الماء . والملاحظ ان هذه المادة تبحث عن الضفة اليسرى الخاضعة لفارس وليس عن النهر . ولذلك يظهر ان القصد منه ان يجعل للفرس حقا في الصيد في النهر التابع للدولة العثمانية .

٤ ـ لا تمتد السلطة العثمانية الى اقسام الشاطىء الفارسي التي قد تغطيها المياه مؤقتا عند ارتفاعها او من جراء عوامل عرضية اخرى • كما لا تمارس فارس السلطة على جانبها في الضفة اليسرى من الاراضي التي قد تصبح مكشوفة بصورة وقتية ام عرضية عندما يكون مستوى هبوط الماء دون الحد الاعتيادي •

واضافة الى ذلك نص البروتوكول على تعيين قومسيون تحديد مؤلف من قوميسيري الحكومات الاربع لغرض تحديد الحدود موقعيا على الارض وتأشيرها •

وقد نصت المادة الخامسة من البروتوكول على « انه اذا تم تحديد قسم من الحدود بعد ذلك القسم كأنه مثبت نهائيا • ولا يكون عرضة لاي تدقيق او تعديل فيما بعد • » •

ونلاحظ في هذا البروتوكول انه عاد وخول العضوين المفوضين للدولتين الوسيطتين سلطة الفصل التام في المسائل المتنازل عليها • وكان بروتوكول طهران لسنة ١٩١١ قد جعل ذلك من شأن محكمة العدل الدولية في لاهاي •

ويبدو لنا من خلال دراسة نصوص البروتوكول بشأن الحدود النهرية ،انه قد جعل الحدود تسير في نهر خيين (احد فروع شط العرب) في وسط المجرى • اما بشأن الحدود في شط العرب فقد سارت على نظام آخر • وهو اعتبار الضفة اليسرى منه حدودا بين الدولتين • وعلى هذا فقد ثبتت السيادة العثمانية التامة على طول مجرى شط العرب لحد البحر ــ ومعنى ذلك ان امتداده في المستقبل داخل البحر يقع تحت السيادة العثمانية ــ بما فيه جميع

الجزر الموجودة ــ عدا ما استثني منها ــ وهذا توضيح دقيق لم تفصله معاهدة ارضروم الثانية •

كما انه وضح حدود ميناء المحمرة والمرسى وجعله : الى فوق والى اسفل ملتقى نهر كارون بشط العرب • لا كما جاء في معاهدة ارضروم الثانية • وعند دراستنا لمعاهدة ارضروم الثانية والمذكرات الايضاحية الملحقة بها وجدنا ان المعاهدة والمذكرات تشير بصراحة الى ان مرسى المحمرة لا يقع في شط العرب وانما على قناة الحفار في مصب نهر كارون • والتنازل الذي تم لم يشمل اي جزء من شط العرب وانما اقتصر على قناة الحفار • ولكن بروتوكول الاستانة هذا يجعل الدولة العثمانية تتنازل عن جزء من شط العرب يقع امام المحمرة بوصفه مرسى للميناء • وهذا اختلاف واضح مع معاهدة ارضروم الثانية التي اعتبرت الاساس في وضع البروتوكول • وتفصح الوثائق البريطانية عن ان الحكومة العثمانية رضخت لهذا التنازل بضغط من شركة النفط الانكليزية الفارسية التي اصبح لها من المصالح في شط العرب ما يجعلها تدفع فارس لان تطالب بمرسى لبواخر النفط فيه ، وفي وقت كان لبريطانيا نفوذ معترف به في جنوب فارس بموجب اتفاقية سنة ١٩٠٧ •

ان ذلك دفع بريطانيا لان تحرص في جميع مراحل المفاوضات على ان لا تدع في مواد البروتوكول ما يمس حقوق شركة النفط الانكليزية ــ الفارسية لا بل انها لم تغفلها عند وضع مواد البروتوكول • فقد جاءت المادة السابعة من البروتوكول ضمانا اكيدا لحقوق الشركة وتعهدا بحمايتها • وقد تحول مفهوم المرسى في هذا البروتوكول من قناة الحفار الى شط العرب

وعندئذ استثنى الجزء المقابل للمحمرة في شط العرب وتنازلت عنه الدولة العثمانية لفارس • وعليه فقد اصبح خط الحدود في شط العرب بين الدولتين الفارسية والعثمانية ــ منذ الآن ــ على طول خط الماء الواطىء للضفة اليسرى من شط العرب ، عدا مرسى المحمرة الجديد في شط العرب الذي ستحدده لجنة تحديد الحدود • وارفق بالبروتوكول خارطة مؤشرا عليها خط الحدود المقرر بالاحمر • وعليه اصبحت مياه شط العرب في غالبيتها العظمى ــ بعد ان كانت جميعها ــ تحت السيادة العثمانية • ومن الواضح ان ذلك لم يؤثر على الدولة العثمانية في مسؤوليتها عن سلامة الملاحة في شط العرب •

والملاحظ ان الدولة العثمانية منذ بداية العقد الثاني من القرن العشرين قد بدأت تتغير سياستها تجاه فارس • وكانت قيادة جمعية الاتحاد والترقي الحاكمة مستعدة لان تفرط ببعض الحقوق الاقليمية للبلاد العربية من اجل الوصول الى تسويات دولية ــ وهذا اتجاه جديد في السياسة العثمانية ــ وحجتها في ذلك ان الاوضاع سنة ١٩١٣ تبدلت كثيرا عما كانت عليه سنة ١٨٤٧ عند عقد معاهدة ارضروم الثانية • لذا فقد أصبح من الضروري اعادة النظر على اسس جديدة ، وكان من نتائج اعادة النظر هذه عقد بروتوكول سنة ١٩١٣ •

وفي تقديرنا ان مسؤولية تردي الاوضاع الحدودية بين الدولة العثمانية وفارس تقع بلا شك على عاتق اطراف متعددة تضافرت لخلق الوضع الشاذ على الحدود • ويأتي على رأس تلك العوامل التدخل البريطاني ــ الروسي في ممتلكات الرجل المريض ، والتي تعتبر مناطق الحدود جزء منها •

فكانت الحدود تتقدم حينا وتتراجع حينا آخر تبعا لمصالح الدولتين الوسيطتين • فقد شهدت تلك المناطق صراعا حادا بين بريطانيا وروسيا القيصرية جرت خلالها المساومة على حساب الارض • ووهبت الدولة العثمانية ما لا تملك لايران ، ولم يكفها تنازلها عن اقليم الاحواز العربي سنة ١٨٤٧ وانما تعدته لان تفرط بجزء من شط العرب • وكان سابقة خطيرة زادت من طموح ايران بعدئذ لان تطالب بالمزيد من مياهه • وتتحمل فارس العبء الاكبر في تردي الاوضاع • ذلك انها اظهرت على مر التأريخ نواياها العدوانية تجاه العرب،وكانت منطقة شط العرب بوصفها جيبا من الجيوب العربية المجاورة لايران مثار اطماعها المستمر ــ كغيرها من مناطق الحدود ــ وكانت تخطط دوما لابتلاعها • واستطاعت ان تتحدى جميع الاعتبارات التي تشد المنطقة بالعراق وتقتطعها من جسم الامة العربية •

وعلى الرغم من كل ما حصلت فارس عليه من مكاسب سنلاحظ ان ايران الحديثة بعدئذٍ تحاول الطعن ببروتوكول الاستانة وتدعى بانها اضطرت « الى قبول حدود ليست بالعادلة » •

ومهما كانت الآراء الايرانية في البروتوكول فان الواقع يشير الى عدم صحتها • ذلك ان وصف الحدود المبين في البروتوكول كان مبنيا على الحالة الراهنة في سنة ١٨٤٧ • وان معاهدة ارضروم الثانية تعد كل شط العرب تحت السيادة العثمانية • وان خط الحدود الموصوف في البروتوكول يمتد تماما على الخط المعتقد انمعاهدة ارضروم الثانية نصت عليه نتيجة للتحقيقات التي تمت بهذا الصدد • وكانت فارس في جميع مراحل المفاوضات تطالب باتخاذ معاهدة ارضروم اساسا للتحديد •

والملاحظ ان ايران لم تطعن في صحة بروتوكول الاستانة الا بعد ان افادت منه في الحصول على اتفاقيات ومعاهدات كثيرة عقدتها مع الدولة العثمانية نفسها • وهي تعتمد على الشكليات الدبلوماسية من اجل التخلص من المعاهدات والبروتوكولات الملزمة لها حتى اذا ما حصلت على مكاسب جديدة لها عادت واعترفت بما تنكرت له من قبل •

محاضر جلسات تحديد الحدود لسنة ١٩١٤

بناء على احكام المادة الثانية من بروتوكول الاستانة لسنة ١٩١٣ تم تأليف قومسيون تحديد الحدود من مندوبي الدول الاربع « الدولة العثمانية، فارس ، روسيا القيصرية ، انكلتره » • وباشر اعضاء اللجنة ونوابهم اعمالهم في المحمرة حيث عقدت اللجنة جلستها الاولى في الثامن من كانون الثاني سنة ١٩١٤ • وتوالت اجتماعاتها وفقا لنظامها الداخلي ، حتى اتمت اجتماعاتها في ٢٦ تشرين الاول سنة ١٩١٤ « استمرت اجتماعاتها قرابة عشرة اشهر » • وقد سجلت اعمال اللجنة في محاضر تفصيلية للجلسات التي عقدتها في (٨٧) محضرا . وتعد هذه المحاضر من المستندات الدولية الرسمية التي يستند اليها موضوع الحدود بين الدولتين العثمانية والفارسية •

لقد اقرت هيئة القومسيون « تحديد الحدود » في جلستيها الثانية والثالثة تفاصيل الحدود التي نص عليها بروتوكول الاستانة لسنة ١٩١٣ • ورسمت خرائط تفصيلية كبيرة وجديدة للحدود • وقد اوضحها جدول اوصاف الحدود الملحق بمحاضر جلسات القومسيون • وبلغ عدد هذه الخرائط التفصيلية (١٨) خارطة اشرت عليها (١٣٤) دعامة تخص الحدود • وقد اتمت اللجنة تحديد الحدود على الطبيعة ، مبتدئة من شط العرب

ومنتهية بعقدة آرارات ، حيث توجهت الى شط العرب وواصلت عملها الشاق لتحديد الحدود والاشارة اليها بعلامات في اراضي الحدود ذاتها • وانجزت اللجنة مهمتها بغاية من الصعوبة وبدقة ومهارة • وكانت نتيجة عملها ان اتمت بشكل كامل الاشارة الى الحدود ، وذلك بوضع اعمدة لها ثبتت اوصافها وارقامها • وبلغ عددها (٢٢٣) دعامة • وشملت جميع الحدود بين فارس والدولة العثمانية • والى هذا الحد اوشكت المسألة ان تنتهي • ولكن قيام الحرب العالمية الاولى اوقف اعمال اللجنة •

وبالنسبة لمنطقة شط العرب وهي المشكلة الرئيسية في النزاع ، فان الحدود اصبحت تسير على الوجه الآتي : « تأتي الحدود من العرض وتمس ضفة شط العرب اليسرى الى نقطة على مسافة ميلين نازلا من القلعة العائدة حاليا الى الشيخ خزعل ــ رصد موقع هذه القلعة من شرفة دائرة البريد العثمانية في الفاو حيث تحقق سمتها مع الشمال هو درجة ٨٧ ــ من هذه النقطة تتبع الحدود مستوى المياه المنخفضة لضفة شط العرب اليسرى الى جزيرتين واقعتين امام منيوحي التي تحيط بهما بشكل يتركهما لفارس ، ثم تأتي الحدود مباشرة لتنضم لخط المستوى المذكور وتتبعه الى اربع جزر واقعة بين جزيرتي معاوية وشطيط بعد ان تلتف حول هذه الجزر بشكل يتركها في الاراضي الفارسية ، تختلط الحدود ثانية مع خط مستوى المياه المنخفضة وتتبعها الى جزيرة محيلة التي تؤلف قسما من الاراضي الفارسية مع الجزيرتين الواقعتين بين هذه والضفة الفارسية • وبعد ان تحيط محيلة متبعة دائما نفس المستوى ، تأتي الى نقطة حيث يبدأ ميناء او مرسى المحمرة ، نقطة متقدمة من ضفة كارون اليسرى بالقرب من ملتقاه مع شط العرب •

لكن المندوب العثماني طلب تغيير عبارة في المحضر بعد ان وجد ان الجزر التابعة لفارس قد جرى تعدادها عند الوصف . في حين ان الجزر العائدة للدولة العثمانية لم تذكر . ورأى ان تكون الصيغة « من النقطة تتبع الحدود مجرى شط العرب الى البحر تاركة تحت السيادة العثمانية النهر وجميع الجزر الموجودة فيه » . وقد جرى نقاش بين المندوبين الفارسي والعثماني حول هذه النقطة . ثم تقرر ان تدخل عبارة « الجزر الاخرى تعود للدولة العثمانية » .

وتستمر محاضر جلسات قومسيون الحدود في اكمال وصف خط الحدود في شط العرب حيث تذكر « يتحول خط الحدود من تويدجات بخط مستقيم في وسط مجرى ماء الشط الذي يتبعه عند مروره بين الضفة الفارسية والجزيرة المسماة ام الرصاص في قسمها الشرقي وام الخصاصيف في قسمها الغربي ، الى ان يصل امام المدخل الشرقي لقناة الخين — الذي يميز بوساطة علامتين مبنيتين بالطابوق عند نهاية هاتين الضفتين واللتين تحملان كلتاهما رقم (١) — فيدخل خط الحدود القناة ويتبع وسط مجرى الماء الى نقطة تقع على مسافة (٤٠٠) قدم غرب نقطة اتصال نهر العرايبيد بنهر الخين . » .

اما اقسام الحدود الاخرى فقد تم تعريفها بشكل مفصل على الخرائط واشر خط الحدود باللون الاحمر . وارفقت الخرائط بالمحاضر .

ويتضح من محاضر جلسات قومسيون الحدود انه قد تمت تسوية معظم الخلافات . وامكن التوصل الى تسوية فرعية خاصة بهذا الموضوع . نتيجة لذلك اعتبر شط العرب كله — عدا استثناء واحد بطول سبعة كيلو مترات

وربع من اصل (١٠٩) كيلو متر وهو طول شط العرب — داخلا في سيادة الدولة العثمانية وتحت سلطتها .

ومن المفارقات ان ايران الحديثة لم يرق لها ان تعترف بخط الحدود العثمانية — الفارسية لسنة ١٩١٤ . وهي ترى انه كان نتيجة ضغط روسيا القيصرية وبريطانيا ، وعملا باحكام الدستور الفارسي « المادتان ٢٢ ، ٣٤ من دستور (٥) آب سنة ١٩٠٦ والمادة (٣) من ذيل دستور (٧) تشرين الاول سنة ١٩٠٧ » لا يتسنى تغيير او تصحيح حدود الدولة من غير موافقة مجلس الامة . وان بروتوكول الاستانة وخط الحدود لسنة ١٩١٤ لم ينالا موافقة المجلس المذكور . اما العراق فانه اعتبر البروتوكول وخط الحدود وثيقتين شرعيتين ملزمتين لكل من العراق وايران ، رغم انهما اقرا التخلي عن اقسام من ارض العراق وشط العرب لايران .

ويرد على الادعاء الايراني بان البروتوكول — كالمعاهدات السابقة — لم يتضمن نصا على التصديق . فضلا على ان البرلمان الفارسي كان قد حل منذ كانون الاول سنة ١٩١١ ولغاية كانون الاول سنة ١٩١٤ فكيف يمكنه ان يصدق عليهما عند توقيعهما . ولماذا تعترف ببروتوكول سنة ١٩١١ ولم يحظ هو الآخر بتصديق البرلمان ، وتأبى الاعتراف بالوثائق التي تلته . كما ان اشتراك فارس في اللجنة المشتركة لتحديد الحدود على الاراضي واقامة الدعامات وتوقيع ممثلها المخول على محاضر جلسات الحدود يناقض تماما ادعاءاتها ويثبت شرعية الوثائق المعقودة .

كما ان المادة الخامسة من البروتوكول تنص على ان الحدود متى ما

ثبتت من قبل اللجنة على الارض تصبح هذه الحدود نهائية ولا يمكن ان تكون عرضة لاي تدقيق او تعديل .

يتضح مما مر ان ادعاءات السلطات الايرانية لا اساس لها من الواقع ولا سند لها من القانون . وهي كثيرا ما تنقض معاهدات ابرمتها واعتقدت بصحتها ، بحجة او اخرى ، دون الالتفات الى الالتزامات الدولية التي عليها . وهدفها في كل هذا تحقيق مكاسب اقليمية جديدة تبعا لاسلوبها التقليدي « خذ وطالب » .

القسم الرابع

الواقع المعاصر

الفصل الأول

تصاعد مشاكل الحدود العراقية - الايرانية

(١٩١٤ - ١٩٣٤)

« لقد استمرت ايران باثارة المشاكل للعراق خلال العهدين الملكي والجمهوري وكانت تصعد من موقفها رغم ان العراق سعى بالطرق الدبلوماسية الى اخماد النزاع واقامة العلاقات الطبيعية مع ايران طبقا للالتزامات القانونية السارية على البلدين ...

لقد طرق العراق مختلف السبل مع ايران لتسوية النزاع وفق احكام القانون الدولي ... غير ان مساعي العراق كانت تواجه بالرفض تارة وبالمماطلة تارة اخرى » ..

الرئيس القائد صدام حسين

مشاكل الحدود العراقية الايرانية بعد الحرب العالمية الاولى

بعد الحرب العالمية الاولى تغيرت خارطة المنطقة العربية . فظهرت دول واختفت اخرى . وبالنسبة لمنطقة رأس الخليج العربي اصبحت المملكة العراقية جارة لايران . وورثت عن الدولة العثمانية جميع مشاكل الحدود .

والواضح ان بريطانيا بعد احتلالها العراق ، اصبحت المسؤولة عن ادارته وتنظيم علاقاته الدولية . وعليه فان العلاقات العراقية الايرانية اصبحت من اختصاص الادارة البريطانية . لذا فان بريطانيا استغلت مشاكل الحدود العراقية ـ الايرانية واخذت تساوم العراقيين عليها .

فعلى الرغم من وضوح تحديد الحدود وتخطيطها بين المملكة العراقية (الجديدة) وايران استنادا الى معاهدات الحدود التأريخية وذلك بموجب بروتوكول الاستانة لسنة ١٩١٣ ومحاضر تخطيط الحدود لسنة ١٩١٤ التي خططتها اللجنة المختصة ، الا ان بريطانيا كانت تمالىء ايران في مطالبها تمشياً مع ما كان لها من مصالح معها ، وقد شجع ذلك ايران على ان تطالب بالمزيد من تعديل الحدود مع العراق .

وقد رفع وزير الخارجية الايرانية في (٩) كانون الثاني سنة ١٩٢٠ الى رئيس مؤتمر الصلح الاعلى مذكرة يشرح فيها مشكلة الحدود مطالبا بتعديل بعض اجزائها . وقد وعده اللورد كيرزون « بان الحكومة البريطانية تستطيع ان تدعم بعض تلك الادعاءات » .

وتفصح لنا مقابلة اجراها في لندن وزير البلاط الايراني تيسور طاش مع السير اوستن شمبرلن وزير الخارجية البريطانية عن السياسة الملتوية التي كانت تسير عليها بريطانيا في حسم مشاكل الحدود . اذ شرح الوزير البريطاني للوزير الايراني ان حكومته لا ترى مانعا من تعديل الحدود مع العراق لو كانت الظروف تساعدها . ولكن خوف بريطانيا من هياج الرأي العام العراقي واتهامه أياها بالتصرف في اراضي العراق ومياهه خدمة لمصالحها ، وتسهيلا لحل مشكلاتها مع ايران ، كل ذلك يمنعها من الاقدام على ذلك الامر . الا ان الوزيرين تفاهما على منح ايران تسهيلات فيما يتعلق بالملاحة والنقليات والمراقبة وغير ذلك من الامور التي تحتاجها . وقد اتخذت ايران بعدئذ ذلك التعهد ذريعة لتفسر من خلاله تلك التسهيلات بانها مشاركة في شط العرب .

يتضح من ذلك ان تهاون الانتداب البريطاني مع النظام الايراني بدافع الحفاظ على المصالح والامتيازات البريطانية في الاراضي الايرانية ، وما يتطلبه

ذلك من ترضية مستمرة للحكومة الايرانية جعل بريطانيا تسعى الى استغلال الموقف مع العراقيين وفقا لما تمليه عليها مصالحها اكثر مما تمليه عليها مصلحة العراق الخاضع لانتدابها .

ولما كانت بريطانيا تمتلك شركة النفط الانكليزية ــ الفارسية في ضفة شط العرب اليسرى ــ وهي بالنسبة لها امر حيوي ونافع ــ فانها كانت تفكر في مسألة العلاقات الطيبة مع ايران بغض النظر عن الحقوق العربية والعراقية .

ومن المعروف ايضا ان لبريطانيا صلات طيبة مع حاكم الاحواز العربي الامير الشيخ خزعل الذي كان يحكم ضفة شط العرب اليسرى باكملها . وقد تم العثور على النفط في امارته منذ عام ١٩٠٨ . وان شركة النفط الانكليزية ــ الفارسية كانت تتعامل معه على اساس سيادته التامة على تلك الامارة العربية ، فعقدت معه معاهدات سياسية هامة كانت ذات اثر كبير على الوضع في شط العرب .

وعليه فان التعامل البريطاني في تلك الجهات كان تعاملا مزدوجا . الاول مع النظام الايراني الذي جعلت معاهدة ارضروم الثانية سنة ١٨٤٧ ضفة شط العرب اليسرى تحت هيمنته . والثاني مع الامير خزعل العربي الذي كان يملك حق السيادة الفعلية على المنطقة ويحكمها حكما مطلقا .

ويمكننا القول ان مشكلة الحدود في فترة الانتداب البريطاني على العراق هي فصل من فصول العلاقات البريطانية ــ الايرانية اكثر من كونها من فصول العلاقات العراقية ــ الايرانية .

وكانت مشكلة اعتراف ايران بالعراق من المشاكل التي اصبحت موضع مساومة بريطانية مع العراقيين . فعندما طلبت ايران تعديل حدودها في شط

العرب شرطا لاعترافها بالعراق ، اقترحت بريطانيا ان تحقق رغبتها لكن بطريقة عملية بحيث تمنحها مساعدات وتسهيلات اقنعتها بانها تعد بمثابة سماح لها بان تكون شريكة في شط العرب مناصفة ، فتتمتع به كأن الحدود حددت وفق القواعد الدولية • وبررت بريطانيا لايران اجراءها هذا بخوفها من انتفاض الرأي العام العراقي وادعائه بانها تتصرف في اراضي العراق لو اعلنت الموضوع صراحة في وقت لايسمح لها وضعها السياسي ان تجابه اي تحدٍّ ضدها في هذا الظرف •

وبناء على ذلك تقدمت ايران عن طريق السير برسي لورين بمقترحات الى وزارة الخارجية العراقية تضمنت بنودا ارتأت ان تكون مواد لمعاهدة من الممكن مفاوضة العراق بشأنها • وقد ذهبت المادة الثالثة عشرة من المقترحات الى ان تكون الحدود بين ايران والعراق هي تلك التي تعينت سنة ١٩١٣ بين الدولة الفارسية والدولة العثمانية • وتكون الملاحة الايرانية في شط العرب حرة كالعادة ، وتعترف حكومة العراق ان لحكومة ايران حقوقا متساوية في شط العرب •

لكن بريطانيا التي كانت تهدف من وراء تلك المناورة الى كسب ود ايران وتصوير الامر للحكومة العراقية الجديدة بان الخطر الايراني يلاحقها وجدت ان ما ناورت عليه كان يعطي مردودا عكسيا • فأسرع المندوب السامي في العراق ليطلب من الحكومة العراقية ان تبدي موقفا صلبا اذا اصرت ايران على طلبها •

وقد نوقشت المقترحات الايرانية من الجانب العراقي فكان الرد عليها بما يلي : يظهر ان المراد من هذه اللائحة ان تكون لحكومتي العراق وايران

حقوق متساوية في شط العرب من مصبه الى ما فوق المحمرة • وهذا بداهة مستحيل ، لانه يضر بميناء البصرة ، وبتدابير صيانة النهر واجراءات الكمارك • ويؤثر تأثيرا كبيرا على ان تبقى الحدود كما قررت في تشرين الثاني سنة ١٩١٣ • ويعطي ايران امتيازات معينة في شط العرب كما تقرر في بروتوكول لجنة الحدود • اما مسألة تعيين ممثل ايراني في مجلس ادارة ميناء البصرة المقترح انشاؤه فيبقى موضوعه مفتوحا للمفاوضة •

وفي أثناء ذلك ظهر على المسرح في ايران رضا شاه بعد انقلاب سنة ١٩٢٥ الذي قاده الى السلطة • وكان على بريطانيا والعراق ان تتعاملا معه على اساس جديد لاسيما بعد ان زحف على ضفة شط العرب اليسرى حيث الاحواز وحاكمها الشيخ خزعل فقوض الحكم العربي فيها • وقد فرطت بريطانيا بالشيخ خزعل الذي سبق واعترفت بسيادته على امارته ووقعت معه اتفاقيات عديدة حول ذلك • وكان همها الرئيس ان يستمر تدفق النفط في حقول الاحواز حيث شركة النفط الانكليزية الفارسية لا ان تتمسك بورقة لا تضيف الى خزائنها شيئا •

كان الاحتلال الايراني العسكري لامارة الاحواز خطوة خطرة للدخول الى مياه شط العرب • وقد عرف عن رضا شاه نزعته القومية العنصرية المتطرفة ذات النعرة العدائية للعرب • لذا فانه لم يشأ الاعتراف بالوضع القائم في العراق • وقد استغل مشكلة الحدود ، لا سيما شط العرب • واخذ يشكك بتسوية ١٩١٣-١٩١٤ ، واظهر كراهية متزايدة ضدها ليثير بوجه الحكومة العراقية العديد من المشاكل •

ولما لم يتوصل رضا شاه الى نتائج ترضيه بشأن الحدود في شط

العرب بدأ يثير الاضطرابات والاعتداءات على السفن والقوارب العراقية متخذا منها وسيلة للضغط على الحكومة العراقية علها تضطر الى تقديم تنازلات جديدة • فصار موظفو الكمارك الايرانية يخالفون التعليمات التي اصدرتها ادارة ميناء البصرة • وامتنعت السفن الايرانية عن دفع الرسوم القانونية • ووقعت حوادث كثيرة كانت موضع مذكرات واحتجاجات رفعتها الحكومة العراقية الى الحكومة الايرانية •

وقد وضح المعتمد السامي البريطاني في العراق الى حكومته خلاصة تلك الاعتداءات برسالة سرية تعدد فيها حوادث خرق السلطات الايرانية للحدود وذكر ان الموظفين الايرانيين في شط العرب يزدادون تعنتاً ويسعون في تجاهل الحقوق الدولية للعراق •

واستمرت ايران في مخالفاتها ، وقامت بانشاء نقطة مراقبة على الضفة اليسرى من شط العرب الى جوار جزيرة ام الخصاصيف في محل يدعى الدربند، وادعت بان هذه النقطة مؤسسة للاغراض الكمركية• واخذت تستعملها لعرقلة الملاحة في شط العرب • مما اضطر السير هنري دوبس المندوب السامي في العراق الى ان يطلب من السفير البريطاني في طهران في رسالة بعثها في (٥) شباط ١٩٢٧ وجوب اتخاذ ما يلزم للحد من المخالفات الايرانية • وقد وضح له ان موظفي تلك النقطة تدخلوا مرارا عديدة في امور السفن الصغيرة التي تمر من النهر واجبروها على الوقوف عند الدر بند حيث فتشت من قبل موظفي تلك النقطة • وهددوا السفن التي لا تمتثل للامر باطلاق النار •

وقد ابلغ المستر كلايف السفير البريطاني في طهران المسيو موليتر مدير الكمارك الايرانية العام البلجيكي عن تلك الاعمال غير الودية فوعده بانه سيصدر التعليمات لوضع حد لتلك التدخلات والاعتداءات •

ولكن ايران لم يثنها عن ذلك شيء • وبلغ بها الامر ان هددت العراق بانها ستغير حدودها امام ميناء عبادان ، وستأخذ مهمة الاشراف الكامل عليه • واتخذت الترتيبات اللازمة لتنفيذ تهديدها •

وقد وجدت بريطانيا هنا الفرصة سانحة لها لاستغلال الموقف لتحقيق مكاسب لها في العراق في وقت اشتدت فيه الحركة الوطنية العراقية والح العراقيون على وجوب تحقيق الاستقلال الناجز • فوجدت في قضية الاطماع الايرانية وسيلة للحد من تلك المطالب •

ولما احتج رئيس الوزراء العراقي على الاعمال العدوانية الايرانية على العراق لدى بريطانيا ، وجدها غير مكترثة للامر ، وكأن هناك تنسيقا بين بريطانيا وايران لاضعاف الموقف العراقي وبالتالي الحصول على مكاسب لهما • وهذا ما حدث بالفعل حيث ان ايران صعدت اعتداءاتها على طول الحدود في شط العرب ، وقامت بسلسلة من الحوادث والاضطرابات • وقد عبرت مجموعة من الجنود الايرانيين شط العرب في تموز ١٩٢٨ واعتدت على جزيرة ام الخصاصيف العراقية • كما عبر مسلحون ايرانيون شط العرب بقواربهم واعتدوا على قرية البوارني العراقية • مما حدا بالسلطات العراقية الى تعقيبهم والقبض على بعضهم • ولم تنقطع حوادث الحدود تلك طيلة الفترة التالية • وقد احيلت جميعها الى لجنة الاتصال المشتركة المتكونة من ممثلين من الجانبين للتحقيق فيها وتقديم التقارير عنها •

وقد طرحت بريطانيا في هذا الوقت فكرة (تدويل شط العرب) ونقل ادارته الى لجنة دولية باشراف عصبة الامم • ولكن المشروع رفض من قبل الحكومة العراقية بوصف ان شط العرب نهر وطني ولا يحق لاية جهة مهما كانت صفتها التدخل في السيادة العراقية •

وبالرغم من كل ذلك الحت بريطانيا على العراق بوجوب قبول تسوية الحدود مع ايران انطلاقا من مصالحها في شركة النفط الانكليزية الفارسية . وضغطت على الحكومة العراقية بوجوب تمثيل ايران في هيئة ميناء البصرة . وقد وجه السير هنري دوبس المندوب السامي رسالة سرية مطولة الى الملك فيصل الاول في تموز سنة ١٩٢٨ يؤكد فيها ان تمثيل ايران في تلك الهيئة امر مرغوب فيه من جانب الحكومة البريطانية ولخص المزايا التي سيجنيها العراق عند موافقته على التمثيل بان ذلك سيؤثر على ايران في الاعتراف بالحكومة العراقية وقبول معاهدة الطرق المائية الدولية لسنة ١٩٢١ .

اعتراف ايران بالمملكة العراقية وتجدد النزاع

بذلت بريطانيا جهدا كبيرا من اجل اقناع ايران بوجوب الاعتراف بالمملكة العراقية لقاء وعد الممثل البريطاني في طهران وزير البلاط الايراني بانه اذا كانت الحكومة الايرانية على استعداد للاعتراف باستقلال العراق فان الحكومة ستبذل مساعيها لمساندة ايران في الحصول على مطالبها . وبناء على ذلك الوعد وافقت الحكومة الايرانية على الاعتراف بالعراق .

وسافر وفد عراقي برئاسة رئيس الديوان الملكي الى طهران في (٢٠) نيسان سنة ١٩٢٩ لتلقي الاعتراف . وقد جرى تبادل المذكرات والتمثيل الدبلوماسي وفق الاصول المرعية في هذا الشأن . حيث عقد اتفاق مؤقت بين الدولتين منح بموجبه رعايا الحكومتين حق افضل الدول في اراضي الدولتين ، ونص على تبادل الممثلين والقناصل . وكانت مدة الاتفاق سنة واحدة ، الا ان الحكومتين اخذتا تجددانه كل ستة اشهر .

ولكن ايران حتى بعد اعترافها بالعراق ابت الاعتراف بشرعية الحدود

معه . وكان المراقبون السياسيون يعتقدون بان صفحة جديدة ستفتح بين البلدين . ولكن ايران اعلنت بانها لا ترى نفسها ملزمة بالترتيبات التي عينت بمقتضاها الحدود ، ولا تعترف بشرعيتها . واعتبرت الوثائق التي سبق ابرامها قد فقدت اهميتها . وترى ان معاهدة ارضروم الثانية لسنة ١٨٤٧ وبروتوكول الاستانة لسنة ١٩١٣ وبالتالي التحديد الذي قام به قومسيون التحديد سنة ١٩١٤ ليست ذات صيغة تنفيذية لتقرير الحدود .

وقد طالب الشاه ان تبحث قضية الحدود من جديد ، واعلن خروجه من الاتفاقيات التي عقدت بين الدولة الفارسية والدولة العثمانية قبل قيام الحرب العالمية الاولى .

وكانت اهم المشاكل التي اثارها هي مشكلة الحدود البرية ، ومشكلة الانهار الحدودية المشتركة وعددها (٢٥) نهرا ، ومشكلة شط العرب .

وتركز خلافه بشكل خاص حول الملاحة في شط العرب ومدى حقوق ايران في استعماله . واخذ رضا شاه يلح في اعادة النظر في هذا التحديد اذا اريد « استمرار عهد من الصداقة والتعاون بين المملكتين » .

وقد حاولت بريطانيا تخفيف حدة التوتر بين العراق وايران . فارتأت ان يبدأ الجانبان مباحثاتهما في القضايا الجزئية علها تؤثر على الازمة القائمة ويثبت الجانبان من خلالها حسن نوايا احدهما للآخر .

كما بذلت بريطانيا مساعيها لاقناع العراق باعطاء ايران بعض الامتيازات في شط العرب مقابل تسوية المسائل المعلقة بمياه الحدود في مندلي والوند وزرباطية ، ولكن العراق ما كان يحبذ ذلك .

وعليه فان ايران استمرت في تعنتها • وبذل العراق محاولات عديدة لاقناع الشاه بشرعية الحدود الا انها لم تأت بنتائج مثمرة •

وقد تطورت الخلافات فأصبحت خطرا يهدد علاقات البلدين لاسيما اثر التوقيع على معاهدة (٣٠) حزيران سنة ١٩٣٠ بين العراق وبريطانيا التي من المقرر ان تمهد الطريق لاستقلال العراق ودخوله عصبة الامم •

ولكن ايران استمرت في تجاوزاتها على الاراضي العراقية • وعملت في الفترة التالية (١٩٣١ — ١٩٣٤) على تشييد المخافر الحدودية وحراستها بالقوة في داخل الحدود العراقية • حيث قامت ببناء مخافر (جيغا سرخ) قرب دعامة رقم (٤٧) الحدودية و (البجيلة) قرب دعامة رقم (٢٢ — ٢٣) الحدودية في العمارة ، و (الشرش) قرب دعامة رقم (١٨ — ١٩) الحدودية ، و (سفرية) قرب دعامة رقم (١٨ — ١٩) الحدودية و (امام) قرب دعامة رقم (٣٥) الحدودية ، و (كاني سخت) قرب دعامة رقم (٣٣—٣٤) الحدودية • وجميع تلك المخافر شيدت داخل الحدود العراقية خرقا للاعراف الدولية •

وقد اقترح العراق ان تقوم لجنة مشتركة من خبراء فنيين بمسح الارض وازالة كل شك حول المواقع الحقيقية للمخافر • ولكن ايران رفضت تلك الاقتراحات • كما استغلت العشائر القاطنة على الحدود ، فكانت تحرضها ضد العشائر العراقية لاسيما عشائر بني لام والجاف وغيرهما للقيام باعمال السلب والنهب وخلق الاضطرابات في مناطق المراعي الحدودية • فسادت الفوضى مناطق الحدود • وهددت ايران العراق باتخاذ ما يلزم للقيام باعمال عسكرية في حالة تعرضه للقبائل الايرانية الساكنة في مناطق الحدود الشمالية والجنوبية والتي قامت باسكانها داخل الاراضي العراقية التي تدعى بانها

ارض ايرانية ، خلافا للقوانين التي تنظم مسألة الرعي بين البلدين والتي نصت عليها معاهدات الحدود السابقة •

هذا الى جانب قيام الحكومة الايرانية بالتجاوز على حصة العراق في مياه الانهر المشتركة وذلك بتحويل مجاري الانهار الحدودية الى داخل حدودها ، وحرمت العراق من مياهه • وبذلك قامت باعتداء آخر على حقوق العراقيين دون مراعاة لحق الجوار •

وقد استفز هذا العمل الحكومة العراقية فاضطرت وزارة الخارجية العراقية الى كتابة عدة مذكرات الى الحكومة الايرانية تستنكر تلك التجاوزات والاستفزازات وطالبت بتعيين لجنة مشتركة تقوم باجراء التحريات للتوصل الى اتفاق ينظم استغلال مياه الانهر وتقسيم المياه بشكل يحقق العدالة •

ولكن الحكومة الايرانية رفضت طلب تأليف اللجنة ، الا ان وزارة الخارجية العراقية اصرت في مذكرتها المرقمة (٥٤٣٤) في الثاني من تشرين الثاني سنة ١٩٣١ الموجهة الى المفوضية الايرانية في بغداد على تأليف لجنة مشتركة لحسم قضية مياه مندلي ومياه زرباطية • وطالبت ان يكون لسكان كلتا الضفتين الحق باستعمال مياه كنجان جم ، وانها ترى ان تقسيم مياهه بصورة عادلة بين الفريقين • ولكن الحكومة الايرانية رفضت المذكرة العراقية بحجج ملؤها المغالطات والتسويفات •

كما تصاعدت التجاوزات الايرانية في منطقة شط العرب • واصبحت السفن الايرانية لا تتقيد بالتعليمات العراقية • وصار الايرانيون يتعرضون لوسائل النقل النهرية العراقية • الامر الذي اربك الملاحة في شط العرب واعاقها • وقدمت الحكومة العراقية شكواها الى الحكومة الايرانية الا ان

ايران كانت تنكر وقوع تلك الحوادث او الادعاء بوقوعها في (مياه ايرانية) او في (المياه الايرانية من شط العرب) .

ويبدو ان رضا شاه لما يئس من تحقيق احلامه بتلك الوسائل ، ولم تنفعه سياسة العداء تجاه العراق شيئا ، اراد ان يجرب اسلوبا جديدا . وذلك باتباع الوسائل الدبلوماسية المباشرة وعقد مؤتمر قمة بينه وبين الملك فيصل علّه يتوصل معه الى نتائج مرضية . فوجه الدعوة الى ملك العراق لزيارة طهران وقد مهد لذلك بمباحثات جرت بين الوزير المفوض العراقي وكل من وزير البلاط تيمور طاش وفروغي وزير الخارجية الايرانية .

وعندما تمت الزيارة في نيسان ١٩٣٢ تم عقد اربع اتفاقيات تنظم الامور بين البلدين . واعرب الشاه للملك فيصل الاول عن رغبة ايران في تعديل الحدود في شط العرب ، وان يصبح خط الثالوك حدا فاصلا بين الدولتين . وفي حالة عدم استجابة الحكومة العراقية لهذا الطلب بسبب الظروف الداخلية فمن المحبذ اجراء مفاوضات من اجل الحصول على تسهيلات محددة لصالح ايران .

وفي ٢٨ نيسان ١٩٣٢ عقد اجتماع بين الجانبين العراقي والايراني بحثت فيه قضية شط العرب وقد صدر بيان مشترك في كل من طهران وبغداد حدد الاسس التي توصل اليها الطرفان .

والواقع اننا اذا امعنا النظر في المباحثات التمهيدية ومباحثات فيصل ــ رضا في طهران ، وجدنا ان المسؤولين الايرانيين يتغاضون بطريقة او اخرى عن كيفية وصولهم الى ضفاف شط العرب الشرقية ، وعن ان جبال زاكروس المنيعة هي الحد الفاصل الطبيعي بين بلادهم والارض العربية . وقد بلغ بهم

الامر ان يلحوا في طلب الوصول الى مياه شط العرب والمطالبة بخط الثالوك .

والحقيقة انه لو كانت ضفة شط العرب الشرقية ايرانية اصلا ، ولم تغتصبها ايران من العرب ، ولو كان شط العرب حدا فاصلا بين العرب والفرس على مدى التأريخ ، لربما كان ادعاء ايران بخط الثالوك له ما يبرره . ولكن ان تسلب جيبا عربيا وتنزل من حدودها الطبيعية لتطل بوساطته على ضفاف شط العرب ثم تحاول بعدئذ ان تطبق القاعدة الدولية على الشط فهو امر لا يقره الواقع . وهي تعلم ان القانون الدولي لا يقر لها احتلالها العسكري لاقليم الاحواز ، وهي لاتملك ما تقدمه لاثبات شرعية ذلك الاحتلال فكيف بها في شط العرب .

واستمرت ايران تطالب بخط الثالوك . وقد اعربت عن هذه الرغبة عند التصويت لقبول العراق عضوا في عصبة الامم في تشرين الاول سنة ١٩٣٢ . وكانت تأمل من وقوفها الى جانبه واعطائها صوت ممثلها في العصبة له ضمن قرار الاجماع بقبوله ، ان يعدل العراق موقفه ويستجيب لمطالبها . وقد وجه وزير الخارجية الايرانية فروغي ــ اول مندوب لايران في العصبة ــ نداء الى العراق بهذه المناسبة ذكر فيه « ان لايران مع العراق اشغالا يجب انجازها، واتفاقات ومعاهدات ينبغي عقدها ومسائل حدود يقتضي حسمها » .

دخول العراق عصبة الامم وتصاعد مشاكل الحدود

لقد اتخذت الترتيبات اللازمة لاجراء مفاوضات بين البلدين ، وحددت الامور التي يجب بحثها . وقد وصل الى طهران رئيس الوزراء العراقي واجرى في اواخر سنة ١٩٣٢ مباحثات تمهيدية مع تيمور طاش وزير البلاط الايراني . وقد طرح الوزير الايراني اقتراحين لحل المشكلة : اما

« تحديد جديد يمنح ايران نصف شط العرب ، واما الحصول على تسهيلات تضمن لايران مصالحها » • وقد عارض رئيس الوزراء العراقي مسألة تعديل الحدود • وحبذ عقد اتفاقية خاصة بشط العرب •

وبعد مشاورات جرت في بغداد بين الحكومة العراقية والمندوب السامي البريطاني حول عقد الاتفاقية ، اتفق الجانبان على مسودة لها ، اهم ما فيها وضع شط العرب تحت رقابة مشتركة تكون ايران ممثلة فيها • ولكن لما عرض مشروع الاتفاقية على تيمور طاش كان نصيبه الرفض •

وكان محصل الخلاف بين وجهتي النظر العراقية والايرانية ان ايران تسعى الى اعطائها مسؤولية حفظ الامن والنظام في قسم من شط العرب متصل بالشاطىء الايراني • اما العراق فما كان يحبذ اعطاء ايران اي نوع من المسؤولية مازال هو قادراً على الاضطلاع بالمهمة تلك وحده • ولا يرى ان هناك مبرراً لان تدخل ايران في ارض عراقية بحجة حفظ الامن والنظام •

واعتبارا من هذا التأريخ اقدمت ايران على الخروج عن تقاليد الملاحة في شط العرب وصممت ان تنتزع ادعاءاتها بالقوة • وقد شهدت فترة ما بعد استقلال العراق توترا شديدا كاد يودي بالعلاقات بين البلدين •

ولم تأبه ايران بالشكاوى العديدة التي قدمها العراق لها • لا بل زادها ذلك اندفاعا للقيام بالمزيد من الاعتداءات • وقد بلغت تلك الاعتداءات ذروتها بعد ان امتلكت ايران باخرتين حربيتين وبدأت القيام باعمال مخلة بالسيادة والحقوق العراقية في شط العرب متجاهلة القوانين والانظمة والتعليمات • وصار الضباط الايرانيون لا يراعون تعليمات ميناء البصرة وانظمته ، ويقطعون قناة الروكة في مصب شط العرب المعدة لمرور وسائط

النقل من جهة واحدة بدون اذن او التأكد من ضابط المراقبة عن خلوها من وسائل النقل • ولا يراعون اشارات الادلاء • واصبحت سفنهم التي تسير بسرعة فائقة ترسو في المنطقة التي يمنع فيها الرسو • وقد ادت تلك الاعمال الى حدوث ارتطام خطير لاحدى البواخر ومصادمات عديدة كان يصعب تحاشيها •

وكانت قناة الروكة في خطر دائم • واصبحت ناقلات النفط الكبيرة معرضة في أي وقت الى حوادث مؤسفة • وتزايد الخوف من احتمال سد القناة وبالتالي ايقاف المواصلات في شط العرب •

وفي مقابلة غير رسمية جرت في (١٩) مارت (آذار) سنة ١٩٣٣ صرح القائد العام للاسطول الايراني الميجر غلام علي بايندر خان لمدير ميناء البصرة الكولونيل وورد بان ايران لا تعترف بسيادة العراق على شط العرب وبانه يرى من الضروري اشراك الحكومة الايرانية في ادارته ، وان حفر قناة الروكة بدون اخذ موافقة الحكومة الايرانية يعد انتهاكا لحقوق ايران • وان ايران لا تعترف بادارة ميناء البصرة ، ولا يمكنها العمل بمقتضى الانظمة الصادرة منه • لذا فانها لا توافق على مراعاة الاشارات التي تعطى لها في القناة اذ ان سفنها صغيرة ويمكنها تجنب الاصطدام بناقلات النفط اثناء مرورها • وان السفن الايرانية لن تعطي اية اشارة رسمية او غير رسمية في اثناء مرورها في القناة •

ولما كان ميناء البصرة قد خصص مشروف لقيادة السفن الداخلة لشط العرب بما فيها السفن الحربية الايرانية التي تطلب اذن الدخول ، اذ يخصص لها عادة مرسى ضمن حدود مرافىء البصرة وشاطىء عبادان ، فان ايران

قامت في (٢٣) حزيران ١٩٣٣ بالقاء القبض على ربان مرفأ البصرة عندما صعد على ظهر السفينة الايرانية (بلنك) قياما بمهام وظيفته ، وارسل الى المحمرة حيث اوقف سبعة ايام . وادعت ايران بان ميناء عبادان ايراني ، وان تعيين الربان من قبل العراق مخالف للعادات الدولية وتجاوز على الحقوق الايرانية .

وقد توالت مذكرات الاحتجاج العراقية على تحديات ايران للسيادة العراقية على شط العرب . وتضمنت تلك المذكرات تفاصيل كثيرة عن مخالفة السفن الايرانية لتعليمات ميناء البصرة ، الا انه لم يكن نصيب هذه المذكرات سوى الاهمال من الجانب الايراني .

وعندما احتج العراق على تحركات الباخرة الايرانية الحربية (سيمرك) ومخالفاتها تعليمات ربان مرفأ البصرة ، اعلنت السلطات الايرانية رفضها لاستقبال المرشدين العراقيين في بواخرها في شط العرب . وفي (٢٥) مارت سنة ١٩٣٣ قام موظفو الكمارك الايرانية في عبادان بالتعرض لمعمل التصليح العائم في شط العرب . وعندما احتجت وزارة الخارجية العراقية على تسلل هؤلاء الى المياه العراقية اجابت ايران بان (باورويزخان) مدير الكمارك الايرانية وموظفيه لم يقوموا باي تجاوز على الاراضي العراقية ، وان المعمل يرسو مقابل عبادان في مياه ايرانية لا علاقة للعراق بها .

وادى تفاقم الخلاف العراقي الايراني الى كثرة حوادث التهريب على حدود البلدين . ولم يستطع الطرفان المتنازعان ايقافها . وقد استغلت ايران ذلك الوضع فأخذت تسلح بعض القوارب بحجة منع التهريب ، ولكنها كانت تتدخل في شؤون السفن النهرية العراقية وتعرقل سيرها .

وقد طرحت ايران ثلاثة اقتراحات لحل الازمة رفعها وزيرها المفوض

في بغداد الى الملك فيصل الاول . يقضي الاقتراح الاول باقتسام شط العرب مناصفة واذا تعذر ذلك يقضي الاقتراح الثاني برفع القضية الى التحكيم . اما اذا تعذر قبول الاقتراحين فيؤجل بحث المشكلة الى حين زيارة الشاه الى بغداد .

وقد رحب الملك فيصل الاول بالاقتراح الاخير . الا ان الزيارة لم تتم بسبب وفاة الملك فيصل واعلان الشاه بانه غير ملزم بالقيام بتلك الزيارة التي كان من المنتظر ان تخفف حدة التوتر وتعمل على تسوية المشاكل الحدودية .

وقد ابدت الحكومة العراقية في عهد الملك غازي استعدادها لمفاوضة الحكومة الايرانية بشأن المشاكل القائمة وايجاد حل مرض لجميع الامور المختلف عليها بروح من الصداقة وحسن النية . ولكن الحكومة الايرانية لم يرق لها هذا . وقامت في تشرين الاول سنة ١٩٣٤ بعمل جديد آخر وهو اجبار السفن التي ترسو في شط العرب امام عبادان بانزال علمها العراقي واستبداله بعلم ايراني ، بدعوى انها تنزل حمولتها في ميناء ايراني ، وهددت تلك السفن برفض دخول حمولتها الى ايران ان لم يرفع عليها العلم الايراني .

كما اتجهت نية ايران الى وضع عوامات داخل شط العرب وهو من اختصاص مديرية ميناء البصرة وحدها .

واضافة الى كل هذا اخذت السلطات الايرانية تلقي القبض على الرعايا العراقيين ، وتطلق النار على كل من يخالف تعليماتها ، وتصادر البضائع من

السفن التي تقترب من شاطئها • وصارت تمد اسلاك التلفونات مقابل (الكشك البصري) و (الكشك الحويزاوي) مخترقة الحدود العراقية • فاعتدت بذلك على مسافة تبلغ (٤١٨ر٤٨٨) متراً مربعاً على ضفة شط العرب اليسرى • ورفعت اعمدة الحدود المثبة بموجب التحديد النهائي لخط الحدود المثبت في سنة ١٩١٤ •

خارطة رقم (١)

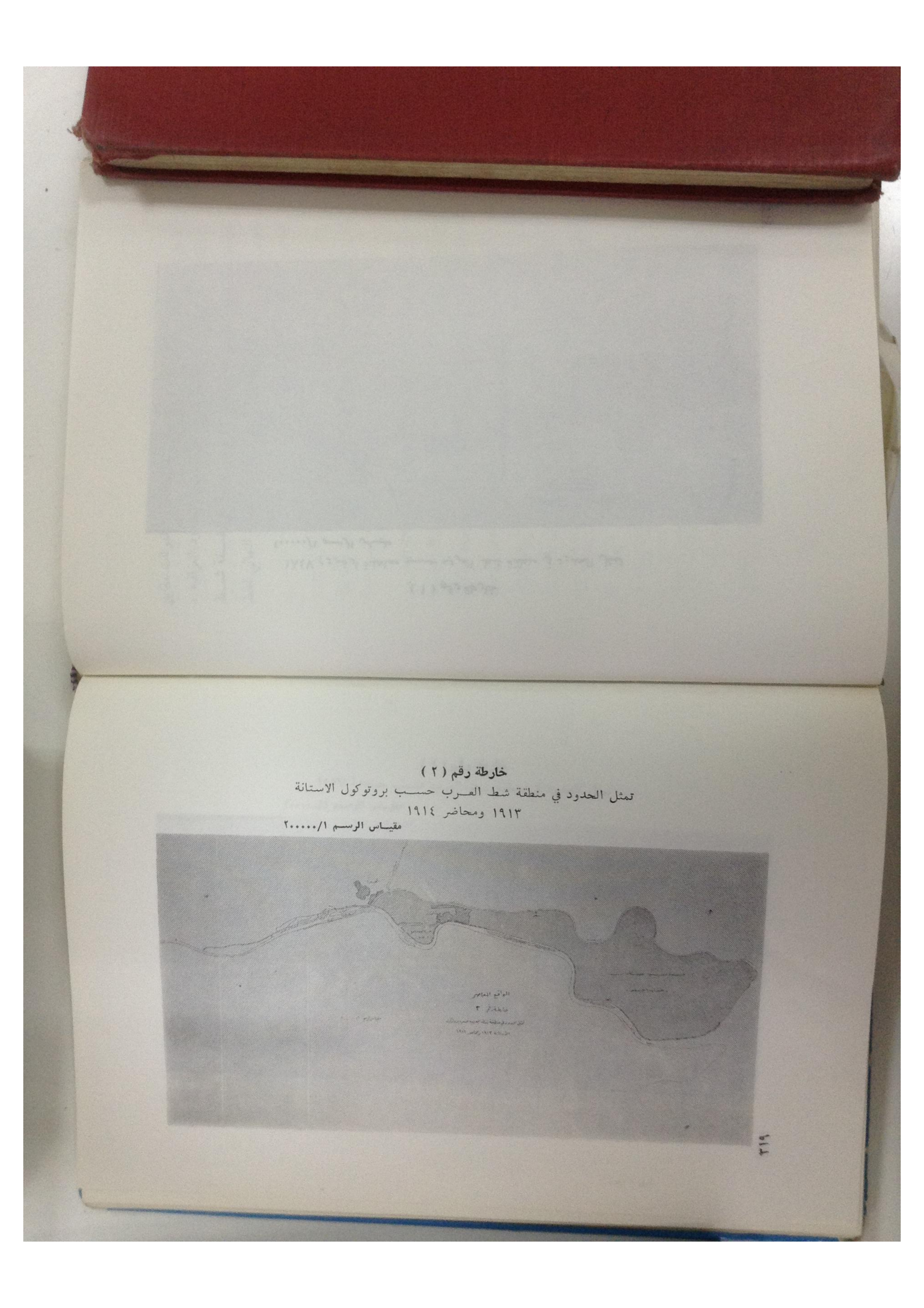
تمثل الحدود في منطقة شط العرب حسب معاهدة ارضروم ١٨٤٧

مقياس الرسم ١/٢٠٠٠٠٠

خارطة رقم (٢)

تمثل الحدود في منطقة شط العرب حسب بروتوكول الاستانة ١٩١٣ ومحاضر ١٩١٤

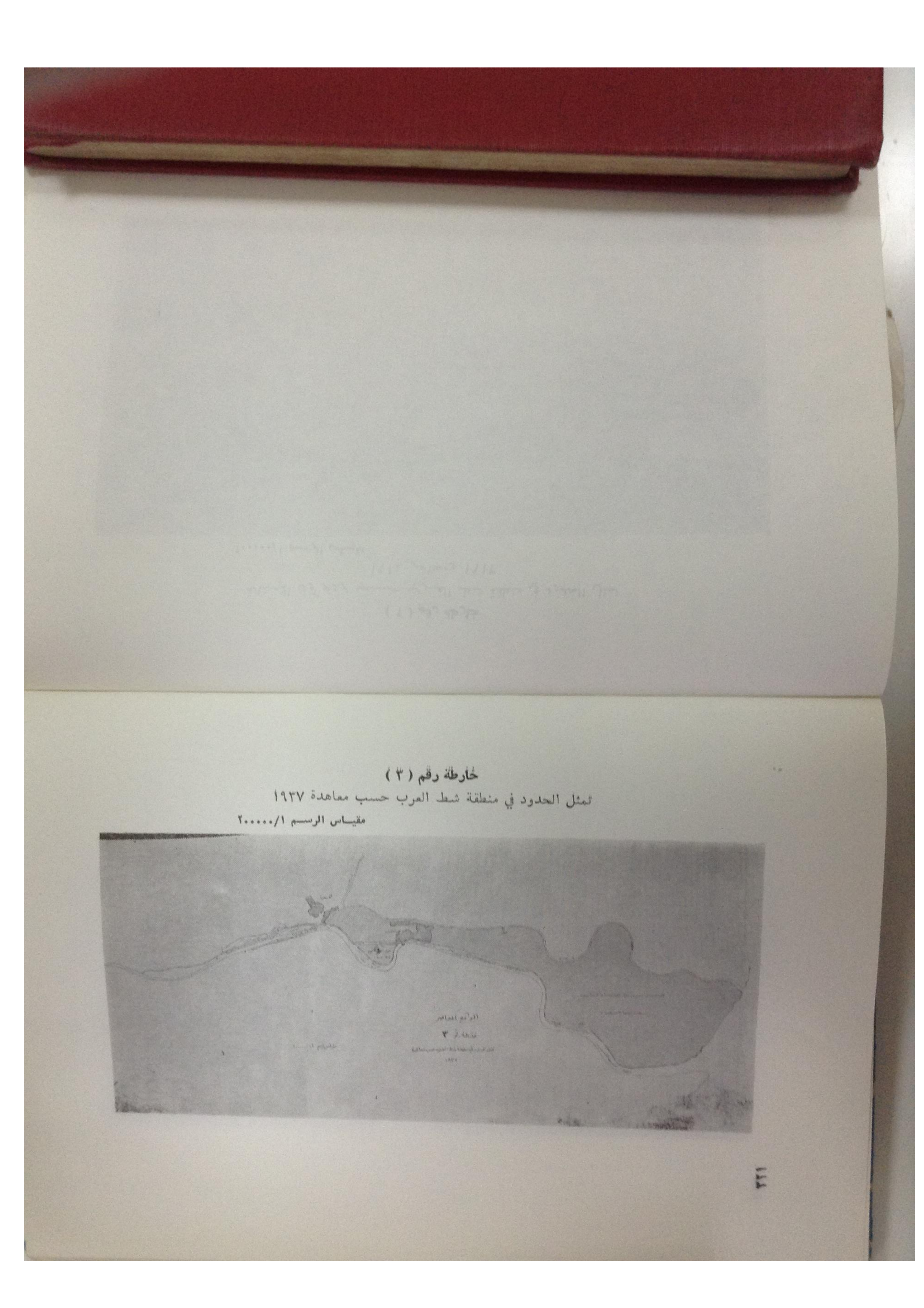
مقياس الرسم ١/٢٠٠٠٠٠

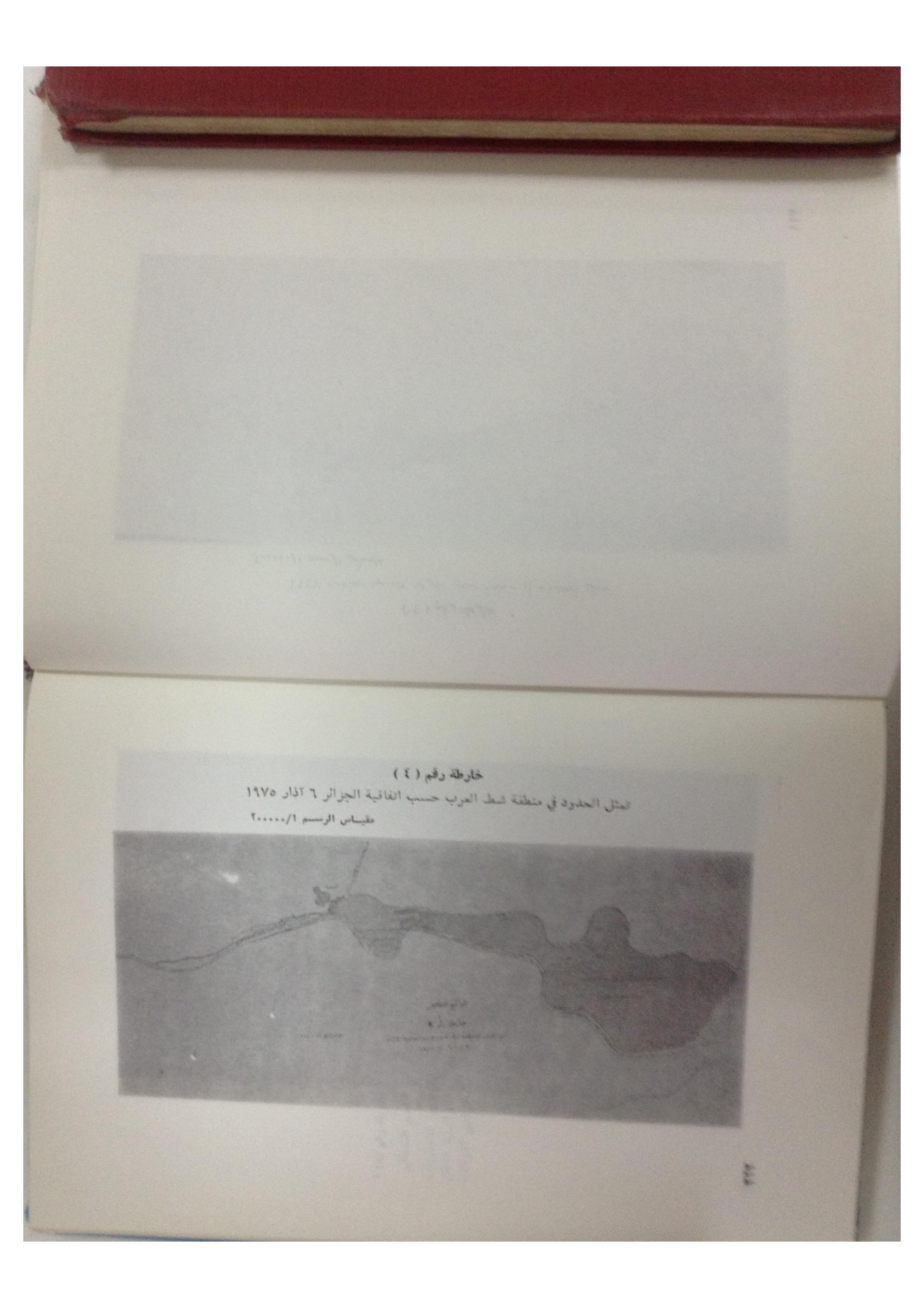


خارطة رقم (٣)

تمثل الحدود في منطقة شط العرب حسب معاهدة ١٩٣٧

مقياس الرسم ١/٢٠٠٠٠٠

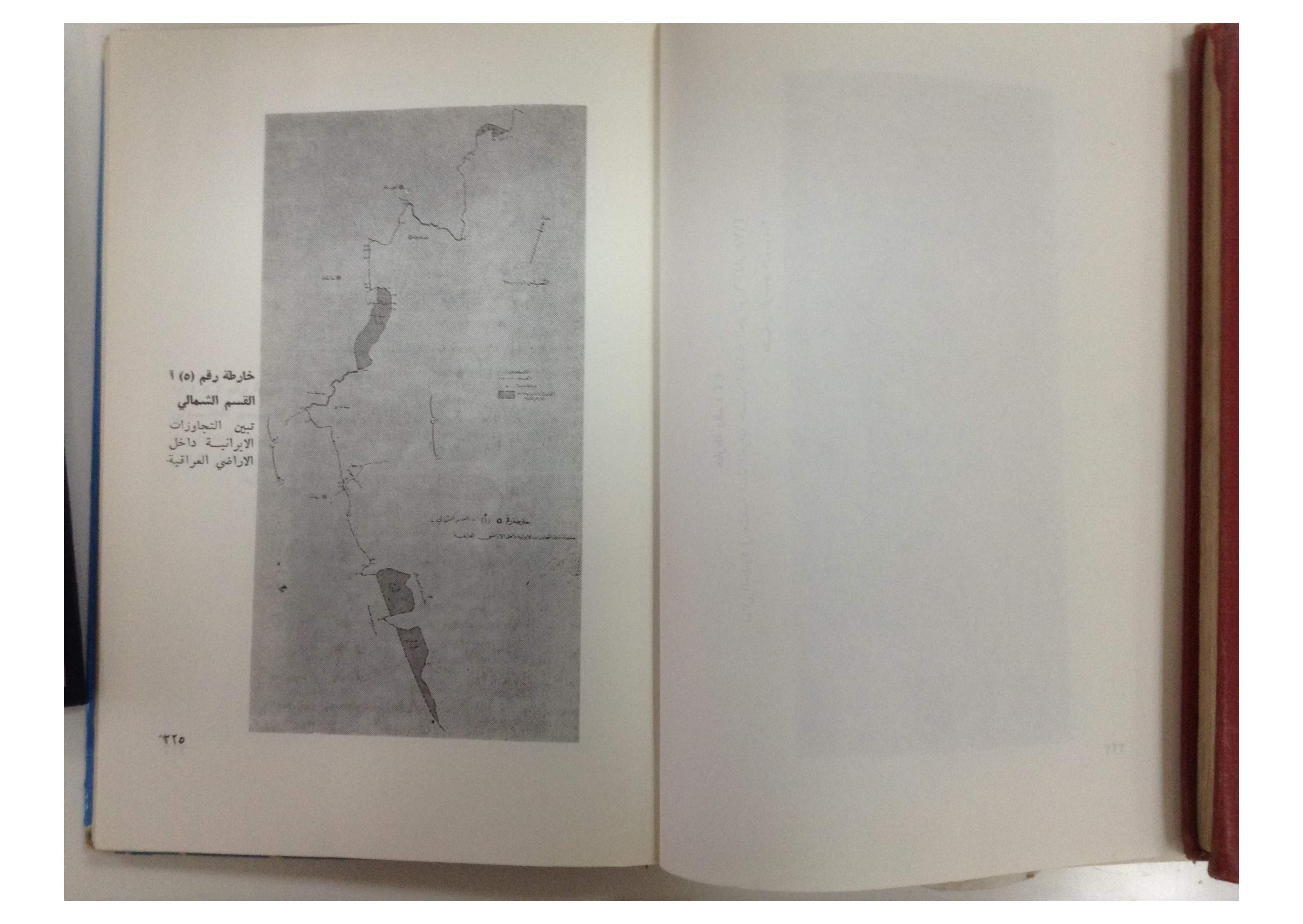




خارطة رقم (٤)

تمثل الحدود في منطقة شط العرب حسب اتفاقية الجزائر ٦ آذار ١٩٧٥

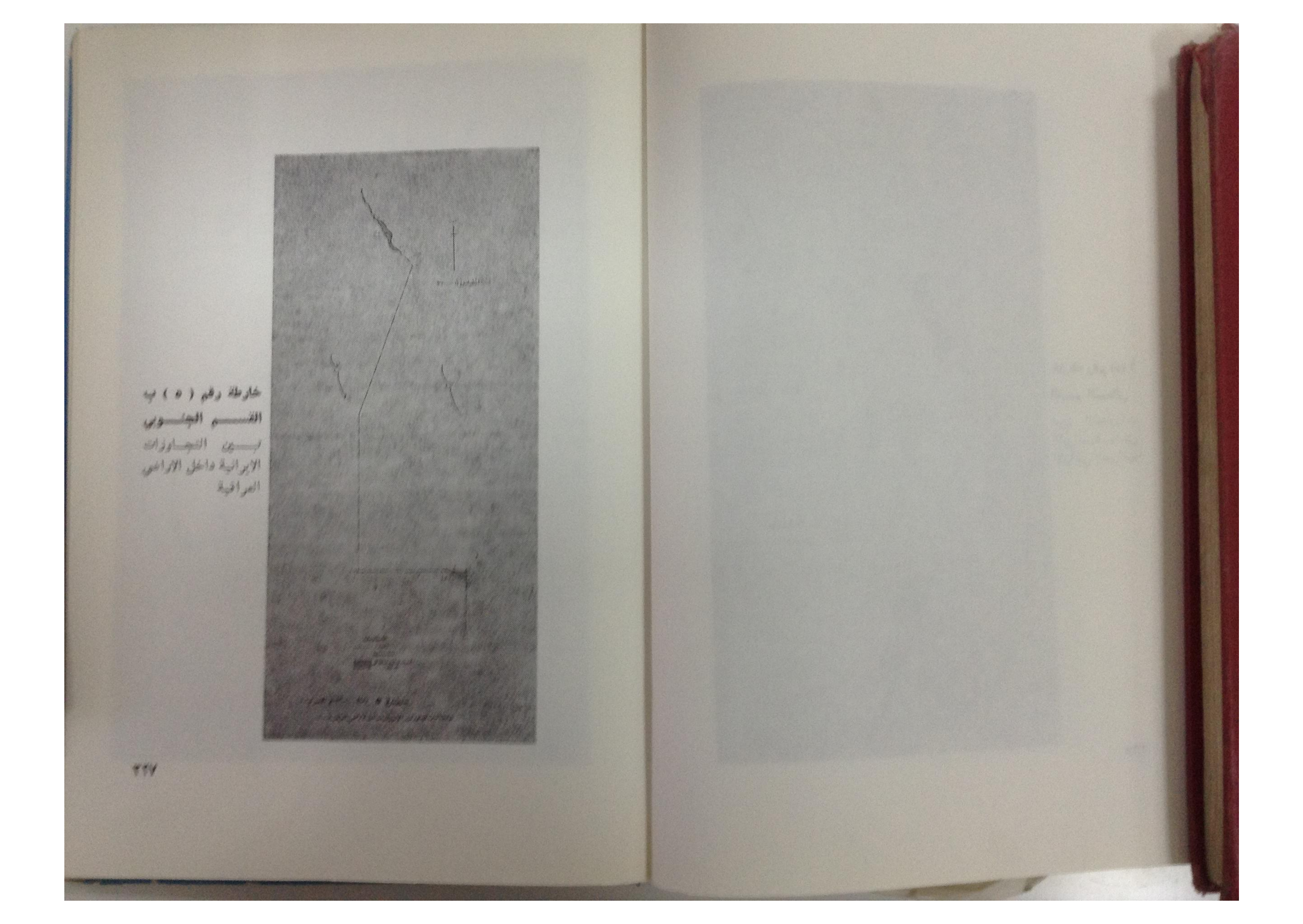
مقياس الرسم ١/٢٠٠٠٠٠



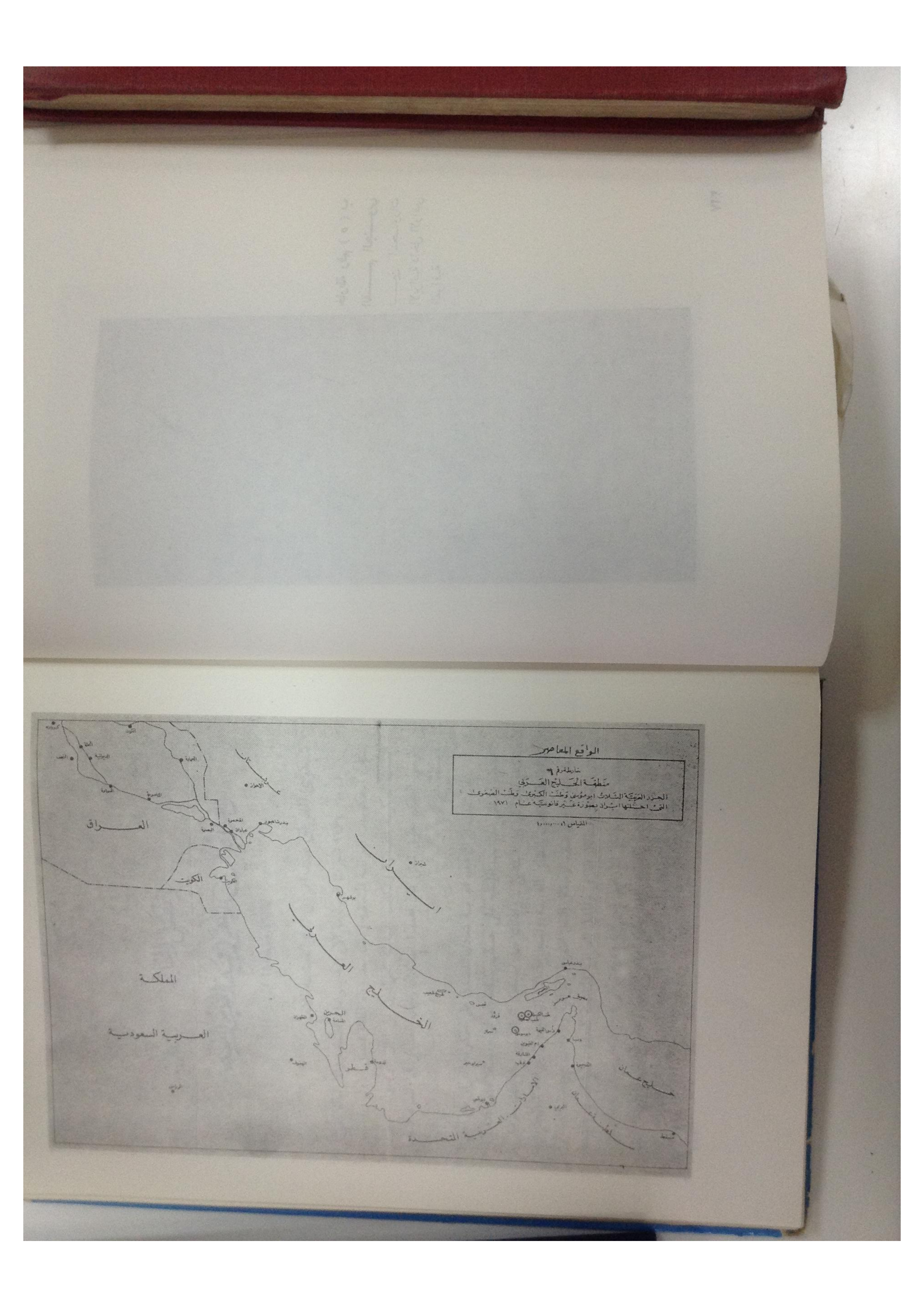
خارطة رقم (٥) أ

القسم الشمالي

تبين التجاوزات الايرانية داخل الاراضي العراقية



خارطة رقم (٥) ب
القسم الجنوبي
تبين التجاوزات
الايرانية داخل الاراضي
العراقية


الواقع المعاصر
خارطة رقم ٩
منطقة الخليج العربي
الجزر العربية الثلاث ابوموسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى
التي احتلتها ايران بصورة غير قانونية عام ١٩٧١
العراق
الكويت
المملكة
العربية السعودية
الخليج العربي
قطر
الامارات العربية المتحدة
خليج عمان

الفصل الثاني

العلاقات العراقية الايرانية

١٩٣٤ – ١٩٥٨

شكوى العراق ضد ايران لدى عصبة الامم

في عام ١٩٣٤ شعرت الحكومة الايرانية بعوامل الضعف والارتباك التي تنتاب الحكومات العراقية المتعاقبة وذلك بعد وفاة الملك فيصل الاول وغياب السلطةالحكيمة المقتدرة وتكالب الساسة العراقيين من اجل الوصول الى كرسي الحكم بطرق شتى كان اهمهما استغلال رجال العشائر في التمرد ضد السلطة المركزية .

فاستغلت ايران هذه الفرصة كعادتها للضغط على حكومة العراق من اجل الحصول على مكاسب اقليمية على حساب سيادة العراق واستقلاله وزيادة في تعقيد المشاكل بين البلدين ، ولذلك فقد صعدت ايران من مخالفات موظفي الكمارك وقامت السفن الحربية والتجارية الايرانية بخرق قواعد الملاحة في شط العرب وتعرضهم لوسائل النقل النهرية العراقية وازدادت هجمات العشائر الايرانية على سكان القرى والمدن العراقية المتاخمة للحدود كما قامت بانشاء مخافر للشرطة داخل الاراضي العراقية وعملت على هدم وتخريب قوائم الحدود المثبتة بين البلدين كذلك قامت بقطع مياه الانهار المشتركة عن المدن والقرى العراقية وخاصة في منطقة خانقين وبدرة وزرباطية .

على اثر هذه الاعتداءات والتجاوزات قدمت الحكومة العراقية شكاوى واحتجاجات متعددة تطالب فيها الحكومة الايرانية بوقف مثل هذه التصرفات التي تؤدي الى توتر العلاقات والاضرار بمصالح البلدين في وقت هما احوج يكونان فيه الى اقامة علاقات طبيعية تحقق مصلحة الشعبين الجارين • الا ان الحكومة الايرانية لم تعر اهتماما لشكاوى العراق بل تمادت في خرق القوانين والاعراف الدولية وذلك لكي تجبر العراق على الانصياع الى مطاليبها غير العادلة ولا المشروعة بضم بعض الاراضي والقرى العراقية وبمشاركة العراق لسيادته الوطنية على شط العرب حيث اصرت على ان يكون خط الحدود الفاصل بين البلدين هو مجرى المياه العميق (خط الثالوك) • فقامت باخرتان حربيتان ايرانيتان بانتهاك حرمة مياه شط العرب ومن ثم رابطت السفينة الحربية « كيلان » في شط العرب واستخدمها رجال خفر السواحل الايرانيين كقاعدة لهم • على أثر ذلك وجهت الحكومة العراقية احتجاجا الى الحكومة الايرانية شديد اللهجة طالبت فيه بالكف عن مثل هذه الاعتداءات والتجاوزات ولكن الحكومة الايرانية استمرت في تجاهلها لهذه الشكاوى واستمرت على أصرارها على عدم الاعتراف بالحدود المثبتة بين البلدين وفق المواثيق الدولية المعترف بها وانكارها لسيادة العراق المطلقة على شط العرب • وقد أبلغ وزير الخارجية الايرانية الحكومة العراقية عند زيارته لبغداد في تشرين ثاني عام ١٩٣٤ « بأن الاعمال التي يقوم بها الموظفون الايرانيون في شط العرب موافقة لقواعد الحقوق الدولية ولا يمكن وصفها بالتجاوز لان العراق يستند في حقوقه على وثائق تعتبرها ايران فاقدة لشرعيتها القانونية » •

تقديم الشكوى

وازاء استمرار العدوان الفارسي على العراق وعدم احترامه لسيادته واستقلاله استشارت الحكومة العراقية حكومة بريطانيا فيما يجب عمله لمعالجة

الاوضاع المتأزمة وقد نصحت الحكومة البريطانية بضرورة قيام وزير الخارجية العراقي بزيارة ايران لبحث المسائل المعلقة واقترحت تأليف لجنة صيانة ثلاثية مكونة من بريطانيا والعراق وايران للاشراف على الملاحة في شط العرب وتقسيم ملكية النفط في منطقة نفط خانه • الا ان الحكومة العراقية شكت في نوايا الحكومة البريطانية وتوقعت استغلال بريطانيا للموقف لخدمة مصالحها الاستعمارية وإحتمال وقوفها الى جانب ايران ان كان ذلك يخدم مصالحها •

لهذا لم تأخذ الحكومة العراقية بنصيحة بريطانيا فرفعت شكوى ضد ايران الى عصبة الامم بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني ١٩٣٤ وارسلت صورة من كتاب الشكوى وملاحقها الى الحكومة الايرانية • وقد تضمنت الشكوى نقطتين اساسيتين وهما :

١ ـ اعتداءات الموظفين الايرانيين المتكررة على الحدود العراقية وعدم مراعاتهم لخط الحدود •

٢ ـ عدم اعتراف الحكومة الايرانية بصحة وثائق الحدود التي تستند عليها الحدود بين البلدين وهي معاهدة ارضروم لسنة ١٨٤٧ وبروتوكول الاستانة لسنة ١٩١٣ ومحاضر لجنة تخطيط الحدود لسنة ١٩١٤ •

وبعد تقديم الشكوى رسميا ذهب وزير خارجية العراق الى مقر عصبة الامم في جنيف بسويسرا لشرح موقف العراق وفي خطاب القاه في ١٤ كانون الثاني ١٩٣٥ في مجلس عصبة الامم عند انعقاده لبحث موضوع الشكوى العراقية اكد أن اعتراف العراق بالحدود الدولية بينه وبين ايران يستند الى المعاهدات والمواثيق الدولية والتي ثبتت بموجبها الحدود بين الدولتين العثمانية والفارسية (والعراق هو الوريث الشرعي للحكومة العثمانية) وقال الوزير العراقي انه بالاضافة الى كون الجانب الشرعي والقانوني هو مع

العراق فان جانب الحق والعدالة ينصر العراق ايضا لان ايران تملك خطا ساحليا يتجاوز طوله الالفين كيلو متر وفيه العديد من الموانيء والمراسي الكبيرة ، اما العراق فبالاضافة الى كونه اساسا ارض الرافدين دجلة والفرات اللذين يكونان شط العرب عند التقائهما داخل الحدود الاقليمية العراقية فشط العرب يشكل منفذ العراق الوحيد الى البحر وتقع عليه مدينة البصرة التي هي الميناء الوحيد للعراق » •

أما رد الحكومة الايرانية على الشكوى العراقية فقد جاء في مذكرة رفعتها وزارة الخارجية الايرانية الى عصبة الامم حددت فيها ولاول مرة موقف الحكومة الايرانية من موضوع الخلاف على الحدود بين العراق وايران وقد ركزت المذكرة على انتقاد معاهدة ارضروم لسنة ١٨٤٧ وبروتوكول الاستانه لسنة ١٩١٣ وحاولت تبيان نقاط الضعف فيها وظروف ابرامها وذلك بحجة ان فارس عقدت تلك الاتفاقيات تحت ضغط الدولتين الوسيطتين بريطانيا وروسيا القيصرية ولذلك فان الحكومة الايرانية الآن تعتبر تلك الاتفاقيات باطلة المفعول وغير شرعية •

قرار عصبة الامم

لم يتخذ مجلس عصبة الامم اية اجراءات جدية في موضوع الشكاوى العراقية من اجل حسم موضوع الخلاف بين العراق وايران بل اصدر قراراً بوجوب قيام مفاوضات مباشرة بين البلدين، وتم تعيين البارون الايطالي الويزي محكما في موضوع الخلاف ليعمل على تقريب شقة الخلاف بين الطرفين المتنازعين •

وقد جرت مفاوضات في روما وجنيف بين الجانبين العراقي والايراني ولما لم يتم التوصل الى قرار مرض تقرر نقل المفاوضات الى طهران • وفي ٥ آب ١٩٣٥ توجه وفد رسمي عراقي برئاسة وزير الخارجية وعضوية

وزير العدل وقد دامت المفاوضات عشرين يوما تركزت حول مشاكل الحدود ونقاط الخلاف ولم يتوصل الجانبان الى حل مرض ولما وجد الايرانيون ان الوفد العراقي يصر على عدم التنازل عن أي شبر من ارض الوطن استدعى الشاه رضا بهلوي وزير الخارجية العراقي وابلغه بأن ايران ستعترف بشرعية معاهدة أرضروم الثانية التي تستند عليها الحدود العراقية الايرانية فيما اذا تنازل العراق عن اكثر من ثلاثة كيلو مترات في شط العرب مقابل ميناء عبادان ليكون مرسى للسفن الايرانية • وقد ابدى الوفد العراقي استعداده لعرض طلب الشاه على الحكومة العراقية لانه لا يملك صلاحية البت في مثل هذه الامور الهامة •

وفعلا ناقش مجلس الوزراء العراقي مقترح الشاه وكانت الحكومة العراقية تشعر بالقوة والاستقرار لدرجة ما فرفضت الطلب مستندة الى ان « القانون الاساسي العراقي لا يجيز التنازل عن أي جزء من ارض العراق » •• الا أنه من الناحية الثانية وافق مجلس الوزراء على اعطاء المساحة المذكورة عن طريق الايجار وبشرط استجابة الحكومة الايرانية لمطاليب العراق المشروعة في بقية المسائل المختلف عليها •

على اثر ذلك قررت الحكومة العراقية سحب شكواها من عصبة الامم والقيام بمفاوضات مباشرة مع ايران • وفي ١٧ كانون الأول ١٩٣٥ وصل بغداد وفد رسمي ايراني لاجراء المفاوضات وتسوية المشاكل الحدودية الا ان انشغال الحكومة العراقية بامور داخلية حالت دون تحقيق المفاوضات واضطرتها الى طلب تأجيلها الى اشعار آخر •

ومما هو جدير بالذكر ان حكومة الشاه رضا بهلوي قد عمدت الى تخفيف ضغوطها على العراق خلال تلك الفترة لعلمها بأن الحكومة العراقية كانت تتمتع بالقوة والمنعة داخل العراق وان الاوضاع تظهر وكأنها مستتبة تحت قبضتها القوية • فقد اعتادت الحكومة الايرانية على زيادة موجة

الاعتداءات والتجاوزات لتحقيق مطامعها التوسعية كلما شعرت بقوتها وضعف حكومة العـراق .

ولكن تلك الاطماع والنوايا التوسعية الفارسية برزت من جديد على اثر انقلاب بكـر صدقي في ٢٩ تشرين الأول ١٩٣٦ . وبذلك حققت ايـران مكسبا اقليميا جديدا على حسـاب العـراق .

حكومة الانقلاب ومعاهدة الحدود بين العراق وايران عام ١٩٣٧

لم تمض فترة طويلة على تسلم حكمت سليمان لرئاسة الوزارة حتى اخذت الحكومة الايرانية تلح في تنفيذ مطاليبها وتضغط على الحكومة الجديدة غير المستقرة لفتح باب المفاوضات بشأن اطماع ايران في شط العرب . وفعلا بدأت المفاوضات بين العراق وايران بعد شهر واحد من وقوع الانقلاب واستمرت لعـدة اشـهر .

لقد كان للظروف السياسية على الاصعدة الداخلية والعربية والعالميـة أثر كبير في دفع الحكومة العراقية للموافقـة على توقيـع معاهدة الحدود لعام ١٩٣٧ والتي تنازل العراق بموجبها عن جزء من سيادته على شط العرب . وكان من بين اهم العوامل الداخلية هو ان رئيس الوزراء العراقي وصل الحكم عن طريق اول انقلاب عسكري يشهده العراق والوطن العربي والذي اطاح بالحكومة السابقة التي كانت تحظى بتأييد واسع في اوساط الشعب والجيش وخاصة العناصر القومية . وما ان مضت فترة قصيرة على الانقلاب حتـى انكشـفت نوايـا قائـد الانقـلاب فـي الاسـتحواذ علـى مركـز القوة والتدخل في امور الدولة واستعماله للعنف والقسوة ضد مناوئيه ممـا ادى الى فقدان الحكومة لتأييد قطاعات واسعة من ابناء الشعب . وكان لاسلوبه في قمع تمردات العشائر في الفرات الاوسط والجنوب رد فعل قوي في جميع

الاوساط حيث احرق القرى وقتل الكثير من ابناء العشائر مما حدا بالوزراء من جماعة الاهالي الى تقديم استقالاتهم . هذا بالاضافة الى ان الحكومـة الجديدة لم تحقق اية مكاسب حقيقية لابناء الشعب العراقي رغم الوعود الكثيرة والبرامج المعلنة ، فقد وُجِدَ بعد حين ان وزارة الانقلاب وان اختلفت فـي ظاهرها عن الحكومات العراقية السابقة فانها لم تختلف قط في جوهرها ومجمل اعمالها ، وفي ضعفها وابتعادها عن رغبات الشعب العراقي .

اما على الصعيد العربي فقد كان لاسقاط حكومة ياسين الهاشمي ذات الاتجاه القومي العربي رد فعل معاكس في جميع اوساط الوطن العربي وخاصة في مصر وسوريا وفلسطين حيث ان الهاشمي كان قد اكتسب سمعة طيبة وشعبية واسعة بجعله العراق مركز اشعاع قومي وموطنا لابناء الوطن العربي وقدم المساعدات المادية والعسكرية للثوار العرب في سوريا وفلسطين حتى لقب ب (بسمارك العرب) .

يضاف الى ذلك ان حكمت سليمان لم يكن له شعور قومي حقيقي ولم يكن مهتما بالقضايا القومية التي تهم الامة العربية ، وفضّل التقارب مع تركيا وايران على التعامل مع الاقطار العربية ولهذا فقد تميزت علاقته معها بالبرود وعدم الاكتراث ووجد في توطيد علاقته بايران وتركيا مجالا لفك طوق العزلة العربيـــة .

أما على الصعيد العالمي (وخاصة في منطقة الشرق الاوسط) فقد ظهرت (في تلك الاثناء) على المسرح السياسي دبلوماسية الاحلاف والتكتلات الدولية والاقليمية وتجددت محاولات خلق حزام امني اقليمي لصـــد الاعتداءات الخارجية وكان لاحتلال الحبشة من قبل ايطاليا عام ١٩٣٥ وظهور بوادر التوسع النازي اكبر الاثر في دفع المنطقة عامة وتركيا بصورة خاصة الى الضغط على العراق وايران لحل مشاكلهم والدخول في تحالفات اقليمية لضمان أمن المنطقة

كما ان بريطانيا وجدت في تقارب دول هذه المنطقة خدمة لمصالحها وذلك من أجل خلق تكتل اقليمي أو حلف دفاعي يقف بوجه الاطماع الالمانية والايطالية.

كل هذه العوامل دفعت حكومة الانقلاب الى توقيع معاهدة الحدود بين العراق وايران في ٤ تموز ١٩٣٧ كما وقعت الدول الاربع : العراق وايران وتركيا وافغانستان ميثاق سعد آباد في ٨ تموز ١٩٣٧ ويدعو الميثاق الى التنسيق والتشاور بين هذه الدول في مجال السياسة والى عدم التدخل في الشؤون الداخلية لاي بلد كما يدعو الى حماية الحدود الدولية وعدم استعمال القوة في حل النزاعات .

كما عقدت معاهدة صداقة بين العراق ايران في ١٨ تموز ١٩٣٧ ومعاهدة أخرى لحل الخلافات بالطرق السلمية في ٢٤ تموز ١٩٣٧ واتفاق خاص لتنظيم اعمال لجنة تحديد الحدود العراقية ـ الايرانية في ٨ كانون الاول ١٩٣٨ .

بنود معاهدة الحدود لسنة ١٩٣٧

لقد كتبت معاهدة الحدود كما كتب البروتوكول الملحق بها بثلاث لغات هي العربية والفارسية والفرنسية وعند وجود اختلاف يكون النص الفرنسي هو المعول عليه .

وتتكون المعاهدة من ست مواد الحق بها بروتوكول من خمس مواد وكان الغرض من عقدها هو «وضع حد بصورة نهائية لقضية الحدود بين الدولتين» .

ونصت المادة الاولى على اعتبار بروتوكول الاستانة لسنة ١٩١٣ ومحاضر جلسات تخطيط الحدود لسنة ١٩١٤ وثائق مشروعة ملزمة للفريقين .

ونصت المادة الثانية على تنازل العراق عن جزء من شط العرب امام ميناء عبادان بحيث يمر خط الحدود بمجرى المياه العميق (خط الثالوك) لمسافة يقرب طولها من اربعة اميال .

كما نصت المادة الثالثة على تأليف لجنة لنصب دعائم الحدود التي كانت قد حددت اماكنها لجنة تخطيط الحدود لسنة ١٩١٤ وتعيين دعائم جديدة اذا اقتضت الضرورة .

وحصلت ايران على مكسب جديد آخر حين اقرت المعاهدة بأن شط العرب سيكون مفتوحا لمرور السفن الحربية الايرانية والسفن الاخرى غير التجارية والمستخدمة في مصالح حكومية حيث لم يكن للسفن الحربية الحق في المرور بشط العرب من قبل كما اقرت المعاهدة ان يتولى الجانبان ابرام اتفاقية خاصة بشأن تنظيم امور الملاحة في شط العرب وان شط العرب سيكون مفتوحا لمرور السفن التجارية العائدة لجميع دول العالم على قدم المساواة وان رسوم الملاحة ستدفع على اساس الحمولة وتكاليف صيانة وادارة شط العرب (مما فسح المجال امام ايران للمطالبة بالمشاركة في ادارة اعمال الملاحة في شط العرب) .

لقد كان تنازل العراق عن جزء من مياهه الوطنية في شط العرب دون مقابل من ايران سوى اعترافها بصحة الوثائق التي تستند عليها الحدود .

تصديق المعاهدة

وفي ١٢ آب ١٩٣٧ وعلى أثر مقتل الفريق بكر صدقي رئيس اركان الجيش الذي كان القوة الوحيدة خلف حكومة الانقلاب أضطر حكمت سليمان الى تقديم استقالته وخلفه في الحكم جميل المدفعي ... ورغم تبدل الحكومة فأن عوامل الضعف الداخلية واستمرار الظروف الدولية المتأزمة لم تغير كثيرا في مجمل المناخ السياسي مما اضطر الحكومة الجديدة الى التعجيل في تصديق المعاهدة وقد عرضت على اللجنة المختصة في المجلس النيابي ولاقت انتقادا لاذعا وطالبت اللجنة المختصة باحداث تغييرات هامة في بنود المعاهدة .
وفعلا حاولت الحكومة العراقية تغيير بعض النصوص في مواد المعاهدة الا ان

الحكومة الايرانية رفضت بشدة اجراء أي تغيير واصرت على تصديقها حسب الاتفاق السابـق •

وفي آذار ١٩٣٨ عرضت المعاهدة على مجلس النواب وتمت الموافقة عليها باكثرية (٨٢) صوتا ضد (١٠) اصوات •

وقد جوبه تصديق المعاهدة بمظاهرات شعبية في بغداد والبصرة واعلن الاضراب العام فاغلقت المتاجر وتوقفت الاعمال • وحاول جمع غفير من الطلبة اقتحام مبنى مجلس النواب للتعبير عن سخطهم ازاء الموافقة على مثل هـذه المعاهدة فاعتقلت الشرطة اعدادا كبيرة من المتظاهرين ومنعت الرقابة الحكومية الصحف من نشر المقالات التي تنتقد المعاهدة • ورغم المعارضة فقد تم ابرام المعاهدة في ٢٠ حزيران ١٩٣٨ وتم تبادل الوثائق بين الحكومتين وابلغت الى عصبة الامـم •

العلاقات العراقية ـ الايرانية بعد عقد معاهدة ١٩٣٧

لقد حققت ايران بموجب المعاهدة مكسبا جديدا يرضي مطامعها التوسعية في العراق خلال تلك المرحلة لتبدأ صفحة جديدة في المطالبة بالمزيد ولمعاودة الضغوط والاستفزاز من أجل ذلك وان رضيت بالمعاهدة الى حين فأنها عملت على تثبيت مكتسباتها في مشاركة العراق لسيادته على شط العرب ، فأن تثبيت المشاكل الحدودية البرية التي فيها تجاوزات ايرانية على مناطق عراقية جعل الحكومة الايرانية بطريقة او باخرى تحاول تمييع القضية والاستمرار فـي التجاوزات على الاراضي العراقية لتبرهن من جديد على ان تطبيق اية اتفاقية يجب ان يكون في صالح ايران فقط • وبموجب ماجاء في معاهـدة الحدود وقعت الحكومتان العراقية والايرانية اتفاقا خاصا في ٨ كانون اول ١٩٣٨ بشأن تنظيم اعمال لجنة تخطيط الحدود العراقية ـ الايرانية بموجب ما تم عمله من قبل لجنة تخطيط الحدود لعام ١٩١٤ • وفعلا باشرت اللجنة الجديدة اعمالها فورا

وقامت بنصب دعائم الحدود وانجزت نصب ٦٨ دعامة • الا ان اللجنة وجدت تجاوزا ايرانيا على الاراضي العراقية في لواء العمارة (محافظة ميسان حاليا) « على نهر الاعمى وفي المكان المسمى « ام شير » وحيث ان السلطات الايرانية قد شيدت مخافر حدودية داخل الاراضي العراقية عندئذ طلب المندوب الايراني تأجيل اعمال اللجنة بحجة الذهاب الى طهران للمداولة مع حكومته وفعلا عاد الوفد الايراني الى عاصمته في ايار سنة ١٩٤٠؛ • وكان لقيام الحرب العالميـة الثانية واضطرام نيرانها قد عمل على تجميد اعمال لجنة تخطيط الحدود خلال سني الحرب الطويلة، فقد اصبح العراق وايران بسبب ذلك قاعدتين عسكريتين لقوات الحلفاء ومركزين مهمين لتموين تلك القوات •

في عام ١٩٤١ وبعد فشل حركة مايس ١٩٤١ التحررية احتلت القوات البريطانية العراق كما احتلت قوات الحلفاء ايران بسبب اندلاع الحرب على الجبهة الروسية وقامت بريطانيا بخلع الشاه رضا بهلوي وتنصيب ابنه محمد رضا بهلوي محله للحد من تزايد النفوذ الالماني في ايران ولتركيز هيمنة الحلفاء على حكومة طهران •

ورغم ان ظروف الحرب لم تسمح للشاه الجديد ان يبرز حقده الفارسي ضد العراق أو ان يصعد من موقف العداء خلال فترة طويلة حتى بعد انتهـاء الحرب الا انه استلم وصية والده الذي قال له : « لقد حررت الضفة الشرقية من شط العرب (ويقصد الاحواز) وعليك تحرير الضفة الغربية » • وفعلا ظهرت النوايا العدوانية والتوسعية الفارسية بعد قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العـراق •

العلاقات العراقية ـ الايرانيـة في اعقاب الحرب العالميـة الثانية

وبعد ان وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها عادت الحياة الطبيعية الى المنطقة بعد جلاء القوات الاجنبية عن الاراضي العراقية والايرانية واصبحت

حكومتا الدولتين تدوران في فلك واحد هو فلك السياسة الغربية ووقعتا تحت طائلة النفوذين البريطاني والامريكي • كما ان ظروف الحرب وما افرزته من تطورات سياسية واجتماعية واقتصادية عملت على خلق تقارب في وجهات نظر الطبقتين الحاكمتين في العراق وايران وادت الى ابتعادهما عن طموحات شعوبهم ورغبتهم في الحياة الحرة المستقلة • وقد ادى ذلك الى تقليل حدة الخلاف بين الحكومتين العراقية والايرانية حسب تنسيق الدوائر الاستعمارية في لندن وواشنطن •

وفي عام ١٩٤٩ طلبت الحكومة العراقية من حكومة ايران ان تواصل لجنة تخطيط الحدود اعمالها في تثبيت دعائم الحدود بشكل كامل ونهائي واقترحت ان تعمل اللجنة تحت اشراف خبير فني من دولة ثالثة محايدة لكي يكون حكماً في حالة وقوع خلاف في الرأي بين الطرفين واقترح العراق ان تكون الدولة المحايدة هي السويد، وفاتحت الحكومة العراقية حكومة السويد لارسال خبير فني في المسح ليشرف على عمل لجنة تحديد الحدود وليكون الحكم في جميع نقاط النزاع • كما فاتحت الحكومة العراقية حكومة ايران لاستحصال موافقتها بشأن الخطة المقترحة الا ان الحكومة الايرانية لم ترسل جوابا ولاذت بالصمت ازاء المقترح •

ولكن في عام ١٩٥٠ طالبت الحكومة الايرانية مجددا بتشكيل لجنة صيانة الملاحة في شط العرب ووافق العراق مبدئياً الا انه اختلف مع الحكومة الايرانية على طبيعة وصلاحية هذه اللجنة فقد اصرت ايران ان تكون اللجنة ذات صلاحية تنفيذية تملك سلطة الاشراف المباشر على جميع اعمال الملاحة في شط العرب وما يتعلق بامورها (أي انها تحل محل ادارة ميناء البصرة) • بينما اصر العراق على ان يكون طبيعة عمل اللجنة استشاريا ويكون واجبها هو التنسيق بين سلطات البلدين (كل من جانبه في اقسام شط العرب العائد له) وذلك من اجل اتباع نظم موحدة في ادارة شط العرب •

وقد اهملت جميع المقترحات نتيجة اصرار الطرفين وازاء انعدام الرغبة لدى شاه ايران في حل المشاكل القائمة وذلك بانتظار الفرصة السانحة للحصول على اكبر قدر من المكاسب الاقليمية على حساب العراق خاصة وان بداية الخمسينات شهدت تدهورا حادا في اوضاع ايران السياسية حين كان التوتر يسود الجو السياسي ويؤشر الى عواقب وخيمة للشاه بسبب صراعه مع رجال الحركة الوطنية الايرانية برئاسة الدكتور محمد مصدق • وفعلا وفي عام ١٩٥٢ نجح الدكتور محمد مصدق في الوصول الى الحكم وقاد الحركة الوطنية التي اطاحت بالشاه واجبرته على الهروب من ايران والالتجاء الى العراق ولكن تدخل الولايات المتحدة الامريكية بواسطة وكالة المخابرات الامريكية وبالتعاون مع العناصر الموالية للشاه في الجيش وفشل محاولة تأميم نفط ايران حسم المعركة لصالح الشاه فعاد الى ايران ليقوم بتصفية العناصر الوطنية(*) ومجمل الحركة الوطنية الايرانية واخذ يبني جهازا امنيا رهيبا سمي بـ (السافاك) تحت اشراف وتدريب وكالة المخابرات الامريكية، وبعد عودة الشاه نشطت ايران في سياستها الموالية للغرب ومضت تسير في مخطط الامبريالية الامريكية لتصبح احدى المرتكزات الهامة للسياسة الامريكية في منطقة الشرق الاوسط واصبحت ايران تساعد وتنسق مع اسرائيل في تحقيق ابعاد السياسية الامريكية في المنطقة العربية وبصورة خاصة لايقاف تصاعد المد القومي العربي •

كما عمل الشاه على دفع دول المنطقة للدخول في تحالفات اقليمية وعالمية من أجل خلق حزام أمني ظاهره ضد الاتحاد السوفيتي وفي حقيقته كان موجها ضد حركة التحرر العربي • وبعد قيام ثورة ٢٣ تموز ١٩٥٢ في مصر واتساع نشاط وشعبية حزب البعث العربي الاشتراكي في ارجاء الوطن العربي

(*) مما يجدر ذكره ان الشاه قد حكم على قائد الحركة الانقلابية محمد مصدق بالسجن لمدة خمس عشرة سنة ولكنه امر باعدام الدكتور حسين فاطمي (وزير خارجية حكومة مصدق) شنقا وقطعت جثته اربا اربا لان فاطمي كان ينحدر من اصل عربي من منطقة الاحواز وكان فاقدا البصر •

وخاصة في سوريا شهدت المنطقة العربية تيارا قوميا جارفا هدد الانظمة الرجعية بالزوال وارعب الشاه واسرائيل فعملت حكومتا الولايات المتحدة وبريطانيا على خلق حلف دفاعي ضم العراق وايران وتركيا وباكستان سمي بـ «حلف بغداد» في عام ١٩٥٤ كانت من مهامه محاولة الحد من نجاح حركات التحرر العربية وحماية الانظمة الرجعية والنظام الصهيوني • وجاء تقارب ايران مع العراق ضد مصلحة الامة العربية، وهكذا يبرهن حكام ايران مرة اخرى بأنهم لن يقفوا مع العراق الا عندما يقف العراق ضد المصلحة القومية •

ورغم تقارب الحكومتين العراقية والايرانية فأن حكومة الشاه في عام ١٩٥٥ اعادت طلبها بتشكيل لجنة صيانة الملاحة في شط العرب وكررت اصرارها السابق على ان تكون اللجنة ذات صلاحية تنفيذية •• وبعد عقد اجتماعات متعددة توصل الجانبان الى اعادة نشاط لجنة تخطيط الحدود لاكمال اعمالها في تثبيت دعائم الحدود وبرئاسة خبير فني من رعايا دولة السويد •

كما تقرر تشكيل لجنة عراقية ـ ايرانية للقيام بدراسة جميع المشكلات المتعلقة بمياه الحدود المشتركة • كما تقرر ان يكون اجتماع ممثلي اللجنتين عند انتهاء اعمال اللجان الذي تحدد في اواخر شهر مايس ١٩٥٦ •

الا ان الحكومة الايرانية لم تنفذ الاتفاق المذكور وانتهى مايس ١٩٥٦ دون ان يتحقق اي اجتماع للجنتين اللتين تقرر تشكيلهما وكانت خلال تلك الفترة قد ازدادت حوادث الحدود ومشكلات مياه الانهار المشتركة • وقد واصلت الحكومة العراقية ارسال المذكرات الرسمية الى الحكومة الايرانية تحثها فيها على ضرورة الوصول الى اتفاق شامل لحل المشكلات المعلقة بين البلدين •

وفي اجتماع حلف بغداد في كراجي التقى رئيس وزراء العراق ورئيس وزراء ايران هناك واجريا مباحثات جانبية بصدد ضرورة التوصل الى حلول

لجميع المسائل المعلقة بين البلدين وتوصلا الى قرارات تقضي بتبادل الوفود بين البلدين للتفاوض بشأن انشاء لجنة الصيانة في شط العرب والقضايا المتعلقة بالحدود البرية وتم الاتفاق على توجيه مذكرة عراقية ـ ايرانية الى الحكومة السويدية لترشيح محكم سويدي خبير في المسح لرئاسة اللجنة المشتركة لتثبيت دعائم الحدود وان تكون قرارات اللجنة قطعية بالاضافة الى ذلك فان الحلول التي يتفق عليها بشأن اية قضية لا تعتبر نافذة الا بعد الاتفاق على جميع القضايا الاخرى •

ومرة اخرى فسرت ايران الاتفاق واسلوب العمل لصالحها فقط وحاولت تحقيق مكاسب اخرى على حساب العراق ومصلحته الوطنية، وعند ذلك اصرت الحكومة العراقية على موقفها بعدم الانصياع للاطماع الفارسية التوسعية وامام تعنت الجانبين لم تتمكن اللجنتان من اداء المهمات المكلفة بها •

كما اعترضت الحكومة الايرانية على استقدام المحكم السويدي حسب طلب العراق وقدمت طلبا منفردا الى الحكومة السويدية لترشيح محكم آخر بديلا عنه • واخيرا اتفق الطرفان على تقديم طلب مشترك الى الحكومة السويدية من اجل ترشيح محكم جديد فوافقت الحكومة السويدية •

وحدّد شهر تشرين الثاني من عام ١٩٥٨ موعدا لمباشرة اعمال المحكم السويدي الا ان قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق أوقف جميع المباحثات وبدأت صفحة جديدة من العلاقات العراقية ـ الايرانية وبالاحرى من الصراع الفارسي ـ العراقي •

موقف ايران من ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨

ان ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ المباركة التي قوضت النظام الملكي الرجعي في العراق اذهلت العالم واثارت الذعر في قلوب جميع الانظمة الرجعية في المنطقة وفي قلب شاه ايران بصورة اخص • حيث كان الشاه ومن ورائه الامبريالية

يصبو لجعل العراق العربي رأس حربة لمحاربة الانظمة العربية وايقاف التيار القومي الجارف وحركات التحرر في داخل الوطن العربي وخارجه . لهذا فقد فكر الشاه جديا بالتعاون مع اعضاء حلف بغداد وبمعاونة الولايات المتحدة وبريطانيا بالقيام بعمليات عسكرية من اجل الاجهاز على الثورة في مهدها . الا ان نجاح الثورة الباهر في القضاء على رؤوس النظام الملكي ، والتأييد الواسع الذي لاقته من لدن الجيش والشعب بالاضافة الى الوضع الدولي أجبر الشاه والدول الاستعمارية على الوقوف موقف المتفرج من ثورة العراق .

وازاء فشل المخطط للقضاء على الثورة وبايعاز ودعم من رئيس الولايات المتحدة الامريكية بدأ الشاه في اعقاب الثورة العراقية باستلام المساعدات العسكرية والاقتصادية الكبيرة من حكومة الولايات المتحدة الامريكية من اجل بناء جيش ايراني مسلح باحدث الاسلحة وتحت اشراف خبراء امريكان وصهاينة لكي يصبح الاداة الفعالة والمنفذة للسياسة الامريكية في المنطقة وتقوم ايران بدور «شرطي الخليج» . فأخذ يهدد أمن المنطقة العربية عموماً ومنطقة الخليج بصورة خاصة . وكان الشاه يطمح من خلال خدمته للمصالح الامبريالية تحقيق الاحلام الفارسية التوسعية واعادة صرح الدولة الساسانية .

« لقد تعرضت العلاقات بين العراق وايران الى أزمات خطيرة بسبب سياسة انظمة الحكم المتعاقبة في ايران والتي كانت تعتبر العراق والوطن العربي ... وخاصة منطقة الخليج العربي مجالا حيويا للسيطرة والنفوذ » .

الفصل الثالث

العراق والاوضاع الجديدة في ايران

لم يكن العراق معنيا بالتدخل في الخيارات السياسية لشعوب ايران ولكنه كان يدرك ان للتمخضات السياسية ضد النظام الشاهنشاهي جذورها في البنية الاجتماعية الايرانية .. كان يدرك على وجه التحديد التنافس بين طموح الايرانيين في مجتمع ديمقراطي متحرر من الهيمنة الاجنبية وبين واقع التسلط والتعسف في استخدام السلطة والاصرار على ربط ايران بعجلة النفوذ الامبريالي ، وكان يدرك التناقض بين طموح الاقليات القومية في المساواة وحريتها في تطوير ثقافتها واستخدام لغتها وممارسة نوع من الحكم الذاتي وبين سياسة التفريس القسرية ... ولم يكن يخفى على العراق التناقض بين احتياجات ايران الى التنمية الشاملة للقضاء على البطالة وزيادة الناتج القومي وبين الاصرار على استخدم فائض الموارد المالية لشراء كميات هائلة من الاسلحة وبنوعيات لاتتطلبها احتياجات ايران الدفاعية .

ثم ان انعدام التوزيع العادل للثروة القومية ووجود طبقات غنية بافراط مع الفقر المدقع مشفوعة بمغريات مجتمع مفتوح النوافذ على السلع الاستهلاكية يزيد من حدة الصراع الطبقي .. ولم يغب عن البال ان سياسة التغريب التي مارسها الشاه تشكل وخزا في الضمير الاجتماعي وتدفع الى صراع حضاري لاتستطيع البنية الاجتماعية تحمله او تصرفه .

لقد كانت هذه العوامل مجتمعة تنذر بالانفجار في ايران .. وكانت بجانبها عوامل اخرى في المقدمة منها محاولة الشاه اتخاذ مواقف لا تتطابق تماما مع التوقعات الامريكية كالاصرار على زيادة اسعار النفط ، وعقد اتفاقية الجزائر مع العراق ، والتقرب مع الاتحاد السوفيتي من خلال اتفاقات اقتصادية واتفاقات توريد السلاح .. لقد جعلت هذه العوامل النظام الايراني السابق يفقد غطاء الحماية الاجنبية في حمأة صراع داخلي مرير .. والاكثر من ذلك فان القوى الامبريالية والصهيونية وخوفا من تفجر ثورة حقيقية تتولى عملية تغيير راديكالي راحت تمتطي موجة « الثورة » دافعة بالقوى الرجعية الى الصدارة بدعم اعلامي مكثف اثار استغراب الكثيرين .

وازاء التطورات السريعة في ايران كان اهتمام العراق يتوزع على اتجاهين ، اتجاه اول كان يريده ويسعى اليه ويشعر انه حق له لانه معني به ويلامس سيادته ويؤثر على الطريق الذي اختاره .

كان من حق العراق ان يطلب ان تكون ايران بلدا غير منحاز بصورة حقيقية وكان من حقه ان يطمح في ان تكف عن المطامع التوسعية وان تغادر نزعات الحقد العنصري ضد العرب ..

وكان من حق العراق ان يرى ايران تكف عن سياسة التسلح الزائد على احتياجاتها الدفاعية لتوفر لنفسها ولنا فرصة توظيف الاموال لاغراض التنمية القومية وان تدلل من خلال ذلك عمليا على الابتعاد عن المطامع الاقليمية .

وكان العراق يسعى ان تكف ايران عن التدخل في شؤونه الداخلية بأية صيغة والا تكون ، في الوقت نفسه ، جسرا للتدخل الاجنبي في شؤونه . كان العراق يريد الاعتراف بحقوقه في ارضه ومياهه وفقا لما اقرته المواثيق الدولية وعدم اضفاء صفة المشروعية على ما أُخِذَ بالقوة او بغفلة من الزمن . وليس في المطالب التي ذكرنا ما يتعارض مع الحق باي شكل كان ..

اما الاتجاه الثاني وهو ان نرى ايران ديمقراطية تنتهج سياسة المساواة بين مواطنيها فلم يكن يخرج عن حدود الاماني دون المس بحق الشعوب في خياراتها الاجتماعية والسياسية .

هذه كانت حدود توقعات العراق من التحولات في ايران وليس فيها ما يضر ايران انما فيها والحق يقال مايضر اعداء شعوبها من المستعمرين والصهاينة والمستغلين .

فما الذي حدث بعد استلام خميني للسلطة ؟

لا نريد ان نتحدث بالتفصيل عن التناقض الصارخ بين توقعات الشعوب الايرانية من تغيير السلطة وبين ما حدث ويحدث بالفعل في ايران .. ولكننا نمر عليه مرورا سريعا لان السياسة الداخلية هي الوجه الآخر للسياسة الخارجية . ومن لم يعدل مع شعبه لن يكون عادلا مع الشعوب الاخرى .

لقد حل محل ارهاب السلطة واجهزتها الارهاب الرعاعي متمثلا في انتهاكات الحرس لحرية المواطنين وابادتهم افرادا وجماعات ومتمثلا في محاكم خلخالي حتى راح خميني نفسه يعترف ان عدد القضاة لايكفي للنظر في حالات كافة السجناء .

وبدلا من حرية التنظيم السياسي اعتبرت كافة الفئات السياسية عميلة ومن اتباع الشيطان ومفسدة في الارض وفي مقدمتها تلك التي كان لها الفضل في تغيير النظام ومجيء خميني للسلطة .

وعلى صعيد التعامل مع القوميات راحت المدافع والطائرات تدك كردستان ايران واذربيجان واستمرت سياسة التمييز حتى بين رجال الدين الفرس وغيرهم . ولم يستطع خميني ان يفهم ما معنى الحقوق القومية .

اما على الصعيد الاقتصادي .. فلم يستطع النظام الايراني ان يطرح اي

برنامج يوضح نظرته لملكية الارض ووسائل الانتاج او طريقة ادارتها او توزيع مردود الانتاج .

ولم يحاول ان يقترب ولو مرة واحدة من اشكالات الحياة الاقتصادية..

لقد تردى مستوى الانتاج الزراعي وترك الفلاحون ارضهم لينضموا الى جيش العاطلين في المدن وتوقفت بعض المصانع وتردى مستوى الانتاجية في الاخرى بسبب عدم القدرة على توريد احتياجاتها وسوء الادارة والممارسات الفوضوية للحرس ومغادرة الايادي الفنية بمئات الالوف ايران الى الخارج .

وعانى الناس من ارتفاع الاسعار وفقدان المواد الاساسية وتفشي السوق السوداء وضمور القدرة الشرائية .

واستمرت ايران نتيجة سياستها العدوانية ، باستنفاد احتياطياتها من النقد والذهب في شراء السلاح وواجهت عجزا مريعا في توفير العملات الصعبة مما اضطرها ان تبيع نفطها باقل من اسعار الاوبك وباسلوب المقايضة احيانا .

وعلى الصعيد الاجتماعي حرمت المرأة من حقوقها واغلقت الجامعات وتعثرت الدراسة في المدارس واعتبرت الثقافة وسائر الفنون رجسا من عمل الشيطان .

اذن لقد ازدادت اوضاع ايران سوءا .. ومع ذلك لم يكن محور اهتمام خميني ايران واوضاعها والمداخلات الاجنبية المستوطنة فيها ... انما وجه همه نحو العراق وكأن العراق هو الذي كان يتحكم عقودا من الزمن في شؤون ايران وليس بريطانيا او الولايات المتحدة والصهيونية .. وكأن العراق هو المسؤول عن تردي الاوضاع الداخلية في ايران .

كان العراق قد وقع مع نظام الشاه اتفاقية الجزائر عام ١٩٧٥ ولم

تكن الاتفاقية لترضي العراق تماما الا من النواحي التالية ... اذ وقعت وسط ظروف معروفة من ابرز سماتها تهديد وحدة البلاد نتيجة دعم ايران المباشر للجيب العميل في شمال الوطن :

١ ــ ان الاتفاقية قد اقرت حقوق العراق في ارض حدودية سيطرت عليها ايران دون وجه حق .

٢ ــ ان الاتفاقية قد نصت على مسألة عدم التدخل لاي من البلدين في شؤون البلد الآخر .

٣ ــ ان الاتفاقية وفرت الفرصة للعراق لانهاء النزاع المسلح غير المباشر او الحرب غير المعلنة للانصراف الى ممارسة دوره القومي وانجاز البناء والتحول الاشتراكي الديمقراطي .

ولقد بدأ كل طرف ينفذ التزاماته بموجب الاتفاقية ولكن الاوضاع الداخلية في ايران ازدادت تأزما لتنتهي بسقوط الشاه .

ولم يكن العراق في عجلة من امره ليطالب النظام الجديد بتنفيذ هذه الالتزامات . لقد كان يدرك حاجة النظام الجديد الى ترتيب اوضاعه الداخلية وتحقيق تفهم افضل لما يجب ان تكون عليه العلاقة بين البلدين .

ولكن عندما حان الوقت لان يوجه اهتمام النظام الجديد لهذه المسألة فوجئنا بالطروحات التالية :

أولا ــ لقد قال حكام ايران وعلى لسان خميني وكبار مسؤوليه انهم لا يعترفون باتفاقية الجزائر لانها الحقت غبنا بايران (تصوروا) وان الشاه (تنازل) للعراق عما يملك .. وان الاتفاقية قد صودق عليها من قبل برلمان غير شرعي ... الخ .

ثانيا ـ لقد خالفت ايران الاتفاقية بالتصرف العملي ايضا عندما اسست حزبا متآمرا مخربا ينتهج سبيل التقسيم الطائفي والعنف .. ودربت عناصر هذا الحزب في اراضيها وأمدته بالاموال والاسلحة المتنوعة .. بل ان عناصر هذا الحزب هم من المواطنين الفرس سواء من اقام منهم في العراق او كان في ايران . وراحت عناصر هذا الحزب تصب حقدها باغتيال عدد من المناضلين في الحزب والاجهزة الحكومية وتلقى متفجراتها على طلبة الجامعات والمدارس . وكان من الواضح في سياسة هذا الحزب فضلا عن محاولتها تقسيم الشعب وتقويض سلطة الثورة واشاعة الارهاب انه يسعى وكما اعترف بعض اعضائه الى ضم العراق الى ايران في صيغة الامبراطورية العثمانية ان لم نقل في صيغة اكثر مركزية .

ثالثا ـ عندما كان العراق يطالب باستعادة اراضيه راح خميني وزمرته يعلنون دون خجل او مراعاة للعرف السياسي انه .. لماذا يطالب العراق ببضعة كيلومترات على الحدود في حين ان العراق كله هو جزء من ايران !!

رابعا ـ وعندما كان العراق يظهر امتعاضه من التدخل في شؤونه الداخلية كان رئيس جمهورية ايران يعلن على الملأ (اننا لا نعتبر ذلك تدخلا لان خميني هو امام العراقيين والايرانيين) .

خامسا ـ ثم دعا خميني بتصرف كوميدي لم يشهد له تاريخ العلاقات السياسية مثيلا الى (تصدير الثورة) مطالبا العشائر والطوائف لان تخرج الى السطوح وان تمتنع عن دفع اجور الماء والكهرباء مهددا بانه سوف يتغدى في بغداد او يتعشى في كربلاء .. الخ .

وكانت وجهة نظر العراق على النحو التالي :

اولا ـ ان ايران قد نقضت اتفاقية الجزائر قولا وعلى لسان كبار المسؤولين

عندما اعتبروها غير مشروعة . وانها قد نقضتها فعلا عندما امتنعت عن تنفيذ التزاماتها بموجبها .. وعندما راحت تتدخل بشكل سافر في الشؤون الداخلية للعراق وتهدد بغزوه وتمارس العدوان عليه .

ثانيا ـ وفي موضوعة تصدير الثورة نرى عن حق :

١ ـ ان الثورة لاتصدر فهي ليست سلعة وعندما يشعر اي شعب بالحاجة الى الثورة فانه يثور دونما حاجة لان يهمس باذنه احد .

٢ ـ ولنفرض جدلا ولاغراض النقاش ان الثورة تصدر فاي ثورة في ايران صالحة للتصدير ؟؟ اما كان الاجدر بخميني ان يبني نموذج لثورة تشكل المثل والقدوة ؟؟ لكن المثل الذي ضربته (ثورة) خميني هو انها أسوأ مثال لادارة الحكم وشؤون الناس عرفه العصر .

٣ ـ واذ جاز تصدير الثورة واذا كانت الثورة تعني التغيير الجذري والشامل للبنى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية .. فان العراق يفخر انه في طليعة البلدان الثورية . ولم تعد الثورة في العراق مشروعا او شعارات انما تجسيد عملي تمثل في التحرر السياسي والاقتصادي من السيطرة الاجنبية وفي نمو الدخل القومي وفي التوزيع العادل لهذا الدخل .. وفي زيادة الاهمية النسبية للصناعة فيه وفي تحديث الريف وفي اعادة بناء هيكل الدولة بما يساعد على انجاز التحولات .. وفي القضاء على البطالة وتوفير الضمانات الاجتماعية وفي تحرير المرأة وفي محو الامية وفي مجانية التعليم الالزامي وفي بناء مشاريع الانتاج والخدمات وفي منح الاقليات القومية حقوقها المشروعة .. وفي العلاقة الديمقراطية بين القيادة في اعلى مستوياتها والجماهير وفي حرية التنظيم المهني والنقابي . وفي التقدم التقني ، وفي وضع

وسائل اعلام الدولة للتعبير عن حاجات الجماهير •• وفي تطوير الثقافة والفنون •

اذن اذا كان هناك من ثورة صالحة للتصدير فهي ثورة العراق وليس (ثورة) الخراب والتخلف في ايران ومع ذلك فنحن نتمسك رغم كل ما أنجزناه بحرية الشعوب في خياراتها ضمن ظروفها الذاتية والموضوعية دون وصاية • فلماذا لم يصدر خميني (ثورته) الى بلد يحتاجها ويصر على تصديرها للعراق ؟

ثالثا ـ اذا كان من حق خميني ان ينصب نفسه (اماماً) على الايرانيين فمن منحه حق تنصيب نفسه اماما على (العراقيين) ؟ وهل يجوز ان يغادر العراقيون أئمتهم ليجعلوا من مجهول النسب سوى انه غير عربي اماما عليهم ؟

رابعا ـ ان البعض من الناس بحسن نية او بسوء طوية لم يصدقوا في البدء مطامع ايران التوسعية ومحاولة خميني لان ينجح من حيث فشل الشاه في تتويج نفسه على امبراطورية يصبح العراق واقطار الخليج ضيعات تابعة لها • لقد وضعوا النزاع في اطار الخلاف على الحدود او النزاع الايديولوجي ورغم ان هذين العنصرين جزء من النزاع الا انهما ليسا كل مافيه بل ان اهم عنصر في النزاع العراقي الايراني هو رغبة النظام في القضاء على سيادة العراق وضمه الى الهيمنة الفارسية مجتمعا او مجزءا •• وهذه المسألة ليست سرا او هدفا غير معلن في السياسة الايرانية • لقد اعلن خميني وكل من حكم ايران بالتتابع في نظامه ما يلي :

١ ـ ان العراق جزء من ايران •

٢ ـ انهم لن يعترفوا بالحدود الجغرافية •

٣ ـ ان جيشهم سوف يزحف ولن يقف الا في بغداد •

٤ ـ وحتى عندما كان العراق في ارضهم لم يقولوا نريد استرجاع ارضنا ولو من باب التبرير لاستمرار الحرب انما يقولون سوف نحتل البصرة وبغداد وكربلاء الخ •

٥ ـ انهم يمدون مايسمى ولاية الفقيه لتشمل العراق واقطار الخليج•

٦ ـ انهم لن يتعاملوا الا مع نظام في العراق على طريقتهم اي عميل لهم •

هذه الامور لم يطرحها متعصب في حزب مهمل او معلق في اذاعة او كاتب في صحيفة انما قالها من ينظر للسلطة ويشرع لها ويوجهها عمليا •

قالها خميني نفسه وقالها خامنئي رئيس الجمهورية ورئيس وزرائه وقالها قبلهم بهشتي ومنتظري ورفسنجاني وخلخالي وصادق طباطبائي وكلهم مسؤولون في ايران ومسؤولون رسميون •

وهم لم يكتفوا بالقول وحده انما حاولوا ولكن عبثا تحويل القول الى فعل •••

لقد اعلنوا انهم سيغزون العراق ووضعوا قواتهم في نظام المعركة ومارسوا سلسلة من عمليات الخرق لحدودنا ومياهنا واجوائنا مثبتة كلها في مذكرات رسمية قدمت لسفارتهم هنا في بغداد ولخارجيتهم في طهران •• واخيرا سلطوا قذائف المدفعية الثقيلة على مدن العراق •

هل كان المطلوب من العراق ان يصبر اكثر وان ينتظر حتى تملك ايران المبادرة لمباغتة قواته ولتجعل ارضه ميدانا لقتال ضروس ؟؟ هل كان مطلوبا منا ان تقبل بضم ايران لمدننا وارضنا ثم نمارس حرب تحرير كي لا يقال ان العراق عبر الحدود قبل ايران ؟؟

سؤال نطرحه على الذين يتجاهلون ولايجهلون .

ان ايران هي التي بدأت الحرب يوم جعلت طموحها ضم العراق اليها ويوم تدخلت في شؤونه علنا ويوم اعدت جيشها للغزو ويوم نشرت زمر التخريب ويوم باشرت قصف مواطنينا العزل .. اما ان العراق حاول ان يبعد شبح الاذى عن ارضه ومواطنيه فهذا حقه بل واجبه ازاء شعبه وكرامته وسيادته .. فالذي بدأ الحرب هو الذي جعلها ممكنة ثم حتمية ثم خيار وحيد للمحافظة على الكيان السياسي للعراق وهو خميني وزمرته .

ومصداقا لذلك ان العراق قال انه لا مطامع لديه في ارض ايران وقد كان يحتلها وانسحب ليدلل على ذلك بالفعل بعد القول .. وقبل كل مساعي الوساطة ورفضتها ايران مجتمعة .

ولعل الفصل التالي الذي يعرض تطور العلاقات الدبلوماسية بين البلدين يزيد هذه الحقائق وضوحا .

الفصل الرابع

العلاقات الدبلوماسية بين العراق وايران

حرص العراق على التعامل مع جيرانه وفق مبادىء حسن الجوار ومن منطلق الالتزام بالقانون الدولي والاعراف والمبادىء الدولية القائمة على ميثاق ومبادىء الامم المتحدة واحترام المواثيق الدولية وعدم التدخل في الشؤون الداخلية واحترام السيادة الوطنية لكل بلد .

ان العراق كاحد الاعضاء المؤسسين للامم المتحدة قد التزم بقوة في علاقاته الدولية باهداف واحكام ميثاق الامم المتحدة بالاضافة الى كونه عضوا في حركة عدم الانحياز ، فان مبادىء هذه الحركة تشكل حجر الزاوية في سياسته الخارجية . ولم يكرس العراق نفسه لخدمة هذه المبادىء فقط بل عمد فعلا الى ترجمتها في علاقاته الدولية . وعلى نطاق العلاقات الدولية ظل العراق احد ابرز دول عدم الانحياز في الدفاع عن حقوق الشعوب ومناهضة الاستعمار ودعم الاقطار النامية وتقديم العون الاقتصادي الى العديد من اقطار آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية التي عانت الكثير من ويلات الاستعمار والصهيونية وقاست من استغلال الشركات والامتيازات الاجنبية .

ومن المنطقة العربية وكذلك من منطقة غرب آسيا كان للعراق دور بارز

في النضال ضد الاستعمار بمختلف اشكاله والوانه كما عمل بكل جهد وتصميم على تصفية كافة انواع الاحتكارات الاقتصادية والامتيازات الاجنبية في داخل العراق وقدم كل عون لاقطار المنطقة من اجل التخلص من مثل هذه الآثار واضعا نصب عينيه اهمية تحرر الانسان من عبودية الاستعمار والاحتكارات الاجنبية . وظل العراق رائدا للشعوب المضطهدة وحامل لواء حق تقرير المصير وظل عضوا بارزا في لجنة تصفية الاستعمار في الامم المتحدة .

وبطبيعة الحال كان موقف العراق من الثورة الايرانية التي حدثت عام ١٩٧٩ ايجابيا فالعراق الذي ناضل عشرات السنين ضد التسلط الاستعماري والنظام الملكي الفاسد وكافة اشكال الطغيان والاستغلال والذي تكلل نضاله هذا بالنجاح في ثورة ١٧ــ٣٠ تموز /١٩٦٨ التي قادها حزب البعث العربي الاشتراكي والتي امنت له الحرية والعدالة والتقدم ينظر بعين العطف والتأييد الى النضال الذي تخوضه الشعوب الايرانية الجارة في سبيل الحرية والعدالة والتقدم ويشعر بالفرح والاعتزاز عندما تحقق الشعوب الايرانية التقدم في ذلك .

وفي نفس الوقت اعرب العراق بان تقوم بين العراق وايران الجديدة علاقات قائمة على التعاون المثمر بما يعزز الاواصر المشتركة ويخدم المصالح المتبادلة للبلدين ويعزز دعائم الحرية والسلام العادل والاستقرار في المنطقة .

سياسة حسن النية والجهود الدبلوماسية العراقية الصادقة

١ ـ رحب العراق بالنظام الجديد في ايران من جميع الوجوه ووجه السيد رئيس الجمهورية العراقية بتاريخ ٥ نيسان /١٩٧٩ برقية تهنئة الى الخميني بمناسبة اعلان الجمهورية الاسلامية وقد عبر الرئيس في تلك

البرقية باسم العراق حكومة وشعبا وباسمه شخصيا عن اصدق التهاني للخميني وللشعب الايراني الجار الصديق متمنيا له التوفيق ويعبر عن الامل بان يفتح النظام الجمهوري الجديد فرصا واسعة لخدمة الشعب الايراني الصديق وبما يعزز دور ايران لخدمة السلام والعدل في العالم واقامة اوثق علاقات الصداقة مع الدول العربية عموما والعراق خاصة .

وقد استلم العراق جوابين من الخميني كان احدهما مناسبا جاء عن طريق وزارة الخارجية الايرانية والآخر نشرته وكالة انباء (بارس) وصحف اخرى من الفترة ١٩ــ٢١ نيسان /١٩٨٠ والذي تضمن اتجاها مغايرا ولهجة عدائية ولغة غير مناسبة بعيدة كل البعد عن التعامل الدبلوماسي . وقد استوضح العراق بالطرق الدبلوماسية بين السيد مهدي بازركان رئيس الوزراء الايراني والسيد ابراهيم يزدي وزير الخارجية فأجابا بان الجواب الاول هو الجواب الرسمي وبان تحقيقا سيجري لغرض معرفة كيفية ارسال هذه البرقية واعتبرا المسألة منتهية رغم ان العراق لم يستلم نتيجة التحقيق ولم يشهد تصحيحا رسميا في الصحافة الايرانية فيما بعد .

٢ ـ رغم هذه الحادثة السيئة استمر العراق في اتصالاته الدبلوماسية مع الحكومة الايرانية وقد وجه نائب رئيس مجلس قيادة الثورة بتاريخ ٢ آب ١٩٧٩ الدعوة الى السيد مهدي بازركان رئيس الحكومة الايرانية المؤقتة لزيارة العراق واجراء المفاوضات حول العلاقات الثنائية واسس التعاون المشترك . وقد اشار السيد نائب رئيس مجلس قيادة الثورة الى الروابط والصلات المتينة التي تربط بين البلدين الجارين المسلمين التي تتطلب من البلدين ان يسعيا دوما الى كل ما يوثق هذه

الروابط ويعمقها وفي كافة المجالات « وخاصة بعد الثورة الناجحة التي حققها الشعب الايراني الصديق » .

وقد اعرب السيد نائب رئيس مجلس قيادة الثورة ايضا عن الامل في ان تكون هذه الزيارة مناسبة يزور فيها السيد مهدي بازركان العتبات المقدسة ومناسبة للبحث في اوجه العلاقات بين البلدين وتطويرها وتعميقها كما وتكون مناسبة لرئيس الحكومة الايرانية للتعرف على المنجزات التي حققتها الثورة في مسيرتها النضالية على الصعيدين القطري والقومي وكذلك على الصعيد الدولي وخاصة في اطار مجموعة عدم الانحياز .

وللحقيقة والتاريخ ان السيد بازركان كان متعاونا وكان يرغب بتحقيق هذه الزيارة الا ان الخميني عرقل كل اتجاه بهذا الصدد وكان هذا من اسباب استقالة بازركان بعد ان شعر ان الخميني وجماعته لا يريدون تحقيق هذه الزيارة وهم اصلا ضد اتجاه توطيد العلاقات مع العراق لانهم يضمرون له وللعلاقات سوءاً وهذا ماكشفته الايام .

٣ ـ اكد السيد رئيس الجمهورية العراقية في لقائين له مع وزير الخارجية الايرانية الاسبق السيد ابراهيم يزدى في هافانا خلال مؤتمر قمة حركة عدم الانحياز عام ١٩٧٩ رغبة العراق في اقامة علاقات تعاون وحسن جوار مع ايران واعرب عن رغبته في اللقاء مع القادة الايرانيين وبأعلى مستوى بغية معالجة مشاكل العلاقات بالطرق السلمية . وقد اكد السيد وزير الخارجية العراقية هذا المعنى والتوجه في لقائه مع وزير خارجية ايران السابق في ايلول ١٩٧٩ في مقر الامم المتحدة .

٤ ـ وعندما تولى السيد بني صدر رئاسة الجمهورية الاسلامية قام سفير

العراق في طهران بتاريخ ٢٠ شباط ١٩٨٠ بزيارته ونقل اليه تهاني السيد رئيس الجمهورية بهذه المناسبة مؤكدا رغبة العراق الصادقة في توطيد العلاقات بين البلدين الجارين .

٥ ـ لقد تجلى موقف العراق من الدول المجاورة في الاعلان القومي الذي اعلنه السيد رئيس الجمهورية يوم ٨ شباط ١٩٨٠ والذي دعا فيه الامة العربية واقطارها الى تطبيق مبدأ عدم جواز اللجوء الى استخدام القوة في المنازعات التي تقع بينها وبين الامم والدول المجاورة للوطن العربي الا في حالة الدفاع عن السيادة والدفاع عن النفس ضد التهديد الذي يمس الاقطار العربية ومصالحها الجوهرية .

٦ ـ بعد قيام النظام الجديد في ايران عينت الحكومة الجديدة سفيرا جديدا لها في بغداد وقد قدمت له السلطات العراقية كل مساعدة لتمكينه من القيام بواجباته وفق الاتفاقات الدبلوماسية وبموجب احكام ومبادىء القانون الدولي .

٧ ـ استمرت السلطات العراقية في تقديم اقصى المساعدات والتسهيلات للزوار الايرانيين للعتبات المقدسة في العراق .

٨ ـ خلقت اجهزة الاعلام العراقية اجواء ايجابية حسنة بترحيبها بالثورة الايرانية مؤكدة على الروابط التي تربط الشعبين الجارين المسلمين .
كما وقفت الدبلوماسية العراقية مواقف ايجابية من النظام الجديد في ايران في كافة المحافل الدولية مثل الامم المتحدة ومؤتمر عدم الانحياز والمؤتمر الاسلامي واجتماعات المنظمات الدولية .

على الرغم من كل ما فعله العراق لكي يضع علاقاته مع ايران علــى اســس سـلمية وايجابية منبثقة من سياســة حســن الجــوار ومن واقــع القاسم المشترك الحضاري والتاريخي الذي يربط البلدين الجارين المسلمين · الا ان الحكام الجدد كانوا مصممين وبتعمد على الاساءة للعراق والتوسع على حساب العراق وعلى حساب الاقطار العربية في الخليج العربي · وكانوا مصممين على السير بنفس الطريق العدائي والتوسعي الذي كان يسير عليـه شاه ايران · وقد ظهر ذلك في التصريحات الرسمية التي ادلوا بها وكذلـك في اعمالهم وافعالهم ازاء العراق ·

اما التصريحات الرسمية فقد ادلى بها بعد بضعة اسابيع الخميني وعدد من كبار المسؤولين من بينهم ابو الحسن بني صدر رئيس الجمهورية وقطب زادة وزير الخارجية وقادة الجيش الايراني وقائد ما يسمى بالحرس الثوري ، وكذلك كبار الشخصيات القريبة من الخميني من امثال رجائي ورفسنجاني وخلخالي ومنتظري وروحاني والكرماني بالاضافة الى صادق طباطبائي · لقد تناولت هذه التصريحات الرسمية اثارة صريحة لمشاعر العراقيين واستفزازا لا مبرر له للشعب العراقي وقد صيغت كافة هذه التصريحات بروح عنصرية وعدائيـة :

١ ـ دعت هذه التصريحات الى الانتقاص من السيادة العراقية فقد حاولت وبصراحة اثارة الفتنة والشغب في العراق وزعزعة الوحدة الوطنية وزرع بذور الطائفية ، واشارت هذه التصريحات الرسمية علنا الى مطامع ايران التوسعية فاعلنت عدم التزامها بالمعاهدات والمواثيق الدولية بما فـي

ذلـك معاهدة ١٩٧٥ التي حلت محل معاهدة ١٩٣٧ · وكانت هـذه التصرفات الايرانية لا تستند الى منطق او قانون وهي مخالفة لمبادىء حسن الجوار ولاحكام المواثيق الدولية التي تنظم العلاقات بين الدول كما انها اكدت على اهمية تصدير ما يسمى بالثورة الايرانية الى العراق والاقطار العربية وبالقوة المسلحة ·

٢ ـ عمد عدد من اقطاب نظام خميني الى اصدار تصريحات تشير الى عزم النظام الجديد على التوسع على حساب العراق والخليج العربي والجزيرة العربيـة ·

٣ ـ دعت التصريحات الرسمية الايرانية القوات المسلحة العراقية الى التمرد على حكومتها كما دعت الى حرب طائفية وعملت على زرع منظمات سرية غريبة همها اقلاق الامن والنظام واثارة الطائفية وجعل القطر العراقي في دوامة اضطرابات وحروب اهلية مثل ما حصل في لبنان حيـث شـارك النظام الايراني في تمزيق الصف الوطني وخلق البلبلة وساهم في مؤامرات تصفية حركة المقاومة الفلسطينية متخفيا وراء الشعارات الدينية ·

٤ ـ جاهرت التصريحات الايرانية الرسمية بعدائها السافر للعراق حيـث هاجمت كبار المسؤولين في الدولة ودعت الى قلب نظام الحكم ، ودعت كذلك ابناء الشعب لتحويل القطر العراقي الى ساحة اقتتال بين الاخوة · وقد دعت التصريحات الرسمية الايرانية الى ضرورة استخدام القوة المسلحة الايرانية ضد العراق وشنت حملة عنيفة ضد الشعب العراقي والازدهار والتقدم والرقي الذي يتمتع به ·

٥ ـ هدد المسؤولون في النظام الايراني الدول العربية وخصوصا اقطار

الخليج العربي بضرورة تحديد موقفها من العراق وتبني سياسة معادية
للعراق والا فان هذه الاقطار ستكون تحت رحمة القوة الايرانية .

٦ ـ اخذ النظام الايراني يتدخل علنا بالشؤون الداخلية العراقية فدعا
بقايا زمرة البارزاني الى القدوم من الولايات المتحدة واتفق معها على
القيام مرة اخرى بتمرد ضد العراق وقدم لهؤلاء كل دعم مادي ومعنوي
بما في ذلك الاسلحة والمعدات الحربية . كما اخذ يدرب عناصر عميلة
للقيام باعمال تخريبية في داخل العراق وفعلا قامت هذه العناصر بالاعتداء
على طلبة الجامعات وابناء الشعب مما ادى الى استشهاد العديد من
المواطنين الابرياء .

٧ ـ عمل النظام الايراني الجديد على محاربة اية اتجاهات وحدوية عربية
واشاع التفرقة بين الاقطار العربية وشجع التجزئة على الساحة العربية
واستمر في تعاونه مع الصهيونية واخذ يدعي بالسيادة على اقطار الخليج
العربي وقام بعدة مؤامرات ضد البحرين ودولة الامارات العربية المتحدة
والمملكة العربية السعودية والكويت وقطر .

٨ ـ رفض النظام الايراني تطبيق معاهدة ١٩٧٥ ورفض اعادة الاراضي
العراقية التي تم الاتفاق على ضرورة اعادتها للعراق بموجب هذه المعاهدة
التي اعلن انه لايعترف بها ولهذا فقد جمد بصورة كيفية وانفرادية
وغير قانونية اعمال لجنة تثبيت الحدود .

٩ ـ اصبحت السياسة الايرانية واضحة في تبني سياسة قائمة على التوسع
واستخدام القوة لتغيير الانظمة الوطنية وبث التجزئة والتفرقة داخل
الشعب العربي وزعزعة الاوضاع في المنطقة العربية بسلاح الطائفية
والتعصب العنصري الفارسي .

الاعتداءات الايرانية على السيادة العراقية

١ ـ تعرضت السفارة العراقية في طهران والقنصليات العامة في المحمرة
وكرمنشاه ومنتسبوها الى ابشع انواع الاعتداءات المستمرة كما تعرض
اعضاء الجالية العراقية الى معاملات مماثلة . وكانت الاعمال العدوانية
الايرانية بدون مبرر ومخالفة لروح الاتفاقيات الدبلوماسية وخصوصا
اتفاقية جنيف حول ضمان الحصانات الدبلوماسية كما انها كانت مخالفة
للمواثيق الدولية ولاحكام القانون الدولي وميثاق الامم المتحدة .

٢ ـ اصدر النظام الايراني اوامر واضحة لاجهزة الاعلام الايرانية من
اذاعة وتلفزيون وصحف وكذلك لخطباء الجمعة بمهاجمة العراق
والانتقاص من سيادته . ودعت هذه الاجهزة الى ضرورة تحرك القوات
المسلحة الايرانية للزحف على العراق كما اعلنت استعدادها لتقديم
الدعم العسكري والمادي لاية فئة عميلة من داخل القطر العراقي تعمل
في شبكات التخريب ومحاولة زعزعة الوحدة الوطنية . كما قامت عناصر
ايرانية بمحاولة سافرة لاغتيال عدد من المسؤولين العراقيين من بينهم
عضو مجلس قيادة الثورة ونائب رئيس الوزراء وكذلك وزير الثقافة
والاعلام في ١٢ نيسان ١٩٨٠

٣ ـ قامت القوة الجوية الايرانية بخرق مستمر (ويكاد يكون يوميا)
للاجواء العراقية كما قامت القوات البرية بسلسلة اعتداءات على المخافر
العراقية الحدودية خلال الفترة ١٩٧٩ـ١٩٨٠ ورشقت المدفعية الايرانية
المدن والقرى الحدودية الآهلة بالسكان بقنابلها مما اودى بحياة
الكثيرين من الابرياء من الرجال والنساء والاطفال .

٤ ـ اخذت البحرية الايرانية تتدخل في الملاحة العراقية والملاحة الدولية في شط العرب •

٥ ـ تعرض العديد من المرافق الاقتصادية العراقية مثل آبار النفط والمنشآت النفطية المختلفة للاعتداءات المسلحة الايرانية وتم فتح النار على مصفى الوند والنفط خانه العراقي في ٩ آب ١٩٨٠ وذلك قبل اندلاع الحرب • كما تعرضت لمثل هذه الاعتداءات نقاط المراقبة العراقية في شط العرب والطائرات المدنية العراقية •

٦ ـ في ٤ أيلول ١٩٨٠ وصلت الحشود العسكرية الايرانية أوج قوتها على طول خط الحدود وبدأت المدفعية الثقيلة والدبابات والطائرات الحربية بضرب المواقع العسكرية العراقية والمدن والقصبات الحدودية على شكل واسع تمهيدا لزحف شامل على القطر العراقي •

الدبلوماسية العراقية والدعوة الى السلام القائم على العدل

١ ـ منذ ٦ آذار ١٩٧٩ قامت الدبلوماسية العراقية بجهود مكثفة من اجل اقناع النظام الجديد بخطورة السياسة العدوانية التوسعية التي ينتهجها ضد العراق • وقد اجرى وزير الخارجية العراقية لقاءات عديدة مع السفير الايراني في بغداد من اجل تصفية الاجواء ووضع حد للتصرفات الانفرادية والكيفية واللاقانونية التي ينتهجها النظام الايراني الجديد ضد القطر العراقي المسالم الذي لم يقم باية اجراءات تبرر هذا الموقف العدواني ، كما اجرت الحكومة العراقية اتصالات مع العديد من دول حركة عدم الانحياز واعضاء مجلس الامن ودول المؤتمر الاسلامي شرحت فيها موقف العراق من الاعتداءات والاستفزازات

الايرانية وقد طلبت الحكومة العراقية من هذه الاطراف التوسط مع طهران لوضع حد لمثل هذه السياسة المتهورة التي تلحق افدح الاضرار بأمن وسيادة العراق وبازدهار واستقرار المنطقة • واجرت الحكومة العراقية اتصالات دبلوماسية مع الجامعة العربية ومع الاقطار العربية المختلفة بما في ذلك اقطار الخليج العربي •

وفي ١٤ أيلول ١٩٨٠ اصدرت وزارة الخارجية العراقية مذكرة رسمية عن العلاقات العراقية الايرانية وقد تم ارسال هذه المذكرة الى السكرتير العام للامم المتحدة لتوزيعها كوثيقة رسمية للجمعية العامة ومجلس الامن وكذلك الى الرئيس فيدل كاسترو (هافانا) رئيس المؤتمر السادس لرؤساء دول وحكومات الدول غير المنحازة وكذلك الى منظمة المؤتمر الاسلامي ومنظمة الوحدة الافريقية والجامعة العربية ودول المجموعة الاوربية في بروكسل ومنظمة جنوب شرق آسيا (اسيان) ومنظمة الدول الامريكية • وقد اكدت الحكومة العراقية في هذه المذكرة انها لاتنوي قطعا ان تقوم بين البلدين حرب شاملة وهي حريصة على المحافظة على السلام في هذه المنطقة من العالم واكدت انه ليست للعراق اية مطامع في الاراضي الايرانية بل يريد رفع التجاوز عن ترابه •

٢ ـ استمرت الدبلوماسية العراقية في اتجاهها السلمي والقانوني الملتزم بالمواثيق والقوانين الدولية وفي ٢١/ ايلول /١٩٨٠ وجه السيد وزير الخارجية العراقية رسالة اخرى الى الجهات المذكورة اعلاه وقد اكدت هذه الرسالة :

آ ـ ان العراق قد اثبت في علاقاته مع العالم اجمع انه يلتزم التزاما شريفا بكل تعهداته كما اثبت انه لايمكن ان يقبل باي شكل من الاشكال التهديد والعدوان والانتهاك لسيادته وكرامته .

ب ـ ان الحكومة العراقية تطمح الى اقامة علاقات حسن الجوار مع الدول المجاورة ومنها ايران بالذات وليست للعراق اية اطماع في الاراضي الايرانية . واعربت الحكومة العراقية عن الامل في ان تتصرف الحكومة الايرانية بعقلانية وحكمة ازاء حقوق العراق المشروعة في كامل اقليميه البري والنهري في شط العرب .

جـ ـ وجه السيد الرئيس صدام حسين رسالة الى السكرتير العام للامم المتحدة بتاريخ ٢٩/ ايلول /١٩٨٠ جوابا على رسالة السكرتير العام بتاريخ ٢٨/ ايلول /١٩٨٠ . وقد اكد السيد الرئيس استعداد العراق لوقف القتال بينه وبين ايران فورا اذا التزم الجانب الآخر بذلك واللجوء الى المفاوضات المباشرة او عن طريق طرف ثالث او اية جهة او منظمة دولية تحترمها وتثق بهاللوصول الى حل عادل ومشرف يضمن حقوقنا وسيادتنا . وقال السيد الرئيس « ان هذا القرار ينسجم مع روح القرار الذي اتخذه مجلس الامن والمرقم ٢٢٤٨ في ٢٨/ ايلول /١٩٨٠ لذلك فان من الطبيعي ان نقبل القرار المذكور لمجلس الامن ونعلن استعدادنا للالتزام به اذا التزم به الجانب الايراني » .

د ـ في خطابه امام مجلس الامن في ١٥/ تشرين الاول /١٩٨٠ اوضح وزير خارجية العراق ان العراق لا يؤيد استخدام القوة في العلاقات الدولية وانه يؤمن بالتسوية السلمية للمنازعات .

هـ ـ اعلن العراق عن استعداده لقبول المساعي الحميدة لدول منظمة المؤتمر الاسلامي وكذلك حركة عدم الانحياز من اجل ايجاد حل عادل للصراع العراقي ـ الفارسي وقد قدم العراق للوفود التي قدمت من هذه الاطراف كل دعم ومساعدة من اجل تهيئة الاجواء اللازمة لانجاحها في مهمتها .

وفي المؤتمر الصحفي الذي عقده السيد الرئيس صدام حسين بتاريخ ١٠/ تشرين الثاني /١٩٨٠ اكد السيد الرئيس ان قبول العراق بالمساعي الحميدة لحركة عدم الانحياز هو استجابة لمصالحنا الوطنية والقومية ومسؤوليتنا تجاه امن العالم ومصالحه المشروعة .

و ـ عرض العراق وفي عدة مناسبات دينية مثل حلول شهر رمضان المبارك ايقاف القتال الا ان الجانب الايراني رفض ذلك واعلن تصميمه على الاستمرار بالعدوان . كما قدم العراق كل مساعدة لبعثات الصليب الاحمر الدولية بينما عرقلت ايران عمليات هذه البعثات التي زارت ايران ورفضت تزويدها بقوائم اسرى الحرب من العراقيين . وقد احتجت منظمة الصليب الاحمر الدولية على سوء معاملة الاسرى العراقيين من قبل الجهات الايرانية وكان قيام حرس خميني باعدام الاسرى العراقيين موضع استنكار واشمئزاز في كافة الاقطار الاسلامية وفي العالم اجمع وقد دلل هذا العمل الهمجي على عقلية النظام الايراني المتوحشة والتي تنكر ابسط حقوق الانسان . وليس بغريب ان تعمد الدوائر الايرانية لهذا التصرف اللا انساني فقد سبق ان اعدمت الآلاف من ابناء

الشعوب الايرانية بدون محاكمة وزجت بآلاف من الاطفال الابرياء في اتون الحرب ٠

من هذا يتضح ان الدبلوماسية العراقية حاولت جهدها وبكل السبل تجنب تدهور العلاقات بين البلدين الجارين وقد التزمت دوما بمبادىء حسن الجوار وبالقوانين الدولية وتجاوبت مع قرار مجلس الأمن بايقاف القتال واعربت عن استعدادها لايقاف القتال والتوصل الى حلول سلمية وعادلة للصراع القائم وتجاوبت الحكومة العراقية مع كل النداءات السلمية والوساطات التي تقدمت بها حركة عدم الانحياز ومنظمة المؤتمر الاسلامي٠٠٠ولكن ايران بتصرفاتها العدوانية واللاقانونية فضلت استخدام القوة والتوسع على حساب سيادة العراق ومن اجل تحقيق اطماعها في منطقة الخليج العربي ٠

ان الدبلوماسية العراقية بذلت جهودا هائلة من اجل السلام ولكن ايران فضلت اللجوء الى الحرب واغلقت كل المنافذ المؤدية للسلام ٠

الفصل الخامس

التجاوزات الايرانية على العراق

١٩٥٨ - ١٩٨٠

مرحلة ما بين ١٩٥٨ ـ ١٩٦٨

قامت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق ، واوضحت في البيان الاول بانها تتمسك بشدة بوحدة التراب العراقي ، وبعلاقات الاخوة مع الاقطار العربية والاسلامية كما تلتزم بمبادىء ميثاق الامم المتحدة وتحترم الاتفاقات والمعاهدات ٠ كما تحترم قرارات مؤتمر باندونك ٠ لكن ايران ، كعادتها حاولت انتهاز فرصة التغيير الثوري في العراق ، وحاجة السلطة الجديدة الى الاستقرار ، للحصول على بعض المكاسب منطلقة في التعامل مع العراق من عقدة الخوف الناجم عن قيام الثورة باسقاط النظام الملكي والرغبة في الانسحاب من حلف بغداد ، والتقارب مع دول المنظومة الاشتراكية ، ومن انبثاق نظام عربي قومي مؤثر على حدودها الغربية يتصدى لسياستها التوسعية العنصرية في الخليج العربي ٠

لذلك تقدمت في ٢٥ ايلول ١٩٥٨ بطلب الى الحكومة العراقية حول تشكيل لجنة لعقد اتفاقية صيانة وتحسين الملاحة في شط العرب ٠ ولكن

العراق تأخر في الرد بسبب ظروفه السياسية الداخلية ، لذلك عادت ايران وتقدمت بمذكرة اخرى الى وزير العراق المفوض في طهران تطالب فيها الاسراع بتشكيل اللجنة قبل تشرين الثاني ١٩٥٨ ، والا فانها ستتخذ جميع الخطوات التي تراها ضرورية لتأمين مصالحها . لذلك ساد العلاقات العراقية ـ الايرانية توتر شديد في شط العرب ، وحشدت القوات المسلحة الايرانية على طول شط العرب(*) .

ولم يكد شهر تشرين الثاني ١٩٥٨ يحل حتى بدأت ايران تثير المشاكل امام حكومة الثورة في العراق . وقد فتح محمد رضا بهلوي شاه ايران صفحة الصراع مع العراق في مؤتمر صحفي عقده بطهران يوم ٢٨ تشرين الثاني ١٩٥٨ واصفا بنود معاهدة ١٩٣٧ بأنها بنود غير محتملة ولا سابقة لها في التاريخ ، واعلن عن رغبته في الغائها .

وفي اعقاب تصريح الشاه بدأت حملة دبلوماسية واعلامية ايرانية ضد العراق . كما باشرت القوات الايرانية استعداداتها العسكرية التي باتت تهدد أمن وسلامة العراق . ومن ذلك ارسال قواتها الجوية وتعزيز مواقعها العسكرية في منطقة عبادان ، ووضع جميع قواتها المسلحة تحت الانذار وارسالها اسرابا جوية من طائراتها المقاتلة الى قاعدة دزفول الجوية . كما وضعت السلطات الايرانية مدفعيتها ودباباتها وبطارياتها ضد الجو في مواقع حصينة على ضفة النهر شمال وجنوب عبادان . وقدرت القوات العسكرية الايرانية في ميناء المحمرة بثلاث فرق .

(*) راجع تفاصيل ذلك في : د . مصطفى عبدالقادر النجار ـ التاريخ السياسي لمشكلة الحدود الشرقية للوطن العربي في شط العرب (البصرة ـ ١٩٧٤) .

انسحب العراق من حلف بغداد في شهر آذار ١٩٥٩ واعلن الالتزام بمبدأ الحياد الايجابي . وفي ٢ كانون الاول ١٩٥٩ عقد رئيس الوزراء العراقي الاسبق مؤتمرا صحفيا لشرح العلاقات العراقية ـ الايرانية قال فيه : « لقد فرضت معاهدة سنة ١٩٣٧ على العراق فرضا » وقد اعطت الحكومة العراقية حوالي سبعة كيلو مترات من شط العرب (هدية) من العراق وليس (حقا) لايران . لقد اعطيت تلك الكيلومترات امام شط العرب كهدية من اجل ان تستعمل لاغراض شركات النفط واعفائها من دفع الرسوم الى العراق . لقد اعطى العراق تلك (الهدية) في ظروف حرجة . وكان مجبرا على ذلك بعناصر خارجية ضاغطة ، بالرغم من ان ايران ليس لها مثل هذا الحق الا ان العراق قد قام بهذا العمل من اجل حل مشكلة الحدود . ان مشكلة الحدود كغيرها من المشاكل لاتزال قائمة ، واذا ما ظلت الامور على حالها ، كما هي عليه الآن ، فان العراق لن يظل مرتبطا بالتزامات هذه الهدية وسيسترجعها ويضمها الى الوطن الام »(*) .

وفي ٢٩ كانون الاول ١٩٥٩ ادلى وزير الخارجية العراقية بتصريح حدد فيه السياسة الخارجية العراقية قائلا (١ ـ ان الحكومة العراقية تبذل جهدها لحل المنازعات مع ايران بالوسائل السلمية المباشرة وغير المباشرة ، واذا ما اضطره الامر فانه سيعرض الامر على منظمة الامم المتحدة ، أو اية هيئة دولية من اجل الوصول الى حل ايجابي للمشكلة ٢ ـ ان العراق يحترم ويلتزم بالمعاهدات والاتفاقات التي تنسجم مع القانون الدولي في تعزيز علاقاته الخارجية ٣ ـ ان العراق يأخذ بنظر الاعتبار حسن علاقته

(*) خالد العزي : مشكلة شط العرب في ظل المعاهدات والقانون (بغداد ١٩٨١) ص ٩٤ .

تقول المصادر العراقية الرسمية ان الحكومة الايرانية اتبعت اسلوبا غير اعتيادي لمواجهة هذه المشكلة حين انتهزت فرصة اقتراب بعض البواخر الاجنبية الى مدخل شط العرب في الخليج العربي للادعاء بان ميناء خسرو آباد ميناء ايراني مرتبط اداريا بالمحمرة وطلبت من الحكومة العراقية الاعتراف به ميناءا ايرانيا باربع مذكرات متلاحقة ، تلح حول هذا الطلب متذرعة بان اربع بواخر اجنبية تقف في مدخل شط العرب بانتظار موافقة الحكومة العراقية ، وان التأخير في السماح بدخولها يكلفها نفقات باهضة .

اجرى القنصل الايراني في البصرة ، اتصالات مع موظفي الموانيء العراقية لتحقيق ذلك الغرض ، بالرغم من ان اتخاذ القرار في مثل هذه الامور المهمة لمنح ميناء خسرو آباد صفة رسمية كميناء ايراني يتطلب اجراءات قانونية وفنية لا يمكن البت بها الا بعد اجراء مفاوضات على مستوى عال بين الحكومتين العراقية والايرانية ، وليس باسلوب مفاجيء او بواسطة الضغط على موظفين فنيين غير مخولين باتخاذ قرار ، وهؤلاء يقضي عليهم الواجب باتباع التعليمات النافذة .

ارسلت السفارة الايرانية ببغداد مذكرة الى وزارة الخارجية العراقية في ٧ آيار ١٩٥٩ تعلمها فيها بان ميناء خسرو آباد قد اعلن ميناءا بحريا مرتبطا اداريا بميناء المحمرة . ورجت من الحكومة العراقية الاعتراف بذلك . وقالت السفارة الايرانية في بغداد في مذكرة اخرى مؤرخة في ٢٦ ايار ١٩٥٩ انه بالرغم من خطورة توقف السفن الاجنبية عند مدخل شط العرب وما سينجم عن ذلك من تلف وخسارة لتلك السفن ، فان الحكومة العراقية لم تصدر تعليماتها بعد الى سلطة ميناء البصرة حول الموضوع . وان السلطة المذكورة لا تزال تمنع السفن المذكورة من الوصول الى محطتها في

مع جيرانه والعمل من اجل ذلك على اساس من الروابط التاريخية والمنافع المتبادلة ؛ ــ ان العراق يلتزم بشدة بحقوقه ويدافع عنها باقصى ما يستطيع كما يقاوم بكل طريقة مشروعة اي عدوان يوجه ضده »(*) .

لم تستجب الحكومة الايرانية لرغبة العراق المعلنة لتحسين علاقاته مع ايران وحل منازعاته معها بالطرق السلمية واستمرت في خرق نصوص المعاهدات المعقودة بين الطرفين ، والاعتداء على حقوق السيادة العراقية في الارض والمياه ولعل قضية ميناء خسرو آباد أبرز مثال على الاعتداءات الايرانية تلك(**) .

قالت ايران ان شركة النفط الانكلو ــ فارسية اقامت في ١٩٣٧ ميناءا في خسرو آباد يقع على الضفة الشرقية من شط العرب . وقد استعمل حتى ١٩٥١ لتصدير النفط . وفي مطلع ١٩٥٩ صممت شركة « ايران بان اميركان » بعد الحصول على موافقة الجهات الرسمية الايرانية على استخدام هذا الميناء كمحطة لاعمالها التنقيبية عن النفط في البحر ، هذا فضلا عن قيام دوائر الجمارك الايرانية بانشاء مكتب لها في هذا الميناء . وبعد وصول اول باخرة تابعة للشركة المذكورة الى مدخل شط العرب متوجهة الى ميناء خسرو آباد امتنعت الحكومة العراقية عن اصدار اجازة الدخول قائلة انها لم تعترف بخسرو آباد ميناءا ايرانيا رسميا . ولقد احالت شركة بان اميركان الموضوع الى مديرية الموانيء العامة الايرانية التي ارسلت تقريرا بالحادثة الى وزارة الخارجية الايرانية .

(*) المصدر نفسه ، ص ص ٩١ ــ ٩٢ .

(**) للتفاصيل عن هذه القضية يراجع : فاضل حسين : مشكلة شط العرب (القاهرة ١٩٧٦) والعزي : المصدر السابق ، ص ص ٩٩ ــ ١٠٢ .

ميناء خسرو آباد • وادعت ايران بان هذا التصرف يعد مخالفه صريحـــة لنصوص معاهدة ١٩٣٧ ، وللالتزامات الدولية يقصد من ورائه العمل علـى ازدهار ميناء البصرة من جهة ، وللحد من حقوق ايران في موانىء اخرى فـي شط العرب ، اضافة الى مينائـي المحمـرة وعبادان مـن جهـة اخـرى •

اجابت وزارة الخارجية العراقية بمذكرة مؤرخة في ٩ حزيـران ١٩٥٩ السفارة الايرانية قائلة بان ميناء خسرو آباد لا يصلح ، من الناحية الفنية ان يكون ميناءا بحريا • كما ان الجهات العراقية سبق لها اعلام السلطة الايرانية ، وبموجب معاهدة ١٩٣٧ بأن المياه الاقليمية العراقية في شـط العرب تمتـد بصورة عامة حتى المياه المنخفضة للساحل الايراني باستثناء منطقتين امـام المحمـرة وعبادان ولذلـك فان خـط الحـدود العراقـي فـي منطقـة خسرو آباد يشمل جميع خط المياه المنخفضة على الضفة الايرانية ، لان مياه النهر ارض عراقية وتحت السيادة العراقية وقيام ايران ببناء ميناء هناك يعد مخالفا للقانون وللمعاهدة المعقودة بين الطرفين ، مادامت مياه ذلك الميناء تقع تحت السيادة العراقية •

عدت الحكومة الايرانية تصرف السلطات العراقية ، بالرغم من وضوحه وانسجامه مع قواعد الحق والمنطق ، بمثابة عدم الاعتراف بحقوق الآخريـن وقد استمر تبادل المذكرات بين الحكومتين ، ففي حين اكـدت الحكومـة العراقية ملكيتها لشط العرب مستندة في ذلك الى مواد معاهدة ١٩٣٧ • فان الحكومة الايرانية اخذت تذكر الحكومة العراقية ببعض الامور ومنها مايلي :

١ ـ وفقا لمعاهدة ١٩٣٧ فان لكلا القطرين حقوقاً متساوية بالملاحة في شط العرب وطالبت بعقد اتفاق لتكوين ادارة مشتركة بالاشراف على شؤون

شط العرب • واذا لم يتم الاتفاق ، فليس لدى العراق أي سبب لمنع ايران من التمتع بحقوقها •

٢ ـ بسبب حقوق الطرفين المتساويين فان تمتع اي طرف بحقوقه لا يعتمد على موافقة الطـرف الآخـر •

٣ ـ ان ادعاء العراق بان حواجز وارصفة ميناء خسرو آباد تقع في المياه العراقية هو تفسير من جانب واحد لمعاهدة ١٩٣٧ لانه ذكر فـي تلـك المعاهدة ان تغير خط الحدود من خط الثالوك الـى مسـتوى المياه المنخفضة عند الجزر لا يمنع ايران من الاستفادة من شط العرب اي ان اقامة هذه المنشآت شيء طبيعي من اجل التمتع بحقوق الملاحة المتساوية وفقا لمبادىء القانون الدولي •

٤ ـ ليس في معاهدة ١٩٣٧ ما يعطي العراق احتكارا في اقامة المراسي على شط العرب ، ولا منع ايران من اقامة الارصفة والحواجز •

اخذت السفن الايرانية تخالف تعليمات سلطة الموانىء العراقية لتنظيم حركة الملاحة في شط العرب وادامة صيانته ، ولقد بدأت تلك السفن تدخل شط العرب متجهة الى ميناء خسرو آباد بحراسة الزوارق الحربية الايرانية دون السماح للربابنة العراقيين بقيادتها كما تقضي بذلك الانظمة والتعليمات المتفق عليها هذا فضلا عن قيامها بحشد القوات العسكرية على طول شـط العرب ، وتهديدها لامن العراق وسيادته • كما عادت حوادث الحدود مـرة اخـرى •

في ٢٣ آب ١٩٦٠ صرحت الحكومة الايرانية انها قد استحدثت مديرية للموانىء في عبادان ، وان تلك المديرية ستتولى مسؤولية (الدلالة) في الميناء المذكور كما بدأت منذ ذلك الوقت باستخدام ربابنة ايرانيين في ميناء عبادان

بدلا من اولئك الذين تعينهم مديرية الموانيء العراقية مخالفة في ذلك ما جرى عليه التعامل منذ استقلال العراق .

اجاب مدير الموانيء العراقية على ذلك التصريح بان مديريته تعد طرفا في تطبيق احكام معاهدة ١٩٣٧ . وحيث ان واجب ربابنة عبادان لا يقتصر على المياه الايرانية ، فان الحكومة العراقية ، لاشك حرة في اتخاذ ما تراه مناسبا لمياهها الاقليمية وانها حرة في منع الربابنة العراقيين من قيادة ناقلات النفط في ميناء عبادان عندما يدخلون ويغادرون شط العرب خاصة ، وان تلك القضية ترتبط بالسياسة العليا لكلتا الدولتين نظراً لاهميتها وعلاقتها المباشرة بسلامة الملاحة في شط العرب .

ازاء العناد الايراني ، قررت الحكومة العراقية اتخاذ موقف مماثل يقوم على اساس الامتناع عن تزويد البواخر والناقلات التي تستعين بربابنة ايرانيين بالربابنة العراقيين النهريين ، واعلنت قرارها هذا لجميع وكلاء شركات الشحن. ولقد استمرت الامور هادئة حتى قام السفير الايراني ببغداد باخطار وزارة الخارجية العراقية بان السلطات الايرانية ستتولى ممارسة فعاليات ربابنة لميناء التي اعلنت عنها في عبادان اعتبارا من ١٦ شباط ١٩٦١ ، مما حدا بمديرية الموانيء العراقية الى تأكيد موقفها وتعميمه على جميع شركات البواخر ووكلائها . وقد كان لهذا الموقف العراقي اثره الفعال في غلق مصفى عبادان وتعطيل شحن النفط الايراني نتيجة لرفض ربابنة البواخر ووكلاء الشركات استخدام ربابنة الموانيء الايرانيين على الرغم من اعلان الحكومة الايرانية بان اسطولها الحربي سيرافق البواخر والناقلات من مراسيها في الموانيء الى خارج المياه العراقية .

في ٢٧ شباط ١٩٦١ اصدرت وزارة الخارجية العراقية بيانا وضحت فيه بان ما قامت به الحكومة العراقية انما هو جواب على رفض ايران الدخول في مفاوضات مع الجانب العراقي لحل هذه المشكلة .

ومع هذا ، فقد اعلن العراق استعداده للدخول في مفاوضات مع الجانب الايراني . وفي حالة فشل تلك المفاوضات وتعذر الوصول الى حل للمشكلة القائمة فان على الطرفين ان يتقدما بطلب مشترك الى محكمة العدل الدولية لاتخاذ ما تراه بشأن التسوية المنشودة ، وعلى ذلك اصدرت وزارة الخارجية العراقية في ٢٥ نيسان ١٩٦١ بيانا اوضحت فيه بان رئيس الوزراء الايراني قد اصدر تعليماته الى سلطة ميناء عبادان للسماح للربابنة العراقيين بالاستمرار في عملهم في الميناء المذكور . كما اعلنت الوزارة بان هناك اتصالات بين الجانبين من اجل التوصل الى وضع جدول اعمال للمفاوضات المقبلة .

هذا وقد وقع اتفاق مبدئي في بغداد بالاحرف الاولى بين العراق وايران حول القضايا المعلقة بين البلدين في سنة ١٩٦١ . الا ان وزارة الخارجية الايرانية اعلمت السفارة العراقية في طهران في شهر ايار من السنة ذاتها بضرورة تأجيل بحث القضايا المعلقة نظر للاوضاع الايرانية الراهنة .

ان الظروف التي اشارت اليها المذكرة الايرانية تتعلق بمشاكل ايران الداخلية آنذاك ، وعلى هذا فلم يكن بالامكان استئناف المفاوضات بين الحكومتين حتى شباط ١٩٦٤ حين سافر وفد عراقي الى طهران لمناقشة المشاكل المعلقة وتقرر أن يقوم وزير الخارجية الايراني بزيارة للعراق في اول فرصة ممكنة لاستئناف المناقشة .

وفي كانون الاول ١٩٦٦ وصل وفد ايراني الى بغداد برئاسة وزير الخارجية حيث عقد اجتماعات متعددة مع الجانب العراقي . الا ان تلك الاجتماعات لم تسفر عن نتائج ايجابية حيث صدر بيان مشترك في ختام الزيارة يؤيد ضرورة استمرار المفاوضات بشأن الحدود المشتركة في ضوء مبادىء القانون الدولي العام .

ومع كل مظاهر تردي علاقات ايران بالعراق، فان الفترة من١٩٦٦ــ١٩٦٨

قد شهدت توجها للعراق نحو ايران استهدف حل المشاكل التي تعيق اقامة علاقات طبيعية بين النظامين. ففي شهر آذار ١٩٦٧ قام رئيس الجمهورية العراقية بزيارة رسمية لايران حيث استؤنفت المفاوضات بين الطرفين • وصدر بيان مشترك في ختام الزيارة يؤكد ضرورة استمرار المفاوضات للوصول الى حل بشأن الانهار الحدودية المشتركة •

وفي حزيران ١٩٦٨ م قام رئيس الوزراء العراقي بزيارة لطهران على رأس وفد رسمي وصدر بيان مشترك في ختام الزيارة ، تقرر فيه تشكيل لجنة مشتركة في اقرب وقت ممكن ، من اجل بحث المشاكل القائمة •

مرحلة ما بين ١٩٦٨ ـ ١٩٧٥

وبعد قيام ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز ١٩٦٨ ، وتسلم حزب البعث العربي الاشتراكي السلطة في القطر العراقي ، اعربت حكومة الثورة عن رغبتها في التوصل الى تسوية عادلة مع ايران حول القضايا الحدودية • وارسلت وزير الدفاع على رأس وفد مفاوض لزيارة طهران في كانون الاول ١٩٦٨ كخطوة تمهيدية لتحسين العلاقات بين البلدين •

وفي شباط ١٩٦٩ حضر وفد ايراني الى بغداد وقدم له الوفد العراقي عدة مشاريع لتسوية المشاكل رفضها الوفد الايراني • فعاد هذا الوفد الى طهران ، واعلن ان حكومته تعد معاهدة ١٩٣٧ باطلة • وصارت السفن التي تقصد الموانيء الايرانية ترفع العلم الايراني ، حتى الاجنبية منها • ولما احتج العراق على ذلك واعتبره ماسا بسيادته على شط العرب ، القى وكيل وزارة الخارجية الايرانية في ١٩ نيسان ١٩٦٩ خطابا في مجلس الامة الايراني تناول العلاقات العراقية ـ الايرانية قائلا بان الحكومة الايرانية حاولت باستمرار اقرار مشكلة (النهر الكبير Arvand Rud) وهو

الاسم الجديد الذي اطلقته ايران على شط العرب بصورة سلمية • الا أن الحكومة العراقية لم تظهر اية نية صادقة لتنفيذ التزاماتها بموجب احكام معاهدة ١٩٣٧ وخاصة فيما يتعلق بالمادتين الرابعة والخامسة وكذلك الفقرة الثانية من البروتوكول الملحق بها ، الخاصة بالادارة المشتركة لشط العرب وتقسيم العائدات واضاف يقول : ان الحكومة العراقية احتفظت بصورة انفرادية وغير شرعية بحق ادارة شط العرب والاستئثار بعائداته ، لذلك فان الحكومة الايرانية ، تعتبر المعاهدة ملغاة وفي الوقت نفسه وحبا في اظهار الرغبة في التسوية السلمية ، وبناء على تعليمات الشاه ، فان الحكومة الايرانية تعرب عن استعدادها للدخول في مفاوضات مع الحكومة العراقية من اجل تثبيت خط حدود شط العرب على اساس منتصف النهر • كما اكدت رغبتها في انهاء حالة الطوارىء على طول خط الحدود بشرط المقابلة بالمثل ، وان تأمر بعودة الوحدات العسكرية الى قواعدها • ولكنها تعلن بان الحكومة الايرانية ستقابل اية محاولة لعرقلة المرور الحر للبواخر برد فعل شديد وستقوم باستعمال القوة في ازاحة اية عقبة او مانع يقف في طريقها •

لقد انكرت الحكومة العراقية باصرار شديد المزاعم الايرانية المتعلقة بعدم تنفيذ التزاماتها الواردة في نصوص معاهدة ١٩٣٧ ، واوضحت وجهة نظرها قائلة : « وحتى لو افترضنا جدلا بان العراق قد خرق نصوص المعاهدة كما تزعم السلطات الايرانية ، فهل سيكون من حق ايران القيام بالغاء المعاهدة الغاءا انفراديا ؟! أليس من واجبها اتباع قواعد القانون الدولي في هذا المجال بدلا من قيامها بهذا الالغاء الانفرادي الفاجيء للمعاهدة » • « ان العراق كان ولا يزال راغبا في تسوية مشاكل الحدود مع ايران عن طريق المباحثات السلمية ••• وان الحكومة العراقية تعلن استعدادها لقبول قضاء محكمة العدل الدولية » •

وفي ٩ أيار ١٩٦٩ قدم مندوب ايران في الامم المتحدة مذكرة الى مجلس

الامور جاء فيها انه بتاريخ ١٥ نيسان ١٩٦٩ حدث اجتماع بين وكيل وزارة الخارجية العراقية في بغداد مع السفير الايراني ، واكد له ان العراق وحده يتمتع بالحقوق في شط العرب ، وطالب بان تنزل السفن الايرانية في شط العرب اعلامها حين تكون في مياه الشط وطالب بان تسحب ايران موظفيها البحريين الموجودين على مثل تلك السفن ، واذا لم تستجب ايران لذلك ، فانه عندئذ فان الحكومة العراقية ستقوم باستعمال القوة لطرد مثل اولئك الافراد ، وفي المستقبل لن يسمح لاية باخرة متجهة الى الموانيء الايرانية بدخول شط العرب .

أعربت الحكومة العراقية ، مرة اخرى ، عن رغبتها في اجراء المفاوضات مع الجانب الايراني وحل المشاكل بالطرق السلمية . وجاء ذلك ضمن خطاب القاه وزير الخارجية العراقي في الاجتماع الرابع والعشرين للجمعية العامة للامم المتحدة بتاريخ ٣ تشرين الاول ١٩٦٩ . وفي الوقت ذاته قبلت مساعي الحكومة الاردنية الحميدة من اجل ايجاد حل للنزاع العراقي الايراني ، لكن ايران لم تجب على هذا الامر وظل الصمت الايراني يدعو الى الاسف .

لذلك ، ومنذ ان الغت ايران معاهدة ١٩٣٧ من جانبها ، أصبح الوضع على الحدود العراقية ــ الايرانية متردياً الى درجة عرضت الامن والسلام في المنطقة الى خطر الصدام المسلح . وقد نجم ذلك عن خوف النظام الملكي الرجعي في ايران من الخط القومي التقدمي لثورة ١٧ ــ ٣٠ تموز ١٩٦٨ والذي يصطدم مع النزعة التوسعية العنصرية الايرانية في العراق واقطار الخليج العربي كلها . ان السلوك العدواني الايراني تمثل ، اضافة الى الغاء معاهدة ١٩٣٧ ، بتغذية الجيب العميل في شمال الوطن ، والقتال الى جانبه والتستر على شبكات التجسس واحياء النعرة الطائفية والتوسع في الخليج العربي بضم واحتلال الجزر العربية الثلاث : طنب الكبرى وطنب الصغرى

وابو موسى في سنة ١٩٧١ والتواجد العسكري في عمان لاحكام السيطرة على مضيق هرمز .

لقد اتسمت العلاقات العراقية ــ الايرانية منذ قيام ثورة ١٩٦٨ في العراق بظاهرتين متعاكستين . فمن جهة كان نظام الشاه في ايران قد اعد له بمساعدات كبيرة من الغرب ، وبخاصة من الولايات المتحدة الاميركية ليمارس دور (الشرطي) في المنطقة ، ومن جهة اخرى كان النظام الجديد في العراق يجاهد من اجل بناء مجتمع جديد وتثبيت الاستقلال الوطني . وهكذا وجد النظام الايراني ان سياسته في بسط النفوذ تلقى المعارضة في العراق ، لذلك لابد من زعزعة الوضع هناك . وكانت البداية حملة اعلامية متنوعة الصور ، صعدت الى أزمة سياسية ومحاولات للتدخل في شؤون العراق سواء عن طريق تصدير المؤامرات أو دعم قادة التمرد والعصيان المسلح في شمال الوطن دون حدود من اجل تمزيق الوحدة الوطنية ، حيث قامت ايران بتزويد قادة التمرد بكمية كبيرة من الاسلحة الحديثة والمتطورة متخذة الوسائل نفسها التي كان يتخذها الكيان الصهيوني في دعمه للجيب العميل . وقد كشف رئيس وزراء العدو الصهيوني مناحيم بيغن فيما بعد عن ذلك(*) معلناً بان الكيان الصهيوني كان يزود العميل الملا مصطفى البارزاني بالاسلحة والمعدات والخبراء منذ ١٩٦٥ وحتى ١٩٧٥ .

لقد بدأ شاه ايران اولا بتركيز تجاوز بلده اقليميا على حدود العراق البرية . فدفع بمخافره الحدودية الى داخل الاراضي العراقية وشق الطرق الممهدة بينها بصورة تدخل اراضي عراقية شاسعة في داخل ايران معززا كل ذلك بقوات عسكرية من اجل فرض تجاوزاته بالقوة .

(*) وقد نشرت ذلك جريدة نيويورك تايمس بعددها الصادر في ٢٩ ايلول ١٩٨٠ .

وسرعان ما أخذت ايران تشتد في عدائها وعدوانها بطريقة تهدف الى تقييد حركة العراق ومنعه من الارتفاع بامكاناته الكبيرة نحو الساحة القومية وتحقيق هدفه المركزي في تحرير فلسطين • واستمر هذا العداء سافراً وعنيفا ، اعلاميا وسياسيا وعسكريا يقوده شاه ايران واسياده من الاميركان الى حد تصوره بانه قادر على تغيير الاوضاع السياسية في العراق واضعاف نظامه الثوري •

لقد كان مؤشر العلاقات العراقية ــ الايرانية خلال تلك المرحلة يتصاعد ، والحملة على العراق تتنوع • كانت البداية حملة اعلامية ، ثم ازمة سياسية تطورت الى عمل استهدف اسقاط النظام الثوري في العراق وسار هذا العمل باطارين :

اولا ــ تصدير مؤامرة سنة ١٩٧٠ لانهاء حكم حزب البعث العربي الاشتراكي للاطمئنان الى توجيه حركة المستقبل بما يخدم المخططات الفارسية، في ظل غياب دور الحزب وابتعاد العراق عن واجباته القومية •

ثانيا ــ ان فشل مؤامرة سنة ١٩٧٠ لانهاء حكم الحزب ، آكد ان اعتماد الاساليب التقليدية في التآمر غير كاف في التصدي للثورة • وهو الامر الذي جعل الطغمة الفارسية واسيادها من الامبرياليين تعمد الى فتح الصفحة الثانية في سجل التآمر المعد للعراق • ولهذا عمدت الى اسلوب الصدام العسكري المباشر تحت غطاء الجيب العميل في شمال الوطن •• ولقد بلغ الوضع العسكري في العراق حداً خطيرا حين قام الشاه باشراك قواته العسكرية مرات عديدة في قتال مباشر ضد القوات العراقية في جبهات متعددة من اجل اسناد الموقف العسكري للجيب العميل • « ولقد امتدت المعركة مع الجيب العميل اثنى عشر شهراً بين آذار ١٩٧٤ وآذار ١٩٧٥ والتي دفع بها العراق اكثر من ستين الف اصابة بين شهيد وجريح فيها ١٦ــ١٧ الف

اصابة من القوات المسلحة فقط • ورغم استبسال جيشنا في قتاله ضد العملاء ، وضد من يساندهم من الصهاينة والاميركان والسلطات الايرانية ، وبرغم ما كان يتمتع به من معنويات عالية ، لم يكن بالمستطاع تجاهل المستلزمات المادية والموضوعية في المعركة • فهذه المستلزمات تبقى مهمة وحاسمة في بعض الاحيان في تحديد الكثير من النتائج السياسية والعسكرية ، وكانت المشكلة الاساسية في معركة العراق مع الجيب العميل ، هي استمرار تدفق الاسلحة والاعتدة والتجهيزات غير المحدودة التي كان يضعها النظام الايراني تحت تصرف الزمرة المتمردة نيابة عن الامبريالية والصهيونية • وكان الهدف من الدعم الايراني الحاق الهزيمة بالجيش العراقي ، او جعله عاجزاً عن مواجهة التمرد عندما تنفد ذخيرته وتقل تجهيزاته ، وبذلك يمكن تنفيذ المؤامرة الامبريالية ــ الصهيونية في تجزئة العراق واضعافه وانهاء دوره القومي • وقد بلغ الامر درجة خطيرة فعلا ، عندما بدأت ، كما يقول السيد الرئيس القائد صدام حسين ، تجهيزاتنا وذخائرنا الاساسية تتناقص على وجه خطير ، وبخاصة من الاسلحة الحاسمة والاكثر تأثيرا • فلقد اوشك عتاد المدفعية الثقيلة على الانتهاء • ولم يبق من القنابل الثقيلة في سلاح الطيران سوى ثلاث قنابل ••• وقد اخفينا حقيقة النقص الفادح في عتادنا الحربي في حينها ، وابقيت هذه المعلومات في اطار محدود جدا على صعيد القيادة ، لكي لا يتعرف الاعداء على هذا السر ويتمادوا في مؤامراتهم وعدوانهم ، ولكي لا تضعف معنويات قواتنا التي كانت تقاتل ببسالة وشرف ، بما تيسر لها من الاسلحة الاخرى • ولكن هذه الحقيقة ، كان لها انعكاس مهم على صناعة قرارنا السياسي في الصراع مع ايران »(*) •

هذا ، ومن جهة اخرى بلغ الامر درجة اكبر من الخطورة فعلا بالنسبة

(*) انظر النص الكامل لخطاب السيد الرئيس القائد صدام حسين في الجلسة الاستثنائية للمجلس الوطني في جريدة الثورة ، ١٨ ايلول ١٩٨٠ •

لطاقة العراق بعد ان فوجيء بحرب تشرين الاول ١٩٧٣ والتي كان لابد للعراق من المشاركة فيها انسجاما مع موقعه ومسؤولياته القومية • لذلك اصدر مجلس قيادة الثورة في السابع من تشرين الاول ١٩٧٣ بيانا يؤكد فيه استعداد العراق لحل المشاكل مع ايران بالطرق السلمية • ثم ارسل قواته الضاربة الى سورية •

وخلال الفترة ذاتها حدث لقاء بين الوفدين العراقي والايراني في جنيف • وكان هذا اللقاء بحد ذاته مثالا على حسن نية المفاوض العراقي الذي قدم مشروعين يهدفان الى تسوية النزاع • الا ان ذلك لم يسفر عن نتيجة بعد تستر المفاوض الايراني بالمماطلة والتسويف والتهرب • هذا فضلا عن ان ايران لم تتوقف عن ممارسة الضغط على العراق • ففي سنة ١٩٧٤ قامت بعدوان مسلح على بعض المناطق الحدودية العراقية في وسط وجنوب العراق• لذلك قدم العراق مذكرة خطية في يوم ١٢ شباط ١٩٧٤ الى الامم المتحدة للنظر في الاعتداءات الايرانية على العراق وسيادته في اراضيه ومياهه • وقد اتخذ مجلس الامن في ٢٨ شباط ١٩٧٤ توصية طلب فيها من السكرتير العام للامم المتحدة متابعة النزاع وتعيين ممثل شخصي له ليقوم بزيارة المنطقة وتقديم تقريره عن المشكلة •

قام السيد (ويكمان مونيوز) السفير المكسيكي بهذه المهمة ، فزار بغداد وطهران خلال شهري آذار ونيسان ١٩٧٤ • وفي ١٦ ايار ١٩٧٤ قدم تقريره الى السكرتير العام للامم المتحدة مرفقا بالخرائط وبعض الحقائق عن حوادث الحدود، وبعد عرض التقرير المذكور على مجلس الامن ، اصدر قراره المرقم ٣٤٨ في ٢٨ ايار ١٩٧٤ ويتضمن ما يلي :

١ – ان يلتزم كل من الطرفين بقرار ايقاف اطلاق النار الذي اتخذه مجلس الامن في السابع من آذار سنة ١٩٧٤ •

٢ – ان يلتزم كل من الطرفين بسحب قواته العسكرية المتمركزة على طول الحدود ، بموجب تنظيم يتفق عليه الطرفان •

٣ – ان يلتزم كل من الطرفين بتهيئة جو مناسب للبدء في المفاوضات وذلك بالامتناع كلية عن القيام باية اعمال عدوانية •

٤ – ان يلتزم كل من الطرفين بالاستئناف المبكر ، وبدون اية شروط مسبقة، لعلاقاتهما من اجل تحديد مكان ومستوى المفاوضات المباشرة من اجل تسوية جميع القضايا المتنازع عليها •

لذلك استؤنفت المفاوضات بين الجانبين العراقي والايراني وتم عقد اجتماع في اسطنبول للفترة من ١٢–١٨ آب ١٩٧٤ لتبادل الآراء والتحضير لعقد اجتماعات بين ممثلي الحكومتين • وفي ١٦ تشرين الاول ١٩٧٤ اجتمع وزيرا خارجية العراق وايران في نيويورك واتفقا على استئناف مباحثاتهما في المستقبل القريب •

اتفاقية ١٩٧٥ وظروفها

وفي سنة ١٩٧٥ بادر الرئيس الجزائري الراحل هواري بومدين ، بالاتصال مع العراق وايران ، مقترحا التفاوض المباشر بينهما في الجزائر حول القضايا المختلف عليها • ووافق العراق على تلك المبادرة تلبية منه لانقاذ أمن العراق ووحدته الوطنية • وعلى هذا الاساس اتخذت قيادة الحزب والثورة قرار بقبول التفاوض مع ايران واعتبار خط الثالوك ، خط حدود في شط العرب ، مقابل تراجع ايران عن الاراضي العراقية التي اغتصبتها في عهود سابقة ومنها منطقتي زين القوس وسيف سعد ، والامتناع كذلك عن تقديم المعونات العسكرية وغيرها من المعونات للزمرة المرتدة في شمال الوطن •

وعلى هذا الاساس تم التفاوض مع ايران • وقد تكللت المفاوضات

بعقد اتفاقية ٦ آذار ١٩٧٥ في الجزائر التي مثلت تسوية ، يتوازن فيها الجانب السياسي مع الجانب القانوني بصورة تجعل المساس باى عنصر من عناصرها اخلالا بذلك التوازن وسببا لسقوطها .

تضمنت اتفاقية الجزائر ما يلي :

اولا ـ اجراء تخطيط نهائي للحدود البرية بين العراق وايران بناءاً على بروتوكول استانبول لسنة ١٩١٣ ومحاضر لجنة تحديد الحدود لسنة ١٩١٤ المنشأة على اساس البروتوكول ذاته .

ثانيا ـ تحديد الحدود النهرية حسب خط الثالوك .

ثالثا ـ بناء على هذا سيعيد الطرفان الامن والثقة المتبادلة على طول حدودهما المشتركة ويلتزمان من ثم على اجراء رقابة مشددة وفعالة على حدودهما المشتركة وذلك من أجل وضع حد نهائي لكل التسللات ذات الطابع التخريبي من حيث اتت .

رابعا ـ كما اتفق الطرفان على اعتبار هذه الترتيبات المشار اليها اعلاه كعناصر لا تتجزأ لحل شامل ، وبالتالي فان اي مساس باحدى مقوماتها يتنافى بطبيعة الحال مع روح اتفاق الجزائر .

وقرر الطرفان اعادة الروابط التقليدية لحسن الجوار والصداقة ، وذلك بازالة العوامل السلبية لعلاقاتهما وتبادل وجهات النظر بشكل مستمر حول المسائل ذات المصلحة المشتركة وتنمية التعاون المتبادل . ويعلن الطرفان رسميا ان المنطقة يجب ان تكون في مأمن من اي تدخل خارجي .

لقد أبرمت اتفاقية الجزائر في ظروف سياسية وعسكرية وقومية معينة ، كانت تستدعي التوقيع عليها . لذا شكلت ، من حيث النتائج ممارسة مشروعة للمرونة السياسية في التعامل الدولي ، وعبرت ، في المحصلة النهائية

عن نصر واضح لصالح النتائج . وهي تؤشر الاقتدار القيادي للثورة في التعامل مع الظروف المحيطة ، دون ان تقوده الى اعطاء لخسائر كانت توحي ان تحليل المعطيات التي كانت وراء المبررات في التوقيع على الاتفاقية لاتشكل معطيات ثابتة عند « تغير الظروف » او عند « اخلال الطرف الآخر » بأي بند من شأنه المساس بسيادة العراق . ويلقي الرئيس القائد صدام حسين ضوءاً على اتفاقية الجزائر موضحا روحها قائلا : « لقد كانت اتفاقية آذار بنت ظروفها ، وقد فهمها شعبنا ، واعتبرها في اطار تلك الظروف ، انتصارا عظيما ، واستقبلها بفرح عظيم ، لانه أدرك مغزاها بالنسبة لوحدة الوطن ومستقبله وقدر ظروفها الموضوعية »(*) .

جرت بعد اتفاقية ١٩٧٥ مفاوضات واتصالات عديدة من أجل وضع بنودها موضع التطبيق وبخاصة تلك التي تتعلق بتخطيط الحدود ، وتثبيت الدعائم الحدودية والشؤون الاخرى ذات الطابع الفني . وقد تم توقيع البروتوكولات الاساسية الثلاثة المستندة على الاتفاقية وهي :

١ ـ بروتوكول تحديد الحدود النهرية .

٢ ـ بروتوكول اعادة تخطيط الحدود .

٣ ـ بروتوكول الامن على الحدود .

لقد حققت ايران مكسبا مباشرا بمجرد دخول الاتفاقية حيز التطبيق . اذ صار وضعها في شط العرب بمثابة الشريك في السيادة على الجزء الاكبر منه ، استنادا الى اعادة تحديد الحدود فيه على اساس قاعدة التالفيك . وفي مقابل ذلك وافقت ايران على التخلي عن الاراضي المتجاوز عليها ، وايقاف

(*) انظر نص خطاب السيد الرئيس القائد صدام حسين في الجلسة الاستثنائية للمجلس الوطني في جريدة الثورة ١٨ ايلول ١٩٨٠ .

الدعم للتمرد الانفصالي الذي كان يقوده العميل البارزاني . لكن اجراءات تسليم الاراضي تعطلت فيما بعد بسبب الظروف الصعبة التي بات يعيشها نظام الشاه بين سنتي ١٩٧٨ و ١٩٧٩ .

مرحلة ما بين ١٩٧٩ – ١٩٨٠

رحب العراق بالنظام الجديد الذي سيطر على السلطة واعلن الجمهورية، واسقط نظام الشاه في ١١ شباط ١٩٧٩ . وقد تم ارسال البرقيات والمذكرات والرسائل الى المسؤولين الايرانيين وفي مقدمتهم (الخميني) ، وجميعها تعكس الرغبة والنية الصادقة في اقامة صلات ودية وعلاقات تعاون بين البلدين خاصة ، وان القيادة في العراق ، لم تتصرف ، بعد توقيع اتفاقية ١٩٧٥ ، بما يسيء الى المعارضة الايرانية للشاه ، بل عاملتها بالاحترام ، وقدمت لها ما يمكن ان تقدم من مستلزمات الضيافة التي لا تتسبب في الحاق الضرر بالعلاقة مع الحكومة الايرانية(*) .

لقد كان واقع الحال يشير الى ان الجهود المخلصة التي بذلها العراق كانت تقابل بنوايا معاكسة لا تريد الحفاظ على الاسس التي من شأنها ان

(*) في ٥ نيسان ١٩٧٩ وجه رئيس جمهورية العراق الى الخميني برقية تهنئة بمناسبة اعلان الجمهورية الاسلامية ، وقد اعرب فيها عن الامل في ان يوفر النظام الجمهوري الجديد فرصا افضل لخدمة الشعوب الايرانية الصديقة من شانها ان تعزز دور ايران في خدمة السلم والعدل في العالم، وان تؤدي الى اقامة اقوى علاقات الصداقة مع البلدان العربية عموما والعراق بصفة خاصة .

وجاء الرد من الخميني من طريقين ، الاول وزارة الخارجية ، والاخر نشرته وكالة انباء « پارس » وبعض الصحف بين ١٩ و ٢١ نيسان ١٩٧٩ ويعرب الرد عن موقف مختلف تماما وبلهجة عدائية وبلغة غير لائقة (انظر خطاب الدكتور سعدون حمادي وزير الخارجية في مجلس الامن الدولي ١٥ تشرين الاول ١٩٨٠ في « النزاع العراقي الايراني » وزارة الخارجية ، ص ص ٥٤ – ٥٥) .

تسمح للبلدين باقامة علاقات طيبة ومثمرة ، بل اكثر من ذلك ، فقد شهدت العلاقات تصرفا مقصودا من جانب السلطة الجديدة في ايران استهدف تصديع وكسر الروابط القائمة بين البلدين ، وتأزيم الموقف بشكل خطير(*) .

ومع هذا وبالرغم من الموقف المؤسف للقيادة الايرانية الجديدة ، فقد واصل العراق تذكير ايران بالتزاماتها المنصوص عليها في معاهدة ١٩٧٥ حتى ١٧ أيلول ١٩٨٠ ، وطلب رسميا الى ايران في ٢٧ حزيران ١٩٧٩ ، ان تبلغ العراق بموقفها بشأن اتفاقية ١٩٧٥ ، ولم يحصل العراق على أي رد . وسرعان ما تابعت القوى العنصرية الجديدة الفارسية وعلى رأسها (الخميني) مسلسل الحقد على العروبة وقاعدتها العراق . ولقد اتخذ هذا المسلسل انماطا جديدة ، واخذ يعبر عن مواقفه بحالات اخرى بهدف الوصول الى « الاحلام الفارسية » في الوطن العربي تحت غطاء جديد وهو « تصدير الثورة الاسلامية » . ومن ذلك الاستمرار في اغتصاب الاراضي العراقية التي استولى عليها الجانب الايراني خلافا للاتفاقات الدولية والمتمثلة في مناطق سيف سعد وزين القوس وغيرهما من المناطق الحدودية ، هذا فضلا عن تمسك النظام الايراني الجديد بالجزر العربية الثلاث . وفوق هذا وذاك السياسية العنصرية الشوفينية ازاء العرب في الاحواز (عربستان) التي سيطرت عليها ايران منذ ٢٠ نيسان ١٩٢٥ .

« لقد تطورت الاوضاع في ايران بصورة سريعة منذ سنة ١٩٧٨ ، في نفس الوقت الذي كانت فيه الامة العربية ، وفي طليعتها العراق ، تخوض معركة دقيقة وحساسة ضد اتفاقات كامب ديفيد ، وسياسة السادات

(*) راجع خطاب د . سعدون حمادي في الدورة ٣٥ للجمعية العامة في ٢ تشرين الاول ١٩٨٠ في « النزاع العراقي – الايراني » ص ٦٤ .

الاستسلامية . وكان جل اهتمامنا (كما يقول السيد الرئيس القائد صدام حسين) ينصب على هذه المعركة القومية المصيرية ، لذلك لم يكن مطلوبا منا ، في ذلك الوقت ان نعرض معركتنا القومية الى اية تهديدات اضافية »(*) .

ويضيف السيد الرئيس الى ذلك قوله : « لقد وقفنا ، منذ البداية ، موقفا ايجابيا ومتوازنا من الاحداث في ايران ، وباركنا للشعوب الايرانية مطامحها نحو الحرية ، واكدنا بمواقف معلنة ، ومن خلال الاتصالات المباشرة مع المسؤولين الايرانيين الجدد ، بان العراق يحرص على اقامة علاقات تعاون وحسن جوار مع ايران ، انطلاقا من أواصر التاريخ المشترك بين الشعوب الاسلامية ، وعلى اساس الاحترام المتبادل ، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية . وقد فعلنا ذلك في وقت مبكر . وقبل ان تتكشف حقيقة الاوضاع في ايران للآخرين . غير ان هذا الموقف المخلص لم يجابه من قبل المسؤولين في ايران الا بمواقف العداء والعنصرية المقيتة ومواقف الغرور الاجوف . لقد اسفر النظام الايراني عن نوايا العداء للامة العربية وحركتها الثورية المناضلة . كما اكد اطماعه في الارض العربية والنوايا التوسعية في منطقة الخليج العربي . ان هذه المواقف النابعة من العنصرية والحقد والتخلف قد جلبت الكوارث على ايران ، فغرق النظام الجديد في بحر من المشاكل وفي حمامات الدم ، وفي التناقضات والصراعات الداخلية وصار يشن حروب الابادة على الشعوب الايرانية الطامحة الى الحرية والمساواة »(**) . وختم السيد الرئيس حديثه بالقول :

(*) صدام حسين : نخدم المباديء ونصون الامانة ، بغداد ١٩٨٠ ، ص ٣٣ .

(**) صدام حسين ، عقيدتنا ولدت في ضمير الامة وتراثها العريق ، (بغداد ، ١٩٨٠) ، ص ص ٣٤ — ٣٦ .

« ان الحاكمين في ايران يتحملون المسؤولية الكاملة عن تردي علاقاتهم مع الامة العربية »(*) .

تردت العلاقات بين العراق وايران ، بعد أن أصر النظام الجديد في ايران على توجيه الامور صوب مواقف معقدة للغاية . وقد تمثل ذلك في سلسلة طويلة من المواقف ، ومنها التصريحات العديدة المتلاحقة عن عدم الالتزام باتفاقية ١٩٧٥ . وكذلك دعم ونشر فئات وشراذم متفرقة ومحاولة اظهارها بانها قوى سياسية وليست مجموعات مرتبطة بدولة اجنبية مثل « جماعة الدعوة » و « منظمة العمل » و « جماعة مناضلي العراق الدينيين » و « المستضعفين العراقيين » .

كما واصلت اجهزة الاعلام الايرانية ترويج اخبار كاذبة ، والدعوة الى جمع التبرعات لجماعات خرافية تسمى « الثوار المسلمين والثورة الاسلامية في العراق » . وكان واضحا ، انها تمارس عملية تأليب للشعوب الايرانية ضد العراق ، وانها تطرح مسألة تخريب البناء القومي للمجتمع العراقي ، وتخريب تراثه الديني والقومي باثارة النعرات الطائفية وتغليبها على الولاء للوطن والامة .

ثم جاءت مرحلة التصريحات(**) التي اظهرت حقد الزمرة الحاكمة في ايران على العراق والامة العربية . فالخميني يقول ان الجيش الايراني سوف يزحف الى بغداد ويطيح بالحكومة هناك ، وابو الحسن بني صدر رئيس الجمهورية الاسبق يردد اللهجة ذاتها داعيا الى « الاطاحة بالحكومة البعثية في العراق » اما صادق قطب زادة وزير الخارجية الاسبق فقد صرح قائلا : « بان ايران ستقدم

(*) المصدر نفسه ، ص٣٦ .

(**) راجع بعض تلك التصريحات في كتاب اصدرته وزارة الخارجية العراقية بعنوان : النزاع العراقي الايراني في القانون الدولي (١٩٨١) .

جميع المساعدات اللازمة الى الحركات الثورية التقدمية العراقية !! » • وكل هذه التصريحات وغيرها من امثال ان العراق بلد فارسي وان على ايران « مساندة الشعب العراقي » الذى يعاني من القمع والاضطهاد « تحت نظام الحكم الاجرامي في العراق » توضح ، بدون شك ، الطبيعة العدوانية للنظام الفارسي • ولم يكتف هذا النظام بذلك بل استدعى قادة التمرد في شمال العراق من الولايات المتحدة الى ايران لكي يتخذوها منطلقا لتهديد أمن العراق ووحدته الوطنية •

لقد شهدت المرحلة منذ مجيء خميني ولغاية ايلول ١٩٨٠ سلسلة من من التحرشات والاعتداءات لنظام طهران وقم • ولكنها لم تتخذ صفة الحرب وكان العراق يحاول ان يحل المشاكل التي حدثت بالطرق الدبلوماسية وحسب القوانين الدولية وبالسكوت عن بعضها في الكثير من الاحيان في حين كان الجانب الايراني مستمرا في تحرشاته واعتداءاته معبرا بذلك عن هدف اساسي من اهداف تسلم خميني للسلطة قبل الحرب بعام ونصف • وهو ما اصطلح على تسميته بعبارة (تصدير الثورة) كغطاء للتوسع على حساب العراق والاقطار العربية في الخليج العربي •

وكمثل على الاعتداءات والتحرشات الايرانية قام سلاح الطيران الايراني بخرق الاجواء العراقية (٣٤٩) مرة • وبلغ عدد حوادث اطلاق النار على المخافر الحدودية العراقية والهجوم عليها والقصف المدفعي وعرقلة الملاحة في شط العرب وقصف الاهداف المدنية ما مجموعه (٢٤٤) حادثا • كما اطلقت النار على الطائرات المدنية ثلاث مرات ، واجبرت احداها من قبل الطائرات الايرانية على الهبوط داخل ايران وذلك خلال شهر آب ١٩٨٠ • وقامت القوات الايرانية بقصف المنشآت الاقتصادية (٧) مرات للفترة من كانون الثاني ١٩٨٠ لغاية أيلول ١٩٨٠ • ومن ضمن هذه المنشآت الاقتصادية منشآت نفطية •

وفي كل هذه الحوادث والتحرشات كان العراق يحاول بمذكرات رسمية بلغ عددها (٢٩٣) مذكرة رسمية تنبيه السلطات الايرانية بالتراجع عن ذلك والانصياع الى الحكمة والقانون(*) •

ومن بين الاعتداءات الايرانية على الحدود العراقية في هذه الفترة كان هناك :

(١٦٣) اعتداءاً برياً ، تعرضت خلاله :

المخافر الحدودية الى (٨٥) اعتداء
زرباطية (١١) اعتداءاً
مندلي (٧) اعتداءات
خانقين (٩) اعتداءات
قوراتو (١١) اعتداءاً
جوار كلاو (١٨) اعتداءاً
المناطق النفطية (٩) اعتداءات

اما الاعتداءات والاختراقات الجوية على الاراضي العراقية في هذه الفترة فقد بلغت (٨٧) اعتداءاً ، فقد تعرضت :

المخافر الحدودية الى (١٩) اعتداءاً
البصرة (١٤) اعتداءاً
خانقين (٨) اعتداءات
جوارته (٩) اعتداءات
مندلي (٤) اعتداءات
ميسان (٩) اعتداءات

(*) راجع نصوصها في كتاب وزارة الخارجية العراقية بعنوان : النزاع العراقي الايراني – ملف وثائقي – (١٩٨١) •

واسط	(٤) اعتداءات
زرباطية	(٣) اعتداءات
علي الغربي	(٣) اعتداءات

كما تعرضت المناطق النفطية العراقية الى (١١) اعتداءاً كالآتي :

النفط خانه	(٤) اعتداءات
مصفى الوند	(٤) اعتداءات
حقول النفط الحدودية	اعتداء واحد
منشآت نفطية	اعتداءان

هذا وقد قام النظام الايراني بتصعيد تلك الاعتداءات في ١٩٨٠/٩/٤ وهو اليوم الذي بدأت فيه الحرب . عندما استخدمت القوات الايرانية المدفعية الثقيلة عيار (١٧٥) ملم الامريكية لقصف مدن العراق الآمنة . حيث تم قصف مدن خانقين ومندلي وزرباطية ومنطقة مصفى الوند ونفط خانه . وتسبب هذا القصف باضرار بالغة بالارواح والممتلكات.

ومنذ يوم ١٩٨٠/٩/٤ كانت التحشدات الايرانية تقف على طول الحدود . ولم يعد من شك في ان الحرب قد بدأت فعلا وانه لا سبيل امام العراق الا الدفاع عن ارضه وشعبه .

طلب العراق مراراً من ايران اخلاء الاراضي العراقية المتجاوز عليها منذ سنوات عديدة وقبل اتفاقية ١٩٧٥ . وبدلا من ان تستجيب ايران لهذه الدعوة فقد عززت قواتها فيها واستخدمتها ، كما سبق ان قدمنا ، كمواقع للعدوان . لذلك ، فقد قامت القوات المسلحة العراقية في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم السابع من ايلول ١٩٨٠ بعملية عسكرية سريعة وشجاعة لتحرير تلك الاراضي وتمكنت من استعادة سربنت وبير علي وزين القوس والشكرة. اما في قاطع سيف سعد ، فقد شرعت القوات المسلحة في الساعة السادسة من

صباح يوم العاشر من ايلول ١٩٨٠ بتحريره واستعادة مخفري هيله وماي خضر ، واستمرت بالتقدم حتى وصلت خط الحدود الدولي وبتاريخ ١٦ ايلول حررت مخافر الطاووس والرشيدة والسفرية القديم والجديد في قاطع سيف سعد . وفي الساعة العاشرة من يوم السابع عشر من ايلول باشرت القوات العراقية بالتقدم نحو مخفري شور شيرين وهنجيرة في قاطع مندلي ، وتمكنت من رفع العلم العراقي عليها .

ازاء التمادي الايراني في الانتهاكات لاتفاقية ١٩٧٥ ، بل والاصرار عليه من خلال مانوهت الاوساط الرسمية الايرانية من ان الاتفاقية المذكورة مشبوهة ولا تحقق مصلحة ايران ، فقد ثبت لدى الحكومة العراقية بان الحكومة الايرانية قد انتهكت عناصر التسوية الشاملة التي تضمنتها اتفاقية ١٩٧٥ بالغائها من جانبها ، ولذلك قرر مجلس قيادة الثورة يوم السابع عشر من ايلول ١٩٨٠ « اعتبار تلك الاتفاقية ملغاة ، واعادة السيادة الكاملة من الناحية القانونية والفعلية على شط العرب والتصرف وفقا لذلك وعلى هذا الاساس » وذلك « لاخلال الحكومة الايرانية بالاتفاقية والبروتوكولات الملحقة بها نصاً وروحا ، ... من خلال عدم احترامها لعلاقات حسن الجوار وتدخلها السافر والمتعمد في شؤون العراق الداخلية وامتناعها عن اعادة الاراضي العراقية المغتصبة والتي جرى الاتفاق على اعادتها الى السيادة العراقية الكاملة بموجب الاتفاقية المذكورة الامر الذي يدل على ان الجانب الايراني يعتبر اتفاقية آذار ١٩٧٥ في حكم المنتهية »(*) .

لقد دعا السيد الرئيس حكام ايران الى الاستفادة من دروس الايام القليلة الواقعة بين ٨–١٦ ايلول ١٩٨٠ حين انتزع الجيش العراقي المخافر الحدودية انتزاع الرجال الشجعان المؤمنين . كما دعاهم الى الاستجابة

(*) خالد العزي : الاطماع الفارسية في المنطقة العربية ، الملحق رقم (٢) ، ص ص ٩٠ – ٩١ .

لصوت الحق والعقل الداعي الى الحفاظ على علاقات حسن الجوار مع العراق والامة العربية ، والتخلي عن كل شبر اغتصبوه من العراق والامة العربية وبذلك يتجنب البلدان احتمالات المواجهة الاوسع • غير ان الايام التالية شهدت نشاطا عسكريا ايرانيا اضطرت معه الحكومة العراقية الى استدعاء القائم بالاعمال الايراني وتسليمه في ١٨ ايلول ١٩٨٠ مذكرة تفصيلية وضحت النقاط التالية :

اولا — ان مراقبتنا للتصرف الايراني وردود فعله قد كونت استنتاجات متعددة وفي المقدمة منها ان القيادة الايرانية بسبب الارتباك الحاصل في ايران ، وعدم انتظام الدولة ومعلوماتها ، قد لا تكون على علم واطلاع بان ايران متجاوزة على الاراضي العراقية فعلا • خلافا للقانون الدولي والاتفاقيات الموقعة بين البلدين ومنها اتفاقية الجزائر لسنة ١٩٧٥ • فاذا كان الامر كذلك فاننا ننصح القيادة الايرانية بان تسأل اجهزتها المسؤولة عن الحدود والاتفاقات لكي يتأكد كلامنا هذا ولكي يكون بعد ذلك تصرفا قائماً على اساس المعرفة وليس الوهم •

ثانيا — ان تدرك القيادة الايرانية ان ضرب المدن الآهلة بالسكان المدنيين ، كما فعلت بقصف قضاءي خانقين ومندلي ليس من الامور الهينة ، ولا هو من لعب العنف التي يتسلى بها المسؤولون الايرانيون احيانا داخل ايران • ان ضرب المدن العراقية يعد امراً خطيراً ينبغي ان تتجنبه ايران اذا كانت لا تريد للعلاقات بين البلدين ان تتدهور على نحو خطير ، وان حكام ايران وحدهم يتحملون امام الله والشعوب الايرانية والرأى العام العالمي مسؤولية عملهم العدواني هـذا •

ثالثا — ليس للعراق اية اطماع في الاراضي الايرانية •

لـم يلق العراق اي رد ، ولم تتعظ الطغمة الفارسية بما حدث لهـا من

هزيمة امام قوات العراق المسلحة وهي تدمر مراكز العدوان وتستعيد الاراضي العراقية التي استولى عليها الجانب الايراني خلافا للاتفاقات الدولية، فاستمرت في غيها وعتها لتصعد عملياتها العسكرية وتصل بها الى مستوى الحرب الشاملة • حيث بدأت ايران اعتبارا من ١٩ ايلول ١٩٨٠ بقصف المناطق الآهلة بالسكان ، والمنشآت الاقتصادية الحيوية في العراق ، والسفن العراقية والاجنبية في شط العرب والموانيء الملاحية في ذلك النهر ومقترباته في الخليج العربي • كما اعلنت عن غلق مجالها الجوي بوجه الطيران المدني وغلق مضيق هرمز بوجه الملاحة العراقية • واعلنت الحكومة الايرانية النفير العام ، وحشدت بصورة مكثفة قواتها العسكرية على طول خط الحدود • وبدأت بعمليات عسكرية واسعة النطاق •• واصدرت القيادة العسكرية في ايران أربعة بيانات عسكرية بخصوص عملياتها للفترة الواقعة بين ١٨ و ١٩ أيلول ١٩٨٠ وذكرت في بيانها الرابع الصادر في ١٩ أيلول ان قواتها اشعلت النار في حقل نفط خانه النفطي في العراق •

وحين بلغ السيل الزبى ، اصدرت قيادة الحرب والثورة في العراق اوامرها الى القوات المسلحة لتوجيه ضربات رادعة الى الاهداف العسكرية الايرانية لاحباط مخططات النظام الايراني النيل من سيادة العراق على ارضه ومياهه الوطنية وبدأت القوات المسلحة العراقية في الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم ٢٢ أيلول ١٩٨٠ بتوجيه ضربة جوية مركزة على الاهداف العسكرية للعدو في عمق الاراضي الايرانية وشملت مطارات الرضائية وسندج وشاه اباد والاحواز وقواعد تبريز والاميدية وبوشهر ومهرواد في طهران وقاعدة اصفهان وقاعدة شيراز • ولم تقتصر مهام القوات الجوية على تنفيذ الضربة الجوية المركزة فحسب ، وانما تجاوزتها حيث شملت عمليات الاسناد الارضي للقطعات العسكرية ومعالجة مدفعية ودروع العدو بالتعاون مع طيران الجيش بكل

كفاءة واقتدار • وكان لزاما على القوات المسلحة العراقية ان تصل الى مراكز حيوية داخل ايران لارغام الحكام فيها على الاقرار بالحقوق القومية •

ومع تقدم جحافل القادسية الثانية قادسية صدام بدأت الطغمة الفارسية تذوق طعم الهزيمة ساعة اثر ساعة فاخذت فلولهم تولي الادبار ومدنهم تتساقط الواحدة تلو الاخرى • وبين ٤ ايلول ١٩٨٠ و ٥ تشرين الاول ١٩٨٠ استطاع الجيش العراقي الوقوف على الاهداف المركزية التي حددتها القيادة السياسية• وقد حدد السيد نائب القائد العام للقوات المسلحة وزير الدفاع الفريق الاول الركن عدنان خيرالله الموقف العسكري العراقي في مؤتمر صحفي عقده يوم ٥ تشرين الاول ١٩٨٠ بقوله :

« ان موقف قطعاتنا على وجه التحديد هو كالآتي : في قاطع قصر شيرين، نحن دخلنا قصر شيرين والآن تقف قطعاتنا في مضيق (باي طاق) وايضاً مدينة (كيلان) تحت سيطرة القوات المسلحة العراقية وكذلك قضاء (سومار) المقابل لقضاء مندلي العراقي • وفي القاطع الذي يليه فان القوات المسلحة العراقية موجودة في قضاء (مهران) • وفي القاطع الجنوبي بقسميه الشمالي والجنوبي، فان قطعاتنا الآن تقف على ارض (دزه فول) حيث تطوق الجانب القريب من المدينة • وفي عرفنا العسكري فان المدينة تعتبر ساقطة لانها تحت مرمى قواتنا المسلحة كذلك تقف قطعاتنا على ارض (الاحواز) التي هي عاصمة المحافظة • ولنا وجود الآن في المحمرة • ومن هذا يتضح ان للعراق وجودا عسكريا في منطقة قصر شيرين شمالا وعلى امتداد خط الحدود وصولا الى المحمرة • وبذلك نكون قد وصلنا الى الاهداف المركزية التي كلف بها الجيش ضمن توجيه القيادة السياسية • ومن المؤكد فاننا لا ننوي الوصول الى طهران ... »(*) •

(*) انظر وقائع هذا المؤتمر في كتاب جريدة الجمهورية ، فصول من قادسية صدام ، ج ١ ، ١٩٨٠ ، ص ص ١٠٦ — ١١٠ •

لقد استجاب العراق بشكل بناء لجميع الجهود التى بذلت لايقاف القتال والتوصل الى تسوية عادلة ومشرفة للنزاع العراقي الايراني • فمنذ اليوم الاول للنزاع عرض العراق السلام على ايران ، واستعداده الكامل للانسحاب من الاراضي الايرانية واقامة علاقات طبيعية مع ايران على اساس احترام السيادة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية ، لكن ايران رفضت الجهود العراقية من اجل السلام • كما وافق العراق على قرار مجلس الامن رقم ٤٧٩ في ٢٨ ايلول ١٩٨٠ لوقف القتال • واعلن من جانبه وقفا لاطلاق النار من ٥ ولغاية ٨ تشرين الاول ١٩٨٠ استجابة لطلب الرئيس الباكستاني محمد ضياء الحق الذي يقوم بمساع حميدة بصفته رئيسا للمؤتمر الاسلامي في ذلك الوقت • ورحب العراق بجهود الرئيس الكوبي الدكتور فيدل كاسترو بصفته رئيسا لحركة البلدان غير المنحازة وسعيه للتوصل الى تسوية للنزاع• وقبل العراق قرار مؤتمر القمة الثالث للمؤتمر الاسلامي المنعقد بالسعودية في كانون الثاني ١٩٨١ • ولمناسبة العدوان الصهيوني على لبنان دعت لجنة السلام الاسلامية العراق وايران في ٩ حزيران ١٩٨١ الى وقف القتال فورا ووافق العراق ورفضت ايران وفي ٢٠ حزيران اعلن العراق انه لا يؤمن بالحرب ، ولا يؤيد استخدام القوة في العلاقات الدولية ، لذلك فانه قد اكمل سحب قواته العسكرية الى الحدود الدولية « من اجل ازالة اي عائق حتى ولو كان مجرد تصور امام طريق السلام •• وتلبية لنداء الواجب القومي •• عندما غزت القوات الصهيونية اراضي لبنان ، وتعرضت الثورة الفلسطينية الى اخطار كبيرة جدا •• » وقد تحدث السيد الرئيس صدام حسين عن ذلك في تموز ١٩٨٢ قائلا « بأننا ونحن ننسحب من داخل ايران خدمة لقضية السلام وتجسيدا للمبادىء التي نؤمن بها ، واسهاما منا في المسؤلية القومية لايمكن ان نتوهم في ادراك نوايا حكام طهران •• واننا سنبقى مستعدين ، كامل الاستعداد ، للتصدي لهذه النوايا العدوانية والتوسعية » • ويضيف السيد

الرئيس الى ذلك قوله : « كان هناك بين الاشقاء والاصدقاء من ينصح بانسحاب قواتنا من الاراضي الايرانية من اجل توفير فرص للسلام بين البلدين ••• ولقد كان بعض الانظمة العربية التي وقفت الى جانب ايران ضد العراق يقول للوسطاء ••• انه لن يقف مكتوف الايدي اذا ما حاولت ايران اجتياز حدود العراق •• وانه انما يقف الى جانب ايران لان العراق قد دخل اراضيها ، وخلال عام كامل بعد حزيران ١٩٨٢ ، جدد نظام طهران الاعلان مرات عديدة وعلى لسان مسؤوليه بانه ينوي اجتياز حدود العراق •• واحتلال مدن العراق •• واسقاط نظام العراق •• وقد حاول ان يفعل ذلك مرات ومرات •• في معارك شرق البصرة الباسلة وشرق مندلي •• وشرق ميسان •• وقد فشل ••• ولكن كل هذا لم يغير من مواقف اولئك الذين وقفوا الى جانب ايران ضد العراق ، بل انهم لم يغيروا موقفهم حتى عندما غزا الكيان الصهيوني ارض لبنان وهدد اراضيهم بالذات •• وهكذا تكشفت حقيقة مواقفهم وادعاءاتهم وعلى اوسع نطاق » •

ان صمود العراق ونجاحه في صد العدوان الايراني على ارضه ومياهه حتى اليوم لم يكن ، كما يقول السيد الرئيس القائد ، « وليد المصادفة او الحظ •• وانما كان حصيلة البناء الشامل على كل الاصعدة السوقية •• سواء في بناء الجيش وتهيئته للصمود والقتال •• ام في تعبئة الشعب وتوفير كل عوامل الصمود •• والنجاح » •

المصادر والمراجع

القسم الاول ـ العصور القديمة

(الفصول ١ و ٢ و ٣ و ٤)

١ ـ **ابن الأثير (عز الدين) :**
الكامل في التاريخ ، دار صادر ـ بيروت ، ١٩٦٥ . المجلد الاول .

٢ ـ **الدينوري (ابو حنيفة ٢٨٢هـ) :**
الأخبار الطوال . الطبعة الأولى ـ القاهرة ـ ١٩٦٠ .

٣ ـ **الثعالبي (ابو منصور ٣٥٠ ـ ٤٢٩هـ) :**
تاريخ غرر السير .

٤ ـ **الطبري** (ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ٢٢٤ ـ ٣١٠هـ) :
تاريخ الرسل والملوك . دار المعارف بمصر ـ طبعة ثانية . الجزء الثاني .

٥ ـ **آرثر كريستنسن :**
ايران في عهد الساسانيين . ترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة ـ ١٩٥٧ .

٦ ـ **د . جواد علي :**
المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام . طبعة اولى ـ بيروت / بغداد ١٩٦٩
الجزءان الثاني والثالث .

٧ ـ **د . فاضل عبدالواحد علي :** « الاكديون طلائع على الجبهة الشرقية »
مجلة آفاق عربية . العددان ٣ـ٤ / ١٩٨٠ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٩ .

٨ ـ **د . فاضل عبدالواحد علي :** « وثيقة النصر للملك نبوخذ نصر الاول »
تاريخ العرب العسكري : المؤتمر العلمي الأول لجمعية المؤرخين والآثاريين
في العراق . بابل وبغداد ٢٢ ـ ٢٦ ايلول ١٩٨١ .

٩ ـ **د . فاضل عبدالواحد علي :** « اقدم حرب للتحرير عرفها التاريخ » مجلة
سومر ، العدد ٣٠ / ١٩٧٤ ص ٤٧ ـ ٥٧ .

١٠ـ طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة . بغداد / ١٩٧٣ .

١١ـ طه باقر ود . فوزي رشيد ورضا جواد الهاشمي :
تاريخ ايران القديم . منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي بغداد ـ ١٩٨٠ .

١٢ـ د . سامي سعيد الأحمد ورضا جواد الهاشمي :
تاريخ الشرق الادنى القديم ـ ايران والاناضول ، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ـ بغداد .

١٣ـ د . سامي سعيد الاحمد :
العراق القديم . الجزء الأول ـ بغداد ١٩٧٨ الجزء الثاني ـ بغداد ـ ١٩٨٣ .

١٤ـ د . فاروق ناصر الراوي : « الوثائق المسمارية شواهد على انتصاراتنا في عيلام » مجلة بين النهرين . العددان ٣٤ ـ ٣٥ (١٩٨١) .

١٥ـ د . فاروق ناصر الراوي : « معارك النصر : سجلاتها في المكتبات المسمارية » تاريخ العرب العسكري : المؤتمر العلمي الأول لجمعية المؤرخين والآثاريين في العراق . بغداد وبابل ٢٢ ـ ٢٦ ايلول ١٩٨١ .

١٦ـ رضا جواد الهاشمي :
المدخل لآثار الخليج العربي .
(منشورات مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة ـ ٣٦) مطبعة الأرشاد ـ بغداد ١٩٨٠ .

Ahmed, S., Southern Mesopotamia in the time of Ashurbanipal (The Hague - Paris, 1968).

Calmeyer P., "Mesopotamien und Iran im 2 und 1 Jahrtausand", **MSN**, 1, pp. 339-349.

Cameron G. G., **History of Early Iran**, University of Chicago Press, 1936.

Contenau G., **Everyday Life in Babylon and Assyria**, Arnold, London, 1954.

Edzard D. O., **Die 'zweite-Zwischenzeit' Babyloniens**, Harrassowitz, Wiesbaden, 1957.

Edzard D. O., **Répertoire Géographique des Textes Cunéiformes**, Band 1, 1977, und Band 2, 1974.

Tales F. M., "The Enemy in Assyrian Royal Inscriptions:' The Moral Judgement' ", **MSN**, 2, pp. 425-435.

Ghirshman, R. : IRAN. Penguin Books, 1961.

Grayson A.K., **Assyrian Royal Inscriptions**, Harrassowitz, Wiesbaden, 1972-1976.

Grayson A.K., "The Empire of Sargon of Akkad", **Archiv für Orientforschung**, Band 25, 1974-77, pp. 56-64.

Grayson A.K., **Assyrian and Babylonian Chronicles**, J.J. Angustin Publisher. Locust Vally, New York, 1975.

Grayson A.K., "Assyria's Foreign Policy in Relation to Elam in the Eighth and Seventh Centuries B. C.", A paper Delivered at the Third International Symposium on Mjor Archaeological Projects in Babylon, Ashur, Haditha and Himrin, Baghdad, November, 1981.

Hinz W., **The Lost world of Elam, Recreation of a Vanished Civilization**, Translated by J. Barnes, New York, 1973.

Herodotus : History of the Persian war.

Jacobsen Th., **The Sumerian King List**, Assyriological Studies, 2, University of Chicago Press, 1939.

King L. W., **Babylonian Boundary-Stones and Memorial-Tablets in the British Museum**, Oxford University Press, London, 1912.

Kramer S. N. **The Sumerians, Their History, Culture and Character**, The University of Chicago Press, 1963.

Luckenbill D. D., **Ancient Records of Assyria and Babylonia**, Greenwood Press, Publishers, New York, 1968.

Nissen H. J. and Renger J., **Mesopotamien und Seine Nachbarn, Politische und Kulturelle.**

Olmstead, A. T., History of the Persian Empire. Chicago, 1948.

Renger, J., **Wechselbeziehungen im Alten Vorderasien vom 4. bis 1 Jahrtausend v. chr.** Dietrich Reimer Verlag. Berlin, 2 vols., 1982. **(MSN)**

Postgate J. N., "The Historical Geography of the Hamrin Basin", **Sumer**, Vol. 35, pp. 591-594.

Potts D., "The Zagros Frontier and the Problem of Relations Between the Iranian Plateau and Southern Mesopotamia in the Third Millennium B. C.", **MSN,** 1, pp. 33-55.

Pritchard J. B., **Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament,** Princeton University Press, 1955.

Roux G., **Ancient Iraq,** A Pelican Book, Great Britain, 1972.

Saggs H. W. F., **The Greatness that was Babylon,** Sidgwick and Jackson, London, 1966.

Saggs H. W. F., "Assyrian Warfare in the Sargonid Period", **IRAQ,** 25, 1963, pp. 145-154.

Stolper M. W. "On the Dynasty of Šimaški and the Early Sukkalmaḫs", **ZA,** 72, 1982, pp. 42-67.

Sykes, Sir Percy : A history of Persia - vol. I, 3rd. Ed. London, 1963.

Van-Dijk J., "Fremdsprachige Beschwarungstexte in der sudmesopotamischen Literarischen Uberlieferung", **MSN,** 1, pp. 97-110.

Waterman, Levoy : Assyrian Royal Correspondence Vol. 1-2 Mich. 1931-23.

Wiseman : Chronicles of Chaldean Kings (London 1956)

Wiseman D. J., **Peoples of Old Testament Times,** Oxford University Press, 1973.

Wiseman D. J. "The Vassal Treaties of Esarhaddon," **IRAQ,** Vol. 20, part 1, 1958.

Zaccagnini C., "The Enemy in the Neo-Assyrian Royal Inscriptions: The 'Ethnographic' Description", **MSN,** 2, pp. 409-424.

القسم الثاني
عصر الاسلام والخلافة العربية

(الفصلان الاول والثاني)

١ ــ **القــرآن الكــريم .**

٢ ــ **ابن الأثير :** ابو الحسن عز الدين علي بن ابي الكرم (ت ٦٣٠هـ)
الكامل في التاريخ ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٨م .

٣ ــ **ابن أعثم الكوفي :** ابو محمد احمد (ت ٣١٤هـ)
كتاب الفتوح ، طبعة الهند سنة ١٩٦٨م .

٤ ــ **بروكلمان : كارل**
تاريخ الشعوب الاسلامية ، طبعة بيروت ١٩٤٨م .

٥ ــ **اليسوي :** ابو يوسف يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧هـ) .
المعرفة والتاريخ تحقيق د . اكرم العمري بغداد سنة ١٩٧٤م .

٦ ــ **البغدادي :** عبدالقادر بن طاهر (ت ٤٢٠هـ)
الفرق بين الفرق ، طبعة مصر سنة ١٣٢٨هـ .

٧ ــ **ابن بكار :** الزبير (ت ٢٥٦هـ)
الاخبار الموفقيات تحقيق د . سامي مكي بغداد سنة ١٩٧٢ .

٨ ــ **البلاذري :** احمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ) .
فتوح البلدان نشره د . صلاح الدين المنجد طبعة مصر ١٩٥٧م .

٩ ــ **الجاحظ :** ابو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)
١ ــ كتاب الحيوان تحقيق عبدالسلام هارون طبعة القاهرة ١٩٣٨ .
٢ ــ البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ١٩٤٩ .
٣ ــ رسائل الجاحظ .

١٠ــ **الجهشياري :** ابو عبدالله محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ)
الوزراء والكتاب تحقيق مصطفى السقا وجماعته ، مصر ١٩٣٨ .

١١_ **ابن حزم** : ابو محمد علي بن حزم الاندلسي (ت ٤٥٦هـ)

١ _ كتاب الفصل في الملل والاهواء والنحل وبهامشه كتاب الملل للشهرستاني .

٢ _ جمهرة انساب العرب تحقيق عبدالسلام هارون طبعة مصر ١٩٧١م

١٢_ **ابن خياط** : ابو عمر خليفة (ت ٢٤٠هـ)

تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق اكرم العمري ، بغداد ١٩٦٧ .

١٣_ **الدوري** : د . عبدالعزيز

الجذور التاريخية للشعوبية ، طبعة بيروت ١٩٨٠

١٤_ **الدينوري** : احمد بن داود (ت ٢٨٢هـ)

الاخبار الطوال ، مطبعة السعادة ، مصر ١٣٣٠هـ .

١٥_ **الذهبي** : شمس الدين محمد بن احمد (ت ٧٤٨هـ)

١ _ تاريخ الاسلام ، طبعة القاهرة ١٣٦٧هـ .

٢ _ العبر في خبر من غبر تحقيق د. صلاح الدين المنجد . الكويت ١٩٦٠

٣ _ دول الاسلام ، طبعة الهند ١٣٦٤هـ .

١٦_ **السيوطي** : جلال الدين عبدالرحمان (ت ٩١١هـ)

تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين ، طبعة القاهرة ١٩٦٤م .

١٧_ **الشريف المرتضى** : ابو القاسم بن الطاهر (ت ٤٣٦هـ)

الامالي ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٤م .

١٨_ **الطبري** : ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)

تاريخ الرسل والملوك تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم مصر ١٩٦٦م .

١٩_ **ابن الطقطقي** : محمد بن علي بن طباطبا

الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٢م .

٢٠_ **ابن عبدربه** : ابو عمر احمد بن محمد الاندلسي (ت ٣٢٧هـ)

العقد الفريد ، الطبعة الازهرية ١٣٢١هـ .

٢١_ **ابو الفرج الاصفهاني** : علي بن الحسين بن محمد (ت ٣٥٦هـ)

الاغاني ، تصحيح احمد الشنقيطي ، مصر .

٢٢_ **فلهوزن** : يوليوس

تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الاموية ، نقله للعربية د . ابو ريدة القاهرة ١٩٥٨م .

٢٣_ **فلوتن** : فان

السيادة العربية ترجمة حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ، مصر ١٩٣٤م .

٢٤_ **ابن قتيبة** : ابو محمد عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ)

١ _ المعارف ، تحقيق د . ثروت عكاشة مصر ١٩٦٩م .

٢ _ عيون الاخبار ، طبعة القاهرة .

٢٥_ **المقدسي** : مطهر بن طاهر (ت ٣٢٢هـ)

البدء والتاريخ منسوب الى ابي زيد احمد بن سهل البلخي بغداد ١٩١٩م

٢٦_ **المقريزي** : تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ)

المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار ، مصر ١٣٢٤هـ .

٢٧_ **المسعودي** : ابو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ)

١ _ مروج الذهب ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، طبعة مصر ١٩٦٤م .

٢ _ التنبيه والاشراف ، طبعة بيروت ١٩٦٥م .

٢٨_ **ابن النديم** : محمد بن اسحق (ت ٣٨٥هـ)

الفهرست ، طبعة بيروت .

٢٩_ **النوبختي** : ابو محمد الحسن بن موسى (ت ٢٠٢هـ)

فرق الشيعة ، طبعة اسطنبول ١٩٣١م

٣٠_ **ابن هشام** : ابو محمد عبدالملك (ت ٢١٨هـ)

السيرة النبوية .

٣١_ **اليعقوبي** : احمد بن ابي يعقوب (ت ٢٩٢هـ)

تاريخ اليعقوبي : قدم له السيد محمد صادق بحر العلوم ، العراق ١٩٦٤م

عصر الاسلام والخلافة العربية

(الفصلان : الثالث والرابـــع)

١ ـ **ابن الاثير** : عز الدين ـ الكامل في التاريخ ـ دار صادر ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ .

٢ ـ **د . اسماعيل** : محمود ـ الحركات السرية في الاسلام ـ رؤية عصرية ـ بيروت .

٣ ـ **د . امين** : حسين ـ تاريخ العراق في العصر السلجوقي ١٩٦٥ .

٤ ـ **د . بدري محمد فهد** : تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير ـ بغداد ١٩٧٣ .

٥ ـ **البغدادي** : الفرق بين الفرق ـ ١٩١٠ .

٦ ـ **البلاذري** : احمد بن يحيى بن جابر ـ انساب الاشراف .

٧ ـ **جابر** : عبدالعال محمد ـ حركات الشيعة المفرطين واثرهم في الحياة الاجتماعية والادبية ـ القاهرة ١٩٥٤ .

٨ ـ **الجاحظ** : ابو عمر بحر : ا ـ رسائل . القاهرة ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ .
ب ـ البيان والتبيين ـ القاهرة ١٩٦٠ .

٩ ـ **الجهشياري** : محمد بن عبدوس ـ كتاب الوزراء والكتاب ـ القاهرة ١٩٣٨ .

١٠ـ **ابن الجوزي** : عبدالرحمن ـ المنتظم في تاريخ الملوك والامم .

١١ـ **د . حجاب** : محمد نبيه ـ مظاهر الشعوبية في الادب العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ١٩٦٠ .

١٢ـ **ابن حزم** : الفصل في الملل والاهواء والنحل .

١٣ـ **الخطيب البغدادي** : احمد بن علي ـ تاريخ بغداد ـ القاهرة ١٩٣١ .

١٤ـ **ابن خلدون** : عبدالرحمن ـ العبر وديوان المبتدا والخبر ، بولاق ١٢٨٤هـ

١٥ـ **الدوري** : عبدالعزيز : ا ـ العصر العباسي الاول ـ بغداد ـ ١٩٤٤ .
ب ـ دراسات في العصور العباسية المتاخرة ١٩٤٥
جـ ـ الجذور التاريخية للشعوبية ـ بيروت ١٩٦١ .
د ـ مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ١٩٦٦ .

١٦ـ **الذهبي** : شمس الدين ـ تاريخ الاسلام .

١٧ـ **الراوندي** : محمد بن علي ـ راحة الصدور وآية السرور ـ ترجمة : ابراهيم امين الشواربي .

١٨ـ **ابن الساعي** : علي بن انجب ـ الجامع المختصر ـ بغداد ١٩٣٤ .

١٩ـ **سبط بن الجوزي** : يوسف ـ مرآة الزمان .

٢٠ـ **د . سلوم** : عبدالله ـ الشعوبية حركة مضادة للاسلام والامة العربية ١٩٨١ .

٢١ـ **شعبان** : محمد عبدالحي محمد : ا ـ الثورة العباسية . دار الدراسات الخليجية . د . ت .
ب ـ الدولة العباسية ـ بيروت ١٩٨١

٢٢ـ **الشهرستاني** : الملل والنحل ـ القاهرة .

٢٣ـ **الصابي** : هلال بن المحسن ـ رسوم دار الخلافة ـ بغداد ١٩٦٤ .

٢٤ـ **الصولي** : محمد بن يحيى ـ الاوراق ، القاهرة ١٩٣٤ .

٢٥ـ **الطبري** : محمد بن جرير ـ تاريخ الرسل والملوك .

٢٦ـ **ابن الطقطقي** : محمد بن علي ـ الفخري في الاداب السلطانية ـ القاهرة .

٢٧ـ **د . فوزي** : فاروق عمر ـ العباسيون الاوائل ـ بيروت ١٩٧١ .

٢٨ـ **ابن الفوطي** : الحوادث الجامعة ـ بغداد ١٩٣٤ .

٢٩ـ **ابن قتيبة** : عبدالله بن مسلم ـ المعارف .

٣٠ـ **د . قدورة** : زاهية ـ الشعوبية واثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الاسلامية في العصر العباسي الاول ـ بيروت ١٩٧٢ .

٣١ـ **ابن كثير** : اسماعيل بن عمر ـ البداية والنهاية ـ القاهرة .

٣٢ـ **المسعودي** : علي بن الحسين ا ـ التنبيه والاشراف ، القاهرة ١٩٣٨ .
ب ـ مروج الذهب ، القاهرة ١٩٥٨ .

٣٣ـ **مسكويه** : احمد بن محمد ـ تجارب الامم .

٣٤ـ **اليعقوبي** : احمد بن ابي يعقوب ـ التاريخ .

القسم الثالث ـ عصر الغزاة

(الفصل الأول)

١ ـ **ابن بطوطة** ، محمد ابن ابراهيم :
رحلة ابن بطوطة (بيروت ١٩٦٤) .

٢ ـ **ابن تغري بردي** ، جمال الدين ابو المحاسن يوسف :
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب) .

٣ ـ **ابن حجر العسقلاني** ، احمد بن علي :
انباء الغمر بابناء العمر (القاهرة ١٩٦٩ ـ ١٩٧٢) .

٤ ـ **ابن خلدون** ، عبدالرحمن بن محمد :
العبر وديوان المبتدا والخبر (بيروت ١٩٤٩ ـ ١٩٦١) .

٥ ـ **ابن الطقطقي** ، محمد بن علي بن طباطبا :
الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية (بيروت ١٩٦٦) .

٦ ـ **ابن عربشاه** ، شهاب الدين احمد بن محمد :
عجائب المقدور في اخبار تيمور (لاهور ١٨٦٨) .

٧ ـ **ابن عنبة الحسني** ، احمد بن علي :
عمدة الطالب في انساب آل ابي طالب (النجف ١٩٦١) .

٨ ـ **ابن الفوطي** ، عبدالرزاق بن احمد :
تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب (دمشق ١٩٦٥) .

٩ ـ ———— (منسوب له) :
الحوادث الجامعة (بغداد ١٣٥١) .

١٠ـ **ابن كثير القرشي** ، عماد الدين ابو الفدا اسماعيل :
البداية والنهاية في التاريخ (مصر ١٣٥٨) .

١١ـ **ابو الفدا** ، عماد الدين اسماعيل بن علي :
المختصر في اخبار البشر (دار الكتاب اللبناني ـ بيروت) .

١٢ـ **بدر** ، مصطفى طه :
مغول ايران بين المسيحية والاسلام (القاهرة) .

١٣ـ **الجابري** ، محمد هليل :
امارة المشعشعين ، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث (غير منشورة) (بغداد ١٩٧٣) .

١٤ـ **حافظ ابرو** ، عبدالله بن لطف الله :
ذيل جامع التواريخ رشيدي (بالفارسية) (طهران ١٣١٧) .

١٥ـ **حسين** ، جاسم مهاوي :
تاريخ الغزو التيموري للعراق والشام ، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث (غير منشورة) (بغداد ١٩٧٦) .

١٦ـ **خصباك** ، جعفر :
العراق في عهد المغول الايلخانيين (بغداد ١٩٦٨) .

١٧ـ **خليل** ، نوري عبدالحميد :
العراق في العهد الجلائري ، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث (غير منشورة) (بغداد ١٩٧٦) .

١٨ـ **خليل ، نوري عبدالحميد** :
صور من المقاومة العربية للسيطرة الاجنبية في العراق ، مجلة دراسات للاجيال ، (كانون الاول ١٩٨١) .

١٩ـ **رشيد الدين** ، فضل الله الهمداني :
جامع التواريخ تعريب محمد صادق نشأت وآخرين (القاهرة ١٩٦٠) .

٢٠ـ **الشبيبي** ، محمد رضا :
مؤرخ العراق ابن الفوطي (بغداد ١٩٥٨) .

٢١ـ **الشيبي** ، مصطفى كامل :
الفكر الشيعي والنزعات الصوفية (بغداد ١٩٦٦) .

٢٢ـ **الصياد** ، فؤاد عبدالمعطي :
المغول في التاريخ (بيروت ١٩٧٠) .

٢٣ـ ———
مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمداني (القاهرة ١٩٦٧) .

٢٤ـ **العزاوي** ، عباس :
تاريخ العراق بين احتلالين (بغداد ١٩٣٥ ـ ١٩٣٩) .

٢٥ـ **الغياثي** ، عبدالله بن فتح الله :
التاريخ الغياثي (تحقيق طارق نافع الحمداني) (بغداد ١٩٧٥) .

٢٦ـ **القزاز** ، محمد صالح :
الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية (النجف ١٩٧٠) .

٢٧ـ **المقريزي** ، احمد بن علي :
السلوك لمعرفة دول الملوك (القاهرة ١٩٤١ ـ ١٩٧٢) .

٢٨ـ **مير خواند** ، مير محمد بن سيد برهان الدين :
تاريخ روضة الصفا (بالفارسية) (طهران ١٣٣٧) .

٢٩ـ Howorth, Henery H.,
History of the Mongols from the 9th to the 19th Century (New York)

٣٠ـ Malcolm, J.
The History of Persia (London 1829)

عصـر الغـزاة

(الفصل الثاني)

اولا : الوثائق

1- Hurewitz, J. C. : Diplomacy in the Near and Middle East, 2 vols, (New York, 1956).

2- Lorimer, J.G. : Gazetter of the (Persian) Gulf, Oman, and Central Arabia, 2 Vols, (Calcutta, 1915).

3- Saldanha, J.A. : Selection from State Papers, Bombay, Regarding the East India Company's Connection with the (Persian) Gulf, with a Summary of Events, 1600-1800, (Calcutta, 1908).

٤ ـ معاهدات عمومية مجموعة سي ، استانبول ١٢٩٤ .

٥ ـ مجموعة معاهدات دولت عليه ايران بادول خارجه ، طهران ١٣٢٦ .

ثانيا : المخطوطات

١ ـ ابن سند ، عثمان : مطالع السعود بطيب اخبار الوالي داود .
مخطوطة في مكتبة الاوقاف ببغداد تحت رقم (٣٢٠) .

٢ ـ ابن سند، عثمان : واقعات العجم .
مخطوط في مكتبة المجمع العلمي العراقي تحت رقم (١٤٩/م) .

٣ ـ السويدي : عبدالرحمن : حديقة الزوراء في سيرة الوزراء .
مخطوط في مكتبة المجمع العلمي العراقي تحت رقم (٤١١/م) .

ثالثا : المصادر التركية

١ ـ الحلبي ، مصطفى نعيما : تاريخ نعيما ، جـ٣ ، استانبول ١٢٨١ .

٢ ـ راسم ، احمد : رسملي وخريطه لي عثمانلي تاريخي ، جـ٢ ، استانبول ١٣٣١ .

٣ ـ كاتب جلبي ، مصطفى عبدالله : فذلكة كاتب جلبي ، جـ ٢ ، استانبول ١٢٨٥ .

٤ ـ محمد ، كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ، جـ٢ ، استانبول ١٣٢٧ .

رابعا : المصادر الفارسية

١ ـ استرابادي ، ميرزا مهدي خان : جهانكشاى نادري ، تهران ١٣٣١ .

٢ ـ استرابادي ، ميرزا مهدي خان : دره نادره ، تهران ١٣٤١ .

٣ ـ قدوسي ، محمد حسين : نادر نامه ، خراسان ١٣٣٩ .

خامسا : المصادر العربية والمعربة

١ ـ بروكلمان ، كارل : تاريخ الشعوب الاسلامية ، خمسة اجزاء ، ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكي ، ط ١ ، بيروت ١٩٤٩ .

٢ ـ بيريبي ، جان جاك : الخليج العربي ، تعريب نجدة هاجر وسعيد الغز ، بيروت ١٩٥٩ .

٣ ـ حبيب ، مهدي جواد ، الصراع العثماني الفارسي حتى اواخر القرن التاسع عشر ، فصل من كتاب الحدود الشرقية للوطن العربي ، اصدار جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق ، بغداد ١٩٨١ .

٤ ـ الخياط ، جعفر : صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة ، الجزء الاول ، بيروت ١٩٧١ .

٥ ـ الداود ، محمود علي : التطور السياسي الحديث لقضية عمان ، القاهرة ١٩٦٤ .

٦ ـ الراوي ، جابر : الحدود الدولية ومشكلة الحدود العراقية الايرانية ، القاهرة ١٩٧٠ .

٧ ـ رؤوف ، عماد عبدالسلام : الموصل في العهد العثماني ، النجف الاشرف ١٩٧٥ .

٨ ـ زكي ، محمد امين : تاريخ السليمانية وانحائها ، ترجمه عن الكردية محمد جميل بندي الروزبياني ، بغداد ١٩٥١ .

٩ ـ السالمي ، نور الدين عبدالله بن حميد : تحفة الاعيان بسيرة اهل عمان ، القاهرة ١٩٦١ .

١٠ـ صائغ ، سليمان : تاريخ الموصل ، الجزء الاول ، القاهرة ١٩٢٣ .

١١ـ الضابط ، شاكر صابر : العلاقات الدولية ومعاهدات الحدود بين العراق وايران ، بغداد ١٩٦٦ .

١٢ـ العابد ، صالح : دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧ ـ ١٨٢٠ ، بغداد ١٩٧٦ .

١٣ـ العزاوي ، عباس : تاريخ العراق بين احتلالين ، جـ٤ ، بغداد ١٩٤٩ .

١٤ـ العمري ، ياسين : منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء ، تحقيق سعيد الديوجي ، الموصل ١٩٥١ .

١٥ـ العمري ، ياسين : زبدة الآثار الجلية في الحوادث الارضية ، تحقيق عماد عبدالسلام رؤوف ، النجف ١٩٧٤ .

١٦ـ العمري ، محمد امين : منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء ، تحقيق سعيد الديوجي ، جزءان ، الموصل ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨ .

١٧ـ فائق ، سليمان : تاريخ المنتفق ، ترجمة محمد خلوصي الناصري ، بغداد ١٩٦١ .

١٨ـ فريد بك ، محمد : تاريخ الدولة العثمانية ، القاهرة ١٨٩٦ .

١٩ـ الكركوكلي ، رسول : دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء ، ترجمة موسى كاظم نورس ، بيروت ١٩٦٣ .

٢٠ـ كوك ، ريجارد : بغداد مدينة السلام ، ج ٢ ، ترجمة مصطفى جواد وفؤاد جميل ، بغداد ١٩٦٧ .

٢١ـ لونكريك ، ستيفن هيمسلي : اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر الخياط ، ط ٤ ، بغداد ١٩٦٨ .

٢٢ـ محمد امين ، عبدالامير : القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر ، بغداد ١٩٦٦ .

٢٣ـ المنشيء البغدادي ، محمد بن احمد الحسيني : رحلة المنشيء البغدادي ، ترجمة عباس العزاوي ، بغداد ١٩٤٨ .

٢٤ـ نوار ، عبدالعزيز : تاريخ الشعوب الاسلامية ، جـ ١ ، بيروت ١٩٧٣ .

٢٥ـ نورس ، علاء موسى كاظم : العراق في العهد العثماني ، بغداد ١٩٧٩ .

٢٦ـ نورس ، علاء موسى كاظم ، السياسة الايرانية في الخليج العربي ابان عهد كريم خان ١٧٥٧ ـ ١٧٧٩ ، اصدارات معهد البحوث والدراسات العربية ببغداد ، ١٩٨٣ .

٢٧ـ نيبور ، كارستن . رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمة محمود الامين ، بغداد ١٩٦٥ .

٢٨ـ القهواتي ، حسين محمد : العراق بين الاحتلالين العثماني الاول والثاني ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد ١٩٧٥ .

٢٩ـ ولسون ، ارنولد : الخليج العربي ، ترجمة عبدالقادر يوسف ، الكويت ١٩٧٠ .

٣٠ـ لانزا ، دومينيكو : الموصل في القرن الثامن عشر ، مذكرات عربها عن النص الإيطالي القس روفائيل بيداويد ، الموصل ١٩٥٣ .

سادسا : الدوريات

١ ـ الجواهري ، عماد احمد : « العراق والتوسع الصفوي » ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد العشرون ، الكويت ١٩٧٩ .

٢ ـ رؤوف ، عماد عبدالسلام : « صمود البصرة اثناء حصار نادر شاه سنة ١٧٤٣م » ، مجلة كلية التربية ، العدد الاول ، بغداد ١٩٧٨ .

٣ ـ صائغيان ، ديرنرسيس : « صفحة منسية من تاريخ نادر شاه » ، مجلة لغة العرب ، الجزء الخامس ، السنة السابعة ، بغداد ١٩٢٩ .

سابعا : المصادر الاوربية

1- Capper, James. : Observations on the passage to India, through Egypt, and a Cross the great desert, (London, 1783).

2- Creasy, Edward S. : History of the Ottoman Turks, (London, 1878).

3- Fraser, James. : The History of Nadir Shah, (London, 1742).

4- Hammer, Joseph V. : Histoire de L'Empire Ottoman, Vol. XIV, (14), (Paris, 1839).

5- Malcolm, John. : The History of Persia from the most Earley period to the present Time, 2 Vols, (London, 1815).

6- Miles, Samuel B. : The Cuontries and Tribes of the Persian Gulf, (London, 1966).

7- Parsons, A. : Travels in Asia and Africa, (London, 1808).

8- Shay, Mary L. : The Ottoman Empire from 1720 to 1734, (Urbana, 1944).

9- Sqkes, Percy. : A History of Percia, 2 Vols, (London, 1969).

عصر الغزاة

(الفصل الثالث)

ا ـ الوثائق غير المنشورة

دفاتر الطابو العثمانية المحفوظة في استانبول

Basvekalet Arsiv Dairesi

دفتر رقم ١٠٧٥ (نسخة مصورة منه في مكتبة الدراسات العليا ببغداد برقم ١٢٥٧) .

ب ـ الوثائق المنشورة :

١ ـ درويش باشا : تقرير رسمي قدمه سنة ١٨٥٣ بصفته رئيسا للجنة تحديد الحدود الايرانية ـ العثمانية . وطبع في استانبول سنة ١٣٢١هـ ، ترجمة وزارة الخارجية العراقية (بغداد ١٩٥٣) .

٢ ـ معاهدات عمومية مجموعة سي (استانبول ١٢٩٤هـ) .

٣ ـ مجموعة محاضر جلسات قومسيون تحديد الحدود التركية الفارسية للسنة ١٩١٣ ـ ١٩١٤ (مطبعة الحكومة ، بغداد ١٩٥٥)

ج ـ المصادر التركية :

١ ـ ادرنه لي محمد شوكت : مفصل ممالك عثماني جغرافيا سي (استانبول ١٣٠٤هـ) .

٢ ـ اوليا جلبي ، محمد ظلي : اوليا جلبي سياحتنامه سي (استانبول ١٣١٤هـ) .

٣ ـ جودت ، احمد : تاريخ جودت (استانبول ١٣٠٢هـ) .

٤ ـ حسين : اطلس بغلي ايران (استانبول ١٩٢٦) .

٥ ـ راسم ، احمد : عثمانلي تاريخي (استانبول ١٣٢٩هـ) .

٦ ـ كاتب جلبي ، مصطفى : فذلكة التواريخ (استانبول ١٢٨٥هـ) .

٧ ـ كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية (استانبول ١٣٢٧هـ) .

٨ ـ نعيما ، مصطفى : روضة الحسين في خلاصة اخبار الخافقين (استانبول ١٢٨٠هـ) .

٩ ـ هامه ر : دولت عثمانية تاريخي ، ترجمة محمد عطا (استانبول ١٣٣٥) .

Faik Resit Unat, Tarih Atlasi (Istambul ...)

د ـ المصادر الفارسية :

١٠ـ تركمان ، اسكندر : ذيل تاريخ عالم آراي عباسي (تهران ١٣١٧ هـ) .

١١ـ رازي ، عبدالله : تاريخ مفصل ايران (تهران ١٣٣٥ هـ) .

١٢ـ ميرزا احسائي : تاريخ فارسنامه (طبع حجر ـ ايران) .

هـ ـ المصادر العربية والمعربة :

١٣ـ ابن الاثير ، علي : الكامل في التاريخ (القاهرة ١٣٥٣ هـ) .

١٤ـ ابن حوقل ، محمد : المسالك والممالك ، (بيروت د.ت) .

١٥ـ ابن خرداذبة ، عبيد الله : المسالك والممالك (ليدن ١٨٨٩) .

١٦ـ ابن سند ، عثمان : مطالع السعود بطيب اخبار الوالي داود ، مختصر لامين الحلواني ، بتحقيق محب الدين الخطيب (القاهرة ١٣٧١ هـ) .

١٧ـ ابن الفقيه ، احمد : مختصر كتاب البلدان (ليدن ١٨٨٥) .

١٨ـ ابن الفوطي ، عبدالرزاق : تلخيص مجمع الاداب في معجم الاسماء والالقاب ، بتحقيق د . مصطفى جواد (دمشق ١٩٦٤) .

١٩ـ ابن قنيتو ، سنبط الاربلي : خلاصة الذهب المسبوك (بغداد،د.ت) .

٢٠ـ ابو الفداء ، الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل : تقويم البلدان باعتناء ماك ديسلان (باريس ١٨٤٠) .

٢١ـ البدليسي ، شرف الدين : شرفنامه، ترجمة محمد علي عوني (القاهرة ١٩٦٢) .

٢٢ـ البلاذري ، احمد : فتوح البلدان (القاهرة) .

٢٣ـ البندنيجي ، عيسى صفاء الدين : شرح القصيدة الرائية وتخميسها (مخطوط في مكتبة المتحف العراقي) .

٢٤ـ الجلالي ، محمد الباقر : موجز تاريخ عشائر العمارة (بغداد ، د . ت) .

٢٥ـ الحصري ، ساطع : البلاد العربية والدولة العثمانية (بيروت ١٩٦٥) .

٢٦ـ الحموي ، ياقوت : معجم البلدان (بيروت ١٥٩٧) .

٢٧ـ الحميري ، محمد بن عبدالمنعم : الروض المعطار في خبر الاقطار ، بتحقيق د . احسان عباس (بيروت) .

٢٨ـ الراوي ، جابر : الحدود الدولية ومشكلة الحدود العراقية الايرانية (بغداد ١٩٧٥) .

٢٩ـ ريج ، كلوديوس : رحلة ريج في العراق عام ١٨٢٠ ، ترجمة بهاء الدين نوري (بغداد ١٩٥١) .

٣٠ـ زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة (القاهرة ١٩٥١) .

٣١ـ السعدون ، خالدة : تحليل العوامل التي ترسم خط الحدود بين العراق وايران (رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى جامعة بغداد ١٩٧٠) .

٣٢ـ السويدي ، عبدالرحمن : تاريخ حوادث بغداد والبصرة ، بتحقيق د . عماد عبدالسلام رؤوف (بغداد ١٩٧٨) .

٣٣ـ ــــــــــــ : حديقة الزوراء في سيرة الوزراء (مخطوطة المتحف البريطاني) .

٣٤ الضابط ، شاكر صابر : العلاقات الدولية ومعاهدات الحدود بين العراق وايران (بغداد ١٩٦٦) .

٣٥ـ الطبري ، محمد بن جرير : تاريخ الرسل والملوك ، بتحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم (القاهرة ١٩٦٣) .

٣٦ـ العزاوي ، عباس : تاريخ العراق بين احتلالين (بغداد ١٩٣٥ ـ ١٩٥٦) .

٣٧ـ ــــــــــــ : الكاكائية في التاريخ (بغداد) .

٣٨ـ عماد عبدالسلام رؤوف : الموصل في العهد العثماني (النجف ١٩٧٥) .

٣٩- العمري ، ياسين : زبدة الآثار الجلية في الحوادث الارضية . بتحقيق عماد عبدالسلام رؤوف (النجف ١٩٧٥) .

٤٠- الغياث البغدادي ، عبدالله : التاريخ الغيائي ، الفصل الخامس ، بتحقيق طارق الحمداني (بغداد ١٩٧٥) .

٤١- قدامة بن جعفر : نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة . ضمن كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة (ليدن ١٨٨٩) .

٤٢- قزانجي ، رشاد : تقرير الحدود العراقية الايرانية ومياه الانهر المشتركة الحدودية ، رونيو ، مديرية الري العامة (بغداد ١٩٦٩) .

٤٣- القلقشندي ، احمد بن علي : صبح الاعشى في صناعـة الانشـا (القاهرة - دار الكتب) .

٤٤- القزويني ، زكريا : آثار البلاد واخبار العباد (بيروت - دار صادر ، د . ت) .

٤٥- الكركوكلي ، رسول حاوي : دوحة الوزراء في سيرة بغداد الزوراء ، ترجمة موسى كاظم نورس ، بيروت (د . ت) .

٤٦- ليسترنج ، كاي : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد (بغداد ١٩٥٤) .

٤٧- لونكريك : همسلي : اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر خياط (طبعة خامسة د . ت) .

٤٨- محمد امين زكي : خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ترجمة محمد علي عوني (القاهرة ١٩٦١) .

٤٩- المكرباني ، حسين حزني : موجز تاريخ امراء سوران ، ترجمة الملا عبدالكريم (بغداد ، د. ت) .

٥٠- المنشي البغدادي : رحلة المنشي البغدادي ، ترجمة عباس العزاوي (بغداد ١٩٤٨) .

٥١- الندواني ، عبدالكريم : تاريخ العمارة وعشائرها (بغداد ١٩٦١) .

٥٢- نظمي زاده ، مرتضى : كلشن خلفا ، ترجمة موسى كاظم نورس (بغداد ١٩٧١) .

٥٣- نوار ، عبدالعزيز سليمان : داود باشا والي بغداد (١٩٦٧) .

٥٤- نورس ، علاء موسى كاظم : العراق في العهد العثماني ، دراسة في العلاقات السياسية (بغداد ١٩٧٩) .

٥٥- دائرة المعارف الاسلامية . الترجمة العربية . مادة (اربل) ومادة (حلوان) .

و - الدوريـــات :

١ - جونز ، فيلكس : بغداد في سنة ١٨٥٣ ، ترجمة عبدالوهاب الامين مجلة المورد مجلد ١ و ٣ (بغداد ١٩٧٤) .

٢ - الاشعب ، خالص : مشكلة مياه مندلي ، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية مجلد ٥ (بغداد ١٩٦٥) .

ز - المصادر الاوروبيـة :

1. Pitcher, An Historical Geography of the Ottoman Empire (Leiden 1922).
2. The Times Atlas of World History (Britain 1978).
3. Sykes, E.C., Persia and its People (London 1910).

عصر الغزاة

(الفصل الرابـع)

— وثائق دار السجلات البريطانية العامة في لندن - خاصة بالحدود العراقية الايرانية .

— وثائق دار السجلات والوثائق التابعة لرئاسة مجلس الوزراء التركي باسطنبول الخاصة بالحدود الفارسية - العثمانية .

— وثائق المركز الوطني ببغداد - الخاصة بمشكلة شط العرب .

— تقرير درويش باشا عن تحديد الحدود الايرانية - العثمانية ، المقدم الى الحكومة العثمانية سنة ١٢٦٩هـ (١٨٥٢م) ترجمة وزارة الخارجية العراقية .

— وزارة الخارجية العراقية ، مجموعة محاضر جلسات قومسيون تحديد الحدود التركية ـ الفارسية ١٩١٣ ـ ١٩١٤ ـ مترجمة (بغداد ـ ١٩٤٨)

— وزارة الخارجية الايرانية ، اضواء على الحرب المفروضة على ايران (طهران ـ ١٩٨١) .

— شاكر صابر الضابط ، العلاقات الدولية ومعاهدات الحدود بين العراق وايران (بغداد ـ ١٩٦٦) .

— الدكتور عبدالعزيز سليمان نوار ، العلاقات العراقية الايرانية (القاهرة ـ ١٩٧٤) .

— الدكتور مصطفى عبدالقادر النجار ـ التاريخ السياسي لمشكلة الحدود الشرقية للوطن العربي في شط العرب (البصرة ـ ١٩٧٤) .

— مناقشة الآراء الفارسية في الحرب العراقية الايرانية كما تتصورها وزارة خارجية النظام الايراني ـ مجلة الشؤون الخارجية ـ بغداد ـ العدد الاول ـ ١٩٨٢ .

— دراسات تاريخية لمعاهدات الحدود الشرقية للوطن العربي ١٨٤٧ ـ ١٩٨٠ (بيروت ـ ١٩٨١) .

— **وزارة الخارجية العراقية** : النزاع العراقي الايراني في القانون الدولي (بغداد ـ ١٩٨١) الدفاع الشرعي في وجه العدوان .

— **الدكتور خالد العزي** : مشكلة الانهار الحدودية المشتركة بين العراق وايران (بغداد ـ ١٩٨١) .

— **وزارة الخارجية العراقية** : النزاع العراقي الايراني ـ مزاعم ايران تدحضها الحقيقة (بغداد ـ ١٩٨١) .

— **وزارة الخارجية العراقية** : النزاع العراقي الايراني ـ ملف وثائقي (بغداد ـ ١٩٨١) .

— **وزارة الخارجية العراقية** : الاعتداءات الفارسية على الحدود الشرقية للوطن العربي (بغداد ـ ١٩٨١) .

— **وزارة الخارجية العراقية** : عربستان (الارض ـ الشعب ـ السيادة) (بغداد ـ ١٩٨٠) .

القسم الرابع ـ الواقع المعاصر

(الفصل الاول)

النصوص الوثائقية :

— **وزارة الخارجية العراقية** : قضية الحدود العراقية الايرانية (بغداد ـ ١٩٣٥) .

— **وزارة الخارجية العراقية** : حقائق عن الحدود العراقية الايرانية (بغداد ـ ١٩٦٠) .

— **وثائق شط العرب** : من ارشيف المركز الوطني لحفظ الوثائق في بغداد التابع لوزارة الاعلام العراقية .

— **ميناء البصرة** ـ التقرير السنوي الذي اصدره الكولونيل وورد مدير ادارة ميناء البصرة ورئيس الملاحة العام . (بغداد ـ ١٩٣٠) .

— **شاكر صابر الضابط** ـ العلاقات الدولية ومعاهدات الحدود بين العراق وايران (بغداد ـ ١٩٦٦) .

— **حسن الراوي وابراهيم معروف** ـ مجموعة المعاهدات والاتفاقيات الثنائية المعقودة بين العراق والدول الاجنبية ج ٢ (بغداد ـ ١٩٥٧) .

المذكرات :

— **توفيق السويدي** ـ مذكراتي ـ نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية (بيروت ـ ١٩٦٩) .

— **رضا شاه** ـ مذكرات رضا شاه ترجمة علي البصري عن الفارسية ـ (بغداد ـ ١٩٥٠) .

الدراسـات :

— **الدكتور جابر ابراهيم الراوي** ـ الحدود الدولية ومشكلة الحدود العراقية ـ الايرانية (القاهرة ـ ١٩٧٠) .

— **الدكتور خالد العزي** ـ اضواء على التطور التاريخي للنزاع العراقي الفارسي حول الحدود (بغداد ـ ١٩٨١) .

— **الدكتور فلاح شاكر اسود** — الحدود العراقية الايرانية (بغداد — ١٩٧٠)

— **الدكتورة رجاء حسين حسني الخطاب** — العلاقات العراقية الفارسية (بغداد — ١٩٨١) .

— **الدكتور محمد حسين الزبيدي** — تاريخ الاعتداءات الفارسية على العراق (بغداد — ١٩٨٠) .

— **الدكتور مصطفى عبدالقادر النجار** — التاريخ السياسي لمشكلة الحدود الشرقية للوطن العربي في شط العرب (البصرة — ١٩٧٤) .

— التاريخ السياسي لامارة عربستان العربية (القاهرة — ١٩٧١) .

— التاريخ السياسي لعلاقات العراق الدولية في الخليج العربي (البصرة — ١٩٧٥) .

— دراسات تاريخية لمعاهدات الحدود الشرقية للوطن العربي (بيروت — ١٩٨١) .

الواقع المعاصر

(الفصل الثاني)

١ — **صدام حسين** : رغبتنا في السلام من موقع الاقتدار المبدئي العادل ، (بغداد ، ١٩٨١) .

٢ — **مصطفى عبدالقادر النجار** : التاريخ السياسي لمشكلة الحدود الشرقية للوطن العربي في شط العرب (البصرة ، ١٩٧٤) .

٣ — **جابر ابراهيم الراوي** : الحدود الدولية ومشكلة الحدود العراقية — الايرانية : دراسة قانونية وثائقية (بغداد ، ١٩٧٥) .

٤ — **عبدالرزاق الحسني** : تاريخ الوزارات العراقية ، الاجزاء الثالث والرابع والخامس (صيدا ، ١٩٧٥) .

٥ — **وزارة الخارجية العراقية** : قضية الحدود العراقية — الايرانية (بغداد ١٩٧٥) .

٥آ — المركز الوطني لحفظ الوثائق — بغداد ، العراق .

6- British Public Records. London, England.

7- Khadduri, Majid : Independent Iraq (Oxford, 1952).

8- Amin, Mudhaffar : **Jama'at al-Ahali It's origin, Ideology, and role in Iraqi Politics 1932-1946** Unpublished Ph. D. Thesis University of Durham 1980.

9- Library of the U.S. Congress : Washington D.C.

الواقع المعاصر

(الفصل الخامس)

(١) **صدام حسين** ، نخدم المبادىء ونصون الامانة ، (بغداد ، ١٩٨٠) .

(٢) ———— ، رغبتنا في السلام من موقع الاقتدار المبدئي العادل ، (بغداد ، ١٩٨١) .

(٣) ———— ، نقاتل نيابة عن التاريخ لكي ينهض العرب ، (بغداد ، ١٩٨١)

(٤) ———— ، ارادة الانسان العربي بعثت في العراق ، (بغداد ، ١٩٨٠)

(٥) ———— ، لسنا طلاب حرب وانما دعاة حق واصحاب رسالة ، (بغداد ، ١٩٨٠) .

(٦) ———— ، امتنا .. والمبادىء وروح النصر ، (بغداد ، ١٩٨١) .

(٧) ———— ، المؤتمرات الصحفية للرئيس القائد صدام حسين ، (بيروت ، ١٩٨١) .

(٨) **فاضل حسين** ، مشكلة شط العرب ، (القاهرة ، ١٩٧٦) .

(٩) **خالد يحيى العزي** ، مشكلة شط العرب في ظل المعاهدات والقانون ، (بغداد ، ١٩٨٠) .

(١٠) ــــــــــ ، الاطماع الفارسية في المنطقة العربية ، (بغداد ، ١٩٨١) .

(١١) **الجمهورية العراقية** ، وزارة الخارجية ، النزاع العراقي ـ الايراني مزاعم ايران تدحضها الحقيقة ، (بغداد ، ١٩٨١) .

(١٢) ــــــــــ ، حقائق حول الحدود العراقية ـ الايرانية، (بغداد ، ١٩٦٠.)

(١٣) **خالدة رشيد السعدون** ، تطور الاطماع الايرانية في شط العرب من خلال الاتفاقيات المعقودة بين العراق وايران ، (بغداد ، ١٩٨١) .

(١٤) **صباح سلمان** ، أضواء على الحرب العراقية ـ الايرانية، (بغداد ،١٩٨١)

(١٥) **طارق عزيز** ، لكي لا تختلط الاوراق وتتداخل الخنادق وتمر المؤامرة ، (بغداد ، ١٩٨٠) .

(١٦) ــــــــــ ، الصراع العراقي الايراني : اسئلة ومناقشات ، (بيروت ، ١٩٨١) .

(١٧) **محمود علي الداؤد** ، اهمية الدور الخليجي للعراق ، (بغداد ، ١٩٨٠).

(١٨) **عبدالجليل الراشد** ، العلاقات العراقية الايرانية من خلال خطب واحاديث السيد الرئيس القائد صدام حسين ، (بغداد ، ١٩٨١) .

(١٩) **جريدة الجمهورية** ، كتاب الجمهورية ، ج ١ ، فصول من قادسية صدام (بغداد ، ١٩٨٠) .

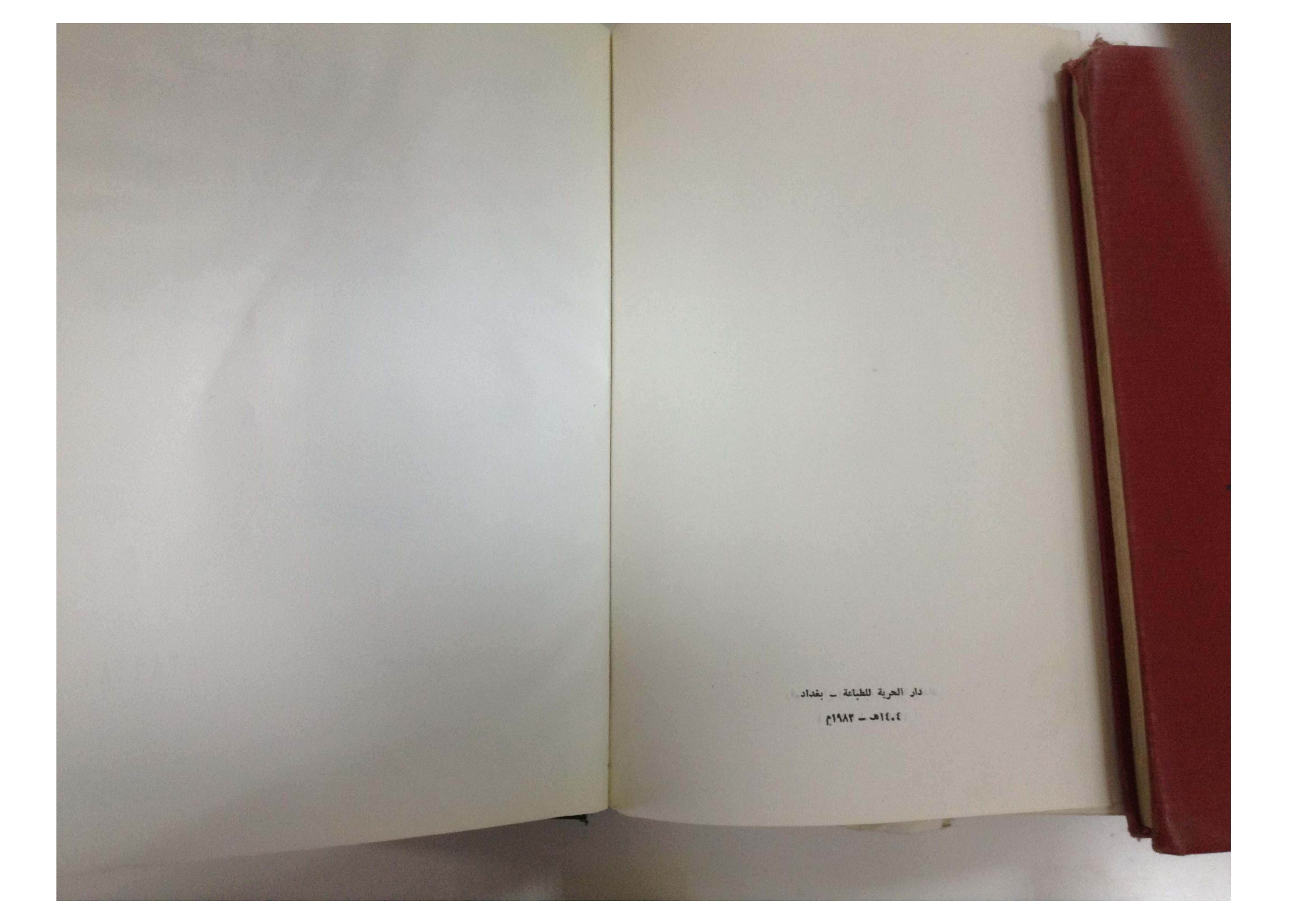
(٢٠) **جريدة الجمهورية** ، كتاب الجمهورية ، ج ٢ ، قادسية صدام : القائد والمعركة ، (بغداد ، ١٩٨١) .

(٢١) **الجامعة المستنصرية** ، المعهد العالي للدراسات القومية والاشتراكية ، ندوة ايران الحاضر والمستقبل ، مجموعة بحوث غير منشورة .

(٢٢) **كمال عبدالله الحديثي** ، ايران والنظام الجديد القديم ، (بغداد ، ١٩٨٠)

المحتوى

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
(٩٧٥) لسنة ١٩٨٤



دار الحرية للطباعة ـ بغداد
١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م


دار الحرية للطباعة ـ بغداد
السعر ثلاثة